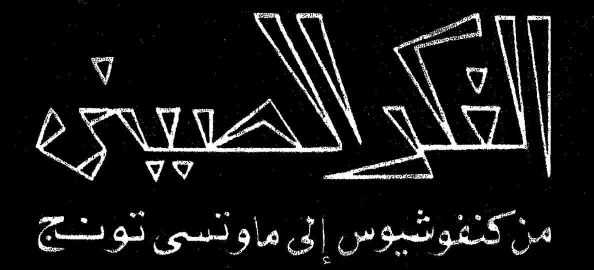

الفكر الصيني
من كنفوشيوس إلى ماوتسي تونج





من كنفوشيوس إلى ماوتسي - تونج

تأليف: هـ. ج. كريل

ترجمة: عبد الحميد سليم

مراجعة: علي أدهم



الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

CHINESE THOUGHT

from Confucious to Mao Tsê-Tung

by : H. G. Creel

The New American Library of World Literature,
Inc., 1963.

محتويات الكتاب

صفحة



مقدمة

هذا الكتاب سرد مبسط للمعالم الرئيسية لتاريخ الفكر الصينى من أقدم العصور المعروفة حتى الوقت الراهن ، وهو سرد لا أدعى أنه تاريخ كامل للفلسفة الصينية . لقد دونته ايمانا منى بأهميته لعدة أسباب ، هى أننا نحن الغربيين يجب أن نكون على علم بالفكر الصينى أفضل بكثير مما نحن على علم به ، وأن الكثيرين منا سيكتشفون أهميته البالغة اذا تعمقنا فيه مرة .

ولقد أفردت للفكر الصينى قبل العصر المسيحى مكانا لا يتناسب مع ما أوقفته لغيره ، وليس السبب فى هذا أن التطورات الأخيرة قليلة الأهمية أو قليلة الشأن ، فهى لم تكن هذا ولا ذاك ، وهى تستحق مزيدا من الدراسة الدقيقة أكثر مما لقيته . ومهما يكن من الأمر فان هذا الكتاب يتناول بصورة خاصة فكر الصينيين أنفسهم ، ويبدو أن الفكر الصينى السابق للعصر المسيحى فكر محلى فى جوهره فى حين أن ذلك الفكر الذى ظهر فى الأزمنة المتأخرة كان متأثرا تأثرا واضحا بالأفكار التى وردت من العالم الخارجى ، ومع ذلك فهناك أمر أكثر أهمية وهو أن الآراء المتطورة فى الفترة القديمة قد استمرت تلعب دورا رئيسيا حتى فى وقتنا الراهن .

واذا كنت لا أدعى أن الكتاب دراسة مستفيضة ، فهو لم يدون فى غير ما عناية أو على عجل اذ أن الكثير من مادته كان فى الأصل تجميعا لسلسلة من المحاضرات العامة ألقيتها فى جامعة شيكاغو منذ ثلاث سنوات ، وعندما استمع بعضهم الى عدد منها حثونى على

أن أنشر هذه المادة وأن أضيف اليها القليل مما يتطلب النشر ،وقد برهن الرأى الأخير على أنه خاطىء ، على الأقل ، اذ أن الاعداد لمعالجة ملخص يمكن أن يكون أمرا يستلزم جهدا أكثر مما يتطلبه التناول الكامل لأن هناك دائما هذا السؤال الملح وهو : هل اختار الانسان تلك العناصر الهامة التى تعبر تعبيرا حقيقيا عن الكل برغم اقتضابها • ولست أجترىء على أن أقول أننى قد نجحت ، ولكننى أعلم أننى قد بذلت جهدا وقمت بمحاولة •

وفى كل حالة كان فيها الأمر ميسورا (والاستثناءات لاتعدو حالة أو حالتين) كنت أضاهى فقرات مترجمة من الصينية على النص الصينى ، وفى بعض الحالات كنت أقدم ترجمات جديدة تماما ، وفى معظم الحالات كانت تختلف الى حد ما عن الترجمات السابقة ، ومع ذلك فرغبة فى اراحة القارىء ، كنت أحيله فى العادة الى الترجمات الانجليزية لهذه الأعمال حيثما كانت موجودة • وفى حالات قليلة ولأسباب خاصة ، أحلت القارىء الى الترجمة والنص الصينى •

والطريقة التى سجلت بها المذكرات والمراجع طريقة غير عادية الى حد ما • وهناك قلة قليلة من الملاحظات تضيف معلومات أو تثير بحثا حول ما يتضمنه النص ، وفى كل حالة كانت تسجل هذه المعلومات على نفس الصفحة كهوامش •

وقد ينزعج خبراء الثقافة الصينية الذين سيقرءون هذا الكتاب ــ وقد حدث أن انزعج بعضهم ممن سبق لهم قراءة المخطوط ــ لعدم ورود كثير من الأسماء الصينية التى كان من المتوقع أن تظهر فى مثل هذا المؤلف • وهى لم تحذف عرضا ، ولكنه من الصعب علينا ، نحن الذين اعتادت عيوننا على اللغة الصينية وتحسست آذاننا جرس موسيقاها أن ندرك أن صفحة واحدة منثورة فيها أسماء صينية أمر يكاد يمقته غالبية القراء الغربيين •

لذا ، رأيت أن الأجـدى من ذلك هو أن أضـمن فقط تلك الأسماء البالغة الأهمية وأن تترك الأسماء الأخرى ليلتقى بها القارىء أثناء متابعته القراءة بعد ذلك .

وفى أثناء تأليفى لهذا الكتاب أزعجت أصدقائى ازعاجا بالغا، وأنا أدين لهم بالكثيرلمساعدتهم لى ، وبرغم أن زوجتى قد لقيت عنتا كبيرا فيه ، فقد كانت دائما على استعداد لأن تقدم لى ، اذا لزم الأمر ، اقتراحا أو تمدنى بالهام جديد لادخال تعديلات على فصل قد يبـدو أنه لا أمل فيه . ولقـد قدم لى زميلى ت . هـ . تسين وزوجته عونا لا يمكن تقديره ، وقد تفضل مشكورا بكتابة عنوان الصفحة الأولى للكتاب بالحروف الصينية ؛ كما أوجه شكرى الخاص للمقترحات والنصائح والنقد الذى تقدم به كل من جورج ف . بوبرينسكوى وجون ك ، فيربانك ، وتورتون س . جنسبورج ، وكلارنس هـ . هاملتون ، وفرانسيس ل.ك هستى وتشارلز ا . هاكر ، وادوارد أ . هاكر الصغير ، والايرل هـ . بريتشـارد و ريتشارد ل . ووكر ، وفرانسيس ر . وولتون ؛ أما عن مس جون ديرك فهى لم تقم باعداد المخطوط للنشر فحسب بل كانت توجه انتباهى الى أمور قيمة غابت عن بالى .

هـ . ج . كريل

بالوس بارك ، ايلينويس .

الفصل الأول

الفكر الصيني في العالم الحديث

يروى أنه قرابة منتصف القرن التاسع عشر سئل عالم صينى هل يعتقد أن طلب العلم يتحقق بالتنقل فى البلاد خارج الصين ، فكان جوابه أن من كان على علم بالدراسات الصينية القديمة ليس به حاجة الى مزيد من العلم ٠

وهذا الجواب يضرب لنا مثلا للقناعة الذاتية وعدم الرغبة فى استطلاع العالم الخارجى ،الأمر الذى يعتقد كثير منا أنه من سمات الصين ٠ اننا نؤمن ، ونحن على صواب تام ، أن مثل هذا الوضع قد أقام عقبات خطيرة للصين فى تعاملها مع الشعوب الأخرى ، وكان سببا فى الكثير من المتاعب التى قاستها ٠

ولقد تبدل الوضع الآن ، اذ لم تعد الصين تجهل ثقافة الغرب أو لا تعيرها اهتماما ، بل أصبح الغرب لا يكاد يعرف شيئا عن الصين ولا يبذل من الجهد الا القليل للتعرف عليها ٠ ويدفع الغرب ثمن جهله وسيستمر فى دفع هذا الثمن ٠

ومن المضحك أن نظن أن مجرد الفقر المدقع الميئوس منه والذى لا نستطيع أن نفعل شيئا حياله هو السبب فى أن الصين قد صارت شيوعية ٠ وحسبنا أن نؤمن بأن الدعاية التى يبثهـــا

الاتحاد السوفيتي هي التي جعلت الصين معادية للغرب عداء مريرا .
وليست هذه الأوهام التي يبعثها الغرور مسلية فحسب بل هي صادقة الى حد ما ولكنها تخفي حقيقة أنه في الوقت الذي يتاح فيه للفقر الصيني وللدعاية الروسية أرض خصبة لنمو الشعور المعادي للغرب فان بذور هذا الشعور قد زرعتها وتعهدت نموها حماقة الغربيين في معاملة الصينيين لمدة أكثر من قرن من الزمان . واذا كان جانب من الصعوبات مرده الى الجشع والغطرسة ، فقد كان للجهل وعدم الاكتراث الدور الأكثر أهمية .

وهناك تصور خاطيء يميل اليه طراز خاص من «الخبراء» العسكريين في شئون الشرق الأقصى ، وهو القول بأن « الصيني لا يستطيع أن يحارب » . لقد عرفنا هذا الخطأ في كوريا ، وكان في استطاعتنا أن نعرف خيرا من هذا دائما لو عرفنا التاريخ الصيني لأن هذا التاريخ كان سيخبرنا أنه في الوقت الذي يستطيع فيه الجندي الصيني أن ينجو بجلده ، وينقذ الشخص القريب منه عندما لا يرى في الموت هدفا ، فانه يمكن أن يكون عدوا خطرا اذا ما آمن بالسبب الذي يحارب من أجله .

وهناك رأى آخر، بل هو أكثر الآراء انتشارا ، وهو أن الشعب الصيني فيما عدا قلة من العلماء يمثل جمهرة من الأميين وأنهم من الناحية العقلية يكادون يكونون أناسا جامدي التفكير لايعرفون شيئا ولا يأبهون بما يجرى في العالم على الاطلاق أو حتى في الصين بوجه عام . ومن المفروض أنه لا تكاد توجد بينهم قوة مثل « قوة الرأى العام » اللهم الا ما يطلب البيروقراطيون المسيطرون عليهم من الجماهير أن تفكر فيه . وتمشيا مع هذه النظرية كان يظن أنه لكى يمكن السيطرة على الصين ، فان الحكومة الأجنبية ليست في حاجة سوى التقرب من كبار المسئولين أو الى دفع رشا منتظمة

لقلة من الرجال العسكريين . ولقد كان الظن هو أن الشــعب كله يمكن تجاهله .

انه ليخجلنى ان أذكر أننى لما كنت شابا ، وقبل أن أعيش فى الصين ، كنت أشارك فى هذا الانطباع . اننى خجل منه لأننى باعتبارى دارسا للثقافة الصينية ، كان على أن أعرف خيرا من غيرى . كنت أعرف أنه قبل فجر العهد المسيحى كان بعض أبنــاء الفلاحين فى الصين يدرسون الفلسفة وأنه قد مضى أكثر من ألفى سنة منذ أن عين رئيس وزراء لامبراطورية الصين كان فى سابق عهده راعيا للخنازير ، وكان قد رئى تعيينه فى هذا المنصــب لتمكنه فى فرع من فروع الدراسات القديمة . وكنت أعرف أيضا أنه فى معظم الأوقات ، خلال الألفى سنة الماضيين ، كان الكثير من الوظائف العليا فى البلاد يملأ على أساس عقد اختبارات بمسابقات يكون دخولها مباحا لـكل الذكور تقريبا . ولـما كان النجاح يفترض مســبقا أن يكون المتقدم للاختبــار على ثقافة عالية ، لذا فقد كان يحــدث من وقت لآخر أن يفوز بأرقى منصــب رجل كان يعمل بالمحراث يوما ما . ومن ثم فقد كان حلم كل أسرة أن يهبط مثــل هذا الحظ الأسطورى على أحد أفرادها . وعندما كانت تعلن نتائج الامتحانات كان الاهتمام بها مثل الاهتمام بنتيجة مباراة كرة القدم الحاسمة ، سباق دربى ، وانتخاب قومى مجتمعين . وكان يأمل كل صــينى ، حتى أقلهم شأنا ، أن يجد اســـم قريب له ، أو أحد أفراد مدينته أو على الأقل أحد أفراد مديريته من بين المنتخبين . كنت أعرف كل هذا ولكنى لم أدرك السبيل الذى ســاعد على أن يجعل للشعب الصينى طابعا خاصا أو ربما طابعا فريدا .

(*) فيما يخص هذه الحادثة انظر كريل فى كتابه « كنفوشيوس : الرجل والاسطورة » ص ص ٢٥٩ ــ ٢٦٢ . اننى لا أؤمن اطلاقا بأن علمه وحده هو الذى جعله يقع عليه الاختيــار ، ولكن انتشر هــذا النبأ بوجه عام على هــذه الصورة ، وهذه نقطة هامة تخدم هدفنا الراهن .

وكان من بين أكثر النـــاس ثقافة جماعات مختلفة لهـــا مستويات مختلفة ، وقد يستطيع المرء ، اذا تحدثنا باسهاب ، أن أن يميز بين مستويات الأريستوقراطية ومستويات عامة الشعب • وفي الوقت الذى نجد فيه أن هذه الاختلافات ليست مطلقة فانها شائعة • ومن المألوف أن نجد أن الأريستوقراطى والرجل العادى لهما نواميس أخلاقية مختلفة الى حد ما ، ومجموعة قيم مختلفة وتقاليد مختلفـة بل أحيـــانا عادات دينية مختلفة • ومثل هذه الاختلافات كانت قائمة فى الصين الى حد ما على الأقل فترة سيادة الأريستوقراطية الاقطاعية قبل القرن الثالث ق • م • ومع ذلك ففى خلال الألفى سنة الأخيرة اكتسب الشعب الصينى بوجه عام صفات عديدة كانت فيما مضى من صفات الأريستقراطية ، فيبدو مثلا أن تقـــديم القرابين للأجـداد كان قديما وقفـــا على الطبقـة الأريستوقراطية ، فى حين أنها صارت حديثا عادة عامة (*) • وقد بلغ الشعب الصينى ، بالعديد من السبل ولأكثر من سبب ، درجة من التجانس الثقافى ، كانت فى تلك الظروف جديرة بالاعتبار •

وهناك سبب واحد لهذا ، وقد يبدو باعثا على الدهشة ، وهو تعدد الزوجات polygamy ، اذ أن النســوة الفاتنـــات ، رغم ضعتهن ، قد يؤخذن الى الأسر الراقية محظيات ، وتأثير هذا واضح فى امتزاج الشعب اذ أنه لم يرفع فحسب من شان النسوة الوضيعات الى الأوساط ذات الحسب والنسب بل نقل أيضا أفكار عامة الشعب

(*) الدليل على هذا الامر لا يتضح تماما ، ولم يتحقق منـه تمـاما بعد ، وسواء أكان عامة الشعب قديما يقدمون أم لا يقدمون قرابين الى اى من الاجداد فهذا امر مثار جدال تام ، ولـكن هنـاك على الاقل سبب للاعتقـاد بأن أكثر الأريستوقراطيين مجدا فى العصور القـديمة كانوا هم وحدهم يقـدمون القرابين لاجيال عديدة من الاجداد ، بينما حدث بعـد ذلك أن صـار هـــذا تقليدا يباشره من دونهم شأنا .

وتجاربه الى صميم الأسر الأريستوقراطية ، وكثيرا ما « فسد » البلاط بهذه الطريقة وكان هذا مدعاة للرثاء أحيانا ٠

على ان أهم من ذلك كله نظام الاختبارات الذى سبقت الاشارة اليه ٠ لقد كان الاختبار يؤدى الى الوظيفة الحكومية ، وكانت الوظيفة الحكومية هى أفضل طريق ، ان لم يكن الطريق الوحيد للوصول الى الثروة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والسلطة السياسية ، وكانت الاختبارات متاحة لكل فرد تقريبا ـ اذا كان ملما بالدراسات القديمة التى كانت تشمل تقاليد الشعب الصينى٠ لقد كان هناك شك فى أن أية مجموعة من التقاليد لها من المزيد من الحوافز الفعالة ما يدفع الى دراستها ٠

كان كل فرد يريد أن يكون موظفا ، ولم يكن فى استطاعة كل فرد أن ينال ما يريد ، ولكن كان فى مقدور كل فرد أن يحلم بذلك ٠ وكانت هناك لعبة شعبية منتشرة انتشارا واسعا تدعى « النجاح فى الوظيفة Advancement in Officialdom » » يلعبها الجميع حتى الأميون منهم

وكان كل فرد يريد أن يعرف التقاليد أيضا ، ولم يكن فى استطاعة الجميع أن يقرءوا كتب الدراسات القديمة ، ولكن كان كل فرد بدون استثناء على علم بكثير من محتوياتها فى صورة الأمثال المتوارثة ٠ وقد نقلت وسائل أخرى الكثير من دنيا العلماء الى مدى ادراك الكثيرين حتى أفقرهم وأقلهم تعليما ٠ والصينيون مولعون ولعا شديدا بالمسرحية وبالمثل العليا ؛ والكثير من محتويات المسرحيات كلاسيكية الصبغة ٠ ولا يستطيع كل صينى أن يتردد على المسرح ، ولكن هناك فى كل مكان قصاصون يقصون أطرافا من هذه المسرحيات فى السوق وعلى ناصية الطريق لقاء مبلغ يدفعه المارة ، فاذا كان المرء مفلسا فلا يحتاج فقط الى أكثر من أن يقف بعيدا وينصت ٠

وكان هناك فريق من القصاصين يطلق عليهم اسم « المتحدثون عن الكتب talkers of books » وواضح أن هذا يعني أنه يعرض في صورة شفوية يفهمها المستمعون غير المثقفين مضمون الكتب التي كتبها ودرسها العلماء • وهناك ما يدفعنا في الواقع الى الاعتقاد بأن بعض المواد التي كان يستخدمها القصاصون كان يعدها أولا مؤرخو البلاط للتدريس للشبان الأريستوقراطيين (١) ؛ فقد كانت الصلة هنا بين العالم في البلاط والفلاح في السوق صلة مباشرة حقا •

ولقد أتاحت هذه الأمور للشعب الصيني تشابها غير عادي في النظرة العقلية : لقد كان تفكير العالم ، بطبيعة الحال ، يتضمن تعقيدا وغموضا قد تحير الفلاح تحيرا يبعث على اليأس ، ولكن الاختلافات كانت في غالبية الأحوال اختلافات في المستوى أكثر منها اختلافات نوعية ، والأحداث التاريخية والشخصيات البطولية والأسطورية التي كان يستخدمها العالم الصيني لتنميق وتوضيح مقاله ، كانت مألوفة لأقل فلاح ادراكا ، بطريقة لا يمكن قياسها بمعرفة عامة الشعب في أوربا وأمريكا للآثار اليونانية والرومانية •

ازاء كل هذا قد يكون هناك جدل حول حقيقة أن عامة الشعب في الصين قد لا يبالون عادة بالأحداث السياسية ، بل غالبا ما كان العلماء يقفون بمنأى عن النضالات التي تؤدي الى تغيير أسرة من الأسرات الحاكمة • ومرة أخرى أثناء « فترة الحرب » في القرن الراهن حارب الجنود الصينيون في فتور ، ان لم يقاتلوا على الاطلاق ، وكان من السهل اغراؤهم للاستسلام بالرشوة « بالدولارات الفضية » •

كل هذا أمر حقيقي تماما ، ولكن اذا استخلصنا منه ، كما

(١) انظر كرامب Crump في مؤلفه : «بنج هوا وصدر تاريخ سان ـ كيو تشيه»

استخلص الكثيرون ، أن الصينيين يفتقـرون الى الوطنية وأنهـم لايأبهون اطلاقا بما يحل بوطنهم ، فهذا خطأ ذريع ، اذ أن تعاليم كنفوشيوس Confucius قد افترضت أن الحاكم الصـالح هـو الذى يترك أمر الحـكم الفعلى فى البـلاد لوزرائه الذين اختارهم والذين يسيرون هم أنفسهم وفق المبادىء التى كرمها الزمن • ويميل بعض الصينيين بل حتى بعض العلماء منهم الى عدم المبالاة بمن يحتمل أن يعتلى العرش ، ولكنهم كانوا يصرون تمام الاصرارعلى وجوب ادارة الحـكومة وفقا للنمط التقليدى ، بل ان الغزاة الأجانب أنفسـهم كثيرا ما وجدوه أمرا يستلزم السير على نهجه •

واذا كان الصينيون غالبا لا يأبهون بالسـياسـة ، فقد كان يتملكهم دائما فى المـدى الذى سجل فيه تاريخهم ، فخر وطنى عنيف لا تطفأ جذوته ، فخر لا يفوقه فخر أى شعب آخر • وفى باريس أو فى سان فرانسسكو أوسـتغافورة لا يزال الصينيون صينيين حتى بعد أجيال من اقامتهم ، دون أن يطرأ عليهم أى تغيير أو تبديل •

وهذا الفخر وهذه العزلة عن المراكز الرئيسية الأخرى للمدنية الأولى لآلاف السنين ـ أديا بالصينيين الى أن يظنوا أنهم ، بلا نزاع، أكثر الشعوب ثقافة وذكاء ، وأنهم بجميع الاعتبارات أكفأ الناس • ولم يـكن هـذا الاعتقـاد يلقى أى تحد جاد حتى منتصف القـرن التاسع عشر تقريبـا ، حينما هزمت الصين فى الحرب ثم بدأت عملية تمزيق سيادتها فى سلسلة من الاتفاقيات •

لم تكن هـذه الأمور ضربا من الأحداث ، داخل نظـام الصين السياسى العتيق ، يحس ازاءها الصينيون العاديون بعدم اكتراث• لقد كانت على العكس من ذلك تهديدا للدولة بل للشعب الصينى • لقد كان من الممكن تصور تأثيرها على شعب فخور عندما وضعت لافتات على الحدائق العامة فى شنغهاى تحمل عبارة « غير مصرح بدخولها

للصينيين والكلاب» . وإذا كان من الصعب على القارىء أن يتصور ذلك فليتصور رد الفعل عند الأمريكيين أو البريطانيين لو وضعت لافتة على سنترال بارك Central Park فى أمريكا تحمل عبارة « محظورة على الأمريكيين والكلاب » أو وضعت لافتة على حدائق كيو Kew Gardens تحمل عبارة « محظورة على البريطانيين والكلاب » .

وقد يكون هناك جدال (برغم أنه قل أن يقنع صينيا) حول أن شنغهاى ليست صينية ، ولكن النفوذ الأجنبى ، ان لم تكن السيادة الأجنبية ، يتغلغل الى قلب البلاد . لقد كان مكتب بريد الحكومة يخضع لرقابة الأجانب الى حد بعيد ، كما كانت تعسكر الفرق الأجنبية فى مدن عديدة ؛ وكان الناس فى أنحاء العالم يتطلعون بصراحة تامة الى اليوم الذى ستقسم فيه الصين بين الدول .

واذا كان الصينيون لا يكترثون بالسياسة ، فتحت تأثير هذا الاستفزاز توقفوا عن أن يكونوا كذلك . لقد ظل المفكرون الصينيون مشغولين انشغالا بالغا لقرن كامل من الزمان ، فى حماسة ومرارة زائدتين ، بمشكلة اعادة الصين لتتبوأ مكان الشرف والاستقلال فى العالم . وكانت الظروف الى جانب الوضع القيادى التقليدى الذى يتمتع به العلماء فى الصين سببا فى انتقال هذا الاهتمام الى الشعب بأسره أخيرا .

لقد بدا ذلك بصورة جد واضحة فى أثناء رحلة عبر شمال الصين كنت قد كرستها للتنقيب عن الأماكن الأثرية فى سنة ١٩٣٥ . وكانت اليابان قد استولت على منشوريا وكانت تضغط للاستيلاء على مزيد من الأراضى الصينية ، وفى كل مكان سواء أكان داخل منطقة الاحتلال اليابانى أم بعيدا عنها ، كان الأشخاص الذين تتحدث اليهم فزعين فزعا شديدا مما يهدد الوطن الصينى ،

ولم يكن من بين هؤلاء الأشـخاص العلماء وحدهم بل كان أيضـا سائقو الحمير وأصحاب القوارب والفلاحون وأصحاب الفنادق ٠

لقد ظهر الاهتمام لا بالشئون الصينية فحسب ، بل أيضـا بالشئون الدولية فى أماكن غير منتظرة : فمثلا بالقرب من لو يانج Loyang قمت بزيارة « دير الجـواد الأبيض » وهـو مبنى له وقاره ، وبناء على ما جاء بالأساطير جلبت اليه أولى الكتب البوذية المقدسة التى وردت للصين فى القرن الأول الميلادى ٠ وفى هـذا البناء الرومانتيكى استقبلنى رئيس الدير ، وكان رجلا مهذبا ، وقدم لى بسـكويتا من انتاج شركة هنتلى وبالمر ، وتحدث عن السياسات الدولية ، وبمعنى آخر لقد خيب ظنى ٠

لقـد كان الهـدف الرئيسى هو زيارة هواشان Hua Shan « جبل الزهور » شرقى شينسى Shensi ، وهى أروع بقعة تمثل الجمال الطبيعى ، يزيد فى فتنتها تلك التقاليد المقدسـة التى ترجع الى آلاف السنين ؛ ولما تحدثت مع دليلى الفلاح كان يكتب من وقت لآخر حرفا على التراب بحذائه ، يفسر ما كنت ألاحظه عادة وهـو أن الأمية فى الصين ليست كاملة على الاطلاق كما هو متصور فى بعض الأحيان ٠ وكان ممـا يزيد رائحة الخطر الخيالى ذيوعا حقيقة أنباء اقتراب حرب العصابات الشيوعية فى تلك المنطقة ، وكانت قمة الجبل المقدس يحيط بها جرف عمودية وعالية ، وكان على المرء أن يصـعد فوقها بمقابض حديدية ثبتت فى الصـخر ٠ وفى قمة مصعد من تلك المصاعد بلغنا معبدا طاويا دقيقا ، وعلى الفور اقترب منى القس ٠

والمشهور عن القساوسـة الطاويين أنهم غير متعلمين نسبيا بوجه عام ٠ وكان هذا القس يرتدى ملابس باليـة ولا يبدو عليه دماثة أخلاق العلماء الصـينيين ٠ لقد سـألنى من أى بلد جئت ، ثم هز أصبعه فى وجهى وقال : « آه ! أنت أمريكى ٠ هناك سؤال

أود أن أوجهه اليك : فى هذا الكفاح العالمى الضخم المقبل ، الى أى جانب ستقف أمريكا ؟ » •

لقد حدث ذلك قبل زيارتى لميونيخ بأربع سنوات ؛ وبعد ذلك ببضعة أشهر سافرت عبر روسيا وبولنده وألمانيا وفرنسا وانجلترا ثم عدت الى الولايات المتحدة • وقد تحدثت فى هذه الرحلة مع أناس عديدين معظمهم على ثقافة عالية وقليل منهم يشغلون مناصب حكومية لها مسئولياتها ، ولكننى لا أذكر أن واحدا منهم قد أظهر على الاطلاق أن كانت له الرؤيا الواضحة للقس الطاوى الصغير على قمة الجبل البعيد فى غرب الصين •

لقد تحولنا نحن الغربيين ، تدريجيا ولمدة قرن من الزمان ، عن هذا الشعب الفخور الذكى الحساس ، القوى بامكانياته • لقد قللنا من قدر ثقافتهم (دون أن نعرف عنها شيئا) وعاملنا حكومتهم كما لو كانت ألعوبة ، ونظرنا الى الشعب على أنه قطع شطرنج . ولكننا الآن ندفع الثمن •

ولا يوجد أى بلد غربى منزها عن الخطأ • اننا نحن الأمريكيين فخورون جدا بصداقتنا التقليدية مع الصين ؛ ولكننا ننسى بسهولة تامة أن الصينيين كانت تساء معاملتهم أحيانا فى الولايات المتحدة وأنهم لم يتمتعوا دائما بالتقدير والاحترام اللذين كانا يتوقعونهما• وفى كل بلد غربى تقريبا يلاحظ أن العلماء الذين كرسوا حياتهم لدراسة الثقافة الصينية يكتبون أحيانا عنها بروح واضحة من التعالى ، وحتى أولئك الغربيين الذين يعتبرون أنفسهم أشد الناس تأييدا للصينيين ، كانوا مع قلة قليلة من الاستثناءات يحثون الصينيين باستمرار على « التمدن » ؛ أعنى أن يتخلوا عن اساليبهم التقليدية ويتبعوا أساليبهم • لقد نسوا بعملهم هذا ، نسيانا تاما حقيقة أنهم ربما كانوا يوجهون اساءة لهم ، على الرغم من أنهم قد

يكونون أول من يتضـايقون لو أن الصينيين حاولوا أن يحولوا الغرب الى الثقافة الصينية ٠

ان أى فرد يظن أن هذه الاهانات الموجهة الى شعبهم والى نظمهم التى يعتزون بها قد مرت دون أن يلحظها الصينيون ، فهو مخطىء ، اذ ربما أسهمت أكثر فى تطور الشعور المناهض للغرب من كثير من الأضرار الملموسة ٠ ان غالبيتنا يفضلون أن يضربوا من حين لآخر عن أن يكونوا موضع سخرية كل يوم ٠

ويجب أن نؤجل الى الجزء الأخير من الكتاب : المزيد من التفكير المفصل عن الطريقة التى أسهمت بها هذه الأمور فى المشاكل الدولية الراهنة ٠ ويجب أن يكون واضحا ، مع ذلك ، أن الصـين والغرب لا يمكن أن يصلا الى اتفاق حتى يقـوم بينهما تفاهم متبادل بدرجة معقولة ٠ وهذا التفاهم ، كما هو قائم الآن ، معظمه من جانب واحد٠ ومما لا شك فيه أن كثيرين من الصينيين جد بعيدين عن فهم الغرب فهـما كاملا ولكن لعشرات من السنين كان كل صينى متعلم تقريبا يقضى جانبـا كبـيرا من وقته فى دراسة التاريخ الغربى ، والثقافة الغربية ، ويقابل ذلك أن قامت أقلية من الغربيين بدراسة حقيقية للصين ٠

ولكن ، قد يكون هناك سؤال ، هو أنه اذا كانت هذه النقاط قـد تم الاتفاق عليها ، فلماذا كان علينا أن نبدأ بكنفوشيوس لفهم الصين الحية ؟ الى أى مدى يمكن أن تساعد قراءة مؤلفات « كانت Kant » و « اسبينوزا Spinoza » على تفهـم أوربا المعـاصرة ، وأمريكا ؟ وبالنسبة للصين المعـاصرة ، ألا يجدر بنا أن نركز على كارل ماركس Karl Marx وماوتسى تونج Mao Tsê-Tung ؟

لكى نفهم الصين يجب على المرء أن يبدأ على الأقل بفترة مبكرة عن ذلك أى منذ كنفوشيوس ، اذ أن الماضى مرتبط ارتباطا وثيقا بالحاضر ، ويجب أن نأخذ فى اعتبارنا كبار المفـكرين لانهم لعبوا

دورا رئيسيا فى تكوين الصين بالصورة التى هى عليها • انفلسفة اسبينوزا ربما أثرت أو لم تؤثر فى رجل الشارع فى الغرب ، ولكن آراء كنفوشيوس وحتى أكثر الفلسفات تعقيدا وهى فلسفة «تشوانج تزو Chuang Tzü » قد لعبت دورا يمكن اثباته ، وله أهميته فى تشكيل شخصية الفلاح الصينى ؛ ويجب أن يلم المرء بشىء عن تفكير الصين التقليدى حتى يمكنه أنيفهم النظرية الشيوعية الصينية ، اذ أنها أكثر أهمية مما قد يود بعض الشيوعيين أن يقرروه •

أما عن الأسباب الأكثر عملية وأهمية للادراكالدولى وللاقرار الحازم للسلام العالمى ، فانه من الأهمية بمكان أننا يجب أن نعرف فى الغرب شيئا عن الفلسفة الصينية • ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد ، اذ أن الفكر الصينى قد أسهم فعلا الى حد بعيد فى العالم بوجه عام ، وفى فلسفتنا نحن أكثر مما يدرك غالبيتنا ، ولا يزال قادرا على أن يسهم بصورة أكبر •

ويعلم غالبيتنا أن الصين قدمت للحضارة الورق والبارود ، ولكن كم منا يعلم أن الروايات(سواء الحقيقية منها أو المزيفة)التى تدور حول نظرية المساواة وممارستها فى الصين قد لعبت دورا فىتطوير مفاهيم المساواة الانسانية والديموقراطية السياسية فى الغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ؟ ومع ذلك فقد كان هذا أمرا معلوما فى ذلك الوقت ، ولقد ألقى كل من « ماكولى Macaulay » و « برونتيير Brunetière » جانبا من اللوم على الثورة الفرنسية لاعتقادهما أنها شوهت الأفكار عن النظم السياسية الصينية (١)•

---

(٢) « ماكولى ، قصة تاريخ انجلترا » بقلم هنرى نيل Henry Neele ص ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ، برونتيير : «دراسات نقدية حول تاريخ الأدب الفرنسى» ج ٨ ص ١٩٩ ، وانظر أيضا كريل : « كنفوشيوس ، الرجل والأسطورة » ص ص ص ٢٧٦ ـ ٢٩٥ •

ان معظمنا على علم بأن نظام الاختبارات للخدمة المدنية فى الولايات المتحدة قد أخذ به بناء على تأثر شديد ببريطانيا ولكن كم منا يعرف أنه منذ قرن مضى ، عندما أثير موضوع هل ستنشأ وظائف مدنية ويكون التعيين فيها عن طريق اختبار وكان هذا الأمر محل نقاش حاد فى لندن ، كان نموذج الخدمة المدنية القديم العهد فى الصين يراود أذهان الناس ؟ • ولما لوحظ التشابه الذى لا شك فيه بين الخطة المقترح الأخذ بها فى بريطانيا وما استخدم منذ عهد طويل فى الصين ، اذا بمنافسى الخطة فى البرلمان يذمونها على أنها « مبدأ صينى » بينما تولى الآخرون الدفاع عنها على نفس الأساس • وبعد ذلك بمدة طويلة ، فى سنة ١٨٧٥ ، هاجم مقال فى مجلة «فورتنايتلى ريفيو Fortnightly Review» عقد اجتماعات للخدمة المدنية ، على أنه « نظام صينى مقتبس » (٣) •

وبالنسبة لنا فى الغرب لا يعد بقاؤنا على جهل بالفكر الصينى استمرارا لوضع بالغ الخطورة بالنسبة للسلام العالمى فحسب ، بل انه يجردنا أيضا من المعرفة التى ربما أسهمت بصورة فعالة فى سعادتنا •

لقد سرنا فى طريق قهر الطبيعة ، وكانت انجازاتنا رائعة فيما بلغة التقدم الميكانيكى من مدى بعيد • حقيقة أنه يقال الآن : ان العلم قد تكون له قوة تحطم الحياة بأسرها على وجه الأرض ـ تقهر الطبيعة ، حقا ؛ ومع ذلك فكل ما جلبه علينا هو رضا محدود • وعلى الرغم من أننا جميعا ننعم بأساليب الترف التى لم يكن فى وسع الملوك الاستمتاع بها منذ عهد قريب ، فان رغباتنا قد زادت بسرعة تفوق سرعة ماعندنا • لقد شغلنا كل الانشغال فى بناء الآلات وتكوين الثروات حتى أننا لم نهتم الا اهتماما طفيفا بالعلاقات

---

(٣) تنج سسو ـ يو : « التأثير الصينى على نظام الاختبارات فى الغرب » ص ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ •

الانسانية • وهناك نتيجة واحدة حقيقية هي أننا نسير وقد تملكنا خوف دائم •

ويكاد يكون اهتمام الحضارة الصينية على العكس من ذلك : اذ كانت هناك محاولة بسيطة لقهر الطبيعة ولكن بدلا من ذلك سعى الصينيون ليعيشوا فى وفاق معها ، ولمدة ثلاثة آلاف سنة على الأقل اهتمت الصين اهتماما بالغا بالعلاقات الانســـانية ، وكانت النتيجة بكل تأكيد ، كما تبدو من وجهة نظرنا ، كما لو كانت عجزا فى التقدم المادى • ومن ناحية أخرى ، فان كثيرين من الغربيين الذين عاشوا بين الصينيين قد تأثروا بقدرتهم الفائقة على أن يدخلوا على أنفسهم السعادة حتى فى مواجهة الفقر والحرمان • لا شك أن هذا الأمر يصعب قياسه تماما ، ولكن الواضح هو أن الاحصائيات تظهر أن الصينيين الذين يعيشون فى نفس البيئة مع الغربيين ، أقل تأثرا بالاضطرابات العقلية(*) بصورة ملحوظة •

لا شك أن هناك الشيء الكثير الذى تستطيع الصين أن تتعلمه من الغرب ، ويعرف الصينيون ذلك تمام المعرفة ، وهناك أيضا الكثير الذى نستطيع أن نتعلمه من الصين • ان جانبا من هذه المعرفة فى متناول أيدينا فعلا ، ممثلا فى أعمال كبار مفكريها • وواضح أن كتابا فى حجم هذا الكتاب لا يعدو أن يكون مقدمة لموضوع كبــــير بالغ التعقيد •

وسنتناول فى تفصيل خاص فكر تلك الفترات التى كانت فيها الحضارة الصينية صينية خالصة ، ثم نلقى بعد ذلك نظرة على مدى تفاعل الفكر الصينى مع ما ورد له من مؤثرات من الهند ومن غرب أوربا وأمريكا ومن روسيا •

(*) على الرغم من ان الصينيين فى هاواى ينتابهم مرض عقلى عضــوى كالغربيين فهم أقل اصابة بأى مرض عقلى آخر ، وهم فى الحقيقة أقل اصــابة من أية مجموعة جنسية أخرى • انظر كتاب هسو HSU : « الأمريكيون والصينيون » ص ص ٦٢ ـ ٦٣ •

الفصل الثانى

قبل كنفوشيوس

اننا نعرف الشيء الكثير عن رجال العهد الحجرى الذين كانوا يعيشون في الصين ، ولكن ، لما لم يكن في متناول أيدينا شيء مما دونوه ، فان ما نستطيعه فقط هو أن نخمن فيما كان يفكرون ٠ وكانت أقدم كتابة صينية وردت لنا من مدينة كانت عاصمة للملوك شانج Shang حوالى سنة ١٤٠٠ ق٠ م٠ لقد كانت مركزا لحضارة متقدمة فعلا بصورة ملحوظة ، كما تبرهن على ذلك المبانى الضخمة والأوانى البرونزية الجميلة والمنسوجات الحريرية المتقنة النسج ، وأشياء أخرى كثيرة ٠ وعلى الرغم من أن هؤلاء الناس كانت عندهم كتب قد بليت منذ زمن طويل ، فلقد كانت الكتابات الوحيدة التى بقيت لنا منهم عبارة عن نقوش قليلة مسجلة على العظام والحجارة ٠ وهذه التسجيلات القليلة تجعلنا ننظر نظرة محيرة الى احتفالاتهم الدينية المنسقة تنسيقا متقنا والى تنظيمهم السياسى العظيم ،ولكنها ليست بكافية فى تزويدنا بالكثير عن فلسفتهم ٠

وهؤلاء الناس المثقفون ثقافة عالية فى شانج غزاهم (فى سنة ١١٢٢ ق٠م طبقا للتاريخ التقليدى) أفراد قبائل حفاة من الصين الغربية ،وكان يقود الغزاة فرقة تعرف باسم «تشو Chou » ، فأسسوا أسرة تشو الشهيرة ٠ ولقد مرت بهؤلاء المحاربين الشجعان ،

فى بادىء الأمر ، فترة صعبة اذ بينما كانوا يعرفون معرفة تامة كيف يأخذون الأراضى بالقتال ، واجههم أمر آخر هو المحافظة عليها عن طريق حكومة منظمة أحسن تنظيم ٠

وبعد بضع سنوات من الغزو مات ملك تشو وتوج ابنه خليفة له ، ولكنه لما كان صغيرا جدا فانه لم يستطع أن يحكم بالحزم الذى يستلزمه الموقف ٠ وبدأت امبراطورية تشو فى التمزق وأنقذها من الدمار : عم الملك الصغير ، الذى كان يطلق عليه اسم دوق تشو ، وتدخل ونصب نفسه وصيا واضطلع بأمر الجيوش وعاقب كل أولئك الذين حاولوا أن يثوروا ، وحكم البــلاد بيد من حديد ٠ أما ابن أخيه ، الملك الصغير ، فلعله كان يتوقع أن يقتل ولكن الدوق برهن على أنه رجل ذو مبدأ عال ٠ وما أن زال الخطر حتى استبدل بالقوة الحكم العادل ، وأظهر براعة فائقة فى تنظيم الامبراطورية على أساس سليم ٠ وبعد سبع سنوات أعاد السلطة الى الملك ٠

وبرغم ان دوق تشو عاش قبل كنفوشيوس بعــدة قرون فقد كانت الصين تبجله على أنه مؤسس التقاليد «الكنفوشيوسية» بل كان بعض الصينيين يعتبرونه أسمى مرتبة من كنفوشيوس ٠ ولم يكن مرد هذا لشخصيته فحسب ، بل أيضا لأنه ، فى حرارة الأحداث المضطربة التى اشترك فيها ، تشكلت آراء معينة كانت لها أهميتها الكبرى فى التفكير الصينى من ذلك الوقت ، ولفهمها يجب أن نطلع على الأسلوب الذى نظم به المجتمع الصينى فى هذا الوقت ٠

وكان كل مظهر تقريبا ، من مظــاهر الحيــاة تسيطر عليه الأريستوقراطية الوراثية فى عهود (تشو) وربما فى عهود «شانج» أيضا ، وكان المؤسسون المشهورون من الأسرات الأريستوقراطيــة فى كثير من الحالات أبطالا أسطوريين ، ان لم يكونوا آلهة ٠

وكان من المعتقد أن أسرة ملوك تشو قد انحدرت من جد يدعى «هو تشى Hou Chi » والمعنى الحرفى لهذا الاسم هو «ملك الذرة»

ويبدو واضحا أنه كان أصلا الها زراعيا • ونقرأ فى أحد الـكتب القديمة وهو « كتاب الشعر » عن ولادته رواية عجيبة : اذ حملت به أمه عندما خطت على آثار قدم اله من كبار الآلهة • وكشأن عديد غيره من الأطفال المشهورين أهمل شأنه ، ولكن من العجيب أن لم يصبه أى ضرر • ويروى عنه الشعر أنه :

وضع فى درب ضيق ،
ولكن الغنم والثيران كانت تحميه فى رقة
ووضع فى غابة فسيحة ،
ولكن الحطابين وجدوه هناك •
ووضع على ثلج بارد ،
ولكن الطيور غطته بأجنحتها(١)

وعندما شب هذا الجد العظيم صار يعلم الناس كيف يزرعون الحبوب •

ولم يكن مؤسس الأسرة الأريستوقراطية البعيد هو وحده الذى أمدها بقوته ، بل أمدها بالقوة كل أسـلافها • وكان المعتقد هو أن الأريستوقراطيين بعد مماتهم يحيون فى السموات حيث يشرفون على مصير ذرياتهم ، وكان من الطبيعى ، مالم يكونوا ساخطين تماما على حفدتهم ، أن يمنحوهم النصر فى الحرب والرخاء فى السلم • وفى مقابل هذه الأفضال ، كان من المتوقع أن يقوم الأحفاد بتقديم القرابين المعتادة لهم ويحققون رغبـاتهم الى أقصى حـد ، وهذه الرغبات قد يتعلمونها بالكهانة أو بالوسائل الأخرى • وكان يتضح اعتماد الحكام فى كثير أو قليل على أجدادهم ، فى عدد كبير من الوثائق • ونجد فى نقش على وعاء برونزى أن أحد النبلاء يفاخر بأن أجداده الأعلين

---

(١) انظر ليجى Legge فى كتابه « الملك شي » ص ٤٦٨ •

البارعين « يفسحون طريقا لحفدتهم الذين هم على الأرض »(٢) وقد ذكرت احدى القصائد الواردة «بكتاب الشعر» أن قوة بيت تشو فى فترة معينة ، كان مردها الى حقيقة أنه كان لها «ثلاثة حكام (سابقين) قد صعدوا الى السماء» بالاضافة الى الحـــاكم الذى يحكم على ظهر الأرض ٠

وفى مثل هذا الوضع لم يكن يأمل أحد من عامة الشعب فى أن يصبح حاكما صغيرا أو كبيرا ٠ لقد كان يفتقــر الى المقـــومات الأساسية وهى الأجداد ذوو النفوذ ، وكان عامة الشعب تقريبـــا ، فيما عدا قلة من الصناع ، فلاحين وربما كانوا عبيدا ٠ ومن المشكوك فيه أن كانت لهم أية حقوق ثابتة تقف فى وجه النبلاء الذين يبدو أنهم كانوا يعاملونهم كما يروقهم ٠ لقد كان هناك بيان قديم يضــع الذكور الفارين والخادمات فى نفس المرتبة التى توضع فيها الماشية الضالة (٤) ٠ وتقول احدى القصائد فى « كتاب الشعر » : « ان عامة الشعب قانعون ، ففى كل يوم عندهم ما يكفى للأكل والشرب»(٥)٠ ومع ذلك فقد أوضح نفس الكتاب القديم أنهم فى الحقيقة لم يأكلوا قط ما يكفيهم من طعام ، وتقول احدى القصائد :

صارت السماء الرحيمة تلقى بالرعب فى غضبها
فتمطرنا بالدمار ،
وتبلونا بالمجاعة
وكل الناس قد تفرق شملهم وهم يحاولون الهرب

---

(٢) « كومو ــ جو KuoMo-jo فى كتابه : « ليانج تشوتشن وبن تزه تاهسى كاوشيه » ص ١٣٣ (أ) ٠

(٣) انظر ليجى فى كتابه « الملك شى » ص ٤٥٨ ٠

(٤) انظر ليجى فى كتابه « الملك شو » ص ٦٢٣ ٠

(٥) انظر ليجى فى كتابه « الملك شى » ص ٢٥٧

والمناطق المستقرة والريف المكشوف سواء فيما أصابها من دمار (٦)

وتذكر لنا أخرى :

تخلى الحظ الطيب عن الناس
لأن السماء تخلت عنهم ·
وقد يشق الغنى طريقه ،
ولكن وا أسفاه على الوحيد والذى لا أنيس له ·(٧)

هل كان عامة الشعب راضين لو كان عندهم فقط ما يكفى للأكل والشرب ؟ فيما يتصل بالفترة المبكرة ، من الصعب أن نعرف· فقد كانت قلة من عامة الشعب ، ان وجدت ، فى استطاعتها ان تكتب حتى أننا قد بلغنا القليل مما كان عليهم أن يذكروه · وعلى الرغم من ذلك نجد بعض الأدلة على التحدى ، خاصة للخدمة العسكرية الاجبارية التى انتزعت الأبناء من آبائهم والأزواج من زوجاتهم بدون أية ضمانات ، وكان هناك احتمال بسيط فى بعض الأحيان فى أن يشاهدوهم مرة أخرى ·

ويبدو أنه كان فى مقدور الأريستوقراطيين أن يعاملوا خدمهم من عامة الشعب تماما كما يروقهم ، فيفرضون عليهم الضرائب أو يجبرونهم على القيام بأعمال بالقوة ويعاقبونهم كما يتفق مع نزواتهم· وبرغم ذلك فلقد كانت سياسة من الأريستوقراطيين جد ضعيفة اذ جعلوا الحياة قاسية جدا أمام الناس بوجه عام ، وكانت هذه هى الحال بوجه خاص بعد غزو تشو مباشرة ·

وفى ذلك الوقت كان حكام تشو ومواليهم الاقطاعيون وافدين

---

(٦) انظر ليجى فى كتابه : « الملك شى » : ص ٥٦٤
(٧) المرجع السابق : ص ٣٢٠

جدا على غالبية شمال الصين (ويبدو أن فتوحات تشو لم تمتد الى جنوب الصين) ، وكانوا يعيشون فى مدن مسورة محاطة بسكان اما أعداء أو متبلدى الشعور • وعلى شاكلة معظم الفاتحين الناجحين أدركوا بسرعة أنهم اذا كانوا قد تمكنوا من أن يفتحوا فتوحاتهم بالقوة فهم لا يستطيعون أن يحكموها بالقوة وحدها ، ومن ثم ، كانوا بالغى الحكمة اذ أدركوا أنهم فى حاجة الى رضا شعبى •

وكان دوق تشو يعرف ذلك تمام المعرفة ، لقد كان مقاتلا وكان يعرف كيف يهدد الناس ويعاقبهم • وبرغم طبيعة الروابط الأسرية المقدسة فقد نفى واحدا من اخوته وأعدم آخر لأنهما قد تجاسرا على مساعدة أهالى شانج لكى يقوموا بمحاولة فاشلة للثورة ، ولكن بعد أن أخمدت الثورة وأنزل العقاب بقادتها ، حاول أن يسترضى أهالى شانج • لقد ذكر لهم أنهم سيعاقبون بلا هوادة اذا قاوموه ، ولكنهم اذا ما تعاونوا مع ال (تشو) فسيزدهر مستقبلهم • وفى بيان بقى لنا ، ذكر الدوق لأريستوقراطيى شانج أن « السماء ستظهر عطفها عليكم ، ونحن أسرة تشو سنساعدكم مساعدة كبيرة وسنكافئكم ونختاركم لتعملوا فى بلاطنا الملكى ، واذا أديتم واجباتكم على أكمل وجه فستصبحون من كبار ضباطنا •»(٨)

ولدينا عدد من الوثائق التى حفظت لنا من العهود الأولى لأسرة تشو ، ونسبة كبيرة منها تعزو التقاليد تأليفها الى دوق تشو ، ويعتقد بعض العلماء أنه اذا كان بالفعل قد دون جانبا منها ، فان الوثائق الأخرى قد دونها قادة تشو الآخرين ولكنها نسبت خطأ الى دوق تشو نظرا للمكانة التى ظفر بها اسمه • ولسنا فى حاجة الى الدخول فى الخلافات الخاصة بهذا الموضوع ، ويكفينا أن نسجل أن دوق تشو قد أظهر ، ولعل بعض الأريستوقراطيين الأولين من أسرة

---

(٨) انظر ليجى فى كتابه « الملك شو » ص ٥٠٦

تشو قد أظهروا ، بكل تأكيد ، ميولا سلمية لا للأريستوقراطيين الذين غزوهم فحسب بل أيضا لعامة الشعب ٠

ولقد ذكرت التعليمات التى أصدرها أحد حكام تشو الى أحد عماله : « سأشرح لك كيف أن الفضيلة يجب أن تتحكم فى استخدام العقوبات ٠ فى هذا الوقت لم يعد الناس فى حالة هدوء ، ولم تهدأ ثائرتهم بعد ، وعلى الرغم من أنهم يدفعون من حين لآخر لأن يتفاهموا معنا ، الا أنهم لم يفعلوا ذلك بعد ٠٠٠ كن جادا ! ولا تفعل ما قد يجلب الكراهية ، ولا تتبع المشورات الزائفة والأساليب غير المألوفة٠ كن عادلا ومخلصا فى أحكامك ٠٠ تمسك بفضيلتك ، كن بعيد النظر فى كل تخطيطك حتى تهدىء ثائرة الناس ٠ فاذا قمت بهذه الاعمال فلن أقصيك عن منصبك ولن أقتلك»(٩) ٠ وفى مكان آخر يذكر الكاتب أن الانسان يجب أن يتعامل مع النـاس كمـا لو كان المرء «يحمى أطفالا»(١٠) ٠

وتذكر وثيقة مماثلة : « عندما ينصب الملوك ولاة ليحكموا الناس يقولون لهم : لا تكونوا قساة أو ظالمين ولكن توسعوا (فى حمايتكم) حتى تشمل الأرامل » (١١) ٠ وعبارات من هذا اللون كثيرة جدا ، ونجدها لا فى الأدب المتوارث فحسب ، حيث قد نتشكك فى أنها قد أضيفت مؤخرا ، بل نجدها كذلك فى النقوش على الأوانى البرونزية الباقية من ذلك العهد حتى الآن، وهذا يذكرنا بالتصريحات المشابهة المنطوية على الورع والتى يصرح بهـا الحكام الأوروبيون الذين كانوا يعلنون أحيانا عن أنفسهم أنهم ليسوا حماة الكنيسة والمدافعين عنها فحسب بل أيضا حماة « الأرامل واليتامى والغرباء » والمدافعين عنهم ٠ وواضح تماما أن مثـل هـذه التصريحات تعلن

---

(٩) انظر ليجى فى كتابه : « الملك شو » : ص ص ٣٩٦ ـ ٩٧

(١٠) المرجع السابق : ص ٣٨٩

(١١) المرجع السابق : ص ٤١٥

لأسباب مختلفة وربما قد تكون أو لا تكون دليلا على الشعور الخير المخلص من جانب أولئك الذين صرحوا بها • ولكن هذا لا يغير حقيقة أن مجرد الادلاء بمثل وجهات النظر هذه قد يكون ذا آثار هامة فى التاريخ • وقد استطاع أحد هذه المفاهيم التى تطورت فى أعقاب فتوحات أسرة تشو ، أن يلعب دورا هاما بصورة خاصة •

وكان ملوك شانج يقدمون القرابين الى أسلافهم فى بذخ وكانوا يؤمنون بأن مساعدتهم فى مختلف الأعمال كانت لها أهمية حاسمة • ولا مجال للشك فى أن حكام شانج ، مثل ملوك تشو الذين خلفوهم ، كانوا يعتقدون أنهم يحكمون بموجب حق الهى • لقد غزا ملوك تشو البلاد بقوة السلاح ، ولكن هذا لا يمكن أن يقال ، الا بعد اجراء تعديل ، لتحويل الحق الالهى الى حكم • لقد كان تبرير الغزو اجراء يبعث دائما على الحيرة • انه يستلزم دائما قدرا معينا من الاستعانة بالأسطورة يستسيغه الشعب عن طريق الدعاية ، وفى الوقت الراهن غالبا ماتأخذ الأسطورة شكل مبدأ «توضيح المصير Manifest destiny». لقد أطلق حكام تشو على مبدئهم اسم « قانون السماء the decree of Heaven» • وكانت «السماء» أعظم الآلهة قدرا •

وقد ذكر حكام تشو أنه لم تكن فى نيتهم غزو أراضى شانج ، بل على العكس من ذلك ، فان عبء هذا الغزو قد ألقته السماء على كاهلهم • لماذا ؟ لأن آخر ملوك شانج كان وغدا مخمورا يظلم رعاياه ويتهكم على الآلهة ويغشهم فى ضحايا قرابينهم ، ولهذا السبب قررت السماء أن تفقد الأمل فى سلالته وسحبت منه « قرارها » فى مباشرة حكم الصين ، وأسند هذا القرار بعد ذلك الى زعيم شعب تشو الذى أمرته السماء بأن يغزو شانج وأن يعتلى العرش •

وعلى الرغم من أنه من الصعب التحقق من قصة تتناول سلوك الآلهة ، ونظرا لأن معلوماتنا عن هذه الحقبة ضعيفة ، الا أننا على الرغم من ذلك نعرف ما فيه الكفاية لنزع الثقة من هذه الرواية •

ويوضح الدليل الأثرى أن آخر ملك من ملوك شانج ، لم يكن ، فى الحقيقة ، ضالا متلافا ، اذ يبدو على العـــكس من ذلك ، أنه كان نشيطا بصورة خاصة ، وكان بعيدا عن أن يتهم باهماله للطقوس الدينية وهى التهمة الموجهة اليه ، اذ كان يهتم اهتماما شخصيا غير عادى بهذه الاجراءات ، ويبدو أنه كان حريصا أشد الحرص على أدائها • ولكن هذا الأمر ، بطبيعة الحال ، لم يدخل أى تغيير على قادة تشو ، لو استطاعوا فقط أن يؤثروا على الشعب ليؤمن بتفسيرهم للتاريخ ؛ وقد فعلوا ذلك أخـيرا • ويبـدو أن بعض الوثائق التى وصلت الينـا وثائق محرفة صدرت فى ذلك الوقت بقصد الدعاية لآل تشو • وهناك أيضا بعض الأسباب للاعتقاد بأنه كانت توجد فى شانج آثار أدبية تناقض تلك الدعاية • لقد اختفت ، ويمكن أن نفترض منطقيا أن آل تشو ربما أبادوها على الرغم من عدم وجود دليل فعلى على أنهم قاموا بذلك •

لقد برر تشو غزوهم لشعب« شانج بقولهم ان التاريخ يعيـد نفســه ، وقالوا انه قبـل ذلك بقرون عديدة كان أحـد حكام شانج المعروف باسم «تانج الموفق T'ang the successful »قدعينته السماء بنفس الطريقة ليحل محل الملك الشرير آخر ملوك الأسرة السالفة وهو المعروف باسم «هسيا Hsia » (على الرغم من أن هناك قدرا كبيرا من رواية منقولة تتناول أسرة هسيا فانه ليس لدينا أى دليل أثرى يمكن أن يكون له صلة به) • هذا السرد للتاريخ قد أتاح لغزو تشو سابقة وجعله مجرد حادثة يتــكرر أمثالها • ولا تزال رواية شانج لتاريخ شانج محفوظة لنا فى «كتاب الشعر» وتسجل الوضع بصورة مختلفة(١٢) • ومن ثم كان فى الامكان أن يقوم زعماء تشو، لتبرير الغزو ، بتبديل نمط التاريخ الصينى بأكمله •

---

(١٢) أنظر كريل فى كتابه : « دراسات فى الثقافة الصينية الأولى » ص ص ٥٢ — ٦٣ •

وفى الكتابات التى وصلت الينا يبدو أمير تشو كمحام زعيم لمبدأ القرار السماوى • لقد أوضح ذلك فى اسهاب بالغ فى بيان أعلنه على شعب شانج الذى غزاه • ويلاحظ أنه يشير أحيـانا الى زعيم الآلهة على أنه « تى Ti » وأحيانا على أنه «السماء» ، وكان هذان الاسمان يستخدمان بالتناوب فى ذلك الوقت • وقال الأمير، وكان يتحدث باسم الملك :

« أنزل « تى » العقاب بـ «هسيا» ، ولكن حاكم هسيا لم يفعل سوى أن زاد من تمتعه ببذخه ولم يكن على استعداد لأن يتحدث الى الناس مواسيا • لقد كان داعرا وجاهلا ولم يكن فى استطاعته أن يستسلم هو نفسه يوما واحدا لتوجيهات « تى » ـ وهذه الأمور سمعتم عنها • لقد كان يسخر من أوامر «تى» •• ان توقيع جزاءات العقوبات الشاقة لم يؤد الا الى تصعيد الفوضى داخل مملكة هسيا• انه لم يكن يحـــكم الجميـــع حكما عادلا •• وكان حزنهم وازعاجهم يزداد يوما بعد يوم ••

« وعند هذه المرحلة لجأت « السماء » الى حاكم حقيقى للشعب فأصدرت قرارها الواضح المفضل الى «تانج الموفق» الذى عاقب وقضى على حاكم هسيا •• ومن عهده الى عهد «تى الاول Ti I » (ملك شانج قبل الأخير) كان الحكام جميعهم ، بما لهم من فضائل ممتازة، حريصين فى استخدام العقـوبات ، ومن ثم كان فى مقـــدورهم أن يباشروا تأثيرا يستنهض همة الشعب •• ولكن لما وصل الحكم الى حاكمهم الأخير (آخر ملك من ملوك شانج) لم يكن فى استطاعته ، مع كل ولاياتكم العديدة ، أن يستمر فى التمتع بالقرار السماوى •

« آه ! يتحدث الملك عن النتيجة التالية : أذيع وأعلن عليكم••• لم تكن السماء براغبة فى الخلاص من حاكم هسيا أو حاكم شانج(*)،

(*) فى هذه النقطة ونقطة اخرى فى هذه الفقرة المترجمة ، ورد بالنص اسم « ين Yin » وهو اسم آخر بدلا من « شانج » ولقد بدل هـذا الاسم الى اسم آخر بقصد التبسيط .

ولكن كان حاكمكم ٠٠ كان فاسقا تماما وكان يسخر من الأوامر السماوية ٠٠ كان كسولا ومتباطئا ، واستهان بأعمال الحكومة ولم يكن ليقدم القرابين الخالصة ، ولذا أنزلت السماء به الدمار ٠٠

« ثم بحثت السماء بين أقاليمكم العديدة ٠٠ عن شخص قد يكون متيقظا لأوامرها ، ولكن لم يكن هناك أحد يستطيع أن يفعل هذا ٠ ومع ذلك ، فهناك ملكنا تشو ، الذى كان يحسن معاملة الجماهير وكان فاضلا ، وفى عناية كان يرأس تقديم القرابين الى الأرواح والى السماء ، ولذا أمرتنا السماء أن نغتنم من فضلها وكرمها ، واختارتنا ومنحتنا القرار الممنوح لشانج لنحكم أقاليمكم العديدة » (١٣) ٠

قد يكون من المستحيل المبالغة فى أهمية هذه الفكرة بالنسبة لتاريخ السياسة الصينية والفكر الصينى ، ومنذ ذلك الوقت وماجاء بعده ، كان النمط العادى للثوار هو التمسك بملكية « القرار السماوى » ، ثم فى عصرنا هذا كان الحزب الثورى الذى يتزعمه « دكتور صن يات ـ سن » يطلق عليه فى وقت من الأوقات «رابطة تبديل القرار The Association for Changing the Decree » ٠

بل ان هناك ما هو أكثر أهمية وهى الأسباب التى زعم من أجلها أن السماء قد حولت فضلها وكرمها ٠ وفى الوثيقة التى سبق أن اقتبسنا منها ، وفى كثير غيرها ، ذكر أن السماء تخلت عن حكام لأنهم ، من بين جرائمهم الأخرى ، لم يعاملوا الناس بالحسنى ٠ وكانت النتيجة نظريا ، قيام مبدأ وجود الحكام رهن بمصلحة الناس وليس عكس ذلك ، وأنهم انما يباشرون سلطاتهم فى نوع من الأمان ، أو من قبيل التفويض ، وهم عرضة أن تسحب منهم سلطاتهم

---

(١٣) انظر ليجى فى كتابه « الملك شو » ص ص ٤٣٥ ـ ٥٠٢ ٠

اذا لم يحسنوا استخدامها . وفى البداية كان هـذا أكثر قليلا من نظرية ولدتها احتياجات الدعاية ، ولكنه أمر لا يهم . وكان للنظرية وجود ، وقد يأتى وقت قد تكون فيه ذات أهمية كبيرة .

وفى هذه الفترة المبـكرة جدا التى نتناولها الآن بالدراسة ، كانت هناك أفكار أخرى معينة قائمة فعلا ، وقد استمرت لها أهميتها البـــالغة فى الفـكر الصينى ، وكانت احداها تهتم اهتـماما كبيرا بالأسرة . ونجد فى هذه الفترة المبكرة معلومات واضحة عن الحضارة الصينية ، كما أن الاهتمام البالغ بالأسرة يبدو واضحا . ونقرأ فى « كتاب الشعر » :

من بين الناس فى العالم كافة
لا يعادل الاخوة أحد ...
فالاخوة يتشاجرون بين الجدران
ولكنهم يقفون متحدين ضد اهانة من الخارج
بينما خير الاصدقاء
برغم كثرتهم ، لن يحاربوا من أجلك . (١٤)

ويعطى الكتاب الغربيون فى بعض الأحيان انطباعا عن أن كنفوشيوس قـــد ابتدع تقريبا طاعة الآباء ، أو على الاقـل أكدها تأكيدا لم يكن له نظير من قبل . ولكن فى فقرة كتبت منذ أمد طويل قبل عهد كنفوشيوس فى «كتاب الشعر» تقول : « لا يمكن الاعتماد على أى انسان مثل اعتمادنا على الأب ، ولا يمكن الاعتماد على أحـــد مثل الاعتماد على الأم» (١٥) وحتى بداية عهد تشو نجد أنه قيل أن طاعة الآباء ليست عملا أخلاقيا فحسب ، بل أيضا فرضا شرعيا . وذكر بيان موجه الى أحد ولاة تشو أن هناك مجرمين معينين أسوأ

(١٤) ليجى فى كتابه « الملك شى » ص ص ٢٥٠ ــ ٥٢

(١٥) المرجع السابق : ص ٣٣٧

من القتلة ، ومن أمثلة ذلك «الابن الذى لا يعامل أباه باحترام بل ويجرح قلب أبيه جرحا داميا ، والأب الذى لا يســـتطيع أن يرعى ابنه بل يكرهه ، والأخ الأصغر الذى لا يضع نصب عينيه الهدف السماوى الواضح ولا يحترم أخاه الأكبر ، والأخ الأكبر الذى ينسى اهتمامه الرقيق الذى يجب أن يحيط به أخاه الأصغر ويكون عدوا له ٠» ، وذكر البيان أن هؤلاء جميعهم مجرمون ويجب أن يعاقبوا بدون شفقة (١٦) ٠

ولم يكن العمل الذى واجه حـكام تشـو بعد غزوهم بالعمل السهل ، ولم تكن مشكلتهم مشكلة نقص فى الأراضى التى يحكمونها ولكنها كانت فى النقص فى الأساليب التى يحكمونها بها ٠ والوسيلة الوحيدة للاتصال هى عن طريق الطرق ، وكانت الطرق غير ممهدة ٠ وبرغم أنه كانت هناك أساليب معينة للتبادل فانه لم يكن هناك وجود لنقود ملائمة بالمعنى المفهوم عندنا ٠ وبدون اتصالات ميسورة وبدون نقود ، استحال تقريبا الحكم المباشر على أراضى واسعة ٠ لقد فعل حكام تشو ما كاد يكون الشىء الوحيد الذى يمكن أن يقوموا به ، لقد قسموا أراضيهم على ولاتهم الذين كانت غالبيتهم من أقاربهم أو من رؤساء القبائل الأخرى التى ساعدتهم فى الغزو ٠ لقد ترك لهؤلاء اللوردات الاقطاعيين الحرية فى حكم أراضيهم المحلية كيفما شاءوا ما داموا يبقون على السلام ويدفعون الجزية المطلوبة للملك ويقودون جنودهم ليساعدوه حينما يكون فى حاجة اليهم ٠

وقد أدى هذا النظام الاقطاعى عمله فى بادىء الأمر على أكمل وجه ٠ لقد كان أصحاب الالتزامات من آل تشو أكثر قليلا من قادة مدن الحاميات المسورة ، الذين كانوا يراقبون الشعوب المعادية والتى فتـــحت بلادها حديثا ٠ ولقد كانوا فى حاجة الى تأييد ملك تشو

---

(١٦) ليجى فى كتابه « الملك شو » ص ص ٣٩٢ — ٩٣ ٠

وتأييد بعضهم بعضا • واذا تمـرد أفراد من الولاة عاقبهم الملك ، وفي الحالات القصوى ، كان يأخذ أراضيهم ويعطيها لغيرهم •

ومهما يكن الأمر فقد تبدل الوضع بعد بضعة أجيال • ولم يعد حفدة السادة الاقطاعيين الأصليين غرباء بعد فى أراضيهم ، واختفت الى حد كبير عداوة شعوبهم السابقة • لقد خلع الزمن القداسة على سلطانهم ، وكان فخرهم المحلى ومصلحتهم الذاتية قـد جعـلا غالبية رعاياهم موالين لهم • ولقد قام السـادة الاقطاعيون الأقوياء بضم أراضى جيرانهم الضعفاء ، وعنـدما حاول الملك أن يتدخل فى هذا الاجراء ، قاوموه • وشكل النبلاء الأحزاب والأحلاف التى تشاجرت فيما بينها ومع الملك • وأخيرا ، فى سنة ٧٧١ ق•م انتهى هجوم قام به مثل هذا التحالف ، فى اتفاقية مع قبائل بربرية معينة ، بوفاة الملك الحاكم لتشو ، وأقام خليفته فى عاصمة فى أقصى الشرق ولكن منذ هذا الوقت فصاعدا لم يكن ملوك تشو أكثر من لعب فى أيدى أقوى الولاة •

وهكذا تركت الصين بدون أية حكومة مركزية فعالة ، وازدادت الحروب بين جماعات السادة الاقطاعيين اندلاعا وشراسة ، ولم تقم القبائل البربرية على الحدود بغزو الصين فحسب، بل كان الصينيون يستدعونها أحيانا لتكون حلفاء لهم ضد الصينيين الآخرين ، بل كان ملك تشو الذى لا يملك حولا ولا طولا يدعو القبائل البربرية أحيانا لتساعده على استعادة ميراثه ، ولكن كانت النتائج مشئومة اذ لو كان البرابرة قد تعاونوا تعاونا فعالا لكان هناك القليل من الشك فى أنهم كانوا يكتسحون الصين حينذاك ، كما فعل أحيانا تحـالف القبائل البربرية فيما بعد •

وكان الخطر مسلما به ، وقـد اتفق بوجه عام على أن الصين يجب أن يكون لها ملك قوى بدلا من ملوك تشو الصوريين • لقد كان عظماء السادة الاقطاعيين متفقين على ذلك ، ولم يختلفوا الا على

مسألة من منهم يستطيع أن يؤسس أسرة جديدة ، وكان لكل واحد منهم مرشح : هو نفسه ، وقد استلزم استقرار الأمر عدة قرون من الحرب كما ذهب بمئات آلاف لا يمكن حصرها من أرواح الصينيين.

وفي أثناء ذلك استمرت عملية اللامركزية ، ولم يكن السادة الاقطاعيون لا يكترثون بأوامر الملك فحسب ، بل اغتصبوا سلطاته وكانوا يفعلون كما يشاءون . وفي عدد من الولايات كان كبار الموظفين يعاملون السادة الزعماء بنفس الأسلوب . ومن ثم كان الدوق ، على سبيل المثال ، في ولاية « لو Lu » ، وهي موطن كنفوشيوس ، لا يزال يحكم حكما اسميا ولكن كانت كل سلطاته في يد ثلاثة من أقاربه كانوا هم الموظفين الرئيسيين في الولاية . ولم يحكموا كما كانوا يريدون فحسب ، بل كانوا أحيانا يقتلون الورثة الذين سيرثون عرش الدوقية لكي يجلسوا على العرش غيرهم من الذين كانوا يفضلونهم . وفي سنة ٥١٧ ق.م (عندما كان كنفوشيوس في الرابعة والثلاثين من عمره) حاول الدوق الحاكم لولاية « لو » أن يثور على هؤلاء الموظفين المغتصبين ، ولكنه فشل فكان عليه أن يهرب من الولاية ويعيش بقية حياته في منفى .

ولم يكن السادة الاقطاعيون خاضعين لمثل هذه المعاملة فحسب بل كان موظفوهم المغتصبون بدورهم يفتك بهم من هم أدنى منهم . ومن ثم فعندما كان كنفوشيوس في السابعة والأربعين ، اذا بزعيم المغتصبين للسلطة من بين ضباط دوق « لو » يهاجمه رئيس أتباعه الخصوصيين ويسجنه ويضطره لأن يقسم بطاعة مرءوسه الاسمى . وقد حكم هذا الخادم الصلف ، الدولة بيد من حديد لعدة سنوات، وأخيرا قرر أن يغتال كل رؤسائه الاسميين من ضباط الدولة ويستولى على السلطة الاسمية الى جانب السلطة الفعلية ، ولكن ظهرت عقبة في آخر دقيقة أحبطت المؤامرة ، وكان على السفاح أن يهرب .

ولم تكن « لو » وحدها هى ضحية مثل هذه الفوضى ، بل كانت بعض الولايات أسوأ حالا ٠ وفى الجملة يمكن القول بأنه قل أن وجد فى ذلك الوقت « قانون ونظام » : لعدم وجود سلطة مركزية قوية لتنفيذهما ٠ ولما كان الملك لا حول له ولا قوة ، لذلك كانت الولايات تحارب بعضها بعضا حربا مستمرة ٠ وفى القرن السادس قبل الميلاد ، وهو القرن الذى ولد فيه كنفوشيوس ، كانت هناك أربع ولايات كبيرة ذات سطوة رفيعة الشأن ، على رقعة العالم الصينى ، وعدد من الولايات الصغرى فى الوسط ، وقد جرت العادة على أن تلتقى الولايات الكبرى لتخوض معاركها على أرض الولايات الوسطى ، وكانت تقوم بذلك سنويا ، وفى بعض الأحيان ، لمدة عشرة أعوام متعاقبة بدون انقطاع ٠

أما فى داخل الولايات فنظرا لأن كثيرين من الحكام كانوا ضعفاء ، فقد كانت معظم قبائل النبلاء القوية تحارب بعضها بعضا بنفس الطريقة ، وكانت بعض الولايات تقسم الى معسكرات مسلحة ، فى حالة مستمرة فى صورة قليلة أو كثيرة من الحصار ٠ وأخيرا ، كان الأفراد حتى بين العائلات ، يتشاجرون : الأمر الذى أدى بأتباعهم الشخصيين الى أن صاروا فى حالة يمكن وصفها أدق وصف بأنها حالة « حروب خاصة » ٠

واذا أخذنا فى اعتبارنا حقيقة أن الصين ، حتى ذلك الوقت ، كانت من أعظم البلاد حضارة ، فقد كان وضعها سيئا حقا ٠ وكان يندر القول بأن أى فرد ، سواء كان فى درجة رفيعة أو فى أحط حالة ، ينعم بالأمن ، وكان عامة الشعب يرثى لهم ٠ لقد كانوا الضحايا الفعليين للحرب ، وكانت هناك نتيجة واحدة للامركزية هى أن صغار الأريستوقراطيين حاولوا أن يقلدوا بذخ كبار النبلاء ، ولكى يقوموا بهذا الاجراء فرضوا ضرائب على الأهالى فى قسوة بالغة

واستغلوهم أكبر استغلال وجعلوهم يشتغلون فى السـخرة حتى ضعفت المحاصيل لعدة سنوات ومات الكثير منهم جوعا ٠

ومن بعض الوجوه كان من المحتمل أن الأحوال كانت أحسن فى السنوات الأولى لحكم أسرة تشو ، بعد غزوها للبلاد مباشرة ٠ وفى تلك الأيام لم يكن الأريستوقراطيون فى حاجة الى استرضاء الناس فحسب ، بل كانوا أيضـا يخضعون لنظام الأخلاق القبليـة التى تطورت فى وضع أبسط ٠ لقد كان على عامة الشعب أن يشتغلوا بجد ويتمتعوا بالقليل من رغد العيش ، ولكن « كتاب الشعر » يعطى انطباعا عن أن سادة الولايات الكبيرة كانوا يهتمون اهتماما مباشرا بأولئك الذين يفلحون الأرض ، فى الوقت الذى أحس فيه الفلاحون بولاء ثابت تجاه سادتهم ، ولم تؤد زيادة الرغبـة فى الشـئون الدنيوية الى تقدم أخلاقى بل الى الانتكاس ٠ لقد شغل الأريستوقراطيون بالتنافس فيما بينهم على اظهار البذخ ،وبمحاربة بعضهم بعضا فى حروب مستمرة ٠ وكانت تعقد الاتفاقيات تحت التهديد بالقوة وتنقض حالما توجد ذريعـة لذلك ، ولكن ناقضى الاتفاقيات لم يقاسوا العقوبات الرهيبة التى كان من المفروض أن تنزلها بهم الأرواح ؛ وكان لابد من أن يقلل هذا الأمر من قدر الايمان بالدين ؛ لقد ساعدت ظروف الزمن بوجه عام على تدعيـم مبدأ أن الأبله وحده هو الذى يبقى على كلمته أو يتعامل فى أية صورة اللهم الا ما تمليه عليه مصلحته الذاتية المنطوية على الأنانية٠

لقد أدى النظام الاقطاعى فى البداية الى الحكومة الصالحة ٠ لقد سمح للملك بأن يعين الرجال الأكفاء ليحكموا مختلف أجزاء المملكة وأن يطردهم اذا أساءوا حكمها ٠ ويبدو أنه حدث فى الصين كما حدث بعد ذلك فى أوربا ، أن الاقطاعيات لم تكن فى أول أمرها وراثية ، فاذا اعتقد أن ابنا ما جدير بأن يحل محل أبيه فى منصبه كان على الملك أن يعينه من جديد ، ولكن نظرا لأن العائلات النبيلة

صارت أقوى نفوذا وصار الملك أضعف شأنا ، لذلك فقد اضطرته الظروف الى أن يثبت ورثة أتباعه تلقائيا ، ثم استغنى فى النهاية عن كل هذا ، ولكن لما انتشر هذا الوضع وطبق حتى فى الوظـائف الدنيا ، صارت الصين يحكمها موظفون ورثوا وظائفهم فى سهولة ويسر ، ولم يعد لديهم ، على وجه العموم ، ميل أو اهتمام بأعمالهم • لقد كان بعضهم يعتبرون وظائفهم ليست الا مجرد رمز لحقهم فى السطوة والامتيازات وفى الترف ، وكانت النتيجة الحتمية سوء ادارة الحكومة •

ولقـــد أدرك أشـــخاص كثيرون هذا الأمر ، بل أدرك الأريستوقراطيون أنفسهم أن كثيرين من طبقتهم قد صاروا مجرد عالة على المجتمع ؛ وكان هذا أمرا من السهل على حكام الولايات ، بصورة خاصة ، أن يشاهدوه لأنهم كانوا ضحية للنبـلاء ، ويكاد يكون وضعهم فى ذلك مماثلا لوضع الشعب اذ كان كبار الموظفين لدى حاكم الولاية هم تابعوه اسميا وكانوا مسئولين عن مختلف أعمال الحكومة ، ولكنهم بوجه عام لم يهملوا واجباتهم فحسب بل استغلوا أيضا جيوشهم الخاصة للحط من قدر سلطة الحاكم ان لم يكن اغتصابها •

وفى ســنة ٥٣٥ ق • م عندما كان كنفوشيوس فى السادسة عشرة من عمره حاول دوق احدى الولايات الصغيرة أن يصحح هذا الوضع ، فبدلا من أن يسند الوظائف الرئيسية فى حكومته الى أقاربه من النبلاء ، الذين كان من عادتهم بلا شك أن يسندوها الى أبنائهم كما لو كانت عقارا متوارثا عن عائلاتهم ، حرم هذا الدوق أقاربه من هـذه الوظائف وأحـل محلهم رجالا من ولايات أخرى ليقوموا بأعمالهم ، فأثار هذا الاجراء ثائرة أقاربه حتى أنهم جمعوا كلمتهم

واغتالوا الدوق ووضعوا حدا لانتشار هذه العادة وحرمانهم من امتيازاتهم (١٧)

من كان هؤلاء الأشخاص من الولايات الأخرى ، الذين أراد الدوق السيء الحظ أن يستخدمهم كموظفيه ؟ لم يذكر لنا التاريخ ، ولكن من السهل أن نحدس من هم . انهم يندر أن يكونوا من عامة الشعب اذ أن قلة من عامة الشعب قد عرفوا القراءة والكتابة فضلا عن طريقة ممارسة الحكم ، ومن المحتمل أن كان هؤلاء الأشخاص ممن ينتمون الى الطبقة المتكاثرة من حفدة النبلاء الفقراء . لقد مارس الأريستوقراطيون تعدد الأزواج على نطاق واسع ، وكنتيجة لذلك صار هناك عدد كبير من الأبناء الصغار كان من المستحيل استحالة تامة أن يزود كل منهم بالاقطاعيات والوظائف ، ومن ثم كان عدد كبير من الأشخاص من أبناء الأريستوقراطيين قد تركوا وحدهم ليعولوا أنفسهم وصار بعضهم جنودا مرتزقة وصار البعض الآخر يمارسون الأعمال الدنيا فى البلاط،وانتقل بعضهم من ولاية الى ولاية أخرى سعيا وراء وظائف أحسن ؛ ومن المحتمل أن يكون أناس على هذه الشاكلة قد حاول الدوق ، الذى نحن بصدد الحديث عنه، أن يستخدمهم كموظفين عنده . ومن وجهة نظره ربما كانت لهم ميزتان : اذ أنه لما كان يقوم بتعيينهم كان فى استطاعته أن يستغنى عنهم ، فقد كان من المحتمل أن يكونوا أكثر ولاء له من النبلاء الذين كان لهم استقلالهم فى سلطتهم . وفضلا عن هذا ، وكان المعقول افتراض ذلك ، فانه نتيجة للتنافس فيما بينهم فقد كان من المحتمل أن يكونوا أحسن حكما ولعلهم صاروا أكثر اهتماما بأداء واجبهم من غالبية الأريستوقراطيين الذين كانوا مجرد ورثة لمناصبهم .

لقد لعب هؤلاء المنبوذون من سلالة النبلاء دورا هاما فى

---

(١٧) انظر ليجى فى كتابه : « تشون تسيئو مع تسوتشوين » ص ٦١٩ .

التاريخ • لقد كونوا طبقة وسطا على صلة بعامة الشعب ، وكانوا على وعى بمآسيهم ، ولكنها كانت طبقة متعلمة تستطيع أن تحتج احتجاجا له فعاليته بينما لم يكن فى استطاعة عامة الشعب أن تقوم بهذه المهمة • وقد كان بعض هؤلاء الأشخاص ، فى بداية الوقت الذى كان فيه كنفوشيوس ، فى استطاعتهم أن يبلغوا أرقى المناصب وأن يحسنوا التأثير الفعال على أحداث زمانهم • اننا نعرف أسماءهم ولكننا لا نعرف عنهم الا القليل •

ومع ذلك فقد أدرك واحد منهم أنه فشل فشلا ذريعا الى حد بعيد فى تحقيق ما كان يصبو اليه فى حياته • لقد كان رجلا من ذوى العقول الراجحة والمثل العليا السامية ، ونظرا لأنه رفض المساومة لم يقم واحد من حكام ذلك العصر باسناد أية وظيفة هامة له فى حكوماتهم • ولهذا السبب عاد للتدريس واضطر الى أن يقضى وقته فى تحسين المبادىء التى كان يعلمها لتلاميذه واتقانها ومن ثم ، فانه على الرغم من أنه فشل شخصيا ، فان مبادئه نجحت بعد وفاته فى احداث تغييرات خطيرة فى نظرية الحكومة فى الصين وممارستها لعملها ، ولهذا السبب فاننا بعد مضى ألفين وخمسمائة سنة على وفاته ، لا نعرف اسما من أسماء الصينيين خيرا من اسم كنفوشيوس •

الفصل الثالث

كونفوشيوس والكفاح من أجل سعادة البشر

كان كنفوشيوس واحدا من الرجال القليلين الذين أثروا تأثيرا عميقا فى التاريخ البشرى بقوة مواهبهم الشخصية والعقلية وبقوة انجازاتهم • ولا يمكن تفسير حقيقة ظهور مثل هؤلاء الرجال على المسرح تفسيرا كاملا ، ولكن بفحص ظروف حيـاتهم نستطيع على الأقل أن نزيد من قدرتنا على فهمهم •

ومما يصعب محاولتنا فهم كنفوشيوس هو ضخامة الأساطير والأحاديث المنقولة التى تجمعت حول اسمه طوال القرون حتى صار من الصعب أن نعرف الحقيقة • وتنبعث مثل هذه التعقيدات ، ان لم نقل التحريفات ، عن عاملين اثنين مختلفين تمام الاختلاف ، فمن ناحية يلاحظ ان المؤمنين به رغبوا فى أن يمجدوه ، ومن ثم قاموا بتلك الأعمال المخلصة مثل وضع تاريخ دقيق لتسلسل نســبه يرجعه الى الأباطرة • ومن ناحية أخرى فقد عمل أولئك الذين كانوا يرون أن مصالحهم مهددة من جانب هذا المفكر الثائر ، على احبـاط هجماته على الامتيازات الحصينة بتحريف وتمويه ما كان عليه أن يقوله ، وقد نجحوا فى ذلك نجاحا جزئيا ، ومن ثم فان سبيلنا الآن الوحيد هو أن نتغاضى تماما عن القصة التقليدية عن حياته وعن

فكره وأن نثق فقط فى الأدلة القليلة التى يمكن انتزاعها من الوثائق التى يمكن اقامة الدليل على أنها قديمة ويمكن الاعتماد عليها • (١)

ولد كنفوشيوس سنة ٥٥١ ق•م فى ولاية « لو » الصغيرة وكان موقعها هو موقع محافظة شانتونج Shantung الحالية ، أما عن أجداده فلا نستطيع أن نكون على بينة من أمرهم ، ولكن من المحتمل أن كان من بين أجداده أريستوقراطيون ، ومهما يكن فانه عندما كان شابا ، كان بشهادته هو نفسه « لا مكانة له وفى ظروف متواضعة » (٢) وكان عليه أن يعول نفسه وأن يباشر أعمالا هينة الشأن • لقد كان فى استطاعته أن يدرس ، ولكن يبدو أنه كان يعلم نفسه بنفسه الى حد كبير •

ولا شك أن هذه الخبرات قد أتاحت له أن يرى عن قرب معاناة عامة الشعب الذى صار مهتما به اهتماما بالغا • لقد كان يحس بأن العالم مفكك تفككا يبعث على الحزن ، وأنه كان من الأمور الجوهرية ادخال تعديلات فعالة ، وكانت لديه الفرصة لا ليعرف الشعب فحسب بل ليكون أيضا على علم بالأريستوقراطيين الذين كانوا السادة الوارثين للكون • لقد كان سىء الظن جدا بغالبية الأريستوقراطيين• كان يتحدث بلا شك عن النبلاء المتطفلين فى زمنه عندما قال « من الصعب أن نتوقع أى شىء من أناس يمتلئون من الطعام طوال اليوم فى حين أنهم لا يستعملون عقولهم فى أى سبيل على الاطلاق، بل ان المقامرين يفعلون شيئا ، وفى هذه المرتبة هم خير من هؤلاء الكسالى • » (٣)

---

(١) انظر كريل : « كنفوشيوس : الرجل والأسطورة » ص ص ٧ — ١١ ، ٢٩١ — ٩٤ •

(٢) المقتطفات الادبية : ٩/٦/٣ •

(٣) المرجع السابق : ١٧/٢٢ •

ومع ذلك لم يكن الأريستوقراطيون ، لسوء الحظ ، كسالى دائما . لقد استخدموا مهارة فائقة في ابتكار مزيد من الاضافات الثمينة الى حياتهم الباذخة التى كان الناس يدفعون نظيرها الضرائب ويساقون الى السخرة . وفوق كل هذا كان النبلاء يباشرون فن الحرب ، ففى الصين ، كما فى معظم البلدان الأخرى ، كان النبلاء عسكريين فى أصلهم . وفى الأزمنة الاولى باشر هؤلاء الموظفون العسكريون عملا نافعا بحمايتهم للمجتمع ، ولكنهم كطبقة ، عاشوا الى حد كبير مدة تجاوزت مدة الاستفادة منهم ، فصاروا الآن يفتكون بالناس ويفتك بعضهم ببعض . وقد أحس غالبيتهم أن فنون الحرب كانت وحدها الأعمال الجديرة بأن يوجه اليها النبيل اهتمامه البالغ ، وكانوا يسخرون ، فيما بينهم ، من أولئك الذين يشغلون أنفسهم بأن الأمر فى حاجة الى حكومة صالحة والى ادارة منظمة .

ولم يكن كنفوشيوس مسالما ، فلقد كان يؤمن ، فى أسف ، بأن هناك أوقاتا يجب أن يلجأ فيها ذوو الأخلاق الى القوة كى يحموا أنفسهم والعالم من أن يستعبدهم أولئك الذين يرون أن القوة هى حجتهم الوحيدة والضمان الوحيد الذى يتفقون عليه ، ولكنه كان يعتبر أن القوة هى الملجأ الأخير والأمر الذى يجب أن يكون تابعا دائما ، لا من الناحية الفكرية فحسب بل كحقيقة ثابتة ، لسلطة العدالة . وعلى المستوى الكمالى والشخصى قال : « اذا ما أحسست بقلبى أننى مخطىء وجب على أن أقف خائفا حتى لو كان خصمى أقل الناس قوة ، ولكننى لو أحسست بقلبى أننى على صواب فسأسير قدما حتى ولو كنت سأواجه آلافا أو عشرات الآلاف »(٤) .وعلى المستوى الأكثر اتصالا بالناحية العملية كان يؤمن بأن أى جيش لا يمكن أن يحارب حربا فعالة مالم يعرف حتى جنوده العاديون لماذا هم يحاربون

---

(٤) منشيوس ، (١) ٢/٧ .

وما لم يكونوا مقتنعين بعدالة قضيتهم · ولقد آمن بأن الحالة النفسية تعتمد على اقتناع أخلاقى · وقال : « اذا قدت شعبا لم يكن قد تعلم فن الحرب فأنت ترمى به الى التهلكة · » (٥)

وكان كنفوشيوس على علم بأن مثل هذه الآراء مختلفة تمام الاختلاف عن آراء النبلاء ، وهو لم يدرك ذلك فحسب بل حاول أيضا أن يفعل شيئا بشأنها · وحتى زمنه كانت كلمة « تشون تزو Chün tzü » أى «النبيل» يكاد يكون لها معنى دولى يماثل الى حد ما المعنى الأصلى لكلمة «الجنتلمان Gentleman » عندنا · لقد كانت تعنى رجلا طيب المنبت ينتمى أجداده الى طبقة فوق طبقة عامة الشعب· ومثل هذا الشخص نبيل منذ ولادته ، فاذا لم يولد فرد على هذه الصورة فلا يمكن أن يكون نبيلا ، ولا يمكن للنبيل أن يكون أدنى من ذلك مهما كان فى سلوكه من رذائل · لقد غير كنفوشيوس استعمال هذه الكلمة تمام التغيير ، اذ أكد أن أى رجل يمكن أن يكون نبيلا لو كان سلوكه نبيلا بعيدا عن الأنانية وعادلا وشفيقا · ومن ناحية أخرى أكد أنه لا يمكن اعتبار الانسان نبيلا على أساس المنبت، لقد كان هذا وحده موضوع سلوك وشخصية ·

كان كنفوشيوس يزدرى دائما ازدراء واضحا : الفصاحة واللغة المنمقة ؛ وليست هناك أية وثيقة تثبت أنه ألقى أية محاضرة عامة ، وعلى الرغم من ذلك فلا بد وأنه كان متحدثا مقنعا بصورة غير عادية سواء بالنسبة لفرد واحد أو لمجموعة صغيرة · وحتى الآن ونحن نقرأ الآراء التى ذكرها ، نستطيع أن نحس بجاذبية شخصيته· لقد كان يتحدث عن آرائه في اصلاح العالم ، وكانت آراؤه عديدة وجريئة وهو يوجهها الى أولئك الذين كان يتصل بهم ، وقد اجتذب نحوه تدريجيا عددا من الأشخاص الذين صاروا تلاميذه ، أو كما

---

(٥) المقتطفات الأدبية ١٣/٣٠ ، وانظر أيضا ١٣/١٩ .

ندعوهم عادة : أتباعه . وفي بادىء الأمر كان بعضهم يصغرونـــه ببضع سنوات .

وعلى قدر ما نعلم ، تألفت هذه المجموعة من كنفوشيوس وأولئك الذين كانوا يدرسون معه ، وشكلت أول مدرسة خاصة في تاريخ الصين كرست اهتمامها للدراسات العليـــا . وكان أبناء الحكام والأريستوقراطيين لهم معلموهم من أمد طويل ، أما الأشخاص الذين كان مقدرا لهم أن يصبحوا من صغار الموظفين في البلاط فقد كانوا يتعلمون كصبية موظفين على يد رؤسائهم . ويبدو أن هذا اللون من التعليم كان يتناول بصورة رئيسية التدريب على الفنون حتى يتمكن الأشخاص من مباشرة أعمال تقليدية معينة ، ومع ذلك لم يكن كنفوشيوس مهتما بتدريب تلاميذه الذى كان مسئولا عنهـــم فحسب ، بل بتربيتهم بالمعنى الذى يشرح به أحد المعاجم معنى كلمة التربية بأنه : « التطور والتثقيف عقليا وأخلاقيا لتوســيع المدارك وتقويتها وتنظيمها . »

لقد كان هناك سبب واضح فى تحول كنفوشيوس عن النمط التقليدى فى مفهومه لمهمة الدراسة . لقد كان البرنامجان متماثلين فى أن كليهما مخطط ليهيىء الدارس ليكون موظفا حكوميا ، ولكن فى الوقت الذى كانت فيه النظرة العادية لمثل هذا الموظف تتوقع أن يكون مجرد أداة في يد حاكمه فيمارس مايريد الحاكم أن يفعله ، وأن تدار الحكومة بالأسلوب المعتاد ، كان كنفوشيوس يتوقع من تلاميذه أن يلعبوا دورا ديناميكيا في احداث ثورة فى أية حكـومة قد يشتركون فيها ويخضعونها لخدمة احتياجات الشعب ، فاذا كان عليهم أن يقوموا بهذا العمل كان من الواضح أنهم سيكونون معدين لهذا العمل العنيف بعلمهم وشخصيتهم وبذكائهم المتطور الى أقصى حد . ولا يكفى مجرد التدريب على فنون الروتين الدارج .

لم يعد الرأى الذى نادى به كنفوشيوس من أن أى فرد يمكن

أن يصير نبيلا ، بغض النظر عن منبته ، أمرا نظريا : فلقد أخذ على عاتقه أن يجعل من تلاميذه « نبلاء » ، لقد قبلهم من أحط الطبقات الاجتماعية ومن أرقاها كذلك ، وقد قال : « فى مجال التربية يجب ألا تكون هناك تفرقة طبقية » (٦) وفى تقبله للطلاب من مختلف الطبقات قال وهو يستقبلهم : « اننى لم أرفض قط أن أعلم أى شخص حتى لو جاءنى مشيا على الأقدام ، دون أن يقدم شيئا نظير تعليمه ، أكثر من حزمة من اللحم المجفف » (٧) ٠

لقد كان ، فى الحقيقة ، من تلاميذه أفراد من النبلاء الى جانب غيرهم ممن هم من أشد الناس فقرا ٠ ويبدو أن كنفوشيوس كان محايدا ، ولكن لو كانت عنده مفاضلة لكان من المحتمل أن تكون لمن هم أقل غنى ٠ لقد امتدح أحد طلابه لأنه استطاع « برغم ارتدائه الرداء المهلهل المبطن بالحلفا أن يقف جنبا الى جنب مع أولئك الذين كانوا يرتدون الفراء الثمين ، دون أن يتملكه أدنى ارتباك ٠ » (٨)

ومن الطريف حقا أن نفس هذا الطالب ، الذى يرتدى هنا رداءا مهلهلا ، قد صار فيما بعد موظفا كبيرا جدا ، يشغل منصبا ربما كان يعد أخطر منصب فى البلاد يمكن أن يتقلده شخص لم يتقلد منصبه عن وراثة ، وهذا يوضح حقيقة أن كنفوشيوس لم يكن مشغولا فى التربية من أجل التربية فحسب ، بل كان يعد طلابه لينطلقوا الى العالم ويكافحوا من أجل مبادئه ٠ وقد كان لهذا السبب،برغم قبوله أشخاصا من جميع الطبقات كطلاب له ، شديد التدقيق فى متطلباته من قدراتهم العقلية ، اذ قال : « اننى أوضح الطريق فقط للطالب الذى قد بحث عنه بنفسه ، وأطلب منه أن

---

(٦) المقتطفات الأدبية : ١٥/٣٨ ٠
(٧) المرجع السابق : ٧/٧ ٠
(٨) المرجع السابق : ٩/٢٦ ٠

يكتشف تصوراته الشخصية قبل أن أطلعه على واحدة ، فلو أننى أوضحت للطالب جانبا واحدا من الموضوع ولم يكتشف هو بنفسه الجوانب الثلاثة الأخرى ، ما كررت درسى • » (٩)

ولما كان قد أخذ على عاتقه أن يحيل الأشخاص ذوى الأصل الوضيع الى «سادة» قادرين على أن يحافظوا على مراكزهم فى دواوين الدولة مع أكثر ندماء الأمراء تهذيبا ، لذا كان عليه أن يعلمهم آداب البلاط • لقد فعل هذا ، ولكنه هنا غير تغييرا عميقا طبيعة نظام قديم فى أسلوب كانت له أهم النتائج • والعبارة الصينية المعروف بها مثل هذه الآداب هى « لى Li » وهى تترجم بوجه عام ، كما استعملها كنفوشيوس بمعنى « شعائرى » أو « قواعد اللياقة » وهاتان الترجمتان فيهما الكفاية بلا شك فيما يتصل بهذا النظام كما أوجده كنفوشيوس ، ولكنهما قاصرتان للأسف عن التعبير عما كان يقصده منها •

والمعنى الأصلى لعبارة «لى Li » هو « أن تضحى » ولايزال هذا معناها فى الصينية الحديثة • وقد امتد معناها ليدل على الطقوس المستخدمة فى القربان ومن ثم لتغطى كل نوع من أنواع الاحتفالات و «المجاملة» التى هى من خصائص سلوك أولئك الذين كانوا يشكلون بلاط الحاكم •

بدأ كنفوشيوس من هناك ، فاذا كان الحكام جادين تماما فى التضحية من أجل أجدادهم ، فلم لا يكونون بالمثل جادين كذلك فى الاهتمام بحكمهم لأقاليمهم ؟ ولو اتبع الوزراء أسلوب المجاملة فى تعاملهم مع بعضهم البعض وفى اتصالاتهم اليومية بالبلاط ، فلم لا يراعون بالمثل مشاعر عامة الشعب الذين كانوا العمود الفقرى للدولة ؟ ومن ثم قال لأحد طلابه انه حيثما يذهب فى العالم يجب

---

(٩) المقتطفات الأدبية : ٧/٨ •

عليه أن يعامل كافة الناس الذين يتصل بهم كما لو كان «يستقبل ضيفا هاما » ؛ واذا صار موظفا في الحكومة وجب أن يتعامل مع الناس كما لو كان « يقدم قربانا عظيما » (١٠) ولا شك أن مثل هذا السلوك يتناقض تناقضا شديدا مع سلوك الاهمال الذى يتبعه معظم الأريستوقراطيين ٠

وكانت آداب البلاط تفهم حينذاك ، كما كان الحال في معظم الأوقات والأماكن ، على أنهـا مجموعة من القواعد الثابتة الجيدة التعريف الى حد ما ٠ ونجد في بعض مانطلق عليه : «الكلاسيكيات» الكنفوشيوسية ، أدق التوجيهات السلوكية التى تعرف الفرد تماما بالمكان الذى ينبغى عليه أن يوضع فيه كل أصبع عند التقاط شيء شعائرى ، ولكن فهم كنفيوشيوس نفسه لل (لى Li)مختلف تماما ٠ لقد كانت هى الروح التى يحسب لها حساب ، وكان يزدرى أولئك الذين كانوا يؤمنون بأن فى امكانهم أن يتفوقوا فى الـ (لى Li) بمجرد اظهار التفاخر بالزينات الثمينة والتقليد المستمر لسلوك الغير٠

وقد سأله أحد طلابه : ما هى ال (لى) فأجاب الأستاذ : « هذا سؤال مهم ! فيما يتصل بأمور الطقوس ، اذا كان لا بد للفرد من أن يخطىء فى أمر أو آخر فمن الأفضل أن يكون أكثر اقتصادا عن أن يكون متفاخرا بصورة سوقية ، وفى الجنائز وطقوس الحزن من الأفضل أن يحس المشيعون بالحزن الحقيقى عن أن يكونوا مهذبين تمام التهذيب فى كل التفاصيل الشعائرية » (١١)

وذكر كنفوشيوس نفسه أنه لا يتردد في التحول عن آداب السلاط المقبولة عرفا اذا ما أحس بأن مثل هذا التحول تمليه أسباب

---

(١٠) المقتطفات الادبية : ١٢/٢٠ .
(١١) المرجع السابق : ٤/٣ .

ذات صحة فى التقدير وسلامة فى الذوق · ومن ناحية أخرى ، لم يقلل قط من أهمية العرف ·

ونظامه الكامل فى الأخلاق ، بل فى الحقيقة ، فى معظم فلسفته يبدو أنه قائم على ادراك لما عليه طبيعة الكائن البشرى ، فلم يقع قط فى خطأ من الخطأين اللذين كان يقع فيهما المرء أحيانا فى هذا المجال : فمن ناحية لم يفكر فى الفرد ككائن مستقل تمام الاستقلال عن المجتمع ، كما أنه لم يفكر فى المجتمع كضرب من الكيان الميتافيزيقى سام تمام السمو عن الفرد حتى يصعب القول بأن الفرد موجود ما لم يكن مندمجا فيه تمام الاندماج ·

لقد آمن كنفوشيوس بأن الأشخاص مخلوقات اجتماعية هامة· لقد كان على المجتمع الى حد بعيد جدا (وان لم يكن بصورة كاملة بحال من الأحوال) أن يشكلهم الى ما هم عليه · ومن ناحية أخرى، فما دام المجتمع لا يعدو أن يكون أكثر من تفاعل بين الاشخاص ، فان المجتمع يشكله الأفراد الذين يكونونه بالصورة التى هو عليها·لقد آمن كنفوشيوس بأن ضمير الفرد يجب أن يمنعه بالمثل سواء من الانسحاب من المجتمع أو من أن يخضع له حكمه الأخلاقى · ومن الخطأ بالمثل ، اذن ، أن تصبح « انعزاليا » أو أن « تتبع الجماعة » · ان الشخص الذى على خلق يجب ألا يكون عضوا لا اعتبار له بل عضوا عاملا فى المجتمع · واذا ما بدا له أن ممارسة العرف فيها فساد أو ضرر ، فانه لا يتخلى عن العمل به فحسب بل يحاول أيضا أن يؤثر على الآخرين ليبدلوا هذا العرف ؛ ومع ذلك فستكون المجالات التى يباشر فيها هذا الاجراء بالضرورة محدودة ، وكشخص عاقل واجتماعى سيتمشى مع العرف حيثما بدت الممارسة العامة معقولة أو لا ضرر منها ·

ومن المقرر أن العرف هو عصب المجتمع ، فلو أن كل واحد

منا أكل ونام وعمل متى وحيث يشاء واستخدم الكلمات التى ابتدعناها كأفراد لتعني ما نريد نحن شخصيا أن تعنيه ، لصار العالم مكانا من الصعب العيش فيه • ولقد استخدم كنفوشيوس كلمة (لى) لتدل على كل مركب فى الاستعمال العرفى والاجتماعى أمده بتضمين أخلاقى • وبهذا الارتباط فان ماتقره الأخلاق واللياقة يعزز بعضه بعضا ، فنحن نعتبر أنه من الأدب ، وليس من الضرورة أن يكون واجبا أخلاقيا ، أن تكون مؤدبا مع كل فرد نحن على صــــلة به ، ونعتبره واجبا أخلاقيا ، وليس بالضرورة أن يكون التزاما أدبيا ، أن نعيد الممتلكات التى نجدها الى من افتقدها ، حتى ولم نكن على معرفة به ، ولكن كل ضروب الالتزامات التى فرضتها أسمى المفاهيم على الواجب الأدبى والأخلاقى قد تضمنتها ال (لى) ، فاذا قلت انه ال (لى) فان هذا القول مساو لقولنا « معمول به » وهــو غالبــا أكثر اقناعا من أكثر الحجج تفصيلا •

كان هذا المفهوم لد (لى) ذا أهمية كبيرة فى برنامج كنفوشيوس التربوى ، ويقول الأطباء النفسيون ان تربيتنا رغم أنها تصـــقل العقل الى حد كبير الا أنها غالبا ما تفشل فشلا واضحا فى اخضـاع عواطفنا للنظام ، ولهذا السبب تعجز أحيانا عن اخراج فرد كـامل التكوين قادر على أن يأخذ مكانه بوصفه عضوا سعيدا وصالحا فى المجتمع • وكان كنفوشيوس يعتبر أن الصقل العقلى قليل القيمة مالم يكن مصحوبا بالتوازن العاطفى ، وللوصول الى مثـل هذا التوازن العاطفى اعتمد على التربية فى ال (لى) ؛ وكان يقول ان من الواجب أن « ينظم تعليم النبيل عن طريق ال (لى) » فاذا ما أعد شـخص على هذه الصورة لمواجهة العالم ،فان له من القوة ، على ما يعتقد ، ما يمكنه من أن يتمسك بحق بمبادئه خلال أية محنة وفى مواجهـة كل اغراء • (١٢)

(١٢) المقتطفات الادبية : ٦/٢٥ وانظر ايضا : ٤/٥ .

وهناك مفهوم آخر له أهمية أساسية فى فلسفته وفى تربيته وكان ذلك : مفهوم الطاو taoويترجم عادة على أنه «الطريق» • وأقدم معنى لل (طاو) كان « الطريق » أو « السـبيل » ، وقبل زمن كنفوشيوس كانت الكلمة تستخدم عادة اما فى هذا المعنى أو بمعنى طريق السلوك الذى قد يكون صالحا أو طالحا فى غير تمييز • وبعد زمن كنفوشيوس استخدم خاصة عند الطاويين (الذين أطلق عليهم هذا الاسم من هذه الكلمة) كمفهوم تصوفى للدلالة على التركيب الأول للكون أو على شمول الأشياء كافة •

وهذه الفكرة الأخيرة راجعة بصورة عامة جدا الى استخدام كنفوشيوس للعبارة • وهناك فقرات قليلة فى « المقتطفات الأدبية » يبدو أنها تجعلها مقبولة ، ولكن يمكن أن يكون لهذه الفقرات أيضا تفسير مختلف • وفى رأيى ، أنه من الضرورى اذا ما كان علينا أن نفهم فلسفة كنفوشيوس أن نعترف بأن ال (طاو) لم تكن فى نظره شيئا صوفيا • لقد كان « **الطريق** » أعنى : الطريق دون كل الطرق الأخرى التى يجب أن يسلكها الأشخاص • وهدفه هو السعادة فى هذه الحياة ، هنا والآن ، لكافة الجنس البشرى • وتماما مثلما تحمل ال (لى) معنيين : الأدب والأخلاق فكذلك الحال بالنسبة للطريق الذى يتضمن من ناحية : القانون الأخلاقى للفرد ، ومن ناحية أخرى نمط الحكومة التى يجب أن تصل الى القدر الكامل المتيسر لرفاهية كل كائن حى ولادراكه الذاتى •

واذا ما قال واحد ان الطريق ليس صوفيا • فلا يعنى هذا أنه لم يكن ينظر اليه باهتمام ، ولقد قال كنفوشيوس : « لو أن انسانا سمع فى الصباح كلمة « الطريق » فلربما مات مساء نفس اليوم غير آسف • » (١٣) وليس مرد هذا بطبيعة الحال الى أنه ستصعد

---

(١٣) المقتطفات الأدبية : ٨/٤ •

روحه بعد ذلك الى السـماء ، اذ قد رفض كنفوشيوس أن ينافش موضوع الحياة بعد الموت • ولعل السبب في هذا هـو اهتمام كنفوشيوس البالغ بالكيف دون الكم ، فمقياس حياة الانسان ليس « كم طول عمره ؟ » ولكن « كيف كان نصيبها من الصلاح ؟ » • ولو أن فردا سمع كلمة « الطريق » (ولنا أن نفترض أن هـذا يعنى أنه قد فهمها أيضـا) لبلغ أسمى درجة ممكنة من درجات الاستنارة الأخلاقية moral enlightment ولسلك طريقا من طرق الحياة والفكر مرضيا الى أقصى حد • وليس من المرغوب فيه أنه يجب أن يموت فى نفس المساء ولكن اذا كان لا مفر ، فهذا أمر يمكن احتماله •

ومع ذلك لم يكن هذا الـ (طاو) ، هذا « الطريق » ، شيئا بالمعنى الصوفي الذى نظر اليه الطاويون فيما بعد • ولقد أوضـح كنفوشيوس ذلك عندما قال : « يمكن للأشخاص أن يعظموا من شأن « الطريق » ولكن « الطريق » لا يعظم (بنفسـه) من شـأن الانسان • » (١٤) ولما مضى على وفاة كنفوشيوس ثلاثة عشر قرنا كتب عالم في عهد أسرة تانج T'ang يدعى هان يو Han Yu ، وهـو من أعظم الشخصيات فى تاريخ الأدب الصينى ، كتب مقاله الشهير «عن الطريق» أسف فيه على حقيقة أن مفهوم كنفوشيوس قد اختلط بمفهوم الطاويين ، فقد ذكر (هان يو) أن « الطريق » فى مفهوم كنفوشيوس كان طريق العمل ، العمل الذى بث فيه الحياة : المثل الأعلى للعدالة (وهو فى المفهوم الصينى يعنى الملاءمة appropriateness) والذى حركه : دافع حب الناس قاطبة • وقال (هان يو) : ان هذا المثل الأعلى للطريق قد نقله حكماء الماضى الى الدوق تشو ومن ثم انتقل الى كنفوشيوس ومنشيوس Mencius ، بيد أنه لم يكن ، كما

---

(١٤) المقتطفات الأدبية : ١٥/٢٨ •

أصر ، أمرا ثابتا لا يتغير بل كان أمرا يمكن تغييره وفقـــا للفرد وللظروف ٠ (١٥)

ومع ذلك فاذا لم يكن كنفوشيوس يعتبر « الطريق » مطلقا كونيا cosmic absolute ، فانه مع ذلك كان حريصا فى مطالبتـه لطـلابه بأن يلتزموا به دون انحراف ٠ لقـد رفض نموذج الولاء الاقطاعى القائم على ولاء العبد لسـيده ، وطالب بدلا منه بولاء للمبدأ ، للطريق (١٦) ٠ وعلى الرغم من حقيقة أنه لم يبن فلسفته على معتقدات دينيـة أو على أى مذهب آخر فيما يتصـل بالطبيعـة الأساسـية للكون ، فقـد كان قادرا على أن يدفع بعـدد كبير من الأشخاص الى أن يدينوا بالولاء التام لمثله العليا ٠

لقد طالب كنفوشيوس أتباعه بأن يكونوا فى منتهى الحماسة٠ لقد كان ينتظر منهم ، بطبيعة الحال ، أن يكونوا على استعداد فى كل الأوقات لأن يضحوا بأرواحهم فى سبيل مبادئهم (١٧) ٠ وقد فعلوا ذلك ، وعلى مدى القرون أخرج كنفوشيوس مجموعـة ضخمة من الشهداء قدموا حياتهم دفاعا عن « الطريق » ، مات بعضهم كثـوار هبوا للحرب ضد الطغيان ، وكان هذا مصير وريث كنفوشيوس نفسه فى الجيل الثامن ، وقد مات غيرهم على يد منفذى حكم الاعدام لأنهم تجاسروا على العمل بوصية كنفوشيوس بنقد أى حاكم مخطىء دون أن يخشوا أحدا من أجل الصالح العام (١٨)

أما (هان يو) الذى فهمنا مقاله عن « الطريق » فقد هرب

---

(١٥) هان يو : « تشو وين كونج شياو هان تشانج لى هسين شـنج تشى » ١١/١ ٠ – ٣ ب ٠

(١٦) المقتطفات الأدبية : ١١/٢٣/٣ وانظر أيضا : ١٤/١٧ – ٢٨ ٠

(١٧) المرجع السابق : ١٤/١٣/١٩٢٢/١ ٠

(١٨) المرجع السابق : ١٤/٢٣ ٠

بصعوبة من الاستشهاد • لقد ارتقى الى منصب سام أكثر من مرة ولكنه كان يعاقب باستمرار على تقاريره الرسمية الانتقادية الصريحة التي كان يرفعها للعرش • وعندما صار امبراطوره بوذيا ورعا ، عقد احتفالا ضخما رحب فيه شخصيا بعظمة قيل أنها لبوذا ، وكانت قد نقلت في احتفال كبير على أنها أثر ، كتب (هان يو) الى الامبراطور يستنكر هذا الاجراء في كلمات صريحة : لقد أعلن أن هـذا التكريم المقدم ل « عظمة جافة وعفنة » لن يؤدى الا الى تضليل عامة الشعب وردهم الى الخرافات ، ودعا الى اتلاف الأثر • وغضب الامبراطـور بطبيعة الحال ، ولم تنقذ حياة هان الا عن طريق وساطة الأصـدقاء ولكنه نفى الى برارى الشـاطىء الجنوبى ، وهناك كرس نفسـه لتحسين حياة الناس ، وتحمل نفيه في جلد ، مطمئنا الى أنه يعرف أنه قاتل قتالا مجيدا ، وكان ضمن أولئك الذين كانوا فىأزمنةعديدة وأماكن عديدة ، صادقين في ولائهم « للطريق » ، وأنه سـيواجه الموت بنفس الطريقة • وكانت مهمة «الطريق» عند الكنفوشيوسيين تشبه مهمة « الايمان » عند المسيحيين •

ومسألة علاقة كنفوشيوس بالدين مسألة صعبة ، ومن المؤكد أنه لم يكن أصلا ، كما كان يظن أحيانا ، رسولا دينيا أو معلما دينيا • والواقع أنه من السـهل علينا أن نستشـهد بفقرات من « المقتطفات الأدبية » التي توضح أنه كان يحجم عن مناقشة المسائل الدينية ، وعلى الرغم من أنه كان يتحدث كثيرا عن الطريق الذى يجب أن يسلكه الناس ، فقد ذكر أحد طلابه أنه لم يناقش « طريق (أعنى الطاء) السماء » (١٩)، وقد تساءل طالب آخر كيف يستطيع المرء أن يخدم الأرواح فقال له كنفوشيوس « اذا كنت عـاجزا بعـد عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم الأرواح ؟ » وسأل طالب

(١٩) المقتطفات الأدبية : ١٥/١٢ .

عن الموت فقال له الأستاذ : « اذا كنت لم تفهم الحياة بعد ، فكيف تستطيع أن تفهم الموت ؟ » (٢٠)

ومن هذه الفقرات ومن فقرات أخرى معينة استخلص أحيانا أن كنفوشيوس لم يكن مخلصا . لقد ظن البعض أنه كان فى الحقيقة متشككا أو حتى ملحدا ، وأنه لافتقاره الى الشجاعة أو لسبب آخر امتنع عن أن يذكر الحقيقة لطلابه ، ويبدو أن هذا قد حسم مشكلة صعبة بصورة بسيطة جدا .

وهناك فقرات عديدة يتحدث فيها كنفوشيوس عن **السماء** الاله الأساسى عند الصينيين ، ويبدو أنه أحس ، فى الحقيقة ، بأنه قد عهدت اليه السماء شفاء علل العالم الصينى ، وكان أمله أن السماء لا ترضى له أن يخفق (٢١) ، وقد أضاف ذات مرة عندما صاح يائسا من أنه لم يكن هناك من أحد يفهمه : « ولكن السماء تفهمنى ! » (٢٢)

ولكن ماذا كان مفهوم كنفوشيوس لعبارة « **السماء** » ؟ لم تكن كائنا بشريا ، ويندر أن كانت السماء تفهم هكذا فى زمنه ، وهناك سبب واضح فى نبذ هذه الفكرة فيما يتصل بكنفوشيوس . واذا فحصنا « الطرق » التى كان يشير فيها كنفوشيوس الى السماء لبدا لنا أن هذه الكلمة تدل فى تفكيره على قوة أخلاقية فى الكون ندركها ادراكا غامضا . لقد أكد أهمية نضال الفرد تأكيدا شديدا ، ولكن يبدو أنه كان يأمل أن تقوم السماء ، كما قال ، « بمساعدة أولئك الذين يساعدون أنفسهم » ، ومع ذلك ، فحتى هذا الأمر لا يمكن أن يعتمد عليه ، لأن الخبيث ، كما لاحظ آسفا ، كثيرا

---

(٢٠) المقتطفات الادبية : ١١/١١ .
(٢١) المرجع السابق : ٩/٥ .
(٢٢) المرجع السابق : ١٤/٣٧ .

ما ينجح ويوفق ، وغالبا ما تبوء جهود الانسـان الصالح بالفشل أحيانا • وبرغم ذلك فان فكرة السماء قد أمدته بالشعور بأن هناك، بطريقة ما وفي مكان ما ، قوة تقف الى جانب الانسان الوحيد الذى يناضل من أجل الحق •

وكانت ديانة العصر لا تقول سوى القليل عن الحياة بعد الموت ولم تعن عناية تذكر بجعلها مانعا للشر أو باعثا على الفضيلة• وكنفوشيوس ، كما رأينا ، لم يناقش هذا الموضوع • وقد اختلف في اعتبارات عديدة اختلافا بينا عن الديانات التقليدية ، وتمشيا مع تجربته العادية ، لم يوجه الأنظار الى هذا الابتعاد عن آراء السلف الى حد أنه يغفلها أحيانا • وبوجه عام كانت التضحية تعد صفقة مقايضة ، يضحى فيها بالكثير جدا من المطالب للسلف والأرواح الأخرى في انتظار تلقى الكثير من البركات ، وقد ذم كنفوشيوس هذا الوضع : اذ كان يؤمن بأن التضحيات التقليدية يجب أن تقدم ولكن بنفس الروح التى يكون فيهـــا الانسان مجاملا لأصدقائه : لا لأنه ينتظر أن يحصل على شيء منهم ولكن لأنه الشيء الصحيح الذى يجب أن يؤديــه • فهل كان يعتقد أن الأرواح تمنــح البركات ؟ ببساطة لسنا على علم بذلك ، ولعله لم يكن يعتقد ذلك •

كانت التضحية البشرية أمرا شائعا جدا في العهد القديم وقد ظلت مستمرة الى حد ما في عهده ولقرون بعيــدة • لقد ذمها كنفوشيوس (٢٣) ، ويبـــدو أن هناك شــكا قليلا في أن الكنفوشيوسيين مسئولون عن القضاء عليها في النهاية •

لقد لاحظنا من قبل أن وظيفة الحاكم كانت لها دلالات دينية معينة ، وكان الملك يسمى « **ابن السماء** » وكان المعتقد أن الســادة الاقطاعيين يحكمون بفضل معونة أسلافهم النبلاء ذوى النفوذ الذين

---

(٢٣) منشيوس ج ١ (١) ٤ /٦

يحيون فى السموات ويشرفون على مصائر حفدتهم • وقد ساعدت هذه النظرية على الحفاظ على الامتياز الحصين للأريستوقراطية ، اذ لا يستطيع أى شخص من عامة الشعب ، مهما كان حكيما وفطنا أن يأتى بمثل هذا التأييد المتسامى على الطبيعة للعرش • ولم يهاجم كنفوشيوس وجهة النظر التقليدية هذه • لقد اكتفى بعدم الحديث عنها على الاطلاق ، وبدلا من ذلك جعل حق الحكم متوقفا توقفا تاما على الشخصية والقدرة والتعليم بغض النظر عن المولد • وقد أكد أن واحدا من طلابه ، ليس وريثا لبيت حاكم ، قد يستطيع أن يرتقى العرش (٢٤) على الوجه الأكمل •

وبرغم أن كنفوشيوس كانت له معتقدات دينية معينة الا أنه يبدو أنه لم يستخدمها كأساس لفلسفته ، وهنا يبدو أن موقفه يشابه الى حد ما موقف العالم الحديث ، والأرجح أنه ليس هناك من عالم يقول أن وجود الله يمكن البرهنة عليه بالتكنيك العلمى • وقد أكد علماء اللاهوت أن هذا الأمر لا يمكن القيام به ، ومن ناحية أخرى فانه من المشكوك فيه أن أى عالم دقيق قد يقول ان الله لا يمكن البرهنة على وجوده علميا ، لأن العلم لا يعنى بالطبيعة النهائية للكون وانما يعنى بالقيام بمشاهدات خاصة عن طريق التجربة وصياغة هذه المشاهدات فى مبادىء تظهر الاحتمالات الراجحة • والعلم بتنازله عن الحق فى التحدث عن الحقيقة النهائية يكتسب القدرة على أن يساعدنا على أن نكون عمليين ونفيد من تجاربنا •

لقد عمل كنفوشيوس بنفس هذه الطريقة الى حد كبير ، فهو لم يلتزم بأن تكون لديه الحقيقة النهائية ، اذ كان يتلمس الحقيقة عن طريق المشاهدة والتحليل • لقد قال ان الانسان يجب أن « يسمع الكثير ويترك جانبا المشكوك فيه وأن يتحدث بحذر مناسب

---

(٢٤) المقتطفات الادبية : ٦/١/١ .

فيما يتصل بالباقى ٠٠ يرى الكثير ولكن يترك جانبا ذلك الذى لا يتضح معناه ، وأن يعمل بعناية فيما يتصل بالباقى » (٢٥) ، ولم يقل شيئا عن بلوغ الحقيقة عن طريق الاستنارة الصوفية المفاجئة ، لقد ذكر على العكس من ذلك ، فى صراحة، أن التأمل وحده لا يؤدى الى الحكمة (٢٦) ، وقال أيضا : « أن تسمع الكثير وتنتقى ما هو جيد وتتبعه ، وأن ترى الكثير وتتذكره ، كلها مراحل تصل عن طريقها الى الادراك ٠ » (٢٧)

ومن ثم ، فانه يتضح تمام الوضوح ، أن كنفوشيوس على الرغم من أنه كان متدينا ، الا أنه كان بعيدا عن التأكد من سعة علمه أو بتنزهه عن الخطأ ، فيما يتصل بطبيعة الكون النهائية ٠ لقد كان يحاول أن يقيم صرحا لأفكار قد تدوم ، وقد تكون قوية بالغة القوة لتخدم كأساس تقوم عليه حرية الجنس البشرى وسعادته ، ولذا كان عليه أن يشيد بمواد لم يكن يرجو أن تكون راسخة فحسب ، بل كان يعلم بقدر المستطاع أنها سليمة ، ومن ثم لم يتخذ المعتقد اللاهوتى theological dogma له أساسا ، ولا الأمل الدينى religious hope بل كان أساسه طبيعة الانسان والمجتمع كما يشاهدهما ٠

ولعلها حقيقة تصدق عن كنفوشيوس أكثر من صدقها عن أى مفكر له مثل شهرته ، أنه فصل الأخلاقيات عن «ماوراء الطبيعة» وقد كتب ماكس ويبر Max Weber : « فيما يفهم عن غياب كافة الميتافيزيقيات وكل بقايا الملاذالدينى تقريبا ، كانت الكنفوشيوسية

---

(٢٥) المقتطفات الادبية : ١٨/٢ ٠

(٢٦) المرجع السابق : ٣٠/١٥ ٠

(٢٧) المرجع السابق : ٢٧/٧ وبالنسبة لهذه الترجمة ارجع الى كتاب كريل : « كنفوشيوس : الرجل والاسطورة » ص ١٤٦ رقم ٤ ٠

نزعة عقلية الى حد بعيد حتى أنها تقف عند الحد الأقصى لما يمكن أن يدعوه الفرد الأخلاق « الدينية » • والكنفوشيوسية فى نفس الوقت أكثر امعانا في النزعة العقلية وأكثر اتزانا فيما يتصل بعدم وجود ورفض كافة مســتويات المقاييس اللانفعية ، عن أى نظام أخلاقى آخر ، مع امكان استثناء وجهة نظر ج• بنتام J. Bentham (٢٨)

لقد وضع كنفوشيوس ، كما رأينا ، أخلاقياته على أســاس طبيعة الانسان والمجتمع • ولكن ما هى طبيعة الانسان والمجتمع ؟ واضح أن هذا موضوع خطير ، واذا حاول كنفوشيوس أن يجيب عنه في عجلة أو بصورة جازمة لكانت معالجته التجريبية أكثر قليلا من ادعاء ، ولذا لم يفعل ذلك • وعلى غير شـــاكلة منشـيوس الفيلسوف الكنفوشيوسى العظيم فى القرن الرابع ق•م• لم يذكر كنفوشيــوس أن الطبيعــة البشرية « خيرة » ولم يذكر مثلما ذكر كنفوشيوسى متأخر نوعا ما وهو (هسين تزو Hsün Tzü) أن الطبيعة البشرية « شريرة » • وسنرى بالنسبة لكلا هذين المفكرين المتأخرين أن نتائجهما ، برغم تعارضهما ، فيها حقيقة مشتركة وهى أنها تعميمات أدت الى بعض النتائج التى قد لا يرضى عنها مبدعوهــا هم أنفسهم •

ولقــد ظل كنفوشيوس أكثر قربا من الحقيقة • ولعل أهم ملاحظة له عن الأشخاص هى أنهم أساسا سواء ، ولعل حقيقة أنه هو نفسه قد ولد فى ظروف سيئة أراد أن ينهض منها ، كان لهـــا تأثير كبير فى هذه الملاحظة • لقد رأى أيضا أن الأشــخاص الذين كانوا يولدون ولهم حق وراثى فى منصب رفيع ومن أصل نبيل ، غالبا ما يسلكون سلوك الحيوانات أو الحمقى بينما غيرهم الذين

---

(٢٨) جيرث وميلز : « من ماكس ويبر » .ص ٢٩٣ •

لم تنوافر لهم مثل هذه الامتيازات غالبا ما يكون سلوكهم الشخصى جديرا بأقصى احترام ·

وذكر ايضا ملاحظة بسيطة هى أن كافة الأشخاص مهمـــا اختلفوا فى تعريف السعادة فانهم يطلبونها · ولما لم يكن هناك فى خلفيته أى مذهب دينى أو فلسفى يصم تلك السعادة أو الرغبة فيها ، لذلك كان يعتقد أنه لهذا السبب يجب أن يحصل الناس بقدر المستطاع على ما يريدون · ومع ذلك ، فقد كان يرى فى كل ما حوله أن الناس بوجه عام ليسوا سعداء · لقد كانت الجماهير فى فاقة ، وكانوا يموتون جوعا أحيانا ، وقد يحل بهم عسف الحرب والأريستوقراطيين ومع ذلك فلم يكن الأريســـتوقراطيون ينعمون دائما بالكثير من السعادة بأساليبهم الشاذة ، وغالبا القلقة ، فى الحياة · كان هنا ، اذن ، هدف واضح : اسعاد الناس ، ومن ثم نجده يعرف الحكومة الصالحة بأنها الحكومة التى تعمل على اسعاد رعيتها (٢٩) ·

وما دامت السـعادة هى الخـير وأن الانسان بطبيعته كائن اجتماعى ، لذا فقد كانت على بعد مرحلة قصيرة فقط للوصول الى مبدأ كنفوشيوس فى تبادل الأخذ والعطاء principle of reciprocity · وواضح أنه لو أن كل فرد عمل من أجل سعادة الجميع لكان علينا أن نتخذ موقفا يكون أكثر احتمالا لجلب سعادة عامة عن أى أمر سواها · لقد عرف كنفوشيوس فكرة تبادل الأخذ والعطاء ذات مرة على أنهـا « ألا تفعـــل بالغير مالا يريد المرء أن يفعلوه به · » (٣٠) وذكـر نفس الفكرة بصورة أكثر ايجابية فيما يلى : « الرجل الفاضل حقا هو من يرغب فى تثبيت أقدام الناس كما يرغب فى تثبيت قدميه ،

---

(٢٩) المقتطفات الادبية : ١٣/١٦ ·
(٣٠) المرجع السابق : ١٥/٢٣ ·

يريد لنفسه النجاح ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا ويجد فى أمنيــات قلبه المبــدأ لسلوكه تجاه الغير فى منهج من الفضــيلة الحقة . » (٣١)

ومع ذلك لم يكن كنفوشيوس من البساطة بحيث يعتقد أن مجرد معرفة هذه المبادىء قد تحل مشاكل الناس . وكل الناس يريدون الســعادة ، وغالبيتنا نريد أن نرى أولئك الذين حولنا سعداء ولكن معظمنا سيسلك سلوكا أحمق ، يختار متعــة عاجلة أقل أثرا بدلا من متعة آجلة أعظم أثرا . ونحن نتعامل بوجه عام بطريقة غير اجتماعية ، مفضلين الحفاظ على سعادتنا الشخصية حتى لو كانت على حســاب ســعادة غيرنا . ولتصحيح هــذه الاتجاهات ولتثقيف الناس وجعلهم اشتراكيين اعترف كنفوشيوس بوضوح، وأصر الى حد ما من وقت لآخر ، على ضرورة التربية العامة الشاملة. واعتبر حق المواطنة المستنيرة enlightened citizency أساســا ضروريا للدولة . والعقاب قد يضطر الناس مؤقتا الى أن يفعلوا ماينبغى عليهم أن يفعلوه ، ولكنه ، فى أحسن حالاته ، بديل سقيم لايمكن الاعتماد عليه فى التربية.لقد قال: « لو حاول فرد أن يرشد الناس عن طريق سن القوانين ، ويحافظ على النظام عن طريق فرض العقوبات ، فسيسعى الناس لتجنب العقوبات فحسب دون أن يكون عندهم ادراك للالتزام الأخلاقى ، ولكن لو أن فردا قادهم عن طريق الفضيلة (سواء عن طريق الادراك أو عن طريق القدوة) واعتمد على الــ (لى) فى الحفاظ على النظام ، لأحسن الناس اذن بالتزامهــم الأخلاقى بأن يقوموا ما بأنفسهم . » (٣٢)

ولو أن فردا اتبع هذا المثل الأعلى الى الحد الكافى ، فلربمــا

---

(٣١) المقتطفات الأدبية : ٦/٢٨ .
(٣٢) المرجع السابق : ٢/٣ .

قاده حتى الى حلم الفلاسفة الفوضويين الذين يعتقدون ان الحكومات كافة سوف لا يكون من داع لوجودها يوما ما • ولكن كنفوشيوس لم يكن متطرفا ، فلقد أدرك الحاجة الى حكومة صالحة ، وعدد أوضح المساوىء التى كانت فاشية فى عصره ــ الناجمة عن عدم وجود مثل هذه الحكومة الصالحة • لماذا كانت الحكومة فاسدة ؟ السبب فى اعتقاده هو أن أولئك الحاكمين لم يكونوا يميلون الى أن تكون عندهم الرغبة فى قيام حكومة صالحة أو لم تكن قدراتهم أو تربيتهم تؤهلهم لذلك • لماذا ؟ لأنهم ورثوا مناصبهم •

ولم يصلنا أى بيان جـــامع عن فلســـــفة كنفوشـــــيوس السياسية ، ولكن من الممكن اعادة بناء معالمها الرئيسية • وواضح أنه آمن بأن الحكومة يجب أن يكون هدفها رفاهية الناس أجمعين وسعادتهم ، وكان يعتقد أن هـــذا لا يمكن أن يتحقق الا اذا تولى شئون الحكم أعظم الرجال كفاية فى البــلاد • ومثل هذه الكفاية لا علاقة لها بالمولد أو الثروة أو المكانة وانمـــا هى خاصة بالخلق والمعرفة ، وهما ثمرة التربية الحقة • ولذا يجب أن تكون التربية منتشرة انتشارا واسعا حتى يمكن اعداد أكثر الرجال موهبة فى البلاد بأسرها ، لمهمة الحكومة ، ويجب أن تسلم ادارة الحكومة الى مثل هؤلاء الأشخاص بغض النظر عن أصلهم •

ولم يطالب كنفوشيوس الحــكام الذين وصلوا الى الحــكم عن طريق الوراثة بالتخلى عن عروشهم ، ولو انه طالب بذلك لكان من المشكوك فيه أن يكون قد حقق أى شىء بعمله هذا ، ولكان من المحتمل أن تلغى تعاليمه ، ولكنه بدلا من ذلك ، حاول أن يقنع هؤلاء الحكام الوراثيين بأن الواجب عليهم أن « يملكوا ولا يحكموا » وأن يسندوا السلطات الادارية كافة الى الوزراء المختارين طبقا لمؤهلاتهم •

وقد أسند كنفوشيوس الى الوزير أرقى درجــة من درجات

المسئولية الأخلاقيـــة ، ومن ثم ، ففي الوقت الذى كان على الوزير أن يكون مخلصا لحاكمه ، تساءل كنفوشيوس : « هل يمكن أن يكون هنـــاك ولاء لا يؤدى الى ارشاد الحاكم ؟ » (٣٣) • وعنـــدما سأل أحد الطلاب كنفوشيوس عما ينبغي أن يكون عليه ســلوك الوزير تجاه حاكمه ، أجاب : « يجب ألا يخدعه ، ولكن اذا لزم الأمر ، يجب أن يكون صريحا معه » (٣٤) • وذكر كنفوشيوس ذات مرة لدوق « لو » أنه اذا كانت سياسات الحاكم طالحة ، ومع ذلك لم يعارضه أحد ممن حوله ، فان مثــل هــذا التراخى كفيل بالقضاء على الدولة (٣٥) •

وكانت هناك نقطة ضعف واضحة جدا فى هذا البرنامج السياسى الذى اقترحه كنفوشيوس وهو أن الحكام كانوا لا يزالون يحتفظون بسلطة اختيار وزرائهم ومن ثم يسيطرون على الحكومة ، ولكن كان يندر وجود مجال خيار ممهد أمام كنفوشيوس : اذ لم يسمع عن وجود نظام الانتخاب فى الصين القديمة • وقد كان عامة الشعب في عصره يجمعون ، على أية حال ، بين الجهل وعدم الخبرة السياسية ، ومن ثم فقد كان الشىء الوحيد الذى يمكن عمله تقريبا، عن طريق التعليم ، هو التأثير على الشبان الذين سيصبحون وزراء، واذا أمكن ، فلربما صاروا حكاما ، وأن يتطور ضغط الرأى العام ليصبح فى صالح وضع الأشخاص الأكثر كفاية فى المناصب الأكثر مسئولية •

ماذا كان رأى الحكام فى هذه الخطة ؟ ليس لدينا الا القليل من المعلومات بالنسبة لهذه النقطة ، ولكن من المؤكد أن بعضهم

---

(٣٣) المقتطفات الادبية : ١٤/٨ •
(٣٤) المرجع السابق : ١٤/٢٧ •
(٣٥) المرجع السابق : ١٣/١٥ •

أعتقد أن كنفوشيوس كان غـــريب الأطوار ، ان لم يكن خطيرا •
ويبدو أنه كان يعزو نجاحه ووصوله الى المدى الذى بلغه من النجاح،
الى أحد الأريستوقراطيين ويدعى (تشى كانج تزو Chi K'ang Tzü)
وكان تشى رئيسا لأقوى عائلة فى ولاية « لو » وكان بهذه الصفة
الحاكم الفعلى المسيطر على الدوق ، الذى لم يكن أكثر من ألعوبة •
ولعل تشى قد قتــل منافسا له ، ومع ذلك لم يكن هــذا أمرا
مؤكدا ، ولكن من المؤكد أنه كان يفرض ضرائب باهظة ليبقى على
حياة الترف التى كان يحياها وليشن حروبا عدوانية ، وكان فى
طرائق شتى يضرب مثلا لكافة الشرور التى كان كنفوشيوس ينادى
بالكف عنهـا • فلما تفضل هـذا النبيل القوى واهتم بشـــأن
كنفوشيوس لم يقلل كنفوشيوس من لومه فى أية صورة • وتعـد
كل عبارة تقريبا وصلتنا وذكرها (تشى) نقدا صريحا ، ومن ثم
فعندما سأله تشى كيف يمكنه أن يعامل اللصوص بطريقة فعالة
أجاب كنفوشيوس : « انك يا سـيدى اذا لم تطمع فى أشـياء
لا تخصك فانهم لن يسرقوا حتى لو أنك استأجرتهم لذلك » • (٣٦)

وبدلا من أن يغضـب (تشى كانج تزو) أعجب بشـــجاعة
كنفوشيوس ، ولم يتماد فى اعجابه الى حد أن يحقق لكنفوشيوس
ما أراده ـ بأن يسند اليه وظيفة ذات سلطة فى الحكومة ـ ولكنه
أسند فعلا وظائف رسمية الى عديد من طلابه • ولقد فعل هذا فى
الأصل لأنه آمن بأنهم سيكونون موظفين رسميين صالحين • ولقـد
آمن بهذا لسببين : ففى المقام الأول اذا كان النبلاء أنفسهم يعملون
بشىء كثير من الترخص ، فقد كان واضحا انه من مصلحتهم أن
يكون مرءوسوهم ، فى غالبية الأحوال على الأقل ، رجالا ذوى

---

(٣٦) المقتطفات الادبية ١٢/١٨ •

(٣٦) المرجع السابق : ١٢/١٨ .

أخلاق • حقيقة أن كنفوشيوس رفض ، بصورة خاصة فكرة الولاء الاقطاعى للأفراد ، وأصر ، بدلا من ذلك ، على وجوب التزام طلابه التزاما حقا للمبدأ الأخلاقى ، ولكنهم ، برغم ذلك كان يمكن أن يعتمد عليهم رؤساؤهم اعتمادا كاملا أكثر من اعتمادهم على معظم الأريستوقراطيين الوراثيين الذين كانوا أول ما يفكرون فيه هو مصلحتهم الذاتية ومصلحة القبائل التى ينتمون اليها • أما فى المقام الثانى ، فقد علم كنفوشيوس تلاميذه كيف يفكرون وكيف يتصرفون فى مختلف المواقف التى قد يجد الموظف نفسه فيها ، كما علمهم شيئا عن مبادىء الحكم • وقد برهن طلابه فى المران الفعلى على أن هذه الأعمال قد جعلتهم موظفين ناجحين • ونحن نعلم أن نصف طلابه على الأقل الذين ورد ذكرهم فى المقتطفات الأدبية قد أسندت اليهم أخيرا وظائف حكومية ، وكان بعض هذه الوظائف غاية فى الأهمية •

ومع ذلك فقد كان بعيدا كل البعد عن أن يكون راضيا • انه لم يهدف قط الى أن يتخذ من التعليم حرفة • لقد كانت خطته هى أن يصلح العالم ، وكان يقوم بالتعليم حتى تتاح له فرصته ، ولم يرد شيئا أقل من أن يوجه حكومة البلاد • ومع ذلك فلقد كان بعيدا عن المعقول اتاحة مثل هذا النفوذ لرجل له مثل هذه المبادىء المتطرفة فى طلب الحرية ، الا اذا كان على استعداد للمساومة ، ولكن اخلاصه لمبادئه الذى لا يرقى اليه الشك ، لابد وأنه كان يخيف الرجال الذين كانوا يديرون الحكم ، عندما يفكرون فيه •

وأخيرا ، بعد أن بلغ عديد من طلابه الحكم ، دبر مكان لكنفوشيوس وأسند اليه منصب من المحتمل أن يكون مماثلا لمنصب « عضو مجلس الدولة » وقد قبله لأنه كان يرجو أن يكون فى امكانه أن ينجز شيئا ، ولكن فى الحقيقة أسندت اليه وظيفة لاسكاته ، فلما أدرك هذا اعتزل الوظيفة فى اشمئزاز •

وبرغم أن كنفوشيوس كان فى ذلك الوقت فى الخمسينات من عمره ، فقد ترك ولايته البسيطة وقضى عشر سنوات فى التنقل من ولاية الى ولاية فى شمال الصين ، بحثا عن حاكم قد يستخدم فلسفته فى تسيير حكومته ، فلم يجد أحدا قط ، وفى بعض الأماكن كان يعامل بقليل من الاحترام ، وتعرض مـرة واحـدة على الأقل لمحاولة الاعتداء على حياته • وقد حدث مرة واحدة لا غير أن قام نبيل يباشر السـلطة الرئيسية فى الولاية بمعاملة كنفوشيوس معاملة تنطوى على الاحترام البالغ ، وكان يداوم على استنصاحه ، ولكن هذا الرجل كان فاسدا كل الفساد حتى أنه عندما وجهت الى كنفوشيوس دعـوة بالعودة ثانية الى ولايته البسـيطة ، قبل كنفوشيوس هذه الدعوة فى سرور بالغ •

وفى هذه الأثناء كانت سياسات أسرة تشى ، التى يتزعمها (تشى كانج تزو) ، التى ما زالت تتقلد السلطة الرئيسية فى « لو » ، كان يوجهها واحد من تلامذة كنفوشيوس ، ولكن هذا الطالب كان فى الواقع قد جعل انكار مبادىء أستاذه ثمنا لنجاحه ، ولكى يملأ كنوز آل تشى المتفجرة حتى تفيض قام هذا الطالب برفع الضرائب ، فتبرأ منه أستاذه علانية (٣٧) •

قضى كنفوشيوس السـنوات الأخيرة من حياته فى التعليم فى « لو » وكان شديد الاكتئاب ولكنه لم يكن مغيظـا ، وأما عن كونه ينخرط فى العويل أحيانا ، فليس لدينا من بيان بذلك • وقد حدث ذات مرة عندما كان مريضا مرضا خطيرا ، أن أراد أحد تلاميذه أن يصلى لأجل شفائه ، ولكن كنفوشيوس ابتسم وقال : «ان صلاتى قد أديتها من أمد طويل » (٣٨) • وعندما اشـتد عليه المرض حتى صار فى غيبوبة ارتدى بعض تلاميذه ملابس البلاط

(٣٧) المقتطفات الأدبية : ١١/١٦ •
(٣٨) المرجع السابق : ٧/٣٤ •

ووقفوا حول فراشه في هيئة الوزراء الذين كان يتمنى أن يكونوا له لو أنه حقق طموحه وشغل منصبا حكوميا ساميا ، فلما عاد اليه رشده ورأى هذا التمثيل المضحك الصامت قال لهم كنفوشيوس : « بتظاهركم هذا على أنكم وزراء لى بينما ليس لى في الحقيقة وزراء، من تظنونني أخادع ؟ أأخادع السماء ؟ أو ليس من الخير لى أن أموت بين أيديكم أنتم يا أصدقائى ، عن أن أموت بين يدى وزراء ؟ » (٣٩).

وعندما مات في سنة ٤٧٩ ق٠م٠ فمن المحتمل أنه هناك قلة قليلة لم تظن أن هذا الرجل العجوز الذى يثير العطف قد مات لأنه قد أخفق ٠ ومن المؤكد أنه هو نفسه قد اعتقد ذلك ، ومع ذلك فهناك قلة من الشخصيات البشرية قد أثرت على التاريخ تأثيرا أكثر عمقا من تأثير كنفوشيوس ، ولكن الاستجابة لفكره لا تزال باقية ٠ وفي الصين اتخذت أجيال اثر أجيال من تفكيره تفكيرا شخصيا لها ، واليوم ، نلاحظ أن بعض الشيوعيين الصينيين يدعون بأن تفكيره هو تقليدهم الثورى ٠ وفي الغرب كان تأثيره أكبر مما ندركه أحيانا ٠ كانت هذه هي الحال بصورة خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومن ثم يقول رايشفاين Reichwein : « لقد صار كنفوشيوس القديس الحالى لحركة التثقيف في القرن الثامن عشر » ٠ (٤٠)

واذا تطلعنا الى سر هذه الاستجابة لبدا أنه من المحتمل أن تكون قائمة على اصراره على سيادة القيم الانسانية ، فلقد قال ان الحكمة هي معرفة الناس ، والفضيلة هي حب الناس ٠ (٤١)

---

(٣٩) المقتطفات الأدبية : ٩/١١ .
(٤٠) رايشفاين : « الصين وأوربا » ص ٧٧ .
(٤١) المقتطفات الأدبية : ١٢/٢٢/١ .

ولعل ما هو أهم من ذلك ، نظرا لأنه لا يزال أكثر ندرة ، هو ما يمكن .عوته « ـيمقراطيته العقلية intellectual democracy» • لقد كان عدد كبير من الأشخاص على استعداد لأن ينادوا بأن من الواجب أن يحكم الناس أنفسهم ، ولكن كان هناك نسبيا قلة من الفلاسفة على استعداد لأن يؤمنوا بأن الناس بوجه عام يفكرون لأنفسهم — الا اذا كانوا يرغبون في أن يفكروا لأنفسهم على النمط الذى يشير اليه الفيلسوف فى لطف لأجل مصلحتهم ، ولم يكن كنفوشيوس راغبا فى وجوب تفكير الناس لأنفسهم فحسب ، بل أصر على ذلك • لقـد كان على استعداد لأن يساعدهم ويعلمهم كيف يفكرون ولكن يجب أن يكتشفوا الاجابات بأنفسهم • لقد اعترف صراحة أنه هو نفسه لم يعرف الحقيقة ولكنه عرف طريقة البحث عنها فحسب •

لقد آمن بأن الانسانية يمكن أن تجد السعادة فقط فى صورة مجتمع تعاونى لأناس أحـرار ، ولكن النـاس لا يمكن أن يكونوا أحرارا بينما يتبعون الى الأبد نجما قد أشار اليه رجل آخر • وقد آمن بأن من يقدم لهم تحت أســلوب الحقيقة الثابتة مبدأ يمثل فقط التبصر الناقص للفرد يؤدى الى خيانة ثقتهم ، وهو لم يفعل ذلك قط • لقد قال : « اذا لم يسائل المرء نفسه باستمرار : ما هو الشيء الصواب الذى يؤديه ؟ فاننى لا أعرف فى الحقيقة ما الذى سيلم به • » (٤٢)

---

(٤٢) «المقتطفات الادبية : ١٥/١٥ .

الفصل الرابع

موتزو والحاجة إلى السلام والنظام

برغم أن كنفوشيوس قد أكبر شأن الـ (لى) وأحد مظاهرها اقامة الشعائر الدينية ، الا أنه كان يعتبر الشعائر الدينية بوجه عام مسألة ثانوية بالنسبة للمشاعر التى تعبر عنها ، وآمن بأن قيمتها تتمثل فى قدرتها على جعل الفرد صالحا للاندماج فى المجتمع ، ومع ذلك فقد كان هناك تغيير فى الاهتمام بأمر الـ (لى) حتى بين بعض تلامذة كنفوشيوس المباشرين • وقد اهتم نفر من أكثر تلاميذه نفوذا اهتماما يكاد يكون مطلقا بالأشكال الشعائرية، وبذا وضعوا الأساس للتقاليد فى مدرسة كنفوشيوس التى اهتمت اهتماما بالغا بتفاصيل الاحتفالات الرسمية • وقد قيل ان بعض تلاميذه قد بلغ بهم الأمر أن أصروا على أن الكنفوشيوسى الحق يجب أن يرتدى نوعا خاصا من الثياب •

لقد رأينا ان طاعة الوالدين كانت لها أهميتها فى الصين منذ أمد طويل قبل ظهور كنفوشيوس وقد أوصى بممارستها ووافق على طـول مدة اقامة الحـداد حـزنا على الوالدين ، وقد بالغ بعض الكنفوشيوسيين فى طاعة الوالدين والحـداد عليهما بصـورة تفوق كل وصف ، كما أنهم دافعوا عن الاسراف فى اقامة الجنـازات —

الامر الذى نعلم أن كنفوشيوس كان يستنكره ، ويبدو أن بعض الكنفوشيوسيين ممن هم أدنى منزلة قد تخصصوا فى تشييع الجنازات في احتفال محكم ، ويقال بأن بعضهم كانوا يكسبون قوتهم بهذه الطريقة ٠

وجدير بالذكر أنه يمكن أن يطلق على كنفوشيوس « معلم برغم أنفه » ٠ لقد كان معلما صالحا وكان يحب أن يعلم ، ولكن طموحه الحقيقى ، كان يرمى الى تغييره العالم بوصفه رجل دولة عمليا ، وبرغم أنه لم تتح له هذه الفرصة قط ، الا أن طبيعة هدفه واهتمامه قد لونت كل شيء صنعه ٠ وكان بعض تلاميذه الأولين قد تقلدوا بالفعل مناصب حكومية ذات أهمية بالغة ، ولكن يبدو أن معظم تلاميذه المتأخرين اعتبروا أنفسهم معلمين قبل كل شيء ٠ ولما كان تعليمهم هو الذى نقل التقاليد ، فقد لونت اهتماماتهم الحركة الكنفوشيوسية التى أصبحت تتألف من تعليم طلاب العلم الى درجة ربما أدهشت كنفوشيوس نفسه وأسخطته ٠

وكان أكثر هؤلاء المعلمين نجاحا : مؤدبو الحكام ، وكانت تتاح لهم فى هذا الوضع فرص ممتازة للتأثير على نظام الحكم بوصفهم مستشارين فى المسائل السياسية ، ولكن تردد بعضهم فى ترك هذا المنصب الممتاز الى مسرح التنافس فى السياسة العملية ٠ ولم يتوقفوا قط عن العمل ، كما كان كنفوشيوس يعمل ، لاصلاح حال قدر كبير من عامة الشعب ٠ ولكن يبدو أن هذا كان شيئا قد فرض عليهم أداؤه ، وليس شيئا يدفعهم الى أدائه اقتناع شخصي كما كان الحال بالنسبة لكنفوشيوس ، وفي مجال الموازنة ، يبدو أن اهتمامهم بنجاحهم فى حياتهم الشخصية كان أكثر من اهتمامهم برفاهية البشر وقد اكتشف شخص واحد ، على الاقل ، فى الجيل الذى أعقب وفاة كنفوشيوس مباشرة ، أنهم يستحقون الازدراء ، فهاجمهم بشدة ، وكان هذا الشخص هو (مو تزو Mo Tzü) .

ومعلوماتنا عن (موتزو) مستمدة بصورة رئيسية من الكتاب الذى يحمل اسمه • وبرغم أنه كان يظن أحيانا أنه قد كتب هذا الكتاب ، فانه من الواضح أنه لا يمكن أن يكون قد كتب بعض أجزاء منه ، ويبدو أن بعض فصوله كتبها أتباعه بينما كتب هو نفسه الفصول الأخرى • وقد ذكر هوشيه Hu Shih أن الفصول ١ ـ ٧ اضافات أخرى للنص الأصلى (١) ، ويبدو أن هذا أمر محتمل • ويبدو أنه لا مجال للشك بأى حال فى أن الفصل ٢٩ مزيف واضافة متأخرة ، وقد كشف ، من بين أمور أخرى ، عن أخطاء تاريخية فى تسلسل الحوادث • والمعتقد هو أن الفصول من ٤٠ ـ ٤٥ انتاج المدرسة الموية Moist school ولكنها كتبت فى وقت متأخر عن زمن (موتزو) • وأخيرا بالنسبة للواحد وسبعين فصلا التى كان من المفروض أن يشتمل عليها الكتاب ، فقد فقد منها الآن ثمانية عشر فصلا •

وبرغم ذلك فان ما تبقى بعد كل هذه الفصول المفقودة يعد قدرا كبيرا • ويعد هذا العمل أقدم عمل أدبى صينى لدينا يتضمن محاورات طويلة وفصولا عديدة كاملة ويعطينا صورة كاملة معقولة عن موتزو الانسان •

وتواريخ حياته ليست معروفة بصورة مؤكدة ولكن يبدو أنه لم يولد قبل سنة ٤٨٠ ق٠م (فى السنة السابقة لوفاة كنفوشيوس) ولم يمت قبل سنة ٣٩٠ ق٠م • ويظن بعض العلماء أنه قد ولد فى ولاية « لو » موطن رأس كنفوشيوس بينما يذكر الآخرون أنه مواطن من سونج Sung ، ويقال بأنه تقلد منصبا فى سونج •

ومن الواضح أن موتزو كان رجلا من أصل متواضع نسبيا

(١) هوشيه : « تشونج كيوتشى هسيه شيه تاكانج » شوان شانج ، ص ١٥١ •

كما كان الحال بالنسبة لكنفوشيوس (٢) ويقال بأنه درس فى بادىء الأمر مع أولئك الذين نقلوا مبادىء كنفوشيوس ، ومع ذلك فقد أحس بأن الكنفوشيوسية كما كانت تزاول فى زمنه لم تصل الى جذور المشاكل التى تسببت فى شقاء الناس . لقد أكد انها — على العكس من ذلك — قد زادت هذه المتاعب شدة .

ولهذا انشق على الكنفوشيوسيين وأسس له مدرسته الخاصة ومع ذلك فقد كان واضحا تمام الوضوح أنه على رغم مهاجمته للكنفوشيوسيين بشدة فقد كان يشاركهم فى الكثير من وجهات نظرهم . كان يتحدث عن « الطريق » ، ال « طاو » ، كثيرا كما كان يتحدث عنه كنفوشيوس ، ويقول على سبيل المثال ان « أولئك الذين يعرفون الطريق سيعلمون غيرهم دون أن يحسوا بنصب » (٣) وقال بأن الحكومة يجب أن تتمشى مع رغبات عامة الشعب . وكان دستوره الأساسى فى تمهيد السبيل أمام الحكومة الصالحة مماثلا تماما لما نادى به كنفوشيوس . وفى كتابه نقرأ :

« قال موتزو : يرغب كل الحكام اليوم فى أن تكون مناطق نفوذهم ثرية وأن يزداد عدد رعاياهم وأن توجد ادارتهم النظام ، ولكنهم فى الحقيقة لم يحصلوا على الثراء بل على الفقر ولا على زيادة عدد رعاياهم بل ندرة رعاياهم ولم يستتب النظام بل سادت الفوضى — ومن ثم فقد فقدوا ما يرغبون فيه ولقوا ما يكرهونه ، فما السبب ؟

« قال موتزو : السبب فى هذا هو أن الحكام قد عجزوا عن تمجيد الفاضل ولم يتيحوا الفرصة للأكفاء لكى يديروا شئون

---

(٢) ماى ييى — باو : « مؤلفات موتسى الاخلاقية والسياسية » ص ٢٢٣

(٣) المرجع السابق : ص ٨٩ .

حكوماتهم ، واذا ما تعدد الموظفون الأفاضل فى دولة كان ذلك دليلا على حسن ادارتها ، واذا قلوا كان ذلك دليلا على سوء ارادتها • ومن ثم كانت مهمة الحكام وحدهم هى أن يعملوا على زيادة عدد الأفاضل ،ولكن وفق أى منهج يمكن أن يتم هذا الأمر ؟

«وقال موتزو: لنفرض مثلا أن شخصا أراد أن يزيد عدد رماة السهام وراكبى العربات الحربية الصالحين ، ففى هذه الحالة يغدق عليهم المال ويوليهم المناصب الرفيعة ويبجلهم ويثنى عليهم • فاذا ما تحققت هذه الأفعال يزداد عدد رماة السهام وراكبى العربات الحربية الصالحين • وحبذا لو اتخذ مثل هذا الاجراء الى حد بعيد فى حالة الأشخاص الأفاضل والممتازين الذين هم أثرياء بسلوكهم الحميد متضلعين فى المناظرات وخبراء فى فنون « الطريق » • هؤلاء هم بكل تأكيد كنوز الشعب وأعمدة الدولة ، وهم أيضا يجب أن نغدقعليهم المال ونسند اليهم المناصب الرفيعة ونبجلهم ونثنى عليهم ، فاذا ما تحقق هذا مرة فسيزداد عددهم أيضا • » (٤)

وواضح أن موتزو قد اتفق مع كنفوشيوس فى أن الحكام الوراثيين يجب أن يسلموا زمام حكوماتهم الى الأشخاص ذوى الفضيلة والكفاية • ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يكن من واجبهم أن يسلموا عروشهم أيضا ؟ لماذا لا يختار الحكام وفقا لمواهبهم لا من أجل نسبهم ؟ ربما كان الجواب العتيق هو أن الحاكم الذى أصله من عامة الشعب لا يمكن أن يحصل على تأييد الأقوياء ذوى الهمم ، ولكن فى رأى كنفوشيوس أن هذا الرأى قد ظهر بطلانه ، بل قد ذهب كنفوشيوس الى حد القول بأن أحد تلاميذه

(٤) مى يى — باو : « مؤلفات موتسى الاخلاقية والسياسية » ص ص ٣٠ — ٣١ •

قد يعتلي العرش على الوجه اللائق ، ولكنه لم يهاجم مبـــاشرة حق الحكام الوراثيين فى نيل مراكزهم • ومع ذلك فمن المحتمل أنه قد أحجم لحكمة بالغة الصواب • انه لم يناد بالثورة التى ربما جلبت متاعب لنفسه وللآخرين ، ولكنه بدلا من ذلـــك نادى بمبدأ ، من المؤكد تماما ــ وان كانت نتيجته أكثر بطئا ــ أنه سيأتى بثمـــرة فى النهاية •

ويسجل التاريخ الصينى التقليدى سلسلة طويلة من الأباطرة الأولين الذين كان من المفروض أنهم حكموا قبل قيام أول أسرة من الأسرات الحاكمة ، خلال الألف الثالثة ق•م• وهذه فترة ليس لدينا عنها أية بيانات تاريخية قائمة على أساس علمى ، وأكثر من ذلـك أنه قد أشار العلماء الصينيون النقاد منذ مدة طويلة الى أن أولئك الأباطرة الأولين لم يرد ذكرهم فى أية وثيقة كتبت فى زمن أسبق من زمن كنفوشيوس • وقد ورد ذكر اسم واحـد منهم يدعى « يو » فى المؤلفات الأولى ، ولكن لم يذكر عنه الا أنه كان من أبطال الزراعة قام بأعمال باهرة فى تصريف ميــاه المستنقعات ليصـلح الأرض للزراعة ، وفى تطهير الانهار وما الى ذلك • وفى كتاب المقتطفات الأدبية لكنفوشيوس ، نجد مع ذلك أن « يو Yü » قد ورد ذكره مع اثنين آخرين همـــا : « ياو Yao » و « شون Shun » • ويجب أن نذكر أنه من المفروض أن يكون « ياو » و « شون » أقدم عهـــدا من « يو » ، وهذا يتمشى مع مبدأ اكتشفه العلماء الصينيون فيمـا يتصل بهؤلاء الأباطرة الأسـطوريين ، فكلما تأخر فى الأدب ظهور امبراطور كان التاريخ المعزو اليه أسبق ، وهى قاعدة مطردة • والسبب فى هذا أنه لما اتسع مجال الأساطير ، أضيفت شخصـيات جديدة الى الفترات الحالية من الشخصيات وظلت الفترات الأسبق وحدها خالية من الشخصيات •

وعلى الرغم من أن كنفوشيوس يذكر « ياو » و « شـــون »

و « يو » فى « المقتطفات الأدبية » بوصفهم أباطرة أفاضل من العهد القديم فانه لم يرد فى فقرات صحيحة فى « المقتطفات الأدبية » بصراحة أنهم لم يعتلوا عروشهم بنفس الأسلوب الوراثى المعتاد ، ومع ذلك نجد فى كتاب « موتزو » ملاحظة جديدة نوردها فيما يلى :

« لنفرض أن حاكما أراد .. رداء مصنوعا من قماش من الصعب قطعه قطعا مناسبا ، فسيبحث بكل تأكيد عن خياط ماهر .. واذا أراد أن يشفى جوادا فسيبحث عن بيطار ماهر ، وفى القيام بكل هذه الأعمال لن يستخدم الحاكم أقاربه ولا أولئك الذين هم أثرياء ونبلاء وتعوزهم الموهبة ولا أولئك الذين هم مجرد أشخاص حسنى المظهر لأنه يعلم أنهم ليسوا بأكفاء للقيام بذلك .. ولكن اذا كان الموضوع موضوع حكم دولة فان الأمر لا يكون على هذه الصورة ، اذ يختار الحاكم لهذا العمل من هم أقاربه ومن هم أثرياء بلا مواهب وأولئك الذين هم مجرد أشخاص حسنى المظهر .. هل تهمه الدولة فى قليل مثل اهتمامه بجواد مريض أو حلة ملابس ؟...

« عندما تولى الملوك الحكماء قديما حكم العالم لم يكن أولئك الذين أغدقوا عليهم الثروة ، وجعلوهم نبلاء ، بالضرورة ، أقاربهم أو أثرياء أو نبلاء أو حسنى المظهر . ومن ثم فقد كان « شون » فلاحا ... صانع فخار ... صياد سمك ... بائعا متجولا .. ولكن اكتشفه « ياو » ... وجعله امبراطورا وسلم اليه مقاليد الامبراطورية وحكم الشعب » (٥) .

ولما تطورت الأساطير قيل ان « شون » لم يورث العرش

---

(٦) مى بى باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ص ٤٩ — ٥٠ .

لابنه ، بل اختار « يو » بدلا منه ليكون وريثه نظرا لما يتحلى بـه من فضائل وكفايات . ولربما عرف موتزو هذا التقليد (٦) .

ونظرا لأن أقدم تسجيل لهـذه التقاليد موجود فى كتـاب « موتزو » فقد كان هناك رأى أن موتزو قد ابتدعهـا ، ولكن هـذا أمر بعيد الاحتمال . لقد رأينا أنها تمثل خطوة منطقية تالية لمبادىء كنفوشيوس. وفى الحقيقة لقد ذكر موتزو بوضوح أن كنفوشيوسيى عصر موتزو كان لهم نفس المبدأ . وفى كتـاب موتزو تسجيل لكنفوشيوس يقول : « فى قديم الزمان عندما كان الملوك الحكماء ينعمون بلقب كانوا يلقبون أحكم رجل ابنا للسـماء (أعنى ملكا) .. ولما كان كنفوشيوس قد عاش فى فترة الملوك الحكماء ، فلماذا اذن لم يلقب ابن السماء ؟ » (٧)

والسبب الذى يكمن وراء هذه النظرية من السهل معرفته معرفة تامة : أنه ينقل الحرب ضـد الأريستقراطية الى العـدو مباشرة . فهل تردد الحكام عندما قيل لهم أن عليهم أن يسلموا الوظائف الرئيسية للرجال الأفاضل الموهوبين المجهولى الأصل ؟ والآن يمكن أن يقال للحكام ، بحق ، أن عليهم أن يسلموا عروشهم أيضا ، اذ لم يكونوا فى ارتقائهم لها أحسن قليلا من مغتصبين . وفى الأزمنة الغابرة عندما كان الحكام عظماء تجمعت فى أيديهم كل السلطات ، وكان يقال وقتذاك أنهم كانوا يبـاشرون هذا الحكم .

واذا تتبعنا تطور الفلسفة الصينية فاننا نرى الكـثير من

---

(٦) مى بى باو : « مؤلفات موتسى الاخـلاقية والسـياسية » ص ص ٤٦ و ٥٣ و ٨٥ .

(٧) صان ١ ــ جانج : « موتزو هسين كو » ١٣/١١ ب . ولقد ترجمت هذه العبارة بصورة مختلفـة فى كتاب مى بى باو : « مؤلفات موتسى الاخلاقيـة والسياسية » ص ٢٣٣ .

الحجج التى تستند عليها مستمدا من الماضى • ولم يكن الاهتمام بالسلف أمرا جديدا على الاطلاق • ولو رجعنا الى عهد بعيد من بداية أسرة تشو لوجدنا أن غزاة تشو كانوا يعلقون أهميـــة على اتباع أساليب « الملوك الحكماء السالفين » للأسرة التى انتصروا عليها (٨) وعزوا انهيارها الى اهمال « الأساليب العتيقة » (٩) • وأشار كنفوشيوس بعض اشارات الى الآثار القديمة ولكنه اذا ماقورن برجال عصره فاننا نعده مجددا جريئا : فهو لم يبرر قط أى أسلوب لأن مجرد أساسه راجع الى السلف •

ولكن الكنفوشيوسيين فى عهد موتزو ، بل وموتزو نفسه ، اعتمدوا على الشىء الكثير مما خلفه السلف • وكان من أشهر حجج موتزو حول مبادئه أنها متمشية مع مبادىء الملوك الحكماء • لقد قال : « لقد قررت أن أجعل نفسى على علم تام بـ « طريق » المـلوك السالفين وأن أبحث ما قاله الحكماء وبذلك أقنع الحـكام وعامة الشعب » (١٠) وقال أيضا : « ان كل الوصايا والأعمـــال التى تتمشى مع تلك التى نهج عليهـا الملوك الحكمـــاء (من العصور السابقة) ••• يجب أن تطبق ، وكل الوصـــايا والأعمـــال التى تتمشى مع تلك التى انتهجهـــا الملوك الأشرار (فى العصـــور السابقة) ••• يجب أن تتجنب » (١١) •

ومثل هذا القول الســـالف لم يكن معـيار موتزو الوحيد بحال ، اذ أنه لام الكنفوشيوسيين فى عصره لأنهم كانوا ملتزمين تمام الالتزام بأسلافهم ، وقال انه اذا كان هناك اجراء صالح ففى

---

(٨) ليجى : « الملك شو » ص ٣٨٦ •
(٩) ليجى : « الملك شي » ص ٥٠٩ •
(١٠) مى يى ـ باو : «مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية» ص٢٤٩ •
(١١) المرجع السابق : ص ٢٢٤ •

هذا تبرير كاف للالتزام به · وعلى الرغم من ذلك ، فالحقيقة المؤكدة هي أن موتزو والكنفوشيوسيين فى عصره كانوا أقل اهتماما من كنفوشيوس بتعليم الأشخاص ليفكروا من تلقاء أنفسهم ، وكانوا أكثر اهتماما فى وضع قواعد ثابتة لهم لاتباعها· وهذا أمر طبيعي · ومن السهل تدريب انسان على أن يستخدم آلة ولكن ماهو أصعب هو أن تعلمه كيف يصنع واحدة · وحقيقة أن تعلمه حتى يستطيع أن يخترع لنفسه آلة تعد أسمى صعوبة بكثير ، فلا عجب اذا اختار معظم المعلمين ومعظم الفلاسفة الطريق الأسهل ·

وقد استطاع الفلاسفة الصينيون ، بنسبة قواعدهم الثابتة الى آثار السلف ، أن يضفوا على مبادئهم أعظم هيبة ممكنة فى العالم الصيني · وكان لآثار السلف ميزة أيضا وهي أنها كادت تكون مجهولة تماما (لأكثر من ألف سنة أو ماشاكل ذلك فى الماضى) ولذلك كانت تتيح مكانا خاليا للفلاسفة يستطيعون أن يشغلوه بما يمليه عليه خيالهم · وبطبيعة الحال ظل هذا الفراغ خاليا فقط طوال عدم استكمالهم له · وفى الجملة لم يظهر من الادعاءات والمطالب الا ماهو أقل مما كان متوقعا · وفى الغالب بدلا من المجادلة حول ما ألم بآثار السلف ذكرت المدارس المنافسة ، فى الواقع : « ان ما تقولونه صحيح تماما ما فى ذلك من شك ، ولكننا اذا رجعنا بعيدا الى الوراء فاننا سنجد ··· » وبالمثل قال موتزو لأحد الكنفوشيوسيين : « ان ما تدعوه آثار السلف ليس قديما حقيقة ؛ انك تسير فحسب على نهج تشو ولست على نهج هسيا » (١٢) وهنا رجع موتزو الى عهد أسرتين ليطمئن الى القدم الراسخ للعصر الحقيقى ·

---

(١٢) مى يى ـ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ٢٣٣

ولا يبـــدو بوضوح أن بعض الخلافات مع الكنفوشيوسيين وهى الخلافات التى اهتم بها موتزو ، قائم على خلافات فلسفية : فعلى سبيل المثال يكرس موتزو الكثير من الوقت لمهاجمة مبـدأ « ان الفقر والجاه وطول العمر والوفاة قبل الأوان كلهـــا تتوقف على السماء ولا تبديل لها » (١٣) . ويبدو أنه عزا هذا المبدأ الى الكنفوشيوسيين أو على الأقل لبعضهم . ومع ذلك فمن الواضـــح أنه لا كنفوشيوس نفسه ولا منشيوس ، الذى عاش بعد موتزو ، قد وعظوا الناس بأنه لا حيلة للانســـان ازاء مصيره ، ولكن من الممكن أن يكون تمســـك بعض الكنفوشيوسيين بوجهة النظر هذه ، ربما ليجدوا المعاذير لأنفسهم عن انهـــم لم يبذلوا المزيد من الجهود العنيفة لتقويم أخطاء العالم .

وكان جانب من أعنف نقد وجهه موتزو موجها ضد ممارسة الجنائز الباهظة التكاليف وطول مدة الحداد . ويصف الاجراءات الجنائزية الدقيقة التى كان يدافع عنها البعض : بأسلوب ربما صورها فى صورة هزلية ، وقد لا تكون هذه الصورة هزلية الى حد كبير ، ويختتم تصويره قائلا « ومن ثم فقد تستنفد جنـازة الشخص العادى موارد أسرته . وعند وفاة سيد اقطاعى فقد تفرغ خزانة الدولة لاحاطة جسده بالذهب والأحجار الكريمة واللآلىء وتملأ مقبرته بأثواب من الحرير تحملها عربات وجياد » (١٤) . والحداد على أقرب الأقربين ، كما هو موصوف بمثل هذه التعليمات، قد يستلزم أن يقضى الفرد ثلاثة أعوام فى انقطاع تام عن أسلوب حياته العادى ، لا يؤدى عمـــلا ويعيش فى كوخ حدادًا ؛ ويأكل باقتصاد وما الى ذلك . ويجمل موتزو القـــول فيقول ان هذه

---

(١٣) مى بى ــ باو : « مؤلفات موتسى الاخلاقية والسياسية » ص ٢٣٤.
(١٤) المرجع السابق : ص ١٢٥ .

الممارسات للدفن والحـــداد تجر الفقر على الدولة وتتعارض مع العمليات المنظمة للانتـاج الاقتصــــادى وللحكومة ، ثم (نظرا للتعفف الجنسى الذى يجب التزامه خلال فترة الحداد) يقل تعداد السكان • ولهذا يجب أن يوجه اليها اللوم والتعنيف •

نحن نعــلم أن كنفوشيوس لم يرض شخصــيا عن الجنائز الباهظة التكاليف (١٥) غير المناسبة ولكنه أيد فعلا الحداد لثلاثة أعوام • ومما لاشك فيه أن موتزو ، من وجهة النظر الغربية ، كان على حق فى هذه المعارضة •

كان موتزو فى عدم رضاه عن الحرب متفقا الاتفاق كله مع الكنفوشيوسيين : فقد كان يعتبر حرب الســـلب والنهب وهى الحرب التى تشنها الدول الكبرى باستمرار على الدول الصغرى من أكبر الشرور • وكان الســبب واضــحا : ذلك أن موتزو كان عشيرا لأهل سونج وربما مواطنا بها ، وكانت هذه الولاية المركزية الصغيرة ميدان قتال مختار يتحارب فيه جيرانها الأكبر منها ، فقاست أهوال الحرب كاملة • وقد روى أنه فى احدى المناسبات حوصرت عاصــمة سونج حتى استحال أهلهـــا الى آكلة للحوم البشر ، ليظلوا أحياء (١٦) •

وقد هاجم موتزو موضوع الحرب بطريقتين : أولهما ، حاول أن يقنع حكام الولايات بأن الحرب لا غنم من ورائها ، وعندما ذكر له خصمه أن أربع ولايات قد كسبت حـــدودا أكبر وقوة أعظم بشنها للحرب أجاب موتزو بأنه قديما كان هناك فعلا أكثر من عشرة آلاف ولاية صينية فى حين أنها فى عصره قد زالت جميعها ولم يبق سوى أربع ولايات (وهذا العدد لم يكن صحيحـــا تماما

---

(١٥) المقتطفات الأدبية : ٣/٤ ، ١١/١٠ .

(١٦) ليجى : « تشوك تسيو » مع تسو تشو ان » ص ٣٢٨ .

ولكنه كان صحيحا بما فيه الكفاية ، نظرا لأن الولايات الصغيرة الأخرى الباقية تكاد تكون لا حول لها ولا قوة) ، وخلص موتزو الى القول فى الحوار بأنه لو كان وراء الحرب فائدة فستكون هذه الفائدة كما هى الحال فى قضية « طبيب يعالج آكثر من عشرة آلاف مريض ولا يبرىء سوى أربعة ، ومن ثم فمن الصعب أن ندعوه طبيبا ناجحا » (١٧) ·

ومن وجهة نظر العالم بوجه عام ، يتضح بما فيه الكفاية أن الحرب ليس وراءها غنم ، ولكن من وجهة نظر الدولة الغـــازية فان هذه الحجة التى قدمها موتزو قد لا تحمل من الاقنـــاع الا القليل ، اذ أنه لا ينكـــر أن الولايات الـكبرى قد كسبت فى الحقيقة ، رقعة وقوة ، ومع ذلك يقول موتزو فى موضع آخـــر ان « مهـــاجمة دولة كبيرة لدولة صـــغيرة تسىء الى كلتيهما ، والدولة الكبيرة تعانى دائما من الجرم الذى اقترفته » (١٨) · ويحاول أن يبرهن على هذا بحجج من التاريخ ولكن براهينه كانت بالأحـــرى قسرية وتهدف الى اساءة تفسير الحقائق بل وسوء عرضها (١٩) ·

وهو أكثر اقناعا عندما يؤكد أن الحرب ليست عملية رابحة بل عملية تحطيم للمنتصر والمهزوم على السواء ، وأشار الى أن البقاع التى كانت تغزى غالبا ماتترك بورا بعد الحرب ، وأكثر من هذا فان أولئك الذين يغزون حبا فى الغزو لديهم الكثير من البقاع ليبدءوا بها بدلا من أن يفيدوا منها فعـــلا · والغزاة فى الحقيقة لصوص كبار ، يسرقون لا لأنهم فى حاجة الى المزيد من البقاع

---

(١٧) مى يى ـــ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ١١٤
(١٨) المرجع السابق : ص ٢٤٤ ·
(١٩) المرجع السابق : ص ص ١٠٤ ــ ٦ ·

ولكن لأنهم مصابون بجنون السرقة(٢٠)٠ (ومن الطريف أن نلاحظ أن الصيني القديم يبدو ان كان له المام تام بجنون السرقة Kleptomania ، نظرا لأننا نجد أنه قد ورد ذكره في أكثر من مؤلف) ويخلص مونزو الى أن العالم لا يمكن غزوه ، حقيقة ، بحد السيف ، ولكن الفضيلة والعدالة والايمان الصادق وحدها تجعل الأشخاص يخضعون حقيقة عن رغبة في الاستسلام والتعاون مع الحاكم ومع بعضهم بعضا لصالح الجميع ٠

ومع ذلك فهناك موضوع بحث وهو هل تكفي هذه الحجة لردع حاكم قوى شره عن الغزو ؟ ٠ واضح أن موتزو نفسه كان يساوره بعض الشك في هذا الأمر لأنه وجه اهتماما كبيرا للفنون العملية للحرب الدفاعيه التي يمكن أن تستخدم في مناهضة أي حاكم لم يردعه الاقتناع ، ومن ثم فاننا نجد في كتابه فصولا بمثل هذه العناوين مثل « تحصين بوابة مدينة » و « الدفاع ضد سلالم التسلق » و « الدفاع ضد الأنفاق » وما الى ذلك ٠ وكان موتزو فيلسوفا غير عادى اذ أنه لم يكتف فحسب بأن يتكلم ويكتب عن آرائه في الحرب الدفاعية بل قام بممارستها ممارسة فعلية ٠ لقد درب تلاميذه على مناهجه وقد دون أنه توفي واحد منهم على الأقل في معركة ٠

ويروى الفصل الأربعون من كتاب موتزو أن الفيلسوف قد سمع أن شخصا ما ماهرا في تدبير الخطط الحربية يدعى « كونج شو بان Kung Shu Pan »قد شيد سلالم تناطح السحاب بولاية تشو الجنوبية العظيمة وكان على وشك أن يهاجم بها ولاية سونج ، فأسرع موتزو على الفور الى ولاية تشو وحاول أن يثني حاكمها عن عزمه ولكن بدون جدوى ، وعلى ذلك :

---

(٢٠) مى يى — باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ص ٢٢٠ — ٢١ ٠

« نزع موتزو حزامه وألقـــــاه على الأرض ليمثـــل مدينـــه محصنة ، واستخدم عصا صغيرة كسلاح ، وكان «كونج شو بان» قد استخدم تسعة حيل مختلفة للهجوم ، قصده موتزو تســـع مرات • واستنفد « كونج شو بان » حيله في الهجوم وكان موتزو لا يزال لديه أساليب احتياطية فى الدفاع •

« وارتبك كونج شـــــو بان وقال : أنا أعرف كيف يمكننى أن أهزمك ولكننى لن أتفوه بشىء ، فقال له موتزو : يظن كونج شو بان أننى لو قتلت فلن يكون هناك من أحد ليقوم بالدفاع عن سونج ••• ولكن فى الحقيقة هناك ثلثمائة من أتباعى •• مزودون بكافة أجهزتى للدفاع ، وهم فى هذه اللحظة منتظرون على جدران سونج : اللصوص المسلحين من ولاية تشو • انك تستطيع أن تغتالنى ولكن لا تستطيع أن تتخلص منهم • فقال حـــــاكم تشو : « حسنا جدا ، دعنا نتخلى عن هذه الفكرة فى مهاجمةسونج » (٢١)•

هذا الأسلوب فى معالجة الحرب سلبى برغم فعاليته • لقد كان لدى موتزو برنامج أكثر فعالية • لقـد اقترح للعلاج الأســاسى للحرب ولعدد كبير من الشرور الأخرى مايمكن أن يسمى « بالحب العـالمى universal love » وكان فى هذا مختلفا مرة أخرى مع الكنفوشيوسيين • لقد اهتموا بحب الوالدين والأقارب ، فقال انه بالمثل يجب أن يحب الفرد كافة الأفراد وان كان هذا الحب فى درجة أقل • واعطاء هذه الأولوية للأسرة كان دائما ، كمـا نعلم ، منذ أقدم العصـــور حتى الآن ، من خصـــائص الثقافة الصينية • انه مسئول عن جانب من أعظم قواها وعن بعض نواحى ضعفها الرئيسية مثل محاباة الأقارب • لم ير موتزو سوى نواحى

---

(٢١) مى يى ـ باو : « مؤلفات موتسي الأخلاقية والسياسية » ص ٢٥٩

الضعف في الولاء العائلي وحمل عليه حملة شديدة ، وكان يعتقد أن كل فرد يجب أن يحب كل شـــخص آخر فى العـــالم بدون تفرقة ، ومن ثم يقول :

« لنفرض أن كل فرد فى العالم قد مارس الحب العالمى حتى أحب كل فرد كل فرد آخر كحبه لنفسه ، فهل يعــوز أى فــرد اذن حب الوالدين ؟ واذا نظر الفرد الى أبيه وأخيه الأكبــر وحاكمه بنفس النظرة التى يتطلع بها الى نفسه ، فمن ياترى لا يظهر له الحب ؟ هل يكون هناك أى فرد لا يحس تجاهه بالحب ؟ ... هل يكون هناك لصوص وسارقون ؟ لو أن أى فرد اعتبر بيوت الناس الآخرين كما لو كانت بيوته ، من سيقوم بالسرقة ؟ ... هل تتنافس القبائل النبيلة فيما بينها ؟ هل تقوم الولايات بمهاجمة بعضها بعضا ؟ لو أن كل فرد فى العالم مارس الحب العالمى ... اذن لتمتع العالم بأسره بالسلام والنظام الثابت (٢٢) .

ويبدو هــذا أمرا غاية فى الســهولة ، ولكن قد يكون فى الحقيقة بالغ الصعوبة أن تطالب الأشخاص كافة بأن يحبوا بعضهم بعضا . ومع ذلك يجب أن نلاحظ ماذا يعنيه مــوتزو بكلمــة « حب » ، اذ أن العبارة الصينية التى يستخدمها هى « آى ai » والترجمة الوحيدة المحتملة لها هى « الحب » ؛ ومع ذلك فيجب أن نلاحظ أنه بينما كثير من المســيحيين يدعون موتزو : روحا حليفة Kindred spirit فان «حبه» ليس الحب العاطفى الذى تدعو اليه المسيحية أو الذى تدعو اليه الكنفوشيوسية ، لأننا نجد أن موتزو ، على خلاف الكنفوشيوسيين ، يعترض على العاطفة ويقول محددا رأيه ان كل العواطف يجب الغاؤها بما فى ذلك عاطفــة

---

(٢٢) مى يى — باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ص ٧٩ — ٨٠ .

« الحب » (٢٣) • وهنا يستخدم نفس كلمة « آى » ولكنه لم يكن فى الحقيقة متضاربا فى آرائه لأن « الحب » فى « الحب العـــالمى » ليس حبا عاطفيا ولكنه (كما يدرك موتزو) مجرد شىء صادر عن العقل •

ولكن كيف يمكن دفع النـــاس الى ممارسة مثل هذا الحب العقلى ؟ يذكر موتزو طريقتين رئيسيتين : فمن ناحية يجب أن يحثهم الحاكم ويحرضهم على ممارسة الحب العالمى ، وســـأتحدث عن هذا أكثر فيما بعد • ومن ناحية أخرى يجب افهامهم أنه أمر نافع ومن مصـــلحتهم الشخصية ممارسته • هذا اذن هو مبدأ المصلحة الذاتية المستنيرة enlightened self-interest ويقدم موتزو الكثير من الحجج العظيمة ليوضح أن « حبه العالمى » سياسة طيبة• وحجته قوية عندما يوضح أن الحاكم الذى يمارس الحب العالمى سيكون محبوبا ، وموضع ثقة من شعبه فى حين أن ذلك الذى يتميز بالأنانية والانحياز لن ينعم بالحب والثقة (٢٤) • وهو أقل اقتناعا الى حد ما عندما يفترض حالة شخص يقوم برحلة طويلة لا ينتظر أن يعود منها وكان عليه أن يكل رعاية أسرته الى صديق له • فى مثل هذه الظروف ، يقول ان كل فرد ، حتى ولو كان هو نفسه يعارض مبدأ الحب العالمى ، سيختار الشخص الذى يؤمن به حارسا للأسرة • ويؤكد موتزو أنه لا لايمكن أن يقبل شخص أن يكون أبله ليختار صديقا «مغرضا» لهذه المهمة (٢٥) • ولا شـــك أن هـــذا ليس مؤكدا ، نظرا لأن الصـــديق « الذى

---

(٢٣) صان ا ــ جانج « موتزو هسين كو » ٣/١٢ ب • مى يى ــ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ٢٢٤ •

(٢٤) مى يى ــ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ص ٩١ ــ ٩٢ •

(٢٥) المرجع السابق : ص ٩٠ •

يؤمن بالحب العالمى » قد يقوم ، مثلا ، باقتسام أى طعام موجود : مع أسرة صديقه ومع كل فرد . ومع ذلك فمن المحقق أن المرء لا يمكن أن يختار لهذه المهمة شخصا أنانيا تماما .

وقال شخص ما لموتزو : « قد يكون مبدؤك عن الحب العالمى مبدأ طيبا ، ولكن ما الفائدة منه ؟ » فاجاب موتزو : « لو لم يكن نافعا لما رضيت به أنا نفسى . ولكن كيف يمكن أن يكون هناك شىء صالح ومع ذلك ليس بنافع ؟ » (٢٦) . وهنـــا نجد مبدأ موتزو المشهور وهو : المذهب النفعى utilitarianism ولكن المنفعه فى حد ذاتها ليست مقيـــاسا ، فكل فرد يفعل مايجده نافعا للوصول الى غرض ما ، مالم يكن أكثر من غرض التكاسل . ومن ثم يجب أن نتساءل ماهى أهداف المنفعة فى نظر موتزو ؟ يبدو أنه يؤمن أن هناك خمس فوائد مرغوب فيها بصورة خاصة وهى : اثراء البلاد وزيادة تعداد السكان واستتباب النظام وصد أية حرب عـــدوانية وتلقى بركات الأرواح (٢٧) . كل هذا واضح بذاته فيما عدا الرغبة فى زيادة تعداد السكان . ونحن اليوم اذا تطلعنا الى الصين فسنجدها بلدا مزدحما بالسكان ولكن شعبها نما بصورة هائلة فى القرون الحديثة ، وقد قدر عدد السكان فى العهد الحديث منذ ثلثمائة سنة بسبع كثافة سكان الصين اليوم ، أما فى زمن موتزو فقد كان نقص عـــدد السكان هو المشـــكلة الرئيسية .

ولبلوغ هدف قيـــام شعب غنى ، كثير العدد ، منظم ، مسالم ، وبالمعنى اللفظى « مبارك » ، كان موتزو على استعداد لأن

---

(٢٦) مى يى ـ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ٨٩
(٢٧) المرجع السابق : ص ص ١٢٦ ـ ١٢٩ .

يضحى بكل شيء آخر تقريبا . فالكساء يجب أن يقى الجسد من البرد فى الشتاء ومن الحرارة فى الصيف ، ولكن ينبغى ألا يكون جذابا . والطعام يجب أن يكون مغذيا وان لم يكن ملائما ، والبيوت يجب أن تقى من البرد والحرارة والأمطار واللصوص ولكن يجب ألا تكون مزخرفة زخرفة لا جدوى من ورائها ، وعلى الجميع أن يتزوجوا سواء رغبوا فى ذلك أو لم يرغبوا ، وذلك لزيادة تعداد السكان .

وكان موتزو لا يحتمل وجود أى شيء غير نافع : فقد كان يعارض الموسيقى التى كانت تستغل فى صناعة آلاتها واللعب بها وقت الناس وثروتهم ، ومع ذلك فلا تأتى بشيء ملموس . ونقرأ له : « ماهو الشيء الذى يدفع بالحكام الى اهمال شئون الحكم ، وعامة الشعب الى اهمال عملهم ؟ انها الموسيقى . ومن ثم ، يقول موتزو ، : « من الخطأ عزف الموسيقى » (٢٨) .

وهذه وجهة نظر مخالفة تماما لوجهة نظر كنفوشيوس التى جاء ذكرها فى واحد من الكتب الأثرية القديمة وهى : « تبعث الموسيقى على الطرب ، وبدونه لا يمكن أن يكون هناك وجود لطبيعة الانسان » (٢٩) . وكان موتزو لابد أن يعارض هذا الرأى : فلقد أدرك أن نظامه الكامل معرض لخطر أن تغرقه العواطف ؛ ومن ثم فهو يقول ببساطة انها يجب ازالتها ، وقال بصورة خاصة : « يجب التخلص من الفرح والغضب والمرح والحزن والحب (والكراهية) » (٣٠) .

وهذا أمر من السهل قوله دون فعله ، ولكن موتزو لم يعتمد

---

(٢٨) مى يى ــ باو : « مؤلفات موتسى الاخلاقية والسياسية » ص ١٨٠

(٢٩) ليجى : « لى كى » فصل ٢ ص ١٢٧ .

(٣٠) مى بى ــ باو : « مؤلفات موتسى الاخلاقية والسياسية » ص ٢٢٤

على التأثير فحسب فى بلوغ أهدافه • لقد أيد قيام تنظيم للدولة منظم تنظيما صارما مدعما بما دعاه مبدأ « الاندماج فى الرئيس identification with the superior » - ويبدو أنه كان يقصد توحيد العزيمة والمنفعة • لقد اعتقد موتزو أن الناس عاشوا أول ما عاشوا فى حالة فوضى مماثلة لما ذكره توماس هوبز Thomas Hobbes فى كتابة « حالة الطبيعة » ، وقد أنقذهم من هذه الفوضى الاله الرئيسى « السماء » بأن نصب عليهم امبراطورا ، واختار الامبراطور رعاياه ، وهؤلاء اختاروا من هم دونهم ، واستمر هذا الاجراء حتى تكون الجهاز الكامل للحكومة ، ثم أصدر الامبراطور مرسوما جاء فيه : « اذا ماسمع كل فرد عن أمر صالح أو طالح يجب أن يبلغه لرئيسه ، وما يرضى عنه الرئيس يجب أن يتقبله الجميع ، وما يحرمه الرئيس ، على الجميع أن يمتنعوا عنه واذا ما أخطأ الرئيس فعلى مرءوسيه أن يعارضوه واذا كان للمرءوس موهبة فسيكتشفها رئيسه ويزكى وجوب مكافأته • وكل من قوى اتصالهم برؤسائهم ولا يشكلون زمرة مع مرءوسيهم فسيكافئهم رؤساؤهم ويمدحهم مرءوسوهم » • ومن ناحية أخرى ، فقد خلص الامبراطور الى أن أولئك الذين يسلكون سلوكا مضادا يستحقون اللوم والعقاب (٣١) •

وهذا النظام الذى نادى به موتزو قد طبق فعلا فى العصور الماضية ، وله أكثر من تشابه واحد مع الحزب الذى نظمه أدولف هتلر الذى كتب فى كتابه « كفاحى Mein Kampf » : « ان مبدأ قيام دستور للدولة بأسرها يجب أن يكون فى تسلط كل زعيم

---

(٣١) مى يى - باو : « مؤلفات موسى الاخلاقية والسياسية » ص ص ٥٦ - ٥٧ •

على من هم دونه ، ومسئوليته ازاء من هم أسمى منه » (٣٢) ٠
وقد ثار الجدل حول مسألة هل يمكن أن يكون هذا النظام صالحا اذا ماتأكدنا من أن كل زعيم كان صالحا ٠ وقد ذكر موتزو أنهم قديما كانوا كذلك ، ولكنهم ، فى صورة ما ، لم يفسرها تمـــاما ، توقفوا عن أن يكونوا كذلك ، ومن ثم كانت علل العالم ٠ واننا لنعجب ، مع ذلك ، كيف يتسنى للمرءوسين ، ومن واجبهم كما يقول موتزو ، أن يعارضوا الرؤساء الأشرار ، بينما هم يفكرون فى نفس الوقت بنفس التفكير الذى يفكر به رؤساؤهم ؟ لقـــــد كان جواب موتزو جوابا غير شاف ٠

ويقول موتزو انه ليس بكاف على الاطـــلاق بالنسبة لرؤساء وزراء الامبراطور أن يجعلوا رغباتهم مطابقة لرغبات الامبراطور ، ولكى يتم التنســـيق ، يجب أن تكون ارادة الامبراطور متفقة مع رغبة السماء ، وفى هذه الحالة فقط يكون عمل هذا النظام محققا ، فاذا لم يتم هذا الأمر يقول موتزو :

« تنزل السماء بردا وحرا متجاوزى الحـد ، وجليدا وضبابا ومطرا وندى غير معقول ، ولا تنضج الحبوب الخمسة ولا يكتمل نمو الحيوانات الســـتة الأليفة وتتفشى الأمراض والأوبئة والطاعون ٠ ويتكرر هبوب الأعاصير وتتدفق السيول ، فهذه هى عقوبة السماء التى تنزلها بالناس على الأرض لأنهم فشلوا فى أن يحققوا أهدافها ٠ ولهذا فقد أدرك الملوك الحكماء فى قديم الزمان ما ترغب فيه السماء والأرواح وتجنبوا ماتكرهه ٠٠ وبالتطهير والاستحمام وبشرب النبيذ النقى وأكل الكعك دفعوا بالناس الى التضحية فى سبيل السماء والأرواح ، وهم لم يجرؤا على أن يضيعوا الوقت الملائم للتضحية فى الربيع والخريف ؛ وفى حكمهم فى القضايا لم يجرؤا على أن

---

(٣٢) مقتبسة من فينر Finer « مستقبل الحكومة » ص ١٩ ٠

يكونوا ظالمين ، وفى تقسيم الملكية لم يجرؤا على أن يكونوا جائرين ، وحتى فى الأوقات غير الرسمية لم يجرؤا على اهانة الفقير » ٠

وهكذا يخلص موتزو الى أنه كان فى استطاعتهم أن يعملوا حتى يحصلوا على بركات السماء والأرواح ورضا شعبهم وتأييده ، وكان كل هذا نتيجة لأخذهم بمبدأ الاندماج فى الرئيس (٣٣) ٠

وجدير بالذكر أن كنفوشيوس قد حول الاهتمام من العمل الشعائرى (كالتضحيات للأرواح) الى السلوك الأخلاقى ، ناصحا النـاس بأن يكونوا رحماء وأن يحكموا بالعدل ، وما الى ذلك ٠ ولم يرجع موتزو الى المنهج القـديم ، الذى كان شعائريا قبل كل شىء ، فالعمل الأخلاقى لازال بالغ الأهمية فى نظره ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه الايمان بالشـعائر الدينية وحتى الايمان الدينى متفقين مع فلسفة كنفوشيوس ولكنهما ليسا بأى حال جوهريين لها ، كان منهج موتزو الكامل عن الأشياء ينادى بأن السماء والأرواح تتدخل فى شئون البشر لتعاقبهم على خطيئاتهم ٠ ومن ثم نجد موتزو يقول : « يعتقد الكنفوشيوسيون أن السـماء بلا عقل وأرواح الموتى بلا وعى ، وهذا أمر يغضب السماء والأرواح وكفيل بدمار العالم » (٣٤) ٠

ويسوق موتزو براهين عديدة عن نشـاط السماء فيقول مثلا : « كيف يستطيع المرء أن يعرف أن السـماء تحب البشر كافة ؟ لأنها تنير عقولهم ٠ وكيف يستطيع المرء أن يعرف أنها تنير عقولهم ؟ لأنها تتملكهم ٠ وكيف يعرف المرء أنها تتملكهم ؟ لأنها

---

(٣٣) مى يى ــ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ص ٦٢ ــ ٦٤ ٠

(٣٤) المرجع السابق ص ٢٣٧ ٠

تتقبل الأضحيات منهم جميعا » • ويقول موتزو ان هذا واضح لأن الناس في كل مكان يقدمون الضـــحايا ، ويستطرد : « ومادام الناس ملكا للسماء ، فلماذا لا تحبهم ؟ وفضلا عن هذا أقول لكل قاتل شخص برىء ان هناك عقابا معينا ••• من ينزل العقاب ؟ السماء ••• ومن ثم فانني أعرف أن السماء تحب البشر» (٣٥) •

ولكي يبرهن على وجود الأرواح يسرد موتزو عـــددا من الأمثلة من التاريخ الحديث نسبيا ، يحسب فيها أن الأرواح (عادة أرواح الموتى) قـــد انتقمت لخـــطايا وكافأت على فضـــائل • ويقـول موتزو ان هـــذه الأرواح قـد شاهدتها أعـــداد غفـــيرة من البشر ، ومع ذلك ، فالأرواح ليست دائما مرئية لأنه يذكر لنا أنه « حتى في المضايق العميقة والغابات الضخمة ، حيث لا يوجد بشر ، يجب ألا يسلك المرء سلوكا غير لائق اذ أن هناك أشــباحا وأرواحا ستراه » (٣٦) •

وسواء كان الكنفوشيوسيون في عصر موتزو في الواقع من المتشككين كما نستدل من كلامه ، فهذا أمر لا يمكننا التأكد منه• ولكن لاجدال في أن كنفوشيوس كان متشككا هو نفسه • وكان الكنفوشيوسيون بوجه عام متشككين وأقل اعتقادا بالخرافات من غالبية الناس حولهم • وليس هناك من سبب للاعتقاد بأن موتزو كان يؤلف قصصه حول أشباح من نسج خياله ، اذ على العكس من ذلك يبدو واضحا أنه كان يعيد الى التفكير الفلسفي عنصرا كان قد طهره منه كنفوشيوس الى حد بعيد ، ولكن لاشك أنه لعب دورا كبيرا في تفكير النـاس بوجه عـام أكثر مما قام به أي نوع من الأفكار التي كرس لها كنفوشيوس اهتمامه • وقد حدث

---

(٣٥) مي يي ـ باو : « مؤلفات موتسي الأخلاقية والسياسية » ص ١٣٩
(٣٦) المرجع السابق : ص ١٦٥ •

بعـد ذلك ، كمـا سنرى ، أن شيئا من هـذا قد تسلل عائدا الى الكنفوشيوسية رغم أنه من المشكوك فيه أن تكون لموتزو صلة مباشرة بذلك الأمر ٠

ومع ذلك فان انصافنا لموتزو يقتضينا أن نذكر أنه لم يقل أن النـاس يعمهم الرخاء فقط اذا ما قدموا قرابين ، بل أصر على العكس من ذلك ، على أن القرابين التى يقدمهـا الرجل الفاضـل وحده هى التى تلقى القبول (٣٧) ٠

ولما كان موتزو يؤمن بأن الدول عليها أن تنسق فى نظام طبقى منظم تنظيما دقيقا ، لذا لم يكن غريبا أن ينظم مدرسته وفقا لنفس النسق ، وكان هذا أمرا طبيعيا جدا اذ أن الأعمال العسكرية كانت تقوم بها المجموعة أحيانا ٠ وتتطلب الأعمـال العسكرية أحيانا ، ولها العذر دائما ، أن يمارس أولئك الذين فى أيديهم السلطة ، الأعمال التعسفية ٠

وقد تكبد موتزو قـدرا كـبيرا من التعب ليغرى تلاميذه للانضمام الى المجموعة ٠ وقد ورد ذكر حالة واحدة وعد فيها شابا بأنه لو درس على يديه فسيضمن له وظيفة رسمية ، وفى نهاية السنة عندما طالبه الطالب بالمنصب الموعود ذكر له موتزو فى صراحة أنه لم يعـده الا ليغريه بالدراسـة فحسب لمصلحته الشخصية (٣٨) ٠

وحينما كان تلاميذه مبتدئين ، كان موتزو يعمل على تمرينهم على أن يأكلوا وجبة واحدة فقط يوميا مؤلفة من حساء الخضر ،

---

(٣٧) معى بى – باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ص ٢٥٠ – ٥٢ ٠

(٣٨) المرجع السابق : ص ص ٢٣٨ – ٣٩ ٠

ويجعلهم يرتدون ملابس العمـــال العـــاديين (٣٩) • وعندما يتخرجون ويخرجون الى الحياة كموظفين يعتبرهم موتزو خاضعين لسلطته • وتروى الأخبار المسجلة عن واحد كان موتزو قد بعث به ليخدم كموظف فى تشو ، أنه بعث بقدر كبير من المـال الى أستاذه (٤٠) • واستدعى موتزو تلميذا آخر كان قد بعث به ليتسلم منصبا فى تشى Chi لأنه اشترك فى حرب عدائية شنتها تلك الولاية(٤١)• ويذكر كتاب يرجع الى عهد أسرة هان Han : « أن أولئك الذين خدموا موتزو قد بلغ عددهم مائة وثمانين شخصا وكان فى استطاعته أن يأمرهم بأن يقتحموا النار أو أن يمشوا فوق نصـــال الســـكاكين ، وكانوا يســيرون على نهجه حتى الموت » (٤٢) •

وبعــد زمن موتزو استمرت مدرسته لعــدة قرون ؛ وقد انتقل نفوذه العظيم كزعيم للجماعة الى سلسلة من الأفراد يبدو أنهم احتفظوا بها طوال حياتهم • ويبدو أن هذا الزعيم كان فى استطاعته أن ينفذ عقوبة الاعدام على أتباعه (٤٣) • وجدير بالذكر أن واحدا من هؤلاء الزعماء أسند اليه عمل دفاع عن ولاية صغيرة ولكنه لما عجز عن القيام بذلك انتحر ، وفى نفس الوقت انتحر معه مائة وثلاثة وثمانون من أتباعه (٤٤) •

وفى كتاب « موتزو » خصصت الفصول ٤٠ ـ ٤٥ جانبا كبيرا منها لمناقشة مسائل منطقية وجدلية • والمتفق عليه بوجه

(٣٩) مى يى ـ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ٢٥٢
(٤٠) المرجع السابق : ص ٢١٤ •
(٤١) المرجع السابق : ص ٢٥٤ •
(٤٢) « هو آى نان تزو » ٢٠ / ١٠ أ •
(٤٣) « لوشيه شون تشيو » : ١ / ١٢ •
(٤٤) المرجع السابق : ١٩ / ٩ •

عام هو أن هذه الفصول كتبها المورويون المتأخرون ، وأن موتزو لم يكتبها بنفسه • وبرغم ذلك نستطيع أن نجد مبادىء الاهتمام بمثل هذه الموضوعات عند موتزو نفسه ، وكان موتزو يحب أن يجادل ولكن فى الغالبية القصوى لم يكن منصفا تماما ولا كان مجادلا مقنعا • فكان يستخدم حيلا غير معقولة فى المناقشات ، وكان يبدو أحيانا أنه كان يسعى الى أن يحير خصمه حتى يضطر الى موافقته على رأيه • وربما كان مرد ذلك الى أنه لم يكن مجادلا منطقيا رغم ميله الى الاصرار على أنه كان يتبع القواعد المنطقية • وفى الحقيقة لم تكن قواعده المنطقية ولا التزامه بها بالغة التأثير •

وفى نفس الوقت تقريبا كان هناك مفكرون آخرون فى الصين ، كانوا يطورون الجدل بدرجة رفيعة ، وكان منهجهم وموضوع تدريسهم يذكر المرء أحيانا بالسفسطائيين الاغريق وأحيانا يذكرنا بالايلياتيين Eleatics (*) • وعلى الرغم من أن هؤلاء الأشخاص لم يتفق رأيهم جميعا الا أنهم يجتمعون كلهم تحت لقب مدرسة الأسماء the school of names أو الجدليين dialecticians.

وكان من أشهر قضاياهم المنطقية أن « الجواد الأبيض ليس بجواد» • وقد كتب الفيلسوف «كونج-سون لونج Kung-Sun Lung الذى طور هذه القضية ، كتب تأييدا لهذه القضية المنطقية مايلى : « الجواد الأبيض ليس بجواد ••• اذ أن كلمة « جواد » تعبر عن صورة بينما كلمة « أبيض » تدل على لون ، وأن تطلق اسما

(*) الايلياتيون : هم مؤسسو المدرسة الفلسفية الاغريقية القديمة التى تشكلت فى مدينة ايليا Elea (جنوب ايطاليا) فى القرنين ٦ و ٥ ق٠م٠ وهم دعاة المذهب المثالى او التصورى idealism ومن أشهر مفكريها : اكسينوفانيس وبارمنيدس وزينو الايلياوى ميليسيوس الساموسى •
(المترجم)

على لون ليس معناه أن يطلق الاسم على الصورة ومن ثم فاننى أقول ان الجود الأبيض ليس بجواد ... فاذا كنت تطلب جوادا فان الجواد الأصفر أو الأســـود سيؤدى المطلوب ولــكن لا يحقق المطلوب اذا كان المطلوب هو جواد أبيض ، فاذا كان المفروض أن جوادا أبيض هو جواد ، اذن فان مايطلبه المرء هو شيء واحد أعنى جوادا أبيض لا يختلف عن « جواد » بوجه عام . ومع ذلك فعلى الرغم من أن المفروض أنهما لا يختلفان فان جوادا أصفر أو أسود سيحقق رغبتك في جـــواد ولكنه لا يحقق رغبتــك في جواد أبيض ، أليس كذلك ؟ » ويستمر الفيلسوف فى توضيح هذا الموضوع فى اسهاب (٤٥) .

وقد جادل المورويون المتـــأخرون ، فى كتاباتهم الجـدلية ، كثيرا من القضايا المنطقية للجدليين . لقد كتبوا على سبيل المثال : « الجواد الأبيض جواد ، وأن تمتطى جوادا أبيض هو أن تمتطى جوادا . والجواد الأسود جواد ، وأن تمتطى جوادا أسود هو أن تمتطى جوادا ... وعلى الرغم من أن الأخ الأصغر لشخص ما قد يكون شخصا وسيما ، فان حب الشخص لأخيه الأصغر ليس حبا لشخص وسيم » (٤٦) . والمهم فى القضية الأخيرة يبدو أنه ، اذا كان حقا من الوجهة الفنية أن حب الشخص لأخيه الأصغر هو حب لشخص وسيم ، فانه هذا يعطينا انطباعا زائفا ، نظرا لأن الحب ليس مرده الى انه وســيم بل لأنه أخو الانســان . ومن المحتمل أن نتوسع فى نفس المدلول كما حدث بالنسبة لعبارة

---

(٤٥) « كونج ــ سون لونج تزو » ٣ ب ــ ٥ ب ، وقد ترجم هذا الجدل باكمله فى كتاب هيوز Hughes : « الفلســـفة الصينية فى الازمنـة الكلاسيكية » ص ص ١٢٢ ــ ١٢٥ .

(٤٦) سون أى ــ جانج : « موتزو هسين كو » ١١/١١ .

« الجواد الأبيض » ونسلم بأننا قلنا ان الجواد الأبيض جواد فاننا لا نشير الى لونه بل الى تلك الخصائص التى يتميز بها بوجه عام مع الجياد ٠ ونحن لا نقول ان الجياد البيض هى **كل** الجياد ولكننا نقول ان الجياد البيض هى **بعض** الجياد ٠ وفى لغة المنطق الغربى يبدو الموويون المتأخرون هنا وهم يعارضون معارضة مماثلة للقول القائل بأن كلمة « جواد » لم تكن مستخدمة بمعناها التفصيلى ٠

واللغة الصينية المكتوبة لا تفرق ، عادة ، بين المفرد والجمع أو بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول ، وقد تكون غامضة فى هذه الأساليب وغيرها اذا استخدمت بغير عناية أو بقصد البلبلة٠ وكان الجدليون يشيرون الى خطورة هذه المزانق ، كما أخذوا فى اعتبارهم أيضا مشكلة الكليات ، وفكروا فى طبيعة بعض صفات مثل « الصلابة » و « البياض » وفكروا فى تحصيل المعرفة عن طريق الحواس ٠ وواضح أن ما كانوا يفعلونه كان بالغ الأهمية وبالغ الطرافة ، ومع ذلك فانه من الصعب الوصول الى معرفة يمكن الاعتماد عليها عما قالوه أو كتبوه ٠ وهناك جانب واحد من مؤلفاتهم محفوظ ، أما الباقى فقد فقد والباقى منه مقتطفات أوردها النقاد ٠ ويبدو أن السبب فى هذا راجع الى أنه بينما اهتم بعض الصينيين فى فترات معينة اهتماما بالغا بفنون المنطق والجدل ، كان الصينيون بوجه عام مهتمين اهتماما بسيطا نسبيا بمثل هذه الأمور ٠

وبرغم أن الموويين المتأخرين كانوا ينتقدون الجدليين ، فقد كانوا ، مثل موتزو ، مهتمين بالجدل ، ويبدو أنهم كانوا يعتبرونه أيضا وسيلة للوصول الى الحقيقة لأنهم كتبوا : « فى الجدل : الفائز هو المحق » ويقولون أيضا : « فى الجدل ٠٠٠ الشخص الذى على

حق يفوز » (٤٧) • وقد يكون هذا صحيحا ــ ويرجو الانسان أن يكون صحيحا ــ ولكن الصينيين بوجه عام كانوا أكثر تشككا في الايمان بانه قد يكون صحيحا بالضرورة • ومن ثم فقد جاء في المؤلف الطاوى المعنون تشوانج تزو Chuang Tzu أن الجدليين يمكن أن ينتصروا في مناقشاتهم للأشخاص ولكنهم لا يستطيعون أن يقنعوا عقولهم » (٤٨) • وقد قال أحد محررى المقالات في عهد أسرة هان : « كانوا يوجهون اهتماما مضنيا للمصطلحات الفنية ولكنهم كانوا يهملون مشاعر الناس » (٤٩) • ولقد قال هسين تزو Hsün Tzü ، ولعله كان أكثر الكنفوشيوسيين انتقادا على الاطلاق ، عن واحد من الجدليين أنه كانت « تعميه الكلمات ولا يعرف الحقيقة » (٥٠) وهذا حكم صيني صادق •

ولما كان الجدل بالغ الأهمية في الفلسفة الغربية ، فليس من السهل علينا أن ندرك كيف أن بعض الصينيين قدروه تقديرا هينا • ولقد علق كاتب في وقت مبكر في العصر المسيحي على أن التفكير الجدلي لم يسهم بشيء في ممارسة شئون الحكم وأنه في الحقيقة صورة لجدل لا طائل تحته ، وقال بانه ، مع ذلك ، مجال تسلية لأولاد الذوات ، فهو تمرين على المناقشة حول مصطلحات وتحليل للمبادىء ، وهذه فائدة واضحة جلية ؛ بل انها على الأقل تحميهم من الأضرار (٥١) •

ولقد ازدهرت المدرسة الموهية في القرون الأولى ، ويبدو

---

(٤٧) سون ١ ــ جانج : « موتزو هسين كو » : ١٠/٥ أ ، ٤٤ أ .

(٤٨) تشوانج تزو : ١٠/٤٢ ب ..

(٤٩) تاكيجاوا كاميتارو : « شيه تشي هوى تشوكاو وتشنج » ١٣٠/١٢

(٥٠) وانج هسين ــ تشين : « هسين تزو تشى تشيه » ١٥/٥ أ .

(٥١) تشوانج (تعليق) ١٠/٤٣ ب ــ ٤٤ أ .

أنهـــا كانت المنـافس الرئيسى للكنفوشيوسية • وفى الانتفاضات على حكومة تشن الديكتاتورية فى سنة ٢٠٩ ق٠م تجمع كل من الكنفوشيوسيين والموويين تحت لواء الثورة حينما اندلعت (٥٢) • ونجد أن الموويين قد ورد ذكرهم فى وقت متأخر من القرن الأول ق٠م على أنهم كانوا جماعة ضخمة (٥٣) ، وبعد ذلك بوقت قصير اختفوا عن الأنظار • ويبدو فى الحقيقة أن الاهتمام بموتزو قد خمد حتى تجدد نسبيا فى الازمنة الحديثة •

وليس من الصـــعب أن نعـلل حقيقة أن نظريات موتزو لم تجد سوى استجابة بسيطة باقية عند الصينيين : فلقد كان نظامه التسلطى authoritarian system عن « الاندماج مع أصحاب المكانة السامية » والنغمة الصارمة فى بياناته تناقض الاعتـدال الذى كان يعتبر عادة فضيلة أساسية فى الصين • لقد قال موتزو : « ان تعاليمى كافية لكل غرض ، ونبذ تعاليمى وتفكير الفرد لنفسه مثل نبذ الحصاد والتقاط حبوب فردية • ومحاولة نقض كلماتى بكلماته هى مثل من يلقى ببيض على صخرة ، فقد يستهلك فرد كافة البيض فى العالم ولكن الصخرة ستظل كما هى ، لأنهـــا صلدة لا يمكن كسرها » (٥٤) •

ويتعارض ذم موتزو لكل المسرات بل ولكل العواطف مع الوضع الصينى الطبيعى وهو الحفاظ على وجود توازن فى كافة الأمور ، واعتبار البهجة فى اعتدال معقول خيرا لا شرا • وهكذا تحدث المؤلف الطاوى المعنون « تشوانج تزو » عن تعاليم موتزو فقال : « كانت نظرياته محـدودة جـدا ، قد تحيل الأشـــخاص

---

(٥٢) جيل Gale : « محاضرات عن الملح والحديد » ص ١٢٣ .
(٥٣) المرجع السابق : ص ص ١١٦ — ١٧ .
(٥٤) سى يى — باو : «مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية» ص ٢٢٩ .

بائســين ٠٠٠ انهـــا تتناقض مع طبيعـــة الأشـخاص وهم لن يتحملوها » (٥٥) ٠

ومع ذلك فقـــد كان موتزو يعنى الخير الكثـير ، حتى أن منشيوس الذى هاجم فلسفته شهد له بحبه للغير (٥٦) ٠ وكان موتزو مهتما اهتماما بالغا ، ككنفوشيوس ، بالمعاناة التى يسببها الفقر واختلال النظـــام والحـرب ٠ ولكن ، على غـير شـاكلة كنفوشيوس ، لم يتطلع موتزو بعيدا جدا الى ماوراء الهدف المباشر لزوال هذه الظروف ٠ لقد دافع كنفوشيوس عن برنامج كان يؤمن بأنه قد يجعل النـــاس سعداء ، وكان موتزو يدافع عن برنامج مخطط لعلاج شرور معينة ، ولكى يفعل هـذا ، كان على استعداد لأن يضحى بأى شىء بما فى ذلك السعادة البشرية ٠ لم يكن مرد هذا الى أنه يريد الشقاء للناس بل لأنه كان عاجزا عن أن يرى فيما وراء الحالة التى يمكن أن تزول فيهـا الشرور الراهنة ٠ لقد كان يدرك أن عالما يعيش فى سلام ، فيه شعب كبير منظم يكتسى ويطعم على خير وجه لهو عالم يتمتع بأحسن ظروف ممكنة ٠

ان أولئك الذين يضـــعون تقديراتهم فى برود أحيـــانا ، يحاولون أن يجعلوا الآخرين يفكرون بأن أعمالهم تمليها عليهم العواطف ، أما أولئك الذين تتحكم فيهم قلوبهم فيحبون أحيانا أن يظن بهم أنهم أشخاص منطقيون بصــورة استثنائية ، وكان موتزو من هذا الصنف الأخير ٠ ويبدو أنه كرس حياته لجهـد خالص لمساعدة اخوانه ، دون أن يمنى نفسه باية مكافأة تنطوى على الأنانية ، ومع ذلك فقد حاول أن يبرر أعماله كافة ، وكافة

---

(٥٥) تشوانج ترو : ١٠/٢٨ أ ٠

(٥٦) منشيوس : ٧ (أ) ٢٦/٢ ٠

فلسفته بالمنطق وحده . وحتى « حبه العالمى » كان مفروضـا أن يكون قائما لا على العاطفة بل على اعتبارات عقلية .

ومع ذلك فقد كان عقل موتزو دون قلبه ، وعلى الرغم من أنه أسهم اسهاما كبيرا فى تطوير الاهتمام بالمنطق الا أن جدله الذاتى غالبا ماكان غير منطقى بصورة فريدة . فعلى سبيل المثال فى مهاجمته لمذهب القدرية fatalism قال بأن القدر لا وجود له وأنه « لم ير أحد قط القدر ولا سمع به » (٥٧) . ويمكن استخدام نفس الجدل فى زعزعة الثقة فى نظرياته مثل « الحب العالمى » و « الاندماج بالرئيس » .

وقـد يدفعنـا الكلبيون Cynics الى الاعتقاد بأن حب الغير altruism نادر ؛ ومع ذلك فيبدو محتملا ألا تكون أحسن الأهداف شبه نادرة تماما كالحكمة التى لا غنى عنها لتحقيقها .

---

(٥٧) مى يى — باو : «مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية» ص ١٨٩

الفصل الخامس

منشيوس والاهتمام بالطبيعة البشرية

يذكر لنا الكتاب الذى صدر فى عهد أسرة هان المعنون «التسجيلات التاريخية» أنه «بعد وفاة كنفوشيوس تفرق تلاميذه البالغ عددهم سبعين ، وتجولوا بين سادة المقاطعات • وبلغ شأو أعظم من كانوا بينهم منصب معلمين (للحكام) أو وزراء ، أما من كانوا أقل شأنا فقد صاروا أصدقاء أو معلمين للموظفين أو اعتزلوا الناس ولم يعد أحد يراهم » • ويذكر الكتاب أن أربعة تلاميذ من اتباع « تزو ـ هسيا Tzü-hsia » صاروا مؤدبين للملوك فى حين صار «تزو ـ هسيا» نفسه مؤدبا لحاكم ولاية واى Wei (١) ويذكر كتاب منشيوس أنه بعد زمن كنفوشيوس بفترة قصيرة أسند الى آثنين من الكنفوشيوسيين منصبان وزاريان فى الحكومة فى ولاية «لو» ، وكان أحد الاثنين حفيدا لكنفوشيوس ، الذى كان أيضا وزيرا فى ولاية واى (٢)

وبعد وفاة كنفوشيوس بقرن أو مايزيد ، كان هناك علماء

(١) تاكيجاوا كاميتارو : « شيه تشى هوى تشوكاو تشنج » ٦٧/٢٩ ، ١٢١/٣ ـ ٤ •

(٢) منشيوس ٤ (٢) ٣١ •

عديدون يعيشون فى بلاطات الحكام عظماء كانوا أم صغارا «كضيوف» أكثر من أن يكونوا موظفين ، ونجد أحيانا أن العملين مزدوجان ومن ثم نطلق على هؤلاء الأشخاص « ضيوفا ـ موظفين guest-officials» وهؤلاء الأشخاص لم يكونوا جميعهم كنفوشيوسيين على الاطلاق ٠ لقد كان كنفوشيوس أول معلم خاص وأول عالم نحن على علم واضح به فى التاريخ الصينى ، ولكن مثاله وظروف الزمن الذى عاش فيه قد أنتجا بسرعة عددا ضخما من المنافسين الذين كانوا يتجولون من ولاية الى ولاية سعيا وراء بيع قدراتهم وفلسفاتهم ، وكان بعضهم ناجحا كل النجاح ٠

وعلى سبيل المثال دعا حاكم ولاية ليانج Liang عددا من الفلاسفة لزيارة عاصمته ، ومن بينهم الكنفوشيوسى منشيوس Mencius ، ولكى يؤكد لهم أنهم سيتفضلون بتشريف بلاطه وجه اليهم الدعوة بأسلوب متواضع وقدم لهم الهدايا الثمينة(٣) ٠ وكان الملك هسوان Hsüan حاكم ولاية تشى مشهورا أيضا بأنه نصير الفلاسفة ٠ ويذكر لنا الكتاب الذى صدر فى عهد أسرة هان أنه قدم اعانات لأكثر من ألف عالم فى عاصمته التى كان بها رجال على شاكلة منشيوس « يحصلون على رواتب كبار الموظفين ، دون أن يأخذوا على كواهلهم مسئوليات الوظيفة وكان يؤخذ برأيهم فى شئون الدولة ٠»(٤) وتضيف «التسجيلات التاريخية» أن الملك «هسوان» بنى قصورا شاهقة لضيوفه الأصليين ، لكى يظهر للعالم أن تشى قادرة على أن تجذب أشهر مشاهير العلماء الى عاصمتها(٥)

كانت هذه الروح القائمة على التنافس سببا ، لا شك فيه ،

---

(٣) شافان Chavannes : « مذكرات سى ـ ماتسين التاريخية » ج ٥ ص ص ١٥٧ ـ ٥٨ ٠

(٤) هوان كوان : « ين تيه لون » ٢/١٣ ب ٠

(٥) تاكيجاوا كاميتارو : « شيه تشى هوى تشوكاو تشنج » ١٢/٧٤ ٠

فى أن العلماء كانوا مكرمين ولكن كانت هناك أسباب أخرى أكثر عملية بشكل واضح أيضا : لقد ظل ملوك تشو العوبة لمدة طويلة وكانت الصين مقسمة الى عدد من الولايات التى تحكم حكما ذاتيا وتقوم بشن حروب • وكانت أحيانا تعقد اتفاقيات على قبول الوضع الراهن status quo ، ولكنه كان سلاما طويلا يدوم لأكثر من بضع سنوات • لقد كان المثل الأعلى لقيام صين موحدة قائما فى الخلفية ، مثل شبح الامبراطورية الرومانية المقدسة الذى حلق طويلا فوق أوربا • ومع ذلك ، فعلى غير شاكلة المفهوم الأوربى ، رفضت الروح الصينية أن تموت ، وكانت كل ولاية قوية تأمل أن تكون الولاية التى تفوز بالسيطرة على البلاد بأسرها ، ولهذا السبب حاول حكامهم أن يجذبوا اليهم الأشخاص الموهوبين • وكثير من هؤلاء «الضيوف» ، وهذا ماتجب ملاحظته ، كانوا رجال حرب ولكن كثيرين غيرهم كانوا فلاسفة • وعلى الرغم مما قد تكون عليه الفلسفات من تباين الا أنها كانت تشترك فى أندعاتها كانوا ينادون بأن كل فلسفة ، وحدها دون غيرها ، بيدها المفتاح للفوز بالتحكم على العالم الصينى بأسره (وعندما يتحدث الصينيون عن « العالم » كانوا عادة يعنون «العالم الصينى» تماما كما نتحدث نحن عن «العالم» ونعنى به باستمرار «العالم الغربى» • وتعنى الكلمة فى كل حالة : «كل العالم الذى يهم أمره») • ومن الطريف أن نذكر أن التسجيلات التاريخية تذكر لنا أنه قد حدث فقط بعد أن هزمت ولاية ليانج فى الحرب ، أن دعا ملك ليانج الفلاسفة الى بلاطه (٦) • وكان يتوقع أن تمده الفلسفة لا بالعزاء فحسب بل أيضا بالثأر •

ولكن ما أن حل القرن الرابع ق•م حتى كان عدد من الفلسفات المتباينة قائما ، وقد شكا منشيوس من أن « العلماء المتعطلين

---

(٦) شافان : «مذكرات سى ــ ماتسين التاريخية » ص ص ١٥٧ ــ ٥٨ •

ينخرطون فى مناقشات متمردة » ومن أن كلمات « يانج تشو » و « موتزو » تملأ البلاد » وقال ان مبدأ « يانج تشو » هو أن « يهتم المرء بنفسه » وانتقد منشيوس هذا المبدأ لأنه لا يعترف بسلطة الحاكم فى حين أن موتزو يطالب الفرد بأن يحب الناس كلهم بدرجة سواء، وفى هذا عدم اعتراف بالحب الخاص الذى يكنه المرء لأبيه ٠(٧) ومرة أخرى ذكر منشيوس أنه «لو كان فى استطاعة يانج‌تشو أن يفيد العالم بأسره بأن يلتقط مجرد شعرة واحدة من شعره فحسب لمافعل ذلك ٠٠ فى حين أنه ما كان يتورع موتزو عن حك جسده من قمة رأسه الى اخمص قدمه حتى يزيده نعومة لو كان فى استطاعته ، بهذه الطريقة ، أن ينقذ العالم ٠»(٨)

وواضح أن مدارس هذين الرجلين ومدارس الكنفوشيوسيين كانت أشهر المدارس فى زمن منشيوس ، وهو يقول : «ان أولئك الذين يهربون من مبادىء موتزو يتحولون الى مبادىء يانج تشو ، وأولئك الذين يهربون من مبادىء يانج تشو يتجهون الى الكنفوشيوسية٠»(٩) وقد تناولنا بالفعل فلسفة موتزو ، وسنتناول فى الفصل التالى ، فى مزيد من الدقة ، المبادىء المعزوة الى يانج‌تشو، وسنرى أن هناك سببا نتفق فيه مع أولئك العلماء الذين يعتبرونه رائدا مبكرا للفلسفة الطاوية Taoism •

ويذكر منشيوس شخصا آخر كان ناسكا فاضلا ، لقد كان الأخ الأصغر لنبيل غنى ، ولكن لما كان أخوه قد حصل على ثروته بطريق غير مشروع لذا فقد قرر ألا يقرب شيئا منها ، وبدلا من ذلك عاش فى الأدغال يعول نفسه بحياكة نعال من خيوط الحلفا التى

---

(٧) منشيوس : ٣ (٢) ٩/٩ ٠

(٨) المرجع السابق : ٧ (١) ٢٦ ٠

(٩) المرجع السابق : ٧ (٢) ١/١٦ ٠

كانت تجدلها زوجته ، ويحكى أنه فى مناسبة من المناسبات كان على وشك أن يموت جوعا نظرا لتمسكه الشديد بمبادئه (١٠) .

وهناك مجموعة أخرى يطلق عليها المدرسة الزراعية agricultural school . ويسجل الكتاب المعنون: «منشيوس» أنه فى وقت ما عندما كان منشيوس فى ولاية تنج Têng جاء فيلسوف ينتمى الى هذه المدرسة يدعى «هسيو هسنج Hsü Hsing » جاء الى ولاية تنج من الجنوب ، وطلب من الحاكم أن يأويه ، ففعل وعاش هناك هسيو مع عشرات عديدة من أتباعه وكانوا جميعهم يرتدون الملابس الخشنة ويكسبون قوتهم من حياكة النعال والحصر ، وقد استطاعت هذه الجماعة أن تكسب لجانبها اثنين من الكنفوشيوسيين ، فأثار هذا منشيوس وزاد فى مرارة دحضه لمبادئهم .

لقد تمسكوا بأن « الحاكم الحكيم الفاضل يفلح الأرض سويا مع شعبه لكى يحصل على طعامه ، وعليه طوال حكمه أن يطهو وجباته صباحا ومساء » . وتكفينا حقيقة أن مثل هذا المبدأ يمكن التمسك به والمناداة به علانية لتوضيح الى أى مدى كانت الفكرة القديمة للوضع القريب من القدسية للأريستوقراطية الحاكمة مثارا للهجوم . ومع ذلك فقد انتقد منشيوس هذه الفلسفة على أساس مختلف : فلقد تساءل هل يطهو الفيلسوف هسيو هسنج طعامه بنفسه ، فقيل له بأنه كان يفعل ذلك ، ثم سأل منشيوس بعد ذلك هل يغزل قماشه ويصنع سلاح محراثه وأوعية الطهى فقيل له بأنه لم يفعل ذلك لأن هذا سيتعارض مع زراعته ، فأشار منشيوس الى أنه بالمثل يصعب على حاكم أن يتوقع أن يجد الوقت الذى يقوم فيه بزراعته شخصيا وبالطهى بينما يقوم بحكم الولاية(١١)

---

(١٠) منشيوس : ٢ (٢) ١٠ .

(١١) المرجع السابق : ٣ (١) ٤/١ ـ ٦ .

ولا يمكن أن نصف هنا كافة الخلافات فى الأفكار الفلسفية التى كانت سائدة فى الصين فى القرن الرابع ق٠م ، لقد كانت كثيرة جدا حتى أن كتـــاب « تشوانج تزو » أســـماها « المدارس المائة the hundred schools» وكان من بينها فلسفات أخرى سنشير اليها فيما بعد ، ولكن اهتمامنا الراهن هو أولا بمنشيوس الذى ذاع صيته بين كافة الصينيين الآخرين فى زمنه ٠

ومعلوماتنا عن منشيوس منقولة أساسا من الكتاب الذى يحمل اسمه ، وهو بلا شك من أعظم المؤلفات التى ألفت فى الأدب العالمى٠ ولقـــد كتب ا٠ا٠ ريتشاردز I.A. Richards الذى قام بدراسة ل «منشيوس» : أن محاورات معينة من محاوراته ترقى الى مستوى تلك المحاورات التى كتبها أفلاطون «فى القيمة التاريخية وفى الجوهر»(١٢)

وكتاب منشيوس كتــاب طويل يحتـــوى على أكثر من خمسة وثلاثين ألف كلمة صينية ، وهذه الكلمات قد يتطلب الأمر مضاعفة عددها عدة مرات لمعرفة عدد الـــكلمات الانجليزية المساوية لها ٠ وعلى الرغم مما قيل من أن منشيوس نفسه قد كتب الكتاب ، فانه يبدو مؤكدا أنه لا بد أن قام تلاميذه بجمعه ٠ وعلى خـلاف الكتب الصينية الاولى ، فانه يتضمن القليل من مشاكل صحة النصوص٠ وقد كتب «هوشيه» مرة أن «كتاب منشيوس اما أنه كتاب صحيح تماما أو أنه كتاب مزيف تماما ، وفى رأيى أنه من المحتمل أن يكون صحيحـا (١٣) ومن ناحيتى أشــك فى أن جـزءا يســـيرا من الكتاب يمكن أن يكون مدسوسا (١٤) ، ولكن يلاحظ بوجه عام ،

---

(١٢) ريتشاردز : « منشيوس وتأثيره الفكرى » ص ٢٨ ٠

(١٣) هوشيه : « شونج كيو تشى حسوه شيه تا كانج » شوان شانج١٢

(١٤) انظر كريل : « كنفوشيوس : الرجـل والأســطورة » ص ص ٢٠٨ ــ ٩ ٠

بالنسبة لهذا الكتاب ، أننا بعيدون ، بحمد الله ، عن أنواع المشاكل التى مرت بنا فى غالبية الأدب الصينى القديم ٠

وكان منشيوس الرجل ، بالغ الأهمية وكانت شخصيته معقدة كل التعقيد ٠ لقد كانت له فضائل ورذائل ولم يكن ضئيلا فى أى منهما ٠ وكان من الصعب اظهار محاسنه أو حتى تفهم شخصيته ، ومع ذلك فعلينا أن نحاول تفهمها نظرا لأن الرجل منعكس انعكاسا وثيقا فى فلسفته ولا يمكننا أن نتفهم احداهما دون الأخرى ٠

ومعلوماتنا عن حياة منشيوس طفيفة جدا ٠ اننا لانعرف حتى تاريخى مولده ووفاته ، بيد أنه من الأحرى أن نتقبل ما قيل من أنه عاش من حوالى ٣٧٢ الى حوالى ٢٨٩ ق٠م وقد ولد فى ولاية صغيرة مجاورة للولاية التى كانت موطنا لكنفوشيوس فى الشمال الشرقى من الصين ، ويقال بأن أجداده كانوا ينتمون الى عائلة مينج Mêng فى ولاية « لو » ، وكانت أسرة من « الأسر الثلاث » التى كانت لها السيادة فى ولاية «لو» ، فى عهد كنفوشيوس ، ولكن يبـــدو أنه ليس هناك دليل واضح على هذا ٠

وقد درس منشيوس مـع رجال نقلوا تعـاليم كنفوشيوس ، وأسف لأنه قد ولد متأخرا جدا عن الوقت الذى كان فيه كنفوشيوس فلم يتح له أن يدرس على يد الاستاذ نفسه(١٥) ، ويقال انه درس مع تلاميذ حفيد كنفوشيوس وهو «تزو ـ سو Tzü-ssü » (١٦) وكان دائما وفيا لذكرى كنفوشيوس وكان يتـــحدث عنه بعبارات تبجيل ٠ وكان لمنشيوس نفسه عدد كبير من التلاميذ ، ولكن على الرغم من أن كتاب « منشيوس » أطول بكثير من «المقتطفات الأدبية» فانه من الصعب أن نستخرج منه صورة واضحة عن مناهج منشيوس

---

(١٥) « منشيوس » : (٢) ٢٢ /٢، ٠

(١٦) تاكيجاوا كاميتارو : « شيه تشى هوى تشوكاو تشنج » ٧٤/ ٣ ٠

كمعلم . ويبدو أنه من المحتمل أنه لم يعن عناية كنفوشيوس بفن التدريس ولم يمنحه مثل الاهتمام الذى خصه به .

وواضح أنه كان ديموقراطيا ككنفوشيوس فى تقبله المتواضعين طلابا . وفى احدى المناسبات عندما كان هو وتلاميذه يقيمون فى قصر كضيوف على الحاكم ، أعلن القيم على القصر لمنشيوس أنه افتقد أحد النعال ، وكان مضمون قوله أن أحد تلاميذه قد سرقه ، فلما أجاب منشيوس أن هذا لا يمكن أن يكون ، ذكره بأنه لم يتحر ماضى أولئك الذين يسعون للدراسة على يديه ، ولكنه تقبل جميع من وفدوا وقد عقدوا العزم على الدراسة .(١٧)

وعلى الرغم من ذلك فقد طرد بعض أولئك الذين طلبوا العلم على يديه ، ولكن كان هؤلاء فى بعض الحالات ، على الأقل ، أريستوقراطيين حاولوا أن يتجاوزوا وضعهم ليطالبوا باعتبارات خاصة . ولدينا معلومات قليلة نسبيا عن تلاميذه . والمعروف أن واحدا منهم كان يوما ما على وشك أن يسند اليه حكم ولاية «لو»(١٨)

ويبدو أن الهدف الرئيسى لمنشيوس هو أن يصل الى منصب رئيس الوزراء فى ولاية من الولايات وأن يدير حكومتها حتى يستطيع أن ينفذ مبادئه ، وهو فى هذا الأمر كان شبيها بكنفوشيوس ، وعلى شاكلة كنفوشيوس لم يبلغ قط مثل هذا المنصب ذى السلطة الكبيرة ، ومع ذلك فقد كان أكثر نجاحا الى حد ما من كنفوشيوس اذ أنه تقلد منصبا أرقى اسميا فى ولاية تشى ، من المنصب الذى بلغه كنفوشيوس فى ولاية «لو» ، وفضلا عن هذا يبدو أن منشيوس كان يستشيره حكام كثير من الولايات ، فى تبجيل يفوق ما كان يلقاه

---

(١٧) « منشيوس » : ٧ (٢) ٣٠ .
(١٨) المرجع السابق : ٦ (٢) ١٣ .

كنفوشيوس عادة ، ومع ذلك فقد كان هذا الى حد كبير طابع تلك الأزمنة ٠

ومن المشكوك فيه أن منشيوس كان موظفا اداريا رسميا على الاطلاق ٠ ويبدو أنه كان «وزيرا ضيفا» كمستشار فى شئون الحكومة ولم يكن عليه واجبات ولم تكن له سلطـــات الوزير العادى ٠ وفى «تشى» رفض أن يتقاضى مرتبا(١٩) ٠ ونجده أحيانا يلام كما كان الحال بالنسبة لكنفوشيوس لأنه لا يتقلد منصبا رسميا ٠ ومع ذلك فلا شك أنه كان تواقا لأن يكون موظفا رسميا ولكنه لم يشـــأ أن يفعل ذلك ما لم تكن يده مطلقة فى ادارة الحكومة بأسلوبه الخاص، ولم يكن أى حاكم من الحكام على استعداد لأن يمنحه ذلك ٠

ولما كان يسعى الى الوصول الى حاكم قد يحتضن طريقته ، لذا فقد تجول منشيوس مع تلاميذه من ولاية الى ولاية وكان يمضى وقتا أطول أو أقصر تبعا للظروف ٠ وقد سئل مرة : « أليس اسرافا منك أن تجوب البلاد يتبعك عشرات من العربات ومئات من الرجال وتعيش فى رحاب واحد من السادة الاقطاعيين الواحد تلو الآخر؟» فدافع منشيوس عن أسلوب حياته على أنه جدير بما يتكبده الحكام ما دام يعمـــل على احيـــاء مبـــادىء الملوك السابقين من أجل من يخلفونهم ٠ »(٢٠) وكان يموله الأمراء بالهدايا التى كانت سخية أحيانا تمام السخاء ومع ذلك فلا يمكن أن يتهم بالبخل المخزى ، لأنه كان يرفض الهدايا أحيانا ، ويبـــدو أنه كان يقتصر على قبول ما كان يؤمن بأنه فى حاجة اليه ٠

وكان منشيوس على صواب تماما فى اعتقاده بأنه كان امتدادا فى زمنه للتقليد الكنفوشيوسى ٠ كان مخلصا بلا شك فى اعتقاده

(١٩) « منشيوس » : ٢ (٢) ١٤ ٠
(٢٠) المرجع السابق : ٣ (٢) ٤ ٠

بأن آراءه وأفعاله كانت متناسقة تمـــام التناسق مع تلك التى كان ينادى بها كنفوشيوس ، ولكنه كان مخطئا فى هذه النقطة ، فقد كان منشيوس رجلا مختلفا تمام الاختلاف عن كنفوشيوس ، فضلا عن أن الأزمنة قد تبدلت •

وهناك خلاف واضح يكمن فى حقيقة أنه فى الوقت الذى يذكر فيه كنفوشيوس فى «المقتطفات الأدبية» عدة مرات فى صراحة أنه كان مخطئا ، يبدو أن منشـــيوس لم يعترف بصراحة أنه كان على خطأ • وهـــذا له مغزاه الى حد كبير ، اذ أن له صلة بنفس أسس فلسفتيهما الخاصة وكذا بالخلاف فى شخصيتهما وله علاقة أيضـا بنفس الظروف المختلفة التى عاشا فيها •

ويبدو أن كنفوشيوس كان الفيلسوف الوحيد البالغ الأهمية الذى كان يعيش فى دنيــاه • وكان منشيوس ينتمى الى احـدى المدارس الفلسفية الكثيرة العدد ، وكانت كل هذه المدارس تتنافس فيما بينها من أجل التلاميذ وكسب عطف الحكام ، الأمر الذى قد يجلب الثراء والسلطة والمركز • ولقد كانت مناقشات كنفوشيوس مع تلاميذه تدور فى جو هادىء نسبيا وكان الجانب الهام منها على الأقل يهدف الى الوصول الى الحقيقة والكشف عنها ، أما مناقشات منشيوس ، فقد كانت من ناحية أخرى ، تتضمن الى حد كبير: الاقدام على الدفاع عن المبدأ الصحيح ونشره ، وكان هذا بطبيعة الحال أمرا مختلفا تمام الاختلاف •

لقد سبق أن لاحظنا أن (١٠١ ريتشاردز) وجد الكثير مما يدعو الى الاعجاب فى منشيوس ، ومع ذلك لم يكن يجهل قصوره • ويعدد ريتشاردز سمات حجج منشيوس على الوجه الآتى :

(أ) كان يسيطر عليها هدف مقنع •

(ب) عدم وجود الغاية من ايضاح نقطة الخلاف •

ج) شكل حجة الخصم واضح ، بمعنى أنه كان يستخدم فى الدفع دون التدقيق فيه حتى يمكن اكتشاف العيب ، ان وجـد » (٢١) • وباختصار كان منشيوس عادة أكثر اهتماما بكسب المحاورة من محاولة اكتشاف الحقيقة • وليس معنى هـذا أنه لا يعير اهتماما للحقيقة بالمرة بل كان مقتنعا أنه قد بلغها فعلا وكان فى حاجة فقط الى أن يقنع خصمه بهذه الحقيقة •

ولم يكن منشيوس الشخص الوحيد الذى كان يجادل بهذه الطريقة ، اذ أن غالبيتنا نتبعها مرارا دون أن نقر باتباعنا لها ، ومثل هذا الجدال يمكن أن نجده فى مؤلفات كبار الفلاسفة الغربيين• ومع ذلك فان هـذا الأمر لا يجعلها تجربة صالحة • ومحاولة منشيوس التمسك ببعده عن الخطأ قـد أدت الى التردى فى مزالق عديدة من بينها التناقض • وفى احدى المناسبات حينما أوضح تلميذ من التلاميذ أنه لم يكن يفعل وفقا لمبدأ سبق أن وضعه من قبل ، كان يقاطعه منشيوس بعبارة مختصرة قائلا : «كان ذلك مرة ، وهذه مرة أخرى •»(٢٢)

وفى حالة من الحالات يبدو بوضوح أنه كان آثما فى فتوى خطيرة فى أمر بالغ الأهمية : اذ كانت حكومة الولاية الشمالية فى «ين Yen » فى اضطراب بالغ كان نتيجته أن تفشى بين شعبها الكثير من المعاناة والسخط • عندئذ سأل وزير ولاية « تشى » الفيلسوف منشيوس هل يجب على «تشى» أن تهاجم «ين» •وتختلف البيانات فيما قاله منشيوس ، ولكنه على أية حال لم يعارض الغزو• ويمكن تبرير مثل هذا التدخل سواء على أسس سياسية أو انسانية ولكن، بعد أن قامت قوات تشى بالسيطرة على «ين» قام الغزاة بمعاملة

---

(٢١) ريتشاردز : « منشيوس وأثره الفكرى » ص ٥٥ •
(٢٢) « منشيوس » : (٢) ١/١٣ — ٢ •

أولئك الذين حرروهم معاملة سيئة حتى ثار أهالى «ين» . عندئذ اتهم منشيوس بأنه نصح تشى بأن تتـــولى أمر الغزو . ومن المحتمل أن يكون قد دافع عن نفسه على أسس قانونية تامة ولكنه كان يبحث عن مخرج فى مراوغته .

وقد قال منشيوس ان كل ما حدث فقط هو أنه سأله وزير تشى هل تستطيع تشى أن تهاجم ين مهاجمة سليمة . ولما لم تكن حكومة ين تدبر أمورها كما ينبغى ، فقد أجاب : «ربما» ولو أن وزير تشى قد استمر فى سؤاله عمن يستطيع أن يهاجمها هجـــوما سليما لأجاب منشيوس وقتذاك ، كما فسر ، بأن الذى يمكنه مهاجمتها هو الحاكم الصالح الذى عينته السماء للقيام بهذه المهمة . ولكن لسوء الطالع لم تسأله حـــكومة تشى هـــذا السؤال ولكنها انطلقت فحسب الى الهجوم . وازاء هذه الظروف تساءل منشيوس: كيف يمكن أن يوجه اليه اتهام نظير اسدائه نصيحة لتشى فى مهاجمة ين ؟»(٢٣)

ومع ذلك فليس من الصعب أن نكتشف مزيدا من المظاهر التى تدعو الى الاعجاب بشخصية منشيوس : اذ لم يدعم أحد غيره ، بما حباه الله به من فصاحة ، حق العالم ورجل الفضيلة فى بلوغ مكانة رفيعة تفوق المكانة التى تمنحها أبهة الأمراء . ويقول منشيوس ان مثل هذا الرجل العالم الفاضل «يجب أن ينظر الى النجاح والفشل العالمى بلا مبالاة ، وأن يأخذ فى اعتباره أنه اذا كانت شخصيته كما ينبغى أن تكون عليه ، وفشل العالم فى تقديره له فان الخطأ لايكمن فى شخصه بل فى العالم .(٢٤) ولا يقاس نجاحه بحجم المجال الذى يعمل فيه بل بالطريقة التى يتصرف فيها بنفسه داخل نطاق ذلك المجال .(٢٥) وقد قال منشيوس : «هناك نبل السماء ونبل الرجال»

(٢٣) منشيوس : ٢ (٢) ٨ .
(٢٤) المرجع السابق : ٧ (١) ٩ .
(٢٥) المرجع السابق : ٧ (١) ٢١ .

ويتمثل نبل الرجال فى أن يكون الانسان دوقا أو وزيرا أو موظفا كبيرا ولكن نبل السماء يتمثل فى أن يكون محبا للخير ، عادلا ، ذا مبادىء سامية ، أمينا ، يبذل جهده لكي يكون خيرا »(٢٦) وقد لاحظ منشيوس أن الحكام يتبعون أسلوبا خاصا بمكانتهم ، ولكن ماذا أيضا كان على العالم الذى يعيش فى الدنيا العريضة أن يمتاز به من سلوك أسمى يميزه عن غيره ؟ (٢٧) فى هذا يقول : «يعيش فى الدنيا العريضة ويشغل المكانة اللائقة فى الدنيا ويسير فى طريق العالم العظيم ، وحيثما يتحقق أمله فى المنصب الذى ينشده مارس مبادئه مع الغير ، وحيثما يخفق فى تحقيق هذه الرغبة مارسها وحده • والغنى والأمجاد لا يمكن أن يفسداه ، والفقر وسوء الحال لا يمكن أن يبدلاه ، والسلطة والنفوذ لا يمكن أن تدعاه يركع على ركبتيه : فهذا هو الرجل العظيم حقا •»(٢٨)

ولم يكن هذا التمجيد للعالم موضوع مبدأ مجرد بصورة خالصة ، فان له علاقة ، بصورة ثابتة تماما، بالنضال من أجل النفوذ والسلطان الذى كان جاريا بين العلماء والأريستوقراطيين • وكان كنفوشيوس قد ذكر للحكام أن عليهم أن يسندوا ادارة حكوماتهم الى رجال أفاضل لهم كفاياتهم وتربيتهم ، وبعد ذلك بوقت قصير ، كما رأينا ، أكدت التقاليد الخاصة بالأباطرة الأسطوريين أنه فى العصور القديمة كانوا يختارون الحكام على أساس مواهبهم لا على أساس وراثى ، وهذا يوضح فى الحقيقة أن الحكام الوراثيين كانوا مجرد طفيليين يعتلون عروشهم بدون وجه حق • ونجد فى كتاب « منشيوس» أن تفوق العلماء العظيم على الأريستوقراطية الوراثية قد وضح وذكر بطريقة لا لبس فيها •

---

(٢٦) منشيوس : ٦ (١) ١٦/١ •
(٢٧) المرجع السابق : ٧ (١) ٣٦ •
(٢٨) المرجع السابق : ٣ (٢) ٢/٣ •

لقد صار هذا أساسا للتقدير البالغ للمكانة الخاصة للمعلم ٠ وهذا وضع له احترامه البالغ فى الصين ، ونجد أن منشيوس يقول ان مؤدب الحاكم يقوم بالنسبة له مقام الأب أو الأخ الأكبـر ، ومن ثم فمكانته أسـمى من أن تكون كمكانة أحـد الرعية ٠(٢٩) وعلى أساس هذا الادعاء ، وعلى أساس توكيـدهم لقـدره ، طالب بعض الكنفوشيوسيين بأن يوجه اليهم الحكام اهتماما بالغا سيما وأنهم قد تنازلوا وأسدوا لهم النصح ٠ ويقول منشيوس ان «تزوسو» حفيد كنفوشيوس كان له رجل دائما بجانبه ليؤكد له باستمرار احترام دوق «لو» له ، ولولاه لترك «تزوسـو» البـلاط(٣٠) ويذكر لنا منشيوس أيضا أن حفيد كنفوشيوس هـذا ، كان شديد الاستياء عندما اقترح عليه دوقه ذات مرة أن يصـبحا صديقين ، فذكر له «تزوسو» أن مثل هذا الأمر يصعب تحقيقه (٣١) ٠ وفى الحقيقة يقول منشيوس ان الحكام الأفاضل فى العصور القديمة لم يكن مصرحا لهم بأن يزوروا باستمرار العلماء الجديرين بالزيارة ما لم يظهروا لهم أسمى آيات الاحترام(٣٢) ٠

أما موضوع الهدايا التى كان يقدمها الحكام الى العلماء ، فقـد كان موضوعا صعبا ٠ وكانت الهدايا لازمة لوجود العلماء ، ومع ذلك فان مثل تلك الهدايا تضعهم فى مركز متواضع يدعو الى الحيرة ٠ وساق منشيوس مبدأ أنه يجب أن تقدم لهم الهدايا فى احترام بالغ وبذلك الأسلوب الذى لا يجعـل الرجل العـالم فى موقف حرج ، يضطره الى أن يكون دائم الشكر للحاكم من أجلها (٣٣)٠ وقد استاء

---

(٢٩) منشيوس : ٤ (٢) ٣١/٢ .
(٣٠) المرجع السابق : ٢ (٢) ١١/٣ .
(٣١) المرجع السابق : ٥ (٢) ٧/٤ .
(٣٢) المرجع السابق : ٧ (١) ٨ .
(٣٣) المرجع السابق : ٥ (٢) ٦ .

منشيوس نفسه استياء شديدا عنـدما بعث اليه رئيس وزراء ولاية «تشى» بهدية من العاصمة دون أنيسافر الى البلد التىكان منشيوس مقيما فيها ليقدمها له بنفسه ٠(٣٤)

وكان منشيوس يعتقد أنه ممـا يحط من كرامة عالم مثله هو نفسه ، الى حد بعيد ، أن يستدعى لمقابلة حاكم ٠ ويتضح هذا من حادثة تكاد تكون رواية خارجة عن الموضوع الأصلى لاحدى الروايات، حدثت عندما كان فى تشى : لقد كان منشيوس على وشك أن يتوجه الى البلاط عندما وردت رسـالة من الملك ٠ وكان الملك يريد أن يستدعى منشيوس ولـكن مراعاة لحساسياته قال انه كان يخطط لزيارة منشيوس ولكن لسوء الطالع كان قد أصابته وعكة خفيفة ، ولذلك يتساءل هل فى استطاعة منشيوس أن يأتى لرؤيته ٠ وازاء هذا صرف منشيوس النظر عن خطته للتوجه الى البـلاط وقال بأنه شـديد الأسف وأنه مريض هو الآخر ٠ وفى اليوم التالى توجه الى مكان آخر ليقوم بزيارة ، ولكنه بينما كان عائدا لداره تلقى رسالة من أحد تلاميذه : كان الملك قد بعث بطبيب لمعـالجة منشيوس من مرضه ، فقال التلميذ الذى هاله الأمر أن أستاذه ربما كان الآن فى طريقه الى البلاط ، ومن ثم فقد أوعز التلميذ الى حامل رسالته الى أستاذه بألا يعود منشيوس لداره وأن يتوجه فورا الى البلاط ، ولكن منشيوس بدلا من ذلك توجه الى مكان آخر ليقضى الليل فيه ٠ (٣٥)

وتمشيا مع كل هذا ، يجب أن نتوقع أن يكون منشيوس أكثر معارضة بصورة لا تلين لمبدأ الوراثة فى الحكومة ، من كنفوشيوس ، ونجده يهتم اهتماما شديدا بحقيقة أن الامبراطور الاسطورى « ياو Yao » تخلى عن عرشه لا لابنه ولكن لأكفأ وأفضـل رجـل فى

---

(٣٤) منشيوس : ٦ (٢) ٥ ٠

(٣٥) المرجع السابق : ٢ (٢) ٢ ٠

الامبراطورية : لفلاح يدعى «شون Shun » (٣٦) وأكثر من هـــذا يحيط منشيوس علم ملك تشي أن الحكومة يجب أن تسند الى أولئك الذين درسوا فن الحكومة : لعله كان يعنى العلماء الكنفوشيوسيين. ويقول انه اذا ما تدخل الملك فى ادارة مثل هؤلاء الموظفين لكان كمن يحاول أن يحيط علم ناحت الصخر البارع كيف ينحت الصخر(٣٧).

ومع ذلك فاننا نجد أن منشيوس يؤكد فى مكان آخر أهمية ارضاء الأسر الكبيرة التى تحسن استخدام السلطة التى ورثتها(٣٨)، ويقول لملك تشي نفسه ان الحاكم يجب ألا يرقى فى حكومته رجالا دعواه الوحيدة فى التمسك بهم هو ما يتحلون به من فضيلة وكفاءة، ما لم يكن عنده بديل لهم ، لأنه اذا ما رقى مثـــل هؤلاء الاشخاص فسيدفع الحاكم أولئك الذين لا يمتون له بالقرابة الى أن يتفوقوا على أقاربه ومن ثم فسيضع أولئك الأشخاص ذوى الأصل الوضيع فوق الأشخاص ذوى الدرجة الرفيعة (٣٩).

ويمكن تفسير هذه الآراء التى تكاد تكون غريبة ، على أساسين: فمن الناحية العملية هناك حقيقة تامة هى أن غضب أقارب الحاكم الثائرين أمر يخشى منه لو كانوا أقوياء ، ومع ذلك يمكن أن يتساءل المرء : ألم يكن هذا سببا فى محاولة للاقلال من نفـوذهم بدلا من زيادته ؟ ورأى منشيوس فى هذا الخصوص ، ربما كان متأثرا تأثرا كبيرا بحقيقة أنه هو نفسه يقال عنه أنه من نسل نبيل(٤٠) وأنه كان بطبيعته يتنقل بين الأوساط الأريستوقراطية . ونجده، يعلق،

---

(٣٦) منشيوس : ٥ (١) ٥ .
(٣٧) المرجع السابق : ١ (٢) ٩ .
(٣٨) المرجع السابق : ٤ (١) ٦ .
(٣٩) المرجع السابق : ١ (٢) ٧ .
(٤٠) شيه سان تشنج تشوسو : « منج تزو تشوسوتى تشيه » ٢ ب .

فى حسرة ، على مظهر الامتياز الذى يتخذه الحكام نتيجة لوضعهم (٤١)، ويعلن أن أولئك الذين يستشيرهم العظماء يجب أن يسخروا منهم ولا يتطلعوا الى أبهتهم وتظاهرهم » ، والقصـــور الشاهقة والغذاء الشهى الوفير ومئات الأتباع والجوارى والمسرات والنبيذ ، والقـــدر الكبير من الصيد مع ألف عربة حربية فى الأعقاب ــ كل هذه ، كما أعلن منشيوس « لن تروق لى لو شئت ·· ان كـــل ما عندى هـو علم قديم ، فلم كان على أن أخشى الملوك ؟» لقد قال هذا فى شجاعة، ولكن المرء يتساءل ألم يكن منشيوس انسانا بمـا فيه الكفاية حتى يكون فى نفســـه قليل من الحقـد على الحـكام ، ولو أنه حقـد لا شعورى (٤٢) ·

وكان منشيوس مهتما بالنظام الطبقى الاقطاعى (٤٣) Hierarchy of feudalism ، ونجد من وقت لآخر أن الكنفوشيوسيين المتأخرين يدافعون عن النظام الاقطاعى كدستور · ومما لا شك فيه أن هذه الآراء هى آراء كنفوشيوس نفسه وقد أسهمت فى ترجيح الرأى القائل بأن كنفوشيوس نفسه كان مؤيدا قويا للنظام الاقطاعى على الرغم من أنه كان من الصـعب جدا أن نجـد دليلا قويا على ذلك الفرض ·

ومع ذلك لم تدفع هذه الاعتبارات منشيوس لأن يحط من قدره ويتذلل لحكام عصره أو يقلل من الجرأة البالغة التى يهاجمهم بها ويتهمهم بارتكاب الجرائم ويعلن أنهم يستحقون العقاب · وقد سأل ملك ليانج Liang : « أهناك فارق بين قتل انسان بهراوة وبين قتله بنصل ؟ » فأجاب الملك : «ليس هناك من فارق» · ثم تساءل: « أهناك من فارق بين اقترافها بنصل وبين اقترافها بأسلوب فرد

---

(٤١) « منشيوس » : ٧ (١) ٣٦ ·
(٤٢) المرجع السابق : ٧ (٢) ٣٤ ·
(٤٣) المرجع السابق : ٥ (٢) ٢ ·

فى الحكم ؟ » فأجاب الملك : «كلا» ، ثم قال له منشيوس انه ما دام أسلوب الحكم يؤدى ببعض رعاياه الى أن يموتوا جوعا ، فان الملك يعد في الحقيقة قاتلا (٤٤) ٠

وذكر منشيوس لملك تشى أن الحاكم المخطىء ينبغى أن يؤدبه وزراؤه التأديب اللائق ، ومع ذلك فقد أوجد تفرقة هنا : فالوزراء الذين ليست بهم قرابة بالحاكم يجب أن يعارضوه واذا لم يستمع الى نصيحتهم يجب أن يستقيلوا فى هدوء ٠ ولـكن أولئك الوزراء الذين هم أقاربه ، فعليهم ، اذا لم يصلح هو من طريقته بعـد الاحتجاج ، أن يعزلوه عن العرش ٠ ويحـكى أنه عندما ذكر له منشيوس هذا القول ، اذا بالملك «يمتقع لونه»(٤٥)

ولابد أن محيـا نفس الملك ازداد سـواده عند حديث آخر مع منشيوس ، اذ قال الملك انه قد سمع أن الحـاكم الأخير فى أسرة شانج Shang وهو فرد يدعى «تشو Chou » ، قتـله واحـد من رعيته وأسس أسرة جديدة ، وتساءل الملك هل هذا الأمر صحيح ؟ فأجاب منشيوس : «تقول السجلات هذا» ثم سأل الملك : «هل فى استطاعة أحد الرعايا أن يقتل حاكمه ؟» ٠ لابد وأن ظن الملك أنه قد ضيق الخناق على منشيوس ولكن الفيلسوف أجاب : «ان الشخص الذى يثير غضب الفضـائل البشرية يدعى لصا ، والشخص الذى يتجاوز حدود الاستقامة يدعى وغدا ٠ والشخص الذى هو لص ووغد يطلق عليه مجرد شخص أو فرد ٠ لقد سمعت أن فردا يدعى «تشو» قد اغتيل ، ولكنى لم أسمع أن هذا كان اغتيالا لملك ٠»(٤٦)

ولعـل منشـيوس كان يمكن أن يطلق عليه ، أكثر من أى

---

(٤٤) منشيوس : ١ (١) ٤ ٠
(٤٥) المرجع السابق : (٢) ٩ ٠
(٤٦) المرجع السابق : ١ (٢) ٨ ٠

فيلســوف من فلاسفة الصـــين الأول ، لقب مشرع legislator ، أو على أية صورة ، مشرع حاول أن يشرع بالمعنى الذى استخدم فيه أفلاطون تلك العبارة • اننا نجده يقف فى الخلف ويفكر فيما يجب أن تكون عليه الدولة وما يمـكن أن نكون عليه ، ثم يقترح برنامجا ثابتا لتحقيق ذلك •

والمسلم به أساسا فى برنامج منشيوس السياسى هو ببساطة أن الفضيلة تجلب النجاح ، وقد ذكر ملك ليانج لمنشيوس أنه على الرغم من أن ولايته كانت فى سابق عهدها شديدة البأس ، الا أنها خلال حكمه تكرر الهجوم عليها وانتزعت الولايات المجاورة أجزاء من حدودها • وفى واحدة من تلك الحروب قتل ابن الملك نفسه • وقد أراد الآن أن ينتقم لهذه الهزائم ، فسأل منشيوس بماذا ينصحه ؟ فذكر منشيوس للملك أن أصغر بقعة كافية لان تكون نقطة بداية للفوز بالسيادة على الصين بأسرها ، وقال :

« لو أنك ياصاحب الجلالة حكمت الناس حكما ينطوى على حب الخير وخففت العقاب والجزاء وخفضت من الضرائب وتركت الحقول تحرث حرثا عنيفا وأخرجت منها الأعشاب بعناية ، ولو دفعت ذوى الأبدان القوية لأن يستغلوا وقت فراغهم فى غـرس طاعة الوالدين والاحترام الأخوى والاخلاص والأمانة ، فسيقومون فى المنزل بخدمة آبائهم واخوتهم الـكبار ، وفى الخارج سيخدمون من هم يكبرونهم سنا ومن هم رؤساؤهم ــ فان شعبا تحكمه هذا حاله سيكون فى استطاعته ، تحت امرتك ، وبلا شىء أكثر من عصى ، أن يكتل نفسه، ويطرد •• الجنـد المرتدين الدروع القـوية والمسلحين بالأسـلحة الماضية • (٤٧)

(٤٧) منشيوس : ١ (١) ٥ •،

في هذه الصورة المتطرفة يبدو رأى منشيوس سخيفا ، ولكن وجهة نظره التى يعرضها فى مكان آخر بطريقة أكثر قبولا هى أن القوة المعنوية لجيش من الجيوش تعد أكثر أهمية من تسليحه ، وهذا صحيح بغير شك • وكان منشيوس يعارض الحرب معارضة شديدة على هذا الاساس وقد أعلن أن أولئك الذين يفرحون بمهارتهم فى الاستراتيجية هم فى الحقيقة مجرمون كبار (٤٨)، ومع ذلك فقد وجد مخرجا لتبرير الحروب الصالحة (ويتساءل المرء هل يعتقد حاكم أنه كان يشن قط حربا شريرة ؟) •

وقد أوضح منشيوس أن الحاكم الذى يفقد تماما رضى شعبه لا يمكن أن يعتمد عليه ليقاتل من أجله وقت الحرب • ومن ناحية أخرى فان الحاكم الذى يعامل شعبه معاملة طيبة فسيؤيدونه فى ولاء تام حتى لايقهر (٤٩) • وهنا نجد ان الكنفوشيوسيين كان لهم تأثير جد فعال ، اذ زاد الاهتمام بعامة الشعب باعتبارهم جندا ، وكانوا أحيانا يرفضون ببساطة أن يحاربوا •

وقليل من الفلاسفة اهتموا اهتماما يفوق اهتمام منشيوس بالاقتصاديات • لقد أصر على أنه لا يكفى أن يرغب الحاكم فى أن يكون شعبه على خير حال ، اذ يجب أن يتخذ اجراءات اقتصادية عملية ليضمن رفاهيته • ولذلك قال لأحد الحكام : انه اذا ما أراد أن يمارس حكما صالحا كان عليه أن يبدأ باعادة مسح بلاده وأن يخطط حدود الحقول من جديد • وكانت هناك خطة يعتز بها منشيوس اعتزازا قلبيا كبيرا يمكن بها أن تقسم مساحة مربعة ضخمة من الأرض ، مثل لوحة لعبة الداما ، الى تسع قطع متساوية: مربع فى الوسط وثمانى قطع متساوية تحيط به ، وكل قطعة من هذه القطع الثمانية المحيطة بمربع الوسط يجب أن تعطى لأسرة .

---

(٤٨) منشيوس : ٧ (٢) ٤ •

(٤٩) المرجع السابق : ٢ (٢) ١ •

فى حين كان على هذه الأسر الثمانية جميعها أن تقوم بزراعة المربع الوسط مشاعا فيما بينها٠وكان انتاج المربع الأوسط يعطى للحكومة ويشكل ضرائب هذه الأسر ، وفى نفس الوقت يمكن لهذه الأسر الثمانى أن تشكل مجتمعا له علاقات صداقة ومعونات متبادلة وثيقة ٠ وذكر منشيوس أن هذا النظام قد مارسه حكام أفاضل فى أزمنة سابقة(٥٠) ٠ وينقسم العلماء فى مسألة هل هذا القول حقيقة أم أنه خطة من الخطط التى تخيلها منشيوس وعزاها الى العصور الغابرة حتى يكسبها الاقرار لكل ما هو تقليدى ٠

واذا أمعنا النظر فى بعض الاجراءات الاقتصادية التى نادى بها منشيوس فسنجد أنها تتمشى مع وجهة النظر الحديثة جدا : فقد دافع عن تنوع الزراعة ، فالى جانب قيام كل أسرة فى مزرعتها بزراعة بعض أشجار التوت لتربية دودة القز يجب أن تقوم بتربية «خمس دجاجات تتوالد وخنزيرين يتوالدان»(٥١) بل يلاحظ أكثر من هذا أنه دافع عن الابقاء على صيد الأسماك والغابات (٥٢) ٠ ولو كان الشعب الصينى قد أخذ بنصيحة منشيوس فيما يتصل بالأمر الأخير لكان مركز الصين الاقتصادى فى العالم الحديث أعظم بصورة ملحوظة ٠

وفى رأى منشيوس أن الاقتصاد له علاقة وثيقة بالأخلاق ، اذ أنه أكد أن الشعب الجائع لا يمكن أن نتوقع منه أن يلتزم بالأخلاق (٥٣) ، ومع ذلك لم ينظر الى العالم من ناحية اقتصادية بحتة٠ لقد كان يؤمن بأن الشعب يجب أن تتاح له الكفاية الاقتصادية

---

(٥٠) منشيوس : ٣ (١) ٣ ٠
(٥١) المرجع السابق : ٧ (١) ٢/٢٢ ٠
(٥٢) المرجع السابق : أ (١) ٣/٣ ٠
(٥٣) المرجع السابق : ١ (١) ٢٠/٧ ٠

ولكنه دافع أيضا عن أن الشعب يجب أن يتعلم حتى ترتفع أخلاقياته فوق مستوى الاستجابة البسيطة لمتطلبات الزمن • ومن ثم نجد منشيوس ، فى نفس الفقرات التى يدافع فيها عن الزراعة المتنوعة يقترح اقامة جهاز للمدارس الالزامية (٥٤) • وعلى قدر ما أعى فان هذه الاشارة أقدم اشارة لنظام مدرسة الزامية فى التاريخ الصينى • وهنا يقول منشيوس مرة أخرى انه نقل خطته عن أسرات سابقة ، ولكن ليس هناك من دليل ، كما لاحظنا ، يدعم ذلك ، ويبدو الأمر كما لو كان يسعى ليدعم حجته بابتداع سابقة •

ويجمع منشيوس كل هذه السوابق تحت عبارة « وانج طاو wang tao » اى الأسلوب الملكى ، أو « أسلوب الملك الحق » • وكان يشير بهذه العبارة الى ممارسات بعض الملوك الصالحين فى الماضى ، والتى يجب أن تتخذ نموذجا على مر العصور ، كما قال منشيوس انه اذا ما مارس حاكم هذا اللون من الحكم لفاز بسهولة بالسيادة على العالم الصينى بأسره •

وبالنسبة لهذه الحجة فقد أيد منشيوس فى براعة : اصرار الكنفوشيوسيين على الاهتمام بالشعب • لقدكان حازما بالنسبة لهذه النقطة وأكد أنه اذ. ما فشل حاكم فى تحقيق الرفاهية لشعبه فمن الواجب أن يعزل (٥٥) • وكان الحكام الذين يتطلع اليهم على أنهم مثله الأعلى هم الأباطرة الأسطوريون « ياو » و « شون » و « يو » • وطبقا لما هو متواتر كان هناك اختلاف فيما بينهم : فلقد كان «ياو» و « شون » يبحث كل منهما عن شخص فاضل له قدره من بين رعاياهما يخلف كل واحد منهما على عرشه ، ولكن « يو » خلفه ابنه ، ومن ثم كان يعد البادىء بأول أسرة ورائية • وقد تساءل أحد

---

(٥٤) منشيوس : ١ (١) ٧/٢٤ ، ٢٤ (١) ١٠/٣ •
(٥٥) المرجع السابق : ٢ (٢) ٤ •

تلاميذ منشيوس هل تنازل « ياو » حقيقة عن العرش لـ « شـون » فأجاب منشيوس بأن هذا لم يكن صحيحا وأنه ليس من حق حاكم أن يتخلى عن عرشه ٠ وقال منشيوس ان ما حـدث هو أن السماء رضيت عن « شون » ورضى الشعب به كخليفة لـ « ياو » ٠ وفى الواقع ، أرجع منشيوس الأمر الى موافقة الشعب لأنه اقتبس القول المأثور : « السماء ترى وتسمع كما يرى شعبى ويسمع » (٥٦) ٠

ثم قال منشيوس بعد ذلك إنه لما مات « يو » كانت رغبـة « يو » هى أن يخلفه أحد وزرائه ولكن الشعب لم يرض به وأسند العرش الى ابن « يو » بدلا منه ، وهنا يعتبر منشيوس أن عرش الحاكم الوراثى هبة من الشعب ٠ ويشرح منشيوس أيضا أنه اذا كان الشخص الذى سيعتلى العرش ليس بالوارث له فانه يجب أن يكون له من الفضائل ما يماثل فضائل « شون » و « يو » وأن يعينه الحاكم خليفة له ٠ ويشرح منشيوس قائلا انه لهـذا السبب الأخير وحده لم يعتل كنفوشيوس عرش الصين (٥٧) ٠ ومن هذا يمكننا أن نرى الى أى مدى تطور تمجيد كنفوشيوس فى مدى قرن واحد ٠

وواضح أن العرف قد لعب فى تفكير منشيوس دورا أكبر من الدور الذى لعبه فى تفكير كنفوشيوس ، ويرجع جانب من السبب فى ذلك الى أن المدرسة الكنفوشيوسية كانت خلال هذا الوقت قد تطورت الى مجموعة كبيرة من التقاليد تلائم حاجاتهم ، ولكن كان هناك أيضا شىء هام هو البحث عن أساليب أبسط لحل المشاكل ٠ وكان منهج كنفوشيوس الذى يتألف من تفكير مضن مستمر مع استعداد لاعادة فحص حتى المقدمات المنطقية الأساسية ، منهاجا بالغ الصرامة حتى أنه لم تستطع أن تلتزم به أبدا أية

---

(٥٦) منشيوس : ٥ (أ) ٥ ٠
(٥٧) المرجع السابق : ٥ (أ) ٦ ٠

مجموعة كبيرة من الرجال لمدة طويلة · لقد رأينا أن موتزو قد أنشق على التقليد الكنفوشيوسى فى فترة مبكرة جدا ولاذ بتلك المعايير المطلقة مثل : ارادة السماء وارادة الأرواح التى كان يعبر عنها عن طريق الظواهر الطبيعية والخوارق · وقد ظل منشيوس متمسكا بالتقليد الكنفوشيوسى وساعد على تشكيله ، ولكنه ، هو أيضا ، سعى الى محك أسهل للبحث عن الحقيقة ، وكان كنفوشيوس قد أشار الى طريقة لا تخلو من صعوبة للحكم على الشخصية فقد قال : « تطلع بامعان الى أهداف الشخص ولاحظ أساليبه التى يدرك بها تلك الأهداف واكتشف مايرضيه ، وكيف يستطيع الانسان أن يخفى شخصيته ؟ » (٥٨) وواضح أن احدى عبارات منشيوس كانت محاولة لتهذيب هذا التقليد ، لأنه استخدم جانبا من الكلمات نفسها · لقد قال منشيوس : «ليس هناك عضو فى جسد الانسان أفضل من انسان عينه · انه لا يمكن أن يخفى الشر والخبث ، واذا كان كل ما يكنه صدره سليما كان انسان عينه براقا ، واذا لم يكن فهو مظلم · انصت الى كلماته وراقب انسان عينه · كيف يمكن لانسان أن يخفى شخصيته ؟ » (٥٩) ·

وعلى نحو هذا الاتجاه نفسه نجد منشيوس يشير الى القواعد التى يمكن أن تتبع فى الحكم · وليس بكاف أن يكون المرء فاضلا اذ يجب أيضا أن يتخذ الملوك القدامى الصالحين نموذجا له (٦٠)، ولو شاء الحكام والوزراء أن يكونوا بغير عيوب فما عليهم الا أن يقلدوا سلوك « ياو » و « شون » (٦١) · وفى جباية الضرائب قد

---

(٥٨) المقتطفات الادبية : ٢/١٠ ·
(٥٩) منشيوس : ٤ (١) ١٥ ·
(٦٠) المرجع السابق : ٤ (١) ١ ·
(٦١) المرجع السابق : ٤ (١) ٢/٢ ·

يكون من الخطأ أن تجبى الضرائب أكثر أو أقل مما قد جباه « ياو » و « شون » (٦٢) .

وهنا نجد أن من واجبنا أن نتناول فلسفة مطروحة ككومة أوراق عنوانها : « الأساليب القديمة » لتقبل أو لترفض جملة . ومثل هذه الفلسفة تهدف الى احباط النقد والابداع عند الفرد وتجعله جامدا من الصعب جدا أن يتكيف حسب المواقف الجديدة . والكنفوشيوسية المتطرفة فى تناقضها مع فكر كنفوشيوس كانت لها هذه النقائص ، ومع ذلك فان مثل هذه الفلسفة ، من وجهة نظر أولئك الذين يدافعون عنها ، لها فائدة كبيرة وهى أن مظاهرها المختلفة لا يمكن تبريرها فرديا . واذا اعتقد انسان مرة أنه يجب أن يتبع الأساليب القديمة وأن تلك الأساليب تتجسد فى حكمة معينة ، فان عمل ناشر الدعوة قد انتهى .

وكان لابد من أن تظهر كتب تصف الأساليب القديمة . ويكاد يكون بالمثل لا مفر من أن مثل تلك الكتب يجب أن تعزى الى الأزمنة الأولى حتى يمكن أن تستفيد من القوة الخاصة المرتبطة بالوثائق التى يعتقدأنها معاصرة للأحداث التى تصفها . ولقد زيفت الوثائق فى الصين منذ وقت متقدم ولكن العصر الذهبى للتزييف يبدو أنه قد بدأ بعد وفاة كنفوشيوس بوقت قصير . وفى قرون عديدة أعقبت وفاته خرج فيض من مثل هذه المواد ووجد الكثير منها فى كتب الشريعة المقدسة الكلاسيكية . ويبدو أن معظم هذه الأعمال قد ظهرت الى الوجود تحت رعاية الكنفوشيوسيين لتعزيز وجهات نظر الكنفوشيوسية المتطرفة . ويقتبس منشيوس نفسه من وثيقة ، من المحتمل أنه لم يكن لها وجود فى زمن كنفوشيوس (٦٣) برغم

---

(٦٢) منشيوس : ٦ (٢) ١٠ .

(٦٣) المرجع السابق : ٥ (١) ٤/١ .

زعمهم أنها قديمة · وليس هناك أى دليـــل ، مع ذلك ، على أن منشيوس نفسه كان مزورا ، بل انه على العكس من ذلك احتج على أنشطة المزورين وقال : « قد يكون من الأفضل ألا يكون عندك أى من الوثائق التاريخية بالمرة من أن تصدق كل ماجاء فيها» ·(٦٤)

ولقد رأينا أن احدى حجج موتزو الرئيسية عن أسلوب العمل كانت : ماوراءه من فائدة أو كسب · ويعـــارض منشيوس هــذا المعيار · ويبدأ كتاب « منشيوس » بما يلى : « تقابل منشيوس مع الملك « هوى Hui » ملك ليانج ، فقال له الملك : « أيها الســيد المبجل ، مادمت قد اعتبرت أنه من الأمور الجديرة باهتمامك أن تسافر سفرا بعيدا حتى قدمت الى هنا ، فاننى اعتقد أنك لابد من أن تكون قد جئت ومعك من النصائح مايعود بالفائدة على مملكتى ــ أليس الأمر كذلك ؟ ، فأجاب منشيوس : لماذا كان عليك ياصاحب الجلالة أن تتحدث عن الفـائدة ؟ ليس عندى ما أقدمه ســوى حب الخير والصلاح ، فاذا سألت يا صاحب الجلالة « ماذا سيعود على مملكتى بالفائدة ؟ اذن فسيسأل كبار الموظفين : « ما الذى سيعود على أسرنا بالفائدة ؟ » وسيتساءل صغار الموظفين والشعب : « ماذا سيعود على أشخاصنا بالفائدة ؟ » وسينافس الكبار والصغار بعضهم بعضا من أجل الفائدة وستتعرض الولاية للخطر » وتابع منشيوس حديثه مشيرا الى أن مثل هذه الحالة ستجعل الملك فى خطر من أن ينتزع حياته مرءوس يطمع فى منصبه وجاهه · ويسترسل قائلا : « ولكن لم يكن هناك قط انسان يحب الخير ويهمل أبويه ، ولا رجل صالح ينظر الى حاكمه نظرة استخفاف · فعلى جلالتـكم اذن أن تتحدثوا فقط عن حب الخير والصـــلاح · لماذا كان عليـــك أن تتحدث عن الفائدة ؟ » · (٦٥)

---

(٦٤) منشيوس : ٧ (٢) ٣/١ ·

(٦٥) المرجع السابق : ١ (١) ١ ·

وعلى هذا الأساس كان منشيوس يعتبر أحيانا معارضا لموقف الموويين ، وكان يعتنق الأخلاق اللانفعية · ومع ذلك فانه يبدو واضحا تمام الوضوح حتى فى الفقرة التى سبق اقتباسها أن حوار منشيوس كان فى الحقيقة حوارا نفعيا ، فهو لم يقل ان المرء يجب أن يكون محبا للخير وصالحا لأن هذا أمر مطلق ، ولا لأنه سيمجد الاله ، بل انه يشير بدلا من ذلك الى أن الفعل الذى هدفه الوحيد الكسب المادى لن يحقق ذلك حتى يمضى الزمن لأنه سينتج عنه فوضى وحرب أهلية · ان ما يعظ به منشيوس هنا هو فى الحقيقة مبدأ للأنانية المستنيرة enlightened selfishness ـ هو ، بطبيعة الحال ، مبدأ نفعى تماما ·

على أن منشيوس ، فى الحقيقة ، لايتحدث دائما بمثل هذه العبارات · انه فعلا يتحدث عن مبادىء « ياو » و « شون » على أن لها سلطانا فى حد ذاتها · ومع ذلك فسيذكر أن اسناد العرش الى « شون » قد أقره أخيرا تمسك الشعب بحكمه · وواضح أن تمسك الشعب (أو بالأحرى من المفروض أنهم قد تمسكوا) ب « شون » لأنهم كانوا يؤمنون بأن حكمه سيسهم فى رفاهيتهم · ومثل هذه الاعتبارات النفعية الكاملة ستوجد دائما خلف الآداب الكنفوشوسية·

وهذا يثير مشكلة فلسفية دقيقة : اذ الواضح أن منشيوس يؤمن بأن مبادىء الملوك الحكماء فى العصور القديمة تشكل النمط السليم لأفكار الرجال وأعمالهم · اذن كيف حصل عليها الحكماء ؟ هل تلقوها من وحى خارق للطبيعة ؟ واضح أن هذا لم يحدث · هل كان الحكماء أنفسهم رجالا لهم مواهب تسمو على مواهب البشر ؟ فمنشيوس ، بصورة خاصة ، ينكر هذا قائلا : « كان « ياو » و « شون » يعتبران تماما مثل سائر الرجال » ·(٦٦)

---

(٦٦) منشيوس : ٤ (٢) ٣٢ ·

وكان منشيوس يؤمن بأن كافة الأفراد قد ولدوا ولهم نفس اللون من الطبيعة البشرية وأن الطبيعة البشرية خيرة • وكان هذا المبدأ موضوع جدال مرير بين الكنفوشيوسيين • وقد ذكر أحد تلاميذ منشيوس أنه كان هناك فى أيامه من قالوا ان الطبيعة البشرية لا هى بالخيرة ولا بالشريرة بينما نادى آخرون بأنها يمكن أن تصبح خيرة أو شريرة ، بينما أصر فريق آخر على القول بأن بعض الأشخاص طيبون بطبيعتهم بينما يوجد أشخاص آخرون أشرار بطبيعتهم • ثم اختتم التلميذ حديثه قائلا : « والآن ، ياسيدى ، أنت تقول ان الطبيعة خيرة ، فهل أولئك الآخرون جميعهم مخطئون ؟ » فأجاب منشيوس :

« وهبت طبيعة الانسان بمشاعر تحثها على عمل الخير • وهذا هو السبب فى أننى أدعوها خيرة ، فاذا فعل الناس ماليس خيرا ، فلا يكمن السبب فى التكوين الأساسى الذى تشكلوا منه : فكل الناس فيهم مشاعر العطف والحياء والكراهية والتبجيل والاحترام والتعرف على الصواب والخطأ وهذه المشاعر تؤدى الى ظهور فضائل حب الخير والصلاح والأدب والحكمة • هذه الفضائل لا ألقنها من الخارج ، فهى جزء من « الأنا I » الأصلية • ووجهة النظر المخالفة مردها فقط الى العجز عن التأمل ، ولذلك يقال : ابحث عنها تجدها ، وأهملها تفقدها • ويختلف الناس من واحد لآخر : البعض بما يبلغ الضعفين والبعض بخمسة أمثال والبعض بقدر يفوق الحصر ، لأنهم ببساطة فى درجات متفاوتة يعجزون تماما عن أن يطوروا قواهم الطبيعية » (٦٧) •

---

(٦٧) منشيوس : ٦ (١) ٦ •

وواضح أن منشيوس كان يثير مسألة هي موضع جدل شديد ، وذلك عندما يتحدث عن الشعور الفطرى innate sense للصواب والخطأ ، ومع ذلك فموقفه أكثر قوة بالنسبة للحنان sympathy ، وهو يحسن اقامة هذه الحجة قائلا : « لنفرض أن شخصا يرى فجأة طفلا صغيرا على وشك أن يسقط في بئر ، فانه على الفور ، بصرف النظر عمن يكون ، يجرب شعور الخوف والشفقة ، ولن يكون هذا الشعور نتيجة رغبة فى كسب حظوة عند والدى الطفل أو لأن يمتدحه جيرانه وأصدقاؤه » ، ويصر منشيوس على أن هذا الشعور نتيجة الحنان الغريزى instinctive sympathy ، الذى هو جزء من الهبة التى توهب لكل كائن بشرى عادى(٦٨) .

وقد يبدو أن هذا الجدال حول الطبيعة البشرية وهل هى خيرة ، وقد دار حوله نقاش لا نهاية له ، أقول يبدو أن الجدل تناول الموضوع من زاوية خاطئة . وقد جرت العادة أن يوجه الاهتمام الى عبارة « الطبيعة البشرية » . وقد يكون أكثر فائدة أن تفحص كلمة « خير » أو « صالح » . فقد يبدو أنه كانت القضية عند منشيوس كما كانت عند كنفوشيوس هى أن الصالح هو الأكثر ملاءمة للطبيعة البشرية ، فالطعام الذى يسبب ألما لمعدة انسان ليس طعاما « صالحا » . والدراس طعام صالح لثور ولكنه ليس كذلك بالنسبة لانسان لأنه لا يلائم طبيعته . وأسلوب الحياة الذى يمنحك فقط ساعتين للنوم من أربع وعشرين ساعة ليس بالصالح ، لنفس السبب . ومن الممكن أن تستمر وتطور نظاما كاملا للأخلاق على هذا الأساس : أعنى ، هذا ما فعلته الكنفوشيوسية الى حد بعيد . ومن ثم ففى مناقشته للطبيعة البشرية أشار منشيوس الى أن أفواه وآذان وعيون الناس كلها متماثلة ولها بالمثل ما تحبه وتكرهه ، ومن هذا

---

(٦٨) منشيوس : ٢ (١) ٦ .

يخلص الى أن عقولهم يجب أن تقر نفس المبادىء الأخلاقية المتماثلة ٠ (٦٩)

ومن ثم فعندما يقول منشيوس ان الطبيعة البشرية خيرة فهو يتحدث فى لغو الى حدما لأنه فى التحليل السابق يبدو أنه يقصد « بالخير » أو « الصالح » ذلك الذى يلائم الطبيعة البشرية ومن ثم ، ففى نظر منشيوس ، أن العلاقة بين الأخلاق وعلم النفس علاقة وثيقة جدا ٠

ويبدو أن سيكولوجية منشيوس لم تحظ قط بالدراسة التى تستحقها ٠ ويقول أ٠ أ٠ ريتشاردز : انه « من المحتمل أن يكون منشيوس قد سبق فرويد الى بعض الأوصاف التربوية التى نادى بها » (٧٠) ٠ ولقد سمعت أنا نفسى تعليق أحد الأطباء النفسيين الذين يمارسون الطب النفسى ، بعد قراءته لبعض فقرات منشيوس السيكولوجية أنه بدا أن منشيوس كان قد سبق الى معرفة بعض نظريات الطب النفسى الحديث modern psychiatry، ومن الصعب أن يشعر الانسان بالاقتناع بأنه قد فهم حقيقة نظريات منشيوس السيكولوجية ، وقد قال هو نفسه انه قد اكتشف انه من الصعوبة بمكان شرح مصطلحاته العلمية ، وعندما نترجمها الى لغتنا السيكولوجية الحديثة ، وهى ليست دائما واضحة ودقيقة تماما ، فلابد أن تكون النتيجة بعيدة عما كان يراود ذهن منشيوس٠

ولمنشيوس بوصفه عالما نفسيا مزية واحدة عظيمة : فكرة وجود روح وجسم منفصلين وهى فكرة لم تخطر فى خلفية عقول رجال عصره

---

(٦٩) منشيوس : ٦ (١) ٧ ٠

(٧٠) ريتشاردز : « منشيوس وأثره الفكرى » ص ٧٥ ٠

خطورها حتى فى أكثر تفكيرنا حظا من العلم(*) . ومع ذلك فقد كان عند منشيوس نوع من السيكولوجية الثنائية بين ما يمكن أن نطلق عليه « الطبيعة العاطفية emotional nature » و « الملكات العقلية rational faculties » (وهذه اصطلاحات تقريبية لاصطلاحات منشيوس) ، ولم يعتبر أن احداهما خيرة والأخرى شريرة ، ولكنه كان يؤمن بأن السيادة يجب أن تكون للملكات العقلية . واذا كانت الملكات العقلية مترابطة تماما ومتحدة ، يكون فى استطاعتها أن تخضع الطبيعة العاطفية لسيطرتها . ومع ذلك فاذا صارت الطبيعة العاطفية متحدة اتحادا قويا يمكنها أن تنتزع السيادة من الملكات العقلية . ولنفرض مثلا أننى أسير الى الأمام ورأسى متطلع للنجوم وأفكر فى الفلسفة وقدمى مصطدم بصخرة مما جعلنى أتعثر وأجرى لأستعيد توازنى : ففى لحظة صارت طبيعتى العاطفية موحدة واتخذت موقف السيطرة وفرت أفكارى الفلسفية وهزنى الخوف للحظة قصيرة حتى أستطيع ، كما نقول ، « أن استجمع قواى » ثانية فاذا ما استجمعتها ، أو كما يقول منشيوس ، عندما تتحد ملكاتى العقلية ثانية ، يمكننى أن أستأنف تأملاتى (٧١) .

(*) ذكر س . أ . هاياكاوا مثلا مدهشا على ثبات ثنائية « العقل » و « الجسم » فى كتاب صدر حديثا ألفته طبيبة اخصائية فى علم النفس التشريحى psychosomatic medicine . ويذكر هاياكاوا ان هذه المؤلفة تقرر بصراحة .. « أن جسدك هو عقلك والعكس بالعكس » ، وعلى الرغم من تكرار توكيدها لهذه الحقيقة (هكذا يستمر هاياكاوا فى حديثه) تعود المؤلفة باستمرار الى انقسام الجسد والعقل فتقول على سبيل المثال : « لقد فقد المريض القدرة على أن يجعل عقله محتفظا بالسيطرة على جسده » وهو رأى يؤثر تأثيرا خطيرا على دقة تقاريرها » (س . أ هاياكاوا : « ما المقصود بالبناء الأرسطوطاليسى للغة » ص ٢٢٩) .

(٧١) منشيوس : ٢ (أ) ٢ /١٠ .

وعلى الرغم من أنه لا بد من السيطرة على الطبيعة العاطفيـة ، فان منشيوس يقول انه يجب البتة ألا تكبت . وهو يعتقد أنها لو وضعت العواطف فى وضعها الصحيح لكانت ـ اذا ما استبعدنا منها ما هو فاسد ـ أعظم القوى الأخلاقية . ومن ثم يقول انه على المرء أن يصلح من طبيعته العاطفية حتى يمكن أن تبلغ صورتها الكاملة.(٧٢)

ويقول منشيوس ان على المرء أن يقلل من رغباته ، وهو أمر معقول ، والفرد الذى يقصد الى أهداف كثيرة لايتعب خاطره فحسب بل ربما يخفق فى تحقيق أى هدف منها (٧٣) . ولـكن منشيوس لا يعتبر الرغبات من الأمور السيئة : ففى لقاء بين منشيوس وملك ليانج يعترف الملك بأنه يعتبر نفســه عاجزا عن متابعــة المثل الكنفوشيوسية السامية لأنه خجل من أن يقول ان له ميولا مختلفة غير جديرة بالتقدير مثل الميـــل الى الجرأة والموســـيقى والثروة والجنس . وقد أكد له منشيوس ، مع هذا ، أن هذه ميول طبيعية سليمة ولن يأتى منها شر بل يأتى بالخير اذ كان الملك فى اتباعه لميله الطبيعى نحو العطف البشرى ، يسمح لشعبه كما يسمح لنفسه أن يستفيد من هذه الميول . ومن ثم فان غرس الجرأة يجب أن يـكون للدفاع عن الدولة وعن شعبه ، ويجب أن يمكن الشعب من الاستمتاع بالموسيقى والرخاء الاقتصادى كما يمكنه لنفسه ، وفى الوقت الذى يستمتع فيه بالجنس عليه أن يجعل أيضـــا فى ميسور كل فرد من أفراد شعبه أن يتزوج ويستمتع مثله بالجنس . (٧٤)

لقـد رأينا كيف أن موتزو اقترح التخلص من العـواطف ، ورأى الكنفوشيوسيون أن هذا الأمر مستحيل وأنه أمر غير مرغوب

(٧٢) منشيوس : ٢ (١) ٢/٩ ــ ١٦ .
(٧٣) المرجع السابق : ٧ (٢) ٣٥ .
(٧٤) المرجع السابق : ١ (٢) ١ ــ ٥ .

فيه لأنهم كانوا يؤمنون بأن العواطف اذا ما وجهت توجيها صحيحا فانه من الممكن أن تكون ضمانات أكيدة للسلوك القويم • ولم يكن في استطاعتهم أن يدركوا أن مبدأ عقليا خاصا مثل مبدأ موتزو في « الحب العالمي » يمكن أن يعتمد عليه في جعل الانسان يعمل متحررا من أنانيته حتى فيالأزمات ؛ وهذا هو السبب في اصرار كنفوشيوس على ضرورة قيام « النظام عن طريق الـ (لي) » بالاضافة الى التدريب العقلي (٧٥) ، ولنفس هذا السبب أكد منشيوس أن الانسان المتعلم وحده هو الذي يمكن أن يعتمد عليه في أن يستمر متمسكا بالفضيلة في مواجهة الضائقة الاقتصادية • (٧٦)

ويبدو أن منشيوس كان يقصد «بالتعليم education » : التهذيب الأخلاقي moral cultivation بصورة خاصة • وهذا التهذيب كان يهدف الى الحفاظ على طبيعة المرء الأصلية بلا مساس • وقال : « ان ما يجعل الانسان مختلفا عن الطيور والحيوانات فارق طفيف جدا ؛ والأشخاص العاديون لا يأبهون به ، بينما يحافظ عليه الرجال الأعلون •» (٧٧) وقال مرة أخرى : «الرجل العظيم هو من لا يفتقد حب طفله » (٧٨) • وبالرغم من ذلك فان منشيوس يدرك بأن الميول الفطرية للأخلاقيات التي ندعوها « مبادىء » الفضائل ، يجب غرسها وتطويرها حتى تصل الى تأثيرها الكامل • وهذا التطور لا يأتي فجأة نتيجة لميلاد أدبي أو لومضة من شعاع الاستنارة ، ولكنه بالأحرى نتيجة لسلوك الانسان مجتمعا في حياته اليومية • ومن ثم يقول منشيوس ان الغرس الصحيح للطبيعة العاطفية للفرد

---

(٧٥) « المقتطفات الأدبية » : ٦/٢٥ ، ١٢/١٥ •
(٧٦) « منشيوس » : ١ (١) ٧/٢٠ •
(٧٧) المرجع السابق : ٤ (٢) ١٩/١ •
(٧٨) المرجع السابق : ٤ (٢) ١٢ •

يمكن أن يتحقق فقط عن طريق « تجميـع التقوى » المسـتمر (٧٩) constant accumulation of righteousness ، وقال موتزو ان المرء يجب أن يسلك سلوكا أخلاقيا حتى فى أبعد أعماق العزلة ، نظرا لأنه فى كل مكان «أشباح وأرواح تراقب المرء»(٨٠) ولعل منشيوس نادى بأن على المرء أن يسلك دائما سلوكا أخلاقيا لأن أى شيء يفعله المرء سيكون له رد فعله على تطور الشخصية الذاتيـة للمرء سـواء أكان هذا التطور خيراً أم شراً ٠

ومادام كل الأشخاص خيرين ومتساوين فى الخير عند ميلادهم ، فلماذا يصبح البعض أشرارا ؟ ردا على ذلك يسـتخدم منشيوس تشبيها كذلك الذى استخدمه المسيح ويشير الى أنه لو أن شخصا بذر بذوراً مثالية فى أماكن متفرقة فان البذرة التى تقع على تربة غنية مشبعة برطوبة كبيرة ستغل محصولا وفيرا فى حين أن التى تنمو فى تربة فقيرة ويصيبها قدر يسير جـدا من المطر سيكـون محصولها سيئا ٠ والناس بالمثـل يختلفون من جراء البيئة التى ينشئون فيها ٠(٨١) ومن ثم كان من الضرورى أن تهتم بأن تكون هذه البيئة صالحة بقدر المستطاع ٠ وقال منشيوس انك اذا أردت طفلا يتحدث بلهجة « تشى » فمن الأفضـل أن تبعث به الى ولاية تشى ، فسيستمع اليها هناك وكل من حوله يتحدثون بها ٠ وبنفس الطريقة اذا أردت أن تغرس الفضيلة فى نفسك فمن الأفضل أن تعاشر أشخاصا أفاضل (٨٢) ، والحاكم العاقل الذى يرغب فى أن يكون شعبه فاضلا سيهتم بأن يكون نوع بيئتهم هو النوع الذى

---

(٧٩) منشيوس : ٢. (١) ٢/١٥ ٠

(٨٠) سى يى ــ باو : « مؤلفات موتسى الأخلاقية والسياسية » ص ١٦٥

(٨١) « منشيوس » : ٦ (١) ٧ ٠

(٨٢) المرجع السابق : ٢ (٢) ٦ ٠

(٨٣) المرجع السابق : ١ (١) ٧/٢٠. ــ ٢١ ٠

يمكن أن تنمو فيه الفضيلة نظرا لأن الفقر المدقع يترك ندوبا على عقول الناس وقلوبهم من المؤكد أنها تضنى أجسادهم ٠(٨٤)

وحتى هنا لانجد ألا القليل فى فلسفة منشيوس عن الطبيعة البشرية ، ولا نجد فى سيكولوجيته ، الا القليل الذى لا يتفق اتفاقا جوهريا مع آراء كنفوشيوس ٠ لقد كانت مساهمة منشيوس الكبرى فى أنه تناول وطور الكثير مما كان مجرد ايحاء أو تضمين ورد فى مأثور أقوال المعلم الأول ٠ ويبـــدو أن كنفوشيوس لم يقل بصراحة أن الطبيعة البشرية خيرة ٠ ربما لم يثر الموضوع ؛ ربما كان حذر كنفوشيوس الأصلى وشعوره بالتوازن قد منعاه من أن يصرح تصريحا لو فسر فى أسلوب بالغ المغالاة لكان من الممكن أن يؤدى الى نتائج غير مرغوب فيها ٠

أما منشيوس الذى لم تعقـــه مثل هذه العوائق فقـد نقل نظريته الى نهايتها المنطقية ، وربما الى أبعد من هذه النهاية ٠ ومن ثم قال : « كل الأشياء مكتملة فى داخلنـا ٠ (٨٥) » وبتعبير آخر أن طبيعة الانسان الفطرية ليست كاملة فحسب بل هى أيضا نوع من عالم صغير يمثل أو يحوى خلاصة كل الأشياء ٠ وقـد يستتبع هذا منطقيا ، كما يقول منشيوس : أن « من يعـرف تماما طبيعتـه الذاتية ، يعرف السماء » (٨٦) وقد نوقش معنى هـــذه الفقرات نقاشا لا نهـاية له فى الأدب الصينى لمدة ألفى سنة ، وليس من الضرورى بالنسبة لنا هنا أن نحاول تحديد هل كان منشيوس قد قصد أن المرء ربما يعرف عن طريق الفحص الداخلى introspection وحده ، طبيعة العالم الذى حوله ، أو أنه كان يقصد فقط أن المرء يمكنه بهذه الطريقة أن يتعلم مبادىء الأخلاق التى لها أهمية عظيمة ٠

---

(٨٤) منشيوس : ٧ (١) ٢٧ ٠

(٨٥) المرجع السابق : ٧ (١) ٤/١ ٠

(٨٦) المرجع السابق : ٧ (١) ١/١ ٠

وعلى الحالين كان منشيوس على خلاف هنا (لاشعورى بلاشك) مع كنفوشيوس ، الذى كان قد وصم التأمل meditation صراحة بأنه قاصر وحث تلاميذه على الاهتمام بالمشاهـــدة العريضة wide observation والفحص المحكم critical examination لما كان يجرى فى العالم ٠

وهناك فقرات قليلة أخرى فى كتاب « منشيوس » يظهر فيها أنه ينحرف انحرافا الى أبعد مدى عن المبدأ الكنفوشيوسى الأصلى ٠ وتوحى مظاهر معينة لشكل هذه الفقرات فضـــلا عن محتوياتها ، باحتمال أنها ربما لم تكن العبارات الأصلية التى تفوه بها منشيوس ، وأنها بدلا من ذلك دست على النص دسا (٨٧) ٠ وهى على أية حال أكثر اقترابا من نوع التفكير الذى يطلق عليه التفكير « الطاوى » Taoist thinking الذى هو موضوع الفصل القادم ٠

---

(٨٧) انظر كريل : «كنفوشيوس : الرجل والأسطورة» ص ص ٢٠٨ ــ ٩

الفصل السادس

الشك التصوفي عند الطاويين

لقد شهدنا حتى هذا الفصل ، بوجه عام ، موقفا واحدا ازاء مشاكل العالم • واذا كان كنفوشيوس وموتزو ومنشيوس يختلفون في أمور كثيرة الا أنهم كانوا متشابهين في الجدية التامة التي كانوا يوجهون بها أنفسهم الى العمل من أجل جعل العالم مكانا أفضل للعيش فيه • لقد آمن جميعهم بأن الانسان الصحيح يجب أن يكون على استعداد للتضحية بحياته ، اذا لزم الأمر ، من أجل البشرية • ومن المؤكد أن كنفوشيوس تحدث عن ضرورة الترفيه recreation وكان يؤمن بأن التمتع بالحياة في حد ذاته أمر طيب ولكنه كان جادا جدا في كل هذا • ولما تطورت الكنفوشيوسية أخذ يقل شيئا فشيئا نصيبها من اتزان المعلم الأول ومرونته وصارت تطالب الفرد بأن يكرس نفسه تماما أكثر وأكثر لنظام محدد من العمل نيابة عن عالم لم يصنعه •

ولم يكن للأريستوقراطيين ، بطبيعة الحال ، نفس هذا اللون من الجدية ، ولكنهم أرادوا أن يمارسوا اشرافهم الاستبدادى على الفرد وأن يجعلوا كل رعاياهم مجرد قطع شطرنج في الألعاب التي كانوا يلعبونها من أجل النفوذ السياسي والعسكرى والاقتصادى • وبين

الأمراء والفلاسفة : كانت لدى الانسان فرصة بسيطة ليحس بأن روحه ملك له ٠

ولماكانت الكائنات البشرية قد برئت على ماهي عليه ، لذلك كان من المتوقع أن يثور بعضها ٠ لقد فعلت ذلك ، وكانت هذه الثورة الأساس الذى نشأت منه الفلسفة الهامة الذائعة الصيت التى نعرفها باسم الفلسفة الطاوية Taoism ٠ وقد قال فيلسوف صينى فى العصور الحديثة ان الطاوية « هىالجزء الضرورى المقابل لروح القطيع المتساهلة complacent gregariousness فى الكنفوشيوسية»٠(١)

وقد يكون من الممكن تقصى أثر بعض تحركات هذه الثورة فى فترة أسبق من عهد كنفوشيوس ٠ ومن الصعب جدا على الفرد أن يحقق استقلالا فى مجتمع اقطاعى منظم تنظيما محكما ، ولكن هناك بعض فقرات فى الأدب القديم قد تكون فيها اشارة الى نساك ٠ وفى النص الأصلى لكتاب قديم بعنوان « كتاب التغيرات » نجد ذكر «الشخص الذى لا يخدم ملكا ولا سيدا اقطاعيا ، ولكنه يقدر شئونه الخاصة بروح عالية ٠ » (٢)

ونجد هذه الثورة فى صورة لا يمكن أن نخطئها ، قبل وفاة كنفوشيوس بحوالى قرن من الزمان ٠ وتجدر الاشارة الىأن منشيوس أشار الى شخص معين يدعى « يانج تشو Yang Chu » على أنه من من أشهر فلاسفة عصره وكان يقول ان كل من لم يكونوا كنفوشيوسيين أو موويين كانوا أتباع «يانج تشو» ؛ وأما عن آرائه فيكتفى منشيوس بذكر ما يلى : « يتخذ يانج موقف الأنانية ، وعلى الرغم من أنه قد يعلم أن العالم بأسره قد يستفيد لو انتزعت منه فقط شعرة من رأسه ، فانه يرفض أن تنتزع منه ٠ » (٣) ويذكر كتاب صدر

---

(١) لين تونج تشى : « الطاوية عند كل صينى » ص ٢١٥ .

(٢) ليجى : « الملك يى » ص ٩٦ .

(٣) منشيوس : ٧ (١) ١/٢٦ .

فى عهد أسرة هان أن فلسفة يانج تشـــو تدافع عن « الحفاظ على استقامة شخصية الفرد ، وتلتزم التزاما شديدا بالحقيقة الواقعـة ولا تسمح لنفسية شخص بأن تقع فى شباك الأشياء ٠»(٤)

وهناك الكثير من البيانات الكاملة التى يظن أنها تقتبس كلمات يانج تشو نفسه ، وهى تظهر كفصل فى المؤلف الطاوى المعنون « ليه تزو Lieh Tzu » ٠ ومن سوء الطالع أن « ليه تزو » كتاب معروف عنه اليوم بوجه عام أنه مزور ، ولعل التزوير اقترف بعـد فترة متأخرة عن عهد يانج تشو الذى يظن أنه عاش فى القرن الرابع ق٠ م٠ ومع ذلك فهناك قلة من العلماء الذين يؤمنون ، على الرغم من حقيقة أن الكتاب مزور كـكل ، بأن الجزء الخاص بـ « يانج تشو » ربما تضمن موادا أصلية كانت موجودة من تاريخ أسبق ؛ ويشيرون الى أنه يحتوى نوع الأشياء التى يمكن أن نتوقع أن يكون يانج قد ذكرها ٠ وهذه مسألة صعبة ٠ وهذه الفقرات من « ليه تزو » لايمكن أن تكون شيئا أكثر من محاولات متقـــدمة لاعادة صياغة نوع من العبارات التى ربما كتبها يانج تشو ، ونوع من الآراء التى نشـأت عنها مبادىء الفكر الطاوى ، ومهما كانت أصــــولها فهى هـامة ٠ ويذكر لنا كتاب « ليه تزو » مايلى :

« قال يانج تشو : لا يعيش انسان أكثر من مائة سنة ولايعيش ذلك العمر المديد أكثر من واحد فى الألف ، وحتى هذا الواحد يقضى حياته كطفل لا حول له أو كرجل عجوز ضعيف الفهم ٠ وماتبقى من ذلك العمر يقضى نصفه فى النوم أو فى ضياع خلال اليوم ، وماتبقى يبتلى فيه بالمرض والسقم والحزن والمرارة والموت والخســائر والهم

(٤) « هيو آى نان تزو » : ١٣/٨٧ ٠

والخوف . وفى عشر سنوات أو أكثر يندر أن تمر به ساعة يحس فيها أنه فى سلام مع نفسه ومع العالم ، دون أن ينال منه القلق .

« ما قيمة حياة الانسان ؟ وما هى المباهج التى فيها ؟ هل هى للجمال والثروة ؟ هل هى وقف على الصوت واللون ؟ ولكن يحل وقت لا يحقق فيه الجمال والثروة على الاطلاق متطلبات القلب وتصبح فيه تخمة الصوت واللون مجرد اجهاد للعيون وطنين فى الآذان .

« هل نعيش اليوم لأننا مرة يرعبنا الخضوع لارهاب القانون وعقوباته ، ومرة نحث على العمل بجنون وراء وعد بمكافأة أو ذيوع صيت ؟ اننا نبدد أنفسنا فى زحف جنونى سعيا وراء انتزاع المديح الأجوف لساعة ، مخططين ومدبرين بطريقة ما أن بعض البقية من الشهرة تبقى بعد موتنا . اننا نتحرك خلال العالم فى أخدود ضيق وتشغل بالنا الأمور التافهة التى نسمعها ونراها ، ونطيل التفكير فى أوهامنا ونمر بأفراح الحياة دون أن نتعرف أننا قد فاتنا شىء ولا نتذوق حتى للحظة واحدة مذاق خمر الحرية . نحن بحق مسجونون كما لو كنا راقدين فى غياهب السجن مكبلين بالأغلال .

« كان الناس فى الماضى يعرفون أن الحياة تأتى بدون انذار وتولى بنفس السرعة . كانوا لا ينكرون شيئا من ميولهم الطبيعية ولا يكبحون جماح أى من رغباتهم الجسدية . لم يحسوا قط بالرغبة فى الشهرة . كانوا يهيمون فى الحياة متمتعين بما فيها من مباهج كلما حركهم محرك . ونظرا لأنهم لم يهتموا بالشهرة بعد الموت ، لذا كانوا فوق القانون . ولم يهتموا على الاطلاق لا بالشهرة والمديح عاجلا كان أو آجلا ، ولا بالحياة طالت هى أم قصرت » .

« وقال يانج تشو : فى الحياة تختلف الكائنات ، ولكن عند الوفاة كلها سواء . وهم على قيد الحياة : حكماء أو حمقى ، نبلاء أو وضيعو الأصل ، فاذا ماتوا فكلهم جميعا سواء : نتنون ، عفنون

متحللون وزائلون ٠٠ ومن ثم فان الأشياء العديدة متساوية عند ميلادها ، وتصبح متساوية أيضا عند وفاتها ٠ كلها متساوية فى حكمتها ومتساوية فى حماقتها ، متساوية فى نبلها ، متساوية فى حطتها ٠ انسان يعيش عشر سنوات وآخر مائة ولكن كلاهما يموت والحكيم المحب للخير يموت تماما كما يموت الأحمق الشرير : وكان « ياو » و « شون » فى حياتهما (ملكين حكيمين) فلما ماتا لم يكونا سوى عظام نخرة ٠ وكان « تشيه» و « تشو » فى حياتهما (طاغيين قاسيين) فلما ماتا لم يكونا سوى عظام نخرة ٠ والعظام النخرة كلها سواء ، من يستطيع أن يفرق بينها ؟ ومن ثم فعلينا أن نستفيد أعظم فائدة من هذه اللحظات المتبقية لنا فى حياتنا ٠ ليس لدينا من الوقت لنفكر فيما يأتى بعد الموت ٠ » (٥)

ليست هذه الأفكار بالأفكار الفريدة اذ من المحتمل أن نجد ما يماثلها فى كل أدب ، وأخيرا فهى تقتصر فى حقيقة أن الانسان يولد فى عالم لم يصنعه ولا يفهمه فهما كاملا على الاطلاق ، وحياته مقيدة بالواجبات وتزعجها المخاوف ، ويحيل نفسه أكثر بؤسا بأن يطالب نفسه وذهنه بانجازاتهما عاجزان بطبيعتهما عن انجازها، وفى رسالة بعثبها القاضى أوليفرويندلهولمز Oliver Wendell Holmes الى صديق له ، كتب بعض الملاحظات التى تتشابه تشابها كبيرا مع ملاحظات يانج تشو ، وقد اختتم رسالته بهذا الخاطر : «انى لأعجب. من الناحيـــة الكونية ، ان كانت هنـــاك ظاهرة أكثر أهمية من الأحشاء ٠ » (٦)

والوصايا الايجابية لمثل هذه الفلسفة هى بوجه عام ألا نقلق

---

(٥) « ليه ترو » ١/٧ ب ــ ١٢ ٠

(٦) هاو : « رسائل هولمز ــ بولك Holmes-Pollock » ج ٢ ص ٢٢ ٠

بل نتقبل الحياة كما هى ولا نجعل الطموح الحاد يغوينا وأن ننعم وتتمتع ما أمكننا بالكثير من حياتنا يوما بعد يوم • وقد يكون هناك اعتراض على أن هـذه ليست بفلسفة مجيدة ولكنهـا على أية حال مناسبة وما لم يحققها المرء لدرجة ما ، فمن المحتمل أن يتسبب ذلك فى ظهور قروح معدية •

وفلسفة يانج تشو فلسفة لها أهميتها ، وتشبه الفلسفة الطاوية ومع ذلك ينقصها عنصر من عناصر الطاوية ، وهذا هو أهم عنصر فيها كلها •

وقبل أن نناقش الطاوية ذاتها ، يجب أن نفكر فى مشكلة كيف نستطيع أن ندرس أى شىء قاطع أو ثقة عن الطاوية الأولى • وليس هذا بالأمر السهل ، فالموضوع موضوع معقد اختلف فيه العلماء طويلا وكان الخلاف بينهم مريرا أحيانا • والمتفق عليه بوجـه عام أن أقدم الأعمال الطاوية هى كتابا « لاو تزو Lao Tzü » و« تشوانج تزو Chuang Tzü » • وكل ما جاء فيهما متفق عليه بوجه عام •

والمتواتر أنه من المعتقد أن كتاب « لاوتزو » قد كتبه شخص يدعى « لاو تزو » وهـذا الأسـم يمكن ترجمته بـ(المعلم العتيق) • ويعزى الى لاو تزو أنه يكاد يكون أقدم معاصر لكنفوشيوس ، وكان أمينا للمحفوظات فى العاصمة • والمفروض أن كنفوشيوس قد التقى به هناك فى لقاء مشهود يبدو أنه كان لقاء خياليا •

وهناك قلة قليلة من العلماء الناقدين لم يعودوا يؤمنون بأن لاوتزو ، اذا كان هناك شخص بهذا الاسم ، كان يعيش فى الفترة التى كان يعيش فيها كنفوشيوس • وهناك دليل دامغ يدحض وجهة النظر هـذه : اذ لم يرد ذكر عن «لاوترو » فى أى كتاب حتى الى وقت متأخر جدا • ويشير كتاب « لاوتزو »باستمرار الى أفكار لم تكن معروفة فى عصر كنفوشيوس ولم تعد شـائعة حتى وقت أكثر

تأخراً . وقد حاول مختلف العلماء أن يقرروا أن « لاو تزو » كان يعيش فى وقت متأخر بعض الشيء ولكن ، لو كان هناك مثل هذا الشخص ، فيبدو من المؤكد تماما أنه لا هو ولا أى فرد آخر قد كتب كتاب « لاوتزو » كاملا . ومن ثم فاننا سنسقط من حسابنا مشكلة الرجل ، لو كان هناك مثل هذا الرجل المعروف باسم « لاو تزو » لأنه أمر لا طائل تحته ، وبدلا من هذا سنتناول الكتاب .

وكتاب « لاو تزو » معروف أيضا باسم « طاوتى تشنج Tao Tê Ching » ويمكن ترجمة هذا الاسم الى « دستور الطريق والفضيلة » وهذا كتاب صغير يتألف من حوالى خمسة آلاف كلمة . وهو كتاب شائق وهام ، وهو كتاب صعب جدا كتب بأسلوب محكم ، كثيرا ما يبدو غامضا عن قصد ، وكثيرا ما ترجم ، واذا ما وازن المرء بين مختلف الترجمات فانه يكاد يكون من المستحيل فى بعض الأحيان أن يصدق أن مختلف الترجمات نقلت أساسا عن نفس النص ، وهو فى بعض الأحيان كتاب يبعث على السخط ، فمن ناحية لأنه فى مختلف الأجزاء يدافع عن : مختلف الآراء وأحيانا الآراء المتناقضة . لقد سبق أن أوضحنا أن أجزاء مختلفة من الكتاب تستخدم مختلف الأوزان لنفس الكلمات وتستخدم مختلف الاستعمالات فى قواعد اللغة . وواضح أنه عمل مشترك كتب أجزاءه أكثر من شخص واحد ، وحددت له تواريخ عديدة تتراوح بين وجهة النظر التقليدية القائلة بأنه كتب فى وقت مبكر لعصر كنفوشيوس ، وبين الآراء القائلة بأنه كتب جميعه فى عهد متأخر يرجع الى القرن الثانى ق . م . ، وأنا شخصيا أعتقد أنه لا يمكن أن يكون قد كتب قبل القرن الرابع ق . م .

واذا انتقلنا الى الشخص المدعو « تشوانج تزو » (الأستاذ تشوانج) يبدو أننا نقف على أرض أكثر صلابة الى حد ما . لقد قيل انه ولد فى مكان فى الصين الوسطى وهى الآن فى ولاية هونان Honan ، وكان يتقلد هناك منصبا اداريا صغيرا . ومن

المحتمل أن يكون قد توفي بعد سنة ٣٠٠ ق٠م بوقت قصير ٠اننا لا نعلم الا القليل عن حياته ولا يعدو أكثر من بعض ما ورد من أقاصيص تكاد تكون غامضة ٠ ويحدثنا كتاب « تشوانج تزو » أن حاكم ولاية تشو الجنوبية قد بعث برسل مزودين بهدايا ثمينة الى تشوانج تزو ليقنعوه ليصبح رئيســا لوزرائه ، ولكن تشوانج تزو لم يتقبل أية هدية منها ٠ (٧)

واذا انتقلنا من « تشوانج تزو » الرجل الى الكتاب المسمى « تشوانج تزو » نجد هناك خلطا كبيرا ٠ ويبدو أن معظـم العلمـاء يعتقدون أن « تشوانج تزو » لم يكتب كل الكتاب ، ولكنه لم يستقر الرأى ، على أية حال ، عن أى الاجزاء كتبها وأى الاجزاء كتبها غيره٠ ويظن بعض العلماء أنهم اكتشفوا تعدد المؤلفين حتى داخل الفصول الفردية ، ونجد هنا ، كما هى الحال فى « لاوتزو » ، وجهات نظر فى صراع ، ويؤمن بعض العلماء بأن هذا النص ربما لم يكن قد بلغ صورته الراهنة حتى وقت متأخر يرجع الى القرن الثانى ق٠م ٠

واذن فهناك جانب من الحق، وراء القول بأن « لاوتزو » الرجل أو « تشوانج تزو » الرجل قد ذكر كذا وكذا من العبارات لأنـه يبدو أنه يكاد يكون من المستحيل أن تكون متأكدا من أن أية عبارة خاصة قد ذكرها أى من هذين الفردين ٠ وأسلم طريق هو القول بأن كتـاب « لاو تزو » أو كتاب « تشوانج تزو » قـد أورد هذه العبارات ٠

وفى الطاوية المتقدمة ، كما نجد ذلك ممثلا فى كتابى « تشوانج تزو » و « لاوتزو » تواجهنا نفس خيبة الأمل ، ولا نقول الاشمئزاز ، بالحياة البشرية كما يحياها الناس بصورة مألوفة كما شهدناهـا فى أفكار « يانج تشو » ٠ وفى كتاب « تشوانج تزو » نقرأ ما يلى :

---

(٧) ليجى : « كتابات كوانج ـ زى » ج ١ ، ص ٣٩٠ ٠

« انك تكدح طوال حياتك كلها ولكن لاترى نتيجة على الاطلاق وتنهك قواك تماما من العناء ولكن ليست لديك فكرة عما تؤدى اليه ـ أليس هذا أمرا يدعو للرثاء ؟ هناك أولئك الذين يقولون « انه ليس موتا» ولكن ما الخير من وراء ذلك ؟ واذا ما تحلل الجسد ، يذهب معه العقل ـ أليس هذا أمرا يرثى له تماما ؟ » (٨) .

ومع ذلك فان مثل هذه الفقرات المتشائمة نادرة ، لأن الطاويين اكتشفوا أن الطبيعة قد أدهشتهم وسحرتهم . ويتساءل تشوانج تزو :

« هل تدور السموات ؟ هل الأرض مستقرة ؟ هل الشمس والقمر يعترضان على وضعهما ؟ من لديه الوقت ليبقى عليهما متحركين ؟ هل هناك جهاز آلى يعمل على استمرار تحركهما ذاتيا ؟ أم أنهما يستمران فى الدوران بصورة حتمية بمحض قصورهما الذاتى ؟

« هل السحب تسبب المطر ؟ أم أن المطر هو الذى يكون السحب ؟ ما الذى يجعله ينهمر بغزارة ؟ من لديه الفرصة السانحة ليكرس نفسه ، بمثل هذا التفرغ الكامل ، ليتيح لهذه الاشياء أن تحدث ؟ » (٩) .

ويتطلع الطاويون الى الطبيعة بعينى الطفل المبتهج ويجدون أن « كل منظر يبعث على السرور ، وأن الانسان وحده هو الحقير » ولما

---

(٨) ليجى : « كتابات كوانج ـ زى » : ج ١/١٨٠ .
(٩) المرجع السابق : ج ١/٣٤٥ .

وجدوا أن عالم الرجال كريه ، لذا فقد نصحوا بأن ينبذه الانسان ومن ثم فاننا نجد غالبا بين الرجال الذين يظهرون فى المؤلفات الطاوية كثيرين من : النساك والصيادين أو الفلاحين الذين يعيشون وحدهم فى صحبة الطبيعة .

وفى الآراء المعزوة الى يانج تشو فى كتاب « ليه تزو » نجد قدرا كبيرا من الاهتمام بالموت . وقد احتلت مسألة طلب طول العمر والخلود مكانا مرموقا فى تاريخ الطاوية . وأدى البحث عن أكسير الحياة الى تطوير الكيمياء الطاوية تطويرا كبيرا . ويبدو أن من المسائل المعروضة للبحث هى مسألة هل كانت الرغبة فى الخلود لها دخل فى أسمى صورة من صور الفلسفة الطاوية الباكرة .

على أية حال نستطيع أيضا أن نميز اتجاها مختلفا تماما . ويسلم هذا اللون من التفكير الطاوى ، أنه من المؤكد ، أن المرء يجب أن يموت ، واذا ما مات الفرد فسينعدم هذا الشعور ، هذا « الأنا I » المتحمس اللجوج . ولكن ماذا فى ذلك ؟ الوعى مرض وشر على أية حال . هل يختلف العالم تماما اذا لم يكن هناك «الأنا» ؟ كلا على الاطلاق !

وهكذا يحدثنا تشوانج تزو : «العالم وحدة من كافة الأشياء . ولو أدرك المرء مرة ذاتيته مع هذه الوحدة ، اذن فلن تعنيه أجزاء جسده أكثر مما تعنيه : القذارة والموت والحياة والبداية والنهاية ، ولن يعكر صفوهدوئه أكثر من تعاقب الليل والنهار . » (١٠) وطبقا لـ «لاوتزو» فان طول العمر الحقيقى يتمثل فى حقيقة أنه « برغم أن المرء يموت الا أنه لا يفقد » من الكون . (١١)

ثم ان الفيلسوف الطاوى ، لم يستسلم فحسب لمثل هذه

---

(١٠) ليجى : « كتابات كوانج ـ زى » : ج ٢/٤٨ .
(١١) « لاوتزو » الفصل ٣٣ .

العمليات الكونية التى تتضمن موت الفرد بل كان يجد متعة فى تأملها ، وفى أن يدمج ذاتيته فى العملية الكونية الضخمة · ويقول تشوانج تزو انه فى تحمله لتغيراتها الكثيرة يحس « بفرحة لا تقدر · » (١٢) وتقول شخصية فى نفس الكتاب :

« لو أن ساعدى الأيسر قد استحال الى ديك لاستخدمته لأعرف وقت الفجر ، ولو أن ساعدى الأيمن صار قوسا لاستخدمته فى صيد طائر لأشويه ، ولو أن اليتى استحالتا الى عجلات وروحى الى جواد ، اذن لركبت ، فأية مركبة أخرى سأكون فى حاجة اليها ؟

« واذا ما حلت الحياة فمرد ذلك الى أن الوقت قد حان لها أن تفعل ذلك ، واذا ما ولت الحياة فهذه نتيجة طبيعية للأحداث · وتقبل كل الأشياء التى تحدث فى تمام وقتها ، فى هدوء ، والعيش فى سلام مع التعاقب الطبيعى للأحداث ، لهو أمر لا يتطاول على تعكير صفوه حزن أو فرح · هذا هو حال أولئك الذين اسماهم القدماء « المتحررين من العبودية » (١٣) ·

والطاوية كما أوضحها ماسبيرو Maspero بوضوح تام ،(١٤) فلسفة صوفية · انها صوفية طبيعية nature mysticism وقد تبدو الطاوية ، وسط مدننا ، هراء تاما ، ولكن اخرج الى الطبيعة والأشجار والطيور والمناظر النائية وهدوء المنظر الحلوى فى الصيف

---

(١٢) ليجى : « كتابات كوانج – زى » ج ١/٢٤٣ ·
(١٣) المرجع السابق : ج ١/٢٤٨ ·
(١٤) ماسبيرو : « الطاوية » ص ص ٢٢٧ – ٤٢ ·

أو غضب العاصفة العنيف ، تجد أن للطاوية ثبوتا أقوى من أشد المنطق تعقيدا •

والمتصوفون المسيحيون والمسلمون ينشدون التقرب والوصول الى الله ، أما الطاوية فتنشد أن تكون جزءا لا يتجزأ من الطبيعة التى يطلقون عليها اسم « طاو tao » •

لقد رأينا ، قبل عصر كنفوشيوس ، أن كلمة « طاو tao » كانت تعنى عادة طريقا وأسلوب عمل ، وقد استخدمها كنفوشيوس كمفهوم فلسفى يعنى الطريق الصحيح للعمل ـ أخلاقيا واجتماعيا وسياسيا ، ومع ذلك لم تكن الـ (طاو) فى نظر كنفوشيوس مفهوما ميتافيزيقيا (١٥) ، أما فى نظر الطاويين فقد صارت ذات مفهوم واحد • فلقد استخدموا كلمة (طاو) لتعنى الأشياء فى مجموعها لما يطلق عليه الفلاسفة الغربيون « المطلق the absolute » • وكانت الطاو مادة أساسية تصنع منها كل الأشياء • لقد كانت بسيطة لا شكل لها ، لا حاجة بها الى مكابدة ، لا تستلزم جهدا فى طلبها ، تشيع الرضا السامى • لقد خلقت قبل السماء والأرض • وفى خلال تولد الأشياء والأنظمة كلما ابتعد الانسان عن هذه الحالة البدائية يقل ما فيه من الخير وتقل سعادته • وفى هذا يقول لاوتزو :

الطاو مثلها كوعاء ، رغم أنه فارغ ،
يمكن أن يسحب منه بلا نهاية
وليس فى حاجة قط لأن يملأ •
وهى عظيمة جدا وبالغة العمق
حتى ليبدو أنها أقدم من كافة الأشياء •

---

(١٥) انظر كريل : « كنفوشيوس : الرجل والأسطورة » ص ص ١٣٢ ـ ٢٣ •

اذا ما انغمس فيها أحد طرف صار ناعما ٠
وأصعب مشكلة تحل
وأقوى ضوء ساطع ينتشر
وأشد المشكلات تعقيدا تستحيل الى أمور بسيطة ٠
انها في سكونها كالخلود نفسه ٠
انني لا أعرف وليدة من هي ٠ (١٦)

ويجب أن نذكر أن « لاوتزو » معروف أيضا على أنه « طاو تي تشنج Tao Tê Ching » ٠ لقد عرفنا معنى كلمة « طاو tao » ولكن ماذا تعنيه « تي Tê» هنا ؟ حيثما تعني هذه الكلمة « الفضيلة » بالمعنى الكنفوشيوسي ؛ يذمها الطاويون ؛ ولكن حيثما يستعمل الطاويون هذا الاصطلاح فهو يشير الى الصفات أو الفضائل الطبيعية والغريزية البدائية التي تقابل تلك الفضائل التي يوصي بها الضمان الاجتماعي social sanction والتربية ٠

وفكرة أن ما هو بدائي فهو أيضا خير قد لقيت اعجاب أناس من أمم عديدة ومن عصور مختلفة ،ونحن نقصد بطبيعة الحال «روسو Rousseau » ولكن حتى أفلاطون Plato في كتابه « القوانين » تحدث عن الأشخاص البدائيين بكلمات مماثلة بصورة واضحة لتلك الكلمات التي ذكرها الطاويون مؤكدا أنه لا يوجد بينهم أغنياء ولا فقراء وأن « المجتمع الذي لا يوجد به فقر ولا غني سيظل دائما متمسكا بأنبل المبادىء ، فلا يوجد به صلف ولا ظلم ولا توجد به أية منازعات أو أحقاد ٠ ولذا فهم خيرون ، وهم كذلك لأنهم كانوا ما ندعوهم بسطاء العقول ، وعندما أحيطوا علما بالخير والشر كانوا

(١٦) لاوتزو : الفصل ٤ ٠

فى بساطتهم يؤمنون بأن ما سمعوه هو منتهى الصـــدق وكانوا يمارسونه » (١٧) .

والمثل الأعلى للطاوية هو البساطة ، والهدف هو العودة الى الـ (طاو) . ولـكن كيف يستطيع الفـــرد أن يحقق ذلك ؟ يقول لاو تزو :

« يأتى الى الوجود عشرة آلاف شيء
وقد شهدتها تعود
لا يهم كيف تنتعش انتعاشا بالغا
كل شيء يجب أن يعود الى أصله الذى صدر عنه
هذه العودة الى الأصل تسمى الهدوء ؛
هى تحقيق لمصير فرد .
وأن يحقق كل شخص مصيره لهو النمط الأبدى
واذا عرفت النمط الأبدى فقد استنرت
ومن يعرفه لن تعصف به الكوارث ولن توهنه
ومن يعرف النمط الأبدى فهو محصن من كل ناحية
والمحصن من كل ناحية هو عادل تماما
واذا كان عادلا فهو ملك
ومن كان ملكا فهو كالسماء
واذا كان كالسماء فهو متمش مع الطاو
واذا كان متمشيا مع الطاو فهو مثلها لا يفنى ،
وبرغم أن جسده قد يختفى فى خضم محيط الوجود ،
فهو بعيد عن كل أذى . (١٨)

---

(١٧) أفلاطون : « القوانين » ص ٦٧٩ .
(١٨) لاوتزو : الفصل ١٦ .

والمبدأ الأساسى للطاوية هو أن المرء يجب أن يكون على وئام مع القوانين الأساسية للكون لا أن يكون ثائرا عليها . ان كافة الدساتير المصطنعة وكافة المكابدات خاطئة ، واذا كانت كافة المكابدات خاطئة فهذا لا يعنى أن كل نشاط خاطىء ، ولكن بذل الجهد وراء ما يتجاوز طاقتنا خطأ ، ويقول تشوانج تزو : « أولئك الذين يدركون ظروف الحياة لا ينشدون أن يفعلوا ما لا تستطيع الحياة أن تنجزه . وأولئك الذين يدركون ظروف المصير لاينشدون لذلك ما هو بعيد عن منال المعرفة . » (١٩)

ومن ثم فان بعد النظر والاتزان وصحة الفهم لما يمكن اجراؤه وما لا يمكن اجراؤه وما هو مناسب أو غير مناسب ، يعد أمرا جوهريا . وفى هذا الخصوص ، من الأمور الهامة أن نعرف أن كافة الأمور نسبية relative . ويقول لنا لاو تزو « ولأن كل فرد يسلم بأن الجمال هو الجمال أمكننا أن نعرف فكرة القبح . » (٢٠) وبرغم أن العالم بأسره جد صغير بالنسبة للكون ، فقد أكد كتاب « تشوانج تزو » مع ذلك أن طرف الشعرة ليس بحال شيئا تافها . (٢١) ويقول نفس الكتاب :

« لو رقد المرء فى مكان رطب فسيستيقظ وهو يشعر بألم فى ظهره ويحس أنه شبه ميت ولكن هل هذا صحيح بالنسبة لثعبان ؟ لو حاول الناس أن يعيشوا فى الأشجار فقد تتملكهم الحيرة : ولكن هل هذا هو الحال بالنسبة للقردة ؟ من من الثلاثة يعرف المكان الصحيح للعيش فيه ؟ والناس يأكلون اللحم ، والغزال

(١٩) ليجى : « كتابات كوانج ــ زى » ج ٢ ص ١١ .
(٢٠) لاوتزو : الفصل ٢ .
(٢١) ليجى : « كتابات كوانج ــ زى » ج ١ ص ص ٣٧٤ ــ ٧٨ .

يأكل الكلأ ، والحريش (*) تحب أكل الثعابين ، والبوم والغربان تتلذذ بالفئران . هل أخبرتني ، مشـــكورا ، أى من هذه الأربع ذوقها سليم ؟ .. كان الناس يعتبرون « ماو تشيانج Mao Chiang » و « لى تشى Li Chi » أكثر النساء جاذبية ، ولكن عندما تشاهدهما الأسماك تغطس الى أعماق المياه ، وترتفع الطيور محلقة فى الهواء ويعدو الغزال . أى من هذه الأربع لها المستوى السليم للجمال؟»(٢٢)

وتطبق نفس هذه النسبية relativism على المشاكل الأخلاقية ومن ثم يقول كتاب « تشوانج تزو » :

« بالنسبة للصـــواب والخطأ ، ما هو « متمش مـع هـــذا النمط » وما « ليس متمشيا مع هـــذا النمط » : لو أن الصـــواب حقيقة صواب فلا داعى للجدال حول حقيقة أنه مختلف عن الخطأ واذا كان ما هو « متمش مع هذا النمط » فى الحقيقة « متمش مـع هذا النمط » فلماذا نجادل فى الطريقة التى يختلف فيها عما «ليس متمشيا مع هـــذا النمط ؟ » وبغض النظر عن مسألة هل الحجج المختلفة تتلاقى بالفعل أو لا تتلاقى ، فان علينا أن نعمل على تناسقها داخل الكون الكامل الشمول ونتركها تسير فى طريقها .(٢٣)

وتطبق هذه النسبية على نفس وجودنا ، ومن ثم نقرأ :«ستأتى اليقظة الكبرى يوما ما ، عندما ندرك أن الحياة ذاتها كانت حلمـا كبيرا . » (٢٤)

ولما لم يكن هناك شىء مؤكد ، فقد يكون من المضحك أن يصبح

(*) الاسم العلمى هو Centipede والمعنى الدارج لها هو : أم الاربع واربعين . (المترجم)

(٢٢) ليجى : « كتابات كوانج ــ زى » ج ١ ص ص ١٩١ ــ ٢ .

(٢٣) المرجع السابق : ج ١ ص ١٩٦ .

(٢٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٥ .

المرء مصرا تمام الاصرار على النجاح الذى جاهد المرء بحماسة جنونية لبلوغه • وفي الحقيقة اذا حاول فرد أن يبذل جهدا مرهقا ، فمن المؤكد أنه لن ينجح : « فالمرء الذى يقف على أطراف أصابعه لايقف راسخ القدمين ومن يخطو أطول الخطوات لايغطى غالبية الأرض»(٢٥) ويذكر لنا كتاب « لاو تزو » ما يلى :

« اذا أردت أن لا تسكب النبيذ ،
فلا تملأ الكأس أكثر مما ينبغى •
واذا أردت لنصلك أن يحتفظ بحده ،
فلا تحاول أن تتجاوز حدود المضاء •
واذا لم ترد أن يقتحم دارك اللصوص ،
فلا تملأه بالذهب والأحجار الكريمة ،
فالثراء والجاه والغطرسة تضيف الى الدمار ،
تماما كما لو أضفنا اثنين الى اثنين لكان الناتج أربعا •
واذا ما أديت عملك ووضعت أساس شهرتك ، انسحب !
هذا هو طريق السماء • (٢٦)

وفى تصوير مسألة أن الشخص الذى يحاول أن يجهد نفسه جهدا بالغا سيفشل ، يعلق كتاب « تشوانج تزو » قائلا : « ان رامى السهام الذى يرمى بسهامه نظير جائزة لا تعدو أكثر من طبق من الخزف سيعرض أحسن ما لديه من مهارة بلا اكتراث • امنحه مشبكا من النحاس اذا ما أصاب الهدف فانه سيصوب نحو هدفه فى

---

(٢٥) «لاوتزو» : الفصل ٢٤ •
(٢٦) المرجع السابق : الفصل ٩ •

حذر وأقل جودة ، وامنحه جائزة من ذهب فسترى أعضاءه متوترة وستتخلى عنه مهارته تماما . (٢٧)

لذا ، فان على المرء ألا يهتم بامتلاك الأشياء العرضية ولايحاول سوى أن يحقق المعرفة الذاتية والرضا الذاتى ، ولهذا يقول كتاب « لاوتزو » :

« من الحكمة أن نتفهم غيرنا ،
ولكن لكى تفهم نفسا من النفوس يجب أن تكون مستنيرا .
ومن يتغلب على غيره فهو قوى .
ولكن من يتغلب على نفسه فهو قدير . (٢٨)

ومرة أخرى :

من يمتلك أعظم الممتلكات
فهو الذى ستكون خسارته خسارة فادحة ،
ولكن من هو قانع فهو لا يصيبه أذى .
ان من عنده من الحكمة ما يكفى لحمله على التوقف عن هذا التملك ، بارادته
لهو الثابت .(٢٩)

وايضا :

ما من مصيبة أكبر من ألا يعرف المرء متى يكون عنده ما يكفيه
وما من نكبة أكثر ضررا من الرغبة فى امتلاك المزيد

---

(٢٧) ليجى : « كتابات كوانج — زى » ج ٢ ص ١٦ .
(٢٨) « لاوتزو » : الفصل ٣٣ .
(٢٩) المرجع السابق : الفصل ٤٤ .

فلو أن المرء خبر القناعة التامة مرة ،
فلن يرضى أبدا مرة أخرى عن القناعة بديلا ٠(٣٠)

ماذا سيفعل المرء اذن ؟ يقول الطاوى لا تفعل شيئا ٠ ويذكر لنا كتاب « تشوانج تزو » أن « عمليات السماء والأرض تسير فى أتم نظام ، ومع ذلك فهى لن تتكلم ٠ والفصول الأربعة تسير وفق قوانين واضحة ولكنها لا تناقشها ٠ والطبيعة كلها مرتبة وفق مبادىء دقيقة ولكنها لن تفسرها على الاطلاق ٠ والحكيم يخترق غموض نظام السماء والأرض ، ويدرك مبادىء الطبيعةومن ثم فالرجل الكامل لا يفعل شيئا والحكيم العظيم لا يبدع شيئا ، أعنى أنهما يتأملان الكون فحسب ٠ (٣١)

ووصية الطاويين المشهورة هى «لاتفعل شيئا wu wei » ولكن هل هذا يعنى فقط ألا تفعل شيئا على الاطلاق ؟ واضح أنه ليس ذلك هو المقصود بل المعنى هو ألا تفعل شيئا ليس طبيعيا أو تلقائيا٠ ان الشيء الهام هو ألا تجهد نفسك فى أية صورة ٠ لقد سبق أن عرفنا التشبيه برامى السهام الذى يصوب هدفه تصويبا سيئا عندما يجاهد ليفوز بعملة ذهبية ولكنه ينعم بالراحة وتظهر مهارته عندما لا تكون هناك أية نتيجة متوقعة من اصابته للهدف ٠ ويتضمن كتاب « تشوانج تزو » أيضا فقرة مشهورة جاء فيها أن جزار الملك ليانج كان يروى لسيده كيف نحر ثوراً ، فيقول انه فى بادىء الأمر لقى صعوبة كبيرة ولكن بعد سنوات من المران صار يؤديها أداء ، كما لو كان بالغريزة ، اذ « تتوقف حواسى ، وتعمل روحى كما تشاء » (٣٢)

(٣٠) ليجى : « كتابات كوانج — زى » : الفصل ٤٦ ٠
(٣١) المرجع السابق ج ٢ ص ص ٦٠ — ٦١ ٠
(٣٢) المرجع السابق : ج ١ ص ١٩٩ ٠

وهناك صور كثيرة فى كتب الطاوية عن حقيقة : أن اسمى مهارة تعمل على مستوى يكاد يكون لا شعوريا ، وأننا جميعا يمكننا أن نفكر فى صور من واقع تجربتنا الشخصية : فالمرء لا يمكن أن يتزحلق على الجليد أو يركب دراجة بمهارة حتى يقوم بحركات مختلفة ضرورية للمحافظة على توازنه دون أن يفكر أبدا فيها • وعلى المستوى الأكثر ثقافة ، فان الخبير يحس على الفور ، فى اللحظة التى يرى فيها شيئا فنيا ، هل هذا الشىء أصيل أو غير أصيل • وهو يفعل هذا لعدة أسباب، أهمها أنه سيكون قادرا على أن يحلل ويشرح لو أنه وجد الوقت • ولكن لو أن معرفته وخبرته لم يتيحا له القدرة على أن يحس على الفور بأن شيئا ما طيب أو ردىء ، فهو ليس حقا بخير •

والطاوية تؤكد هذه الخاصية اللاشعورية الوجدانية التلقائية • وقد يبدو أن هناك شكا بسيطا فى أن غالبية الناس تعيش الجانب الأكبر من حياتها فى مستوى من الادراك الواعى وأنهم قلقون على الدوام بالنسبة لما ينبغى عليهم أن يفعلوه فى الوقت الذى ينبغى عليهم فيه ألا يعيروا الأمر ، فعلا ، أى اهتمام ، وهذا هو أحد الاسباب التى تجعلنا نشغل الأطباء النفسيين بدرجة متزايدة• ويشير الطاويون مثلا الى أن الرجل المخمور اذا ما وقع له مكروه فهو أقل احتمالا بكثير من أن يصاب بسوء عن الرجل الرزين ، لأنه ليس فى حالة تماسك •

وهكذا من الواجب أن يكون طريق الفرد هو عدم بذل أى نشاط non action ، وأن يكون هادئا • ويذكر كتاب « لاو تزو » أن المرء يجب أن يقلل من حديثه قدر المستطاع ، وهذا هو الطريق الطبيعى ، بل ان السماء والأرض لا يمكن أن تثيرا عاصفة ممطرة أو اعصارا لمدة طويلة •(٣٣) وال (طاو) التى يمكن

(٣٣) « لاوتزو » : الفصل ٢٣ •

التحدث عنها ليست بال (طاو) الأبدية (٣٤) · وأولئك الذين على علم لا يتحدثون ، وأولئك الذين يتكلمون هم الذين لايعلمون(٣٥)

الكلمات الصادقة لا تكون منمقة ،
والكلمات المنمقة ليست صادقة
والرجل الصالح لا يجادل ،
وأولئك الذين يجادلون ليسوا بصالحين
والحكماء ليسوا بعلماء
والعلماء ليسوا بحكماء · (٣٦)

ومرة اخرى :

«اذا ما توقفنا عن العلم لا يواجهنا المزيد من المشاكل» · (٣٧) « تخلوا عن الحكمة وتخلصوا من الفطنة وسيصبح الناس أحسن حالا مائة مرة (٣٨) » ·

هو لا يغادر داره قط
ومع ذلك فهو على علم بالعالم بأسره
ولا يطل من نافذته
ومع ذلك يسبرغور « طريق السماء »
وفي الحقيقة كلما سافر الانسان الى مكان أبعد
كان أقل ادراكا

(٣٤) « لاوتزو » : الفصل ١ .
(٣٥) المرجع السابق : الفصل ٥٦ .
(٣٦) المرجع السابق : الفصل ٨١ .
(٣٧) المرجع السابق : الفصل ٢٠ .
(٣٨) المرجع السابق : الفصل ١٩ .

وهكذا : يعرف الحكيم دون أن يتحرى ...
ولا يفعل شيئا ومع ذلك ينجز كل شيء . (٣٩)

ويقول كتاب « تشوانج تزو » : « مضى وقت كانت فيه حكمة القدامى حكمة كاملة . متى ؟ لما لم يكونوا بعد شاعرين بوجود الأشياء ثم ، عرفوا أن هناك أشياء ولكنهم لم يحاولوا أن يميزوها . ثم ميزوا الأشياء ولكنهم لم يحاولوا أن يحكموا على أن بعضها «صواب» والآخر « خطأ » . وما أن ظهرت هذه الاحكام حتى انتقص من كمال ال (طاو) وظهر التعصب في الوجود . » (٤٠)

ولقد كان منطقيا تماما ، طبقا لوجهات نظر الطاوية التى سبق أن ذكرناها ، أن يعارض الطاويون الحرب . ويذكر كتاب «لاو تزو» أن الاسلحة هى نذير شر ، ولا تربى خيول الحرب الا فى ولاية قد تخلت عن الـ (طاو) (٤٣) والحكومة الجائرة عرضة للتشهير بهـا ويموت الناس جوعا لأن رؤساءهم ينهبون الكثير من الضرائب (٤٣) وكلما كثرت القوانين كلما تزايد عدد اللصوص وقطاع الطرق. (٤٤) وأقصى عقوبة لا قيمة لها . « فالناس لا يخشون الموت . فما الفائدة اذن من محاولة تخويفهم من عقوبة الاعدام ؟ » وحتى اذا ما خافوا فمن هو الانسان البشرى الذى هو أهل لأن يعلن هذا الحكم الرهيب ضد اخوانه ؟ (٤٥)

---

(٣٩) « لاوتزو » : الفصل ٤٧ .
(٤٠) ليجى : « كتاب كوانج ــ زى » ج ١ ص ص ١٨٥ ــ ١٨٦ .
(٤١) «لاو تزو» : الفصل ٤٦ .
(٤٢) المرجع السابق : الفصل ٤٦ .
(٤٣) المرجع السابق : الفصل ٧٥ .
(٤٤) المرجع السابق : الفصل ٥٧ .
(٤٥) المرجع السابق : الفصل ٧٤ .

هذه فى الحقيقة وجهة نظر فوضوية ، وهناك عنصر قــوى من عناصر الفوضوية anarchism فى الطاوية فيقول كتاب « تشوانج تزو » : « لقد سمعت عن ترك العالم يسير وفق هواه ولكن لم أسمع عن حكم العالم بنجاح • » والفقرة التالية من كتاب «تشوانج تزو» توضح هذا الوضع وهى بمثابة نموذج طيب على مافى الكتاب من سرد فريد :

« لقد حدث أن التقت روح السحب ، في رحلتها الى الشرق على متن عاصفة رقيقة ، مع كايوس Chaos الذى كان يتجول فيما حوله ويصفع اليتيه ويقفز كالطير ، ودهشت روح السحب من هذا ، وكانت واقفة فى احترام وتساءلت : « سيدى المبجل ،من أنت ولماذا تفعل هذا ؟ » وبدون أن يتوقف عن صفع اليتيه والوثب كالطير أجاب كايوس : « اننى أقضى وقتا طيبـــا » فأجابت روح السحب : « أود أن أوجه اليك سؤالا • » فتطلع اليها كايوس وقال: « أف ! » فاستأنفت روح السحب حديثها قائلة : « ان هواء السماء بعيد عن التناسق ، وهواء الأرض محدود والمؤثرات الستة ليست علاقتها ببعضها البعض على ما يرام ، والفصول الأربعة تحدث بغير انتظام • والآن أريد تنسيق جوهر المؤثرات الستة حتى يمكن انعاش كافة الكائنات الحية ، فكيف يمكن أن يتم هذا ؟ » فكان كل ما عمله كايوس هو أن استمر فى صفع اليتيه والوثب كالطير ثم قال وهو يهز رأسه : « لا أعرف ، لا أعرف • »

ولم تكن لدى روح السحب فرصة لسؤاله مزيدا من الأسئلة فى تلك الآونة • ولكن بعد ذلك بثلاث سنوات عندما كانت مسافرة فى الشرق ، بينما كانت تمر بالبرارى فى « ســـونج Sung تصادف أن التقت ثانية ب « كايوس » • ولما كانت شديدة الفرح لذا فقد هرعت اليه وقالت : « هل نسيتنى أيتها السماء ؟ »وانحنت مرتين حتى لمس رأسها الأرض ثم طلبت بيــانا ، فقال كايوس :

« أنا أندفع هنا وهناك دون أن تكون لدى فكرة عما أنشده ، أتأثر فقط بدافع اللحظة ، وليست لدى فكرة عن وجهتى • اننى أتجول بلا هدف متطلعا الى كافة الأشياء بدون تعصب أو احتيال • أنى لى أن أعرف شيئا ؟ » فأجابت روح السحب : « اننى أعتبر نفسى أيضا كائنا يحركه دافع ، ومع ذلك فالناس يسيرون ورائى ،ويتخذنى الناس نموذجا لهم ، وليس لى حيلة فى ذلك ! أود أن أسألك ماينبغى على أن أفعله » فأجاب كابوس : « ان المبادىء الأساسية فى العالم لا تحترم ، ونظام الأشياء مقلوب ، وعمليات الطبيعة الغامضة فاشلة وقطعان الحيوانات متناثرة وتصيح الطيور كافة بالليل ، والنباتات والاشجار مصابة بالآفات • والضرر يبلغ حتى عالم الحشرات • كل هذا مرده ، للأسف ، الى خطأ السادة الحكام » فقالت روح السحب: « نعم ، اذن ماذا على أن أفعله ؟ » فقال كايوس : « وا أسفاه ، ان فكرة « العمل » هى التى تسبب المشكلة • توقفى ! » •

فقالت روح السحب : « لقد مر بى وقت عصيب وأنا أبحث عنك أيتها السماء » ثم استطردت : « وانى أقدر نصحك » فقال لها كايوس : « غذى ذهنك • ابق فى وضع لا تفعلى فيه شيئا • وستعنى الأمور بنفسها • أريحى جسدك • انفثى ذكاءك ، تناسى المبادىء والأشياء • ارم بنفسك الى خضم الوجود ، حررى ذهنك وحررى روحك ، هدئى نفسك هدوءا كهدوء من لا تدب فيه الحياة • كل الأشياء تعود الى أصلها دون أن نعرف أننا نفعل هذا • ونظرا لأنها تفتقر الى المعرفة فهى لن تتخلى مطلقا عن حالة البساطة البدائية ، ولكن لو أنها صارت مرة واعية لانتهى كل شىء ! لا تسألى أبدا عن أسماء الأشياء ولا تنشدى أن تتجسسى على أعمال طبيعتها ، وستنتعش كل الأشياء من تلقاء نفسها • »

فقالت روح السحب : «أيتها السماء لقد منحتنى سر قوتك ، وكشفت عنى الغموض ، لقد كنت أنشد كل هذا طوال حياتى ، وهو

اليوم ملك لى » وانحنت مرتين حتى لامس رأسها الأرض وودعت كايوس وتابعت سيرها • (٤٦)

ونتيجة هذا المظهر من الفلسفة الطاوية نتيجة سلبية : « لا تقلق » ، « لا تفعل شيئا وسينتهى كل شيء » ، وككل المتصوفين الصادقين ، قد وجد الفلاسفة الطاويون رضاهم في التجربة الصوفية ذاتها ، ولم يكونوا فى حاجة الى الأنشطة والمكافآت التى ينشدها الأشخاص العاديون ومن ثم نحاط علما بأن « تشوانج تزو » قد استدعى ليكون رئيسا للوزراء لدى الملك « تشو » ولكنه رفض بابتسامة ، تاركا اياه يفكر (٤٧) • ويذكر لنا كتاب « تشوانج تزو» انه بعد أن تثقف « ليه تزو » « قفل راجعا الى داره ولم يغادره لمدة ثلاث سنوات •• لم يكن يهتم بكل ما كان جاريا •• لقد صمد كما لو كان جلمود طين ، وتقوقع داخل نفسه رغم كل الملهيات ، واستمر هكذا حتى نهاية حياته • » (٤٨)

مثل هؤلاء الرجال يصورون العبارة التى تقول ان « الرجل الكامل لا يفعل شيئا ، والحكيم العظيم لا يبتدع شيئا ، فهما يتأملان الكون فحسب • » (٤٩) انهما يمثلان ما يمكن أن نطلق عليه الجانب التأملى من الطاوية • مثل هؤلاء المتصوفين الخلص نادرون ، وهناك شك فى أنه كان بين الطاويين الأولين كثيرون منهم •

ونتيجة الطاوية التأملية contemplative taoism واضحة : فالمرء يجب ألا يبالى بشيء بالنسبة للقوى العالمية وبالموقف الدولى ، أو بالأمزاد • يجب أن يتوجه المرء الى البرية للتعبد ، أو ،

---

(٤٦) ليجى : « كتابات كوانج ــ زى » : ج ١ ص‌ص ٣٠٠ ــ ٣٠٣ •
(٤٧) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٩٠ •
(٤٨) المرجع السابق : ج ١ ص‌ص ٢٦٥ ــ ٦ •
(٤٩) المرجع السابق : ج ٢ ص ص ٦٠ ــ ٦١ •

لو أن المرء بقي وسط الرجال فانه يجب عليه ألا يبالى بموقفهم تجاه نفسه ، ومن ثم يقول كتاب « لاوتزو » : « أولئك الذين يفهموننى أقلية قليلة ، ولهذا السبب فانا أكثر استحقاقا للتمجيد • ولهــذا السبب يرتدى الحكيم رداء من قماش خشن يخفى ما هو أثمن من أنفس درة داخل فؤاده • » (٥٠)

والآن جميل جدا أن نتحدث عن عدم المبالاة برأى العالم وعن عدم المجاهدة ، والتزام الهدوء ، وأن نظل قانعين بأحط وضع فى العالم وما الى ذلك ، ولكن الكائنات البشرية تمل هذا اللون من الأمور ، وغالبية الطاويين بشر ، ولا يهم الى أى مدى هم يحاولون ألا يكونوا كذلك • ومن ثم نجد فى كلماتهم عبارات مكررةمضمونها أن الحكيم الطاوى يفعل كل شىء فى الحقيقة بامتناعه عن عمل أى شىء ، وبضعفه التام يتغلب على القوى ، وبتواضعه التام يتمكن من حكم العالم • وليستهذه هى « التأملية » الطاوية ، لقد استحالت الى مظهر « هادف » •

وأول خطوة فى هذا التحول العجيب من المحتمل أن تكون آتية من الصوفية mysticism فال (الطـــاو) هى المطلق ، جمــــاع كل ماهو موجود totality of all that is • واذا اعتبر فرد نفسه مجرد جزء فيه فمن الواضح أنه لا يهمه ما يحل به ، ولا يمكنه الفكاك منه • وينشد المرء أن يصبح مستغرقا فى ال (طاو) ، ويخبرنا كتاب «لاو تز» :

« هذا ما يسمى الاستغراق الخفى
من خبره لا يمكن أن يعامل على أنه مقرب ،

---

(٥٠) «لاو تزو» : الفصل ٧٠ .

أو مزجور ،
لا يمكن أن يعان أو يضار ،
لا يمكن أن يمجد أو أن يحط من قدره
ولهذا يحتل المكان الأول بين كافة الكائنـــات البشرية فى
العالم ٠ » (٥١)

هذا هو التحول transition ٠ والفرد المستغرق فى ال (طاو) لا يمكن أن يضار لأنه لا يعرف الضرر ، والشخص الذى لا يمكن أن يضار ، شخص محصن ، ومن كان محصنا فهو أقوى من أولئك الذين قد يضرونه،ومن ثم فهو الرئيس وهو أقوى الكائنات البشرية٠ وهذا التحول الماهر يتم فى صور عديدة ، والحكيم الطاوى ليست له أطماع ، ولهذا لا يواجه فشلا ، ومن لا يفشل أبدا ينجح دائما ، ومن ينجح دائما فهو قوى تمام القوة ٠

وقوة الحكيم الطاوى ، فى الحقيقة ، أقوى من أقوى قوة يظن فى العادة أنها فى مستطاع الانسان ، لأنه ما دام قد فنى فى الطاوية فهو ال (طاو) ومن ثم يقارن بالسماء والأرض ويوصف بأن له نفس الخصائص التى تعد أساسية بالنسبة لل (طاو) ذاتها ٠

وتجدر الاشارة الى أنه على الرغم من أن هذا التدليل قد يبدو مضللا ، فان الشـــخص الذى يقتنع عادة بأنه « متفق مع ما هو سرمدى » وأنه مجرى لكافة قوى الكون ، لديه فرص عظيمة للثقة بالنفس وبالاتزان ٠ هذا يفوق بكثير طرائق الايحاء الذاتى التى‌تقول ذات الشخص لنفسه : «سأصبح يوما بعد يوم ،بكل وسيلة،أفضل وأفضل ٠ » وهكذا فان الشخص الطاوى المقتنع قد تكون له صفات

---

(٥١) « لاوتزو » : الفصل ٥٦ ٠

شخصية قد حسب حسابها جيدا لتؤثر على الآخرين وتؤكد لهم ماله من شخصية فريدة وحكيمة ٠

وتحدثنا المؤلفات الطاوية عن مختلف الحكماء القدامى والمعاصرين ، الذين رفضوا الوظيفة كرؤساء وزارة ورفضوا حتى ما عرض عليهم من عروش ، ولا بد أن نتوقع بطبيعة الحال أن يكون الطاوى أسمى من زهو الحكم المؤقت ٠ وعلى الرغم من ذلك نجدأيضا عددا من الفقرات التى خصصت لتخبرنا كيف أن الفرد يستطيع أن « يحكم العالم » ٠ وواضح تماما أن الطاويين كان لهم من البشرية ما يسمح لهم بالاشتراك فى التنافس الذى كان قائما بين مختلف الفلسفات وكانت كل واحدة منها قد أخذت على عاتقها تمهيد الطريق الى توحيد العالم الصينى فى صورة امبراطورية ٠ وقد يبدو أحيانا أن الطاوى قد يعمل كما لو كان رئيس وزراء لدى حاكم ، ولكن فى العادة يلعب الحكيم الطاوى نفسه دور الحاكم ٠

وقد كان طبيعيا بالنسبة للطاوى ، من الناحية البشرية ،أن تكون لديه الرغبة فى أن يكون حاكما ٠ لقد كان يعلم ما ينبغى للناس أن يفعلوه ليسعدوا ، فعليهم أن يظلوا فقط فى حالة سذاجة بدائية ٠ ولهذا يقول كتاب « لاوتزو » : « الحكيم فى حكمه يفرغ عقول الناس ويملأ بطونهم ويضعف من عزائمهم ويقوى عظامهم ٠ وهو يبقى دائما على الشعب جاهلا لا تحدوه أية رغبة ، فاذا ماوجد من أصابوا المعرفة فهو يحرص على جعلهم لا يقدمون على العمل ٠ وهو اذا ما أرغم الناس على ألا يعملوا يعم العالم النظام السليم»(٥٢) ونقرأ فى كتاب « تشوانج تزو » : « كان القدامى حقا ٠٠ يعتبرون العقوبات أداة للحكم ، لذاكانوا أحرارا فى توقيع عقوبة الاعدام»(٥٣)

---

(٥٢) « لاوتزو » : الفصل ٣ ٠

(٥٣) ليجى : « كتابات كوانج ـ زى » ج ١ ص ٢٤٠ ٠

وقد أبعدنا هذا كثيرا عن اصرار الطاوية على الحرية الفردية • فالحكيم الطاوى له حريته هنا فقط ، ومع ذلك فالحكيم يتحكم فى مصالح الناس ككل • ولكن هناك ما هو أسوأ : اذ تذكر لنا بعض الفقرات أن الحكيم رءوف ، ولكن فى فقرات أخرى نجد أن كلا من كتابى « لاو تزو » و « تشوانج تزو » يخبرانا بأن ال (طاو) وهى نموذجه ، أسمى من مثل هذه العاطفة • وفى كتاب « تشوانج تزو » نجد أن ال (طاو) تخاطب على هذا النحو : « مولاى ! مولاى ! أنت تحطم كل الأشياء ، ومع ذلك لست قاسيا ، أنت تفيد عشرة آلاف من الأجيال ومع ذلك لست محبا للخير • » (٥٤) ويقـــول كتاب «لاو تزو» : « الســــماء والأرض لا تميلان الى عمل الخــــير ، فهما تعاملان عشرة آلاف مخلوق بلا رحمة ، والحكيم ليس محبا للخير ، فهو يعامل الناس بلا رحمة • » (٥٥)

وهذا المفهوم ، اذا ما أسىء فهمه ، لقــادر فى الحقيقة على أن يؤدى الى نتائج مروعة : لأن الطاوى المستنير أسمى من الخير والشر وبالنسبة له فان هــــذه الكلمات مجرد كلمات يستخدمها الجهلاء والحمقى • فاذا ما لقيت هواه فقد يخرب مدينة ويذبح سكانها بانزال غضب مركز أشبه بغضب الاعصـــــار ، ولا يحس بمزيد من تأنيب الضمير أكثر مما تحس به الشمس المهيبة عندما تشرق على مشهد الخراب بعد العاصفة • وعلى أية حال فان كلا من الحياة والموت ، والولادة والفناء ، كلها أجزاء فى نظام كونى متناسق ، صـــــالح لأن له وجودا ، ولأنه هو ذاته موجود •

وفى هذا المفهوم للحكيم الطاوى ، تكون الطاوية قد أطلقت على البشرية ما يمكن أن يسمى بحق : وحشا • وهو بأى معيـــــار

---

(٥٤) ليجى : « كتابات كوانج ــ زى » ج ١ ص ٣٣٢ •
(٥٥) « لاوتزو » : الفصل ٥ •

من المعايير البشرية لا يمكن الوصول اليه ولا تحريكه ، ولا يمكن التأثير عليه بحب أو كراهية أو خوف أو أمل فى الكسب أو شفقة أو اعجاب • ومن حسن الطالع أن هذا المفهوم يندر أن يجسم ،ولكن مامن شك فى أن بعض الأباطرة الصينيين الأكثر استبدادا قد ألهمهم، ان لم يكن قد فتنهم ، هذا المثل الأعلى • انه من السخرية أن تصبح الطاوية مقترنة بالحكومة اقترانا شديدا ، وهى فى جذورها فوضوية تماما • ان هذه العلاقة عادية جدا حتى أن كتابا مشهورا ألف فى عهد أسرة هان يصف الطاوية بأنها « منهج الحاكم على عرشه » (٥٦)

وسنتناول فى فصل متأخر الفلسفة المعروفة باسم الشرعيـة Legalism التى اقترحت برنامجا للاستبدادية الديكتاتورية الصريحة• وقد يبدو أن هذا ـ وفى صور عديدة ـ متعارض تعارضـا تاما مع ما هو أهم شىء فى الطاوية • ومع ذلك فقد اتخذ القـانونيون الطاوية كأساس فلسفى لمبادئهم • ولكى يفعلوا هذا كان عليهم أن يتجاهلوا ذم الطاويين للحرب والظلم ، ولكنهم وجدوا الشىء الكثير فى المظهر « الهادف » ، لما كان عليه من فائدة كبيرة لهم •

كان الطاويون يذمون الكنفوشيوسيين صراحة • وكان هذا أمرا طبيعيا لأكثر من سبب ، ففى المقام الأول : من المحتمل أن كانت مدرسة الكنفوشيوسيين أكثر المدارس الفلسفية نجاحا فى الوقت الذى أخذت فيه الطاوية فى التطور ، وقد جعلهم هذا الأمر هدفا طبيعيا ، وفضلا عن ذلك فقد كان الى منفعة الشعب ـ وهو ماادعى الطاويون أنه لن يجلب الا الضر•وهكذا نجد أن آراء الكنفوشوسيين وكنفوشيوس وتلاميذه ، كانت باستمرار موضع استهزاء وهجوم• وهناك أسلوب آخر أكثر خبثا وهو توكيد أن كنفوشيوس قد تبرأ من الكنفوشيوسيين وتحول الى الطاوية ثم ينقلون بعض الهجوم على

---

(٥٦) وانج هسين تشين : « تشين هان شوبو تشو » ٣٠/٣٨ ا .

فلسفته ، المعزو اليه،فى اسهاب• وواضح تمام الوضوح أن هذه القصص خيالية ، وان كانت دعاية لها تأثيرها •

ويصعب على المرء أن يتخيل أن عالما يحكم بالفعل- أو لايحكم- وفقا لبرنامج وضعه الفلاسفة الطاويون قائم على عدم التدخل على الاطلاق • فاذا تخيله المرء ، فانه يفضل ألا يتخيله ، ولكن لعل هذا لم يكن نقدا صحيحا • ويبدو أمرا مشكوكا فيه أنهم كانوا يتوقعون فعلا أن يظن بهم أنهم جادون على طول الخط • لقد كانوا يهزءون ويعملون أعمالا استفزازية ، ومما لا شك فيه أنهم أدوا عملا جليلا • ولتوكيد ذلك : فان ما اقترحت تسميته بالجانب «الهادف» للفلسفة الطاوية يعد تفويضا بالاستبداد ، ولكن يبدو ، لحسن الطالع ، أن الصينيين بوجه عام يندر أن يكونوا قد نظروا الى هذا الجانب من الطاوية نظرة جادة تماما ، ولعلهم نظروا اليه بمقدار من الشك يتفق مع الشك الطاوى •

والطاويون مولعون بالمتناقضات • ومن التناقض أن هذه الفلسفة المناهضة تماما للكنفوشيوسية والمناهضة تماما للحكومة، وفى بعض الأساليب ، المناهضة تماما للديموقراطية ، قد اشتركت فى الحقيقة مع الكنفوشيوسية فى ارساء الجانب الأكبر من أسس الديموقراطية الاجتماعية والسياسية التى عرفتها الصين• واذا كانت الكنفوشيوسية قد أكدت قيمة الفرد وأهمية اعتباره هدفا وأنه لايمكن أن يعد وسيلة ، فقد أصرت الطاوية على حقه فى اعتبار أن روحه ملك له • وتوكيد الطاوية لوحدانية المرء man's oneness مع الطبيعة قد ألهم الفن الصينى ، ومنح الشعب الصينى قدرا كبيرا من الاتزان الذى سمح لثقافتهم أن تدوم • وبتوكيدها العظيم للحكم الذاتى الشخصى personal autonomy وبتشككها العالمى وبمبدئها النسبى لكافة القيم ، قد تعاونت بصورة لا يمكن حصرها فى تطور الفردية individualism وفى الاصرار على الوصول الى حلول موفقة ، وهى أمور تعد من بين أكثر عناصر الروح الصينية أهمية •

الفصل السابع

هسين تزو ومبدأ الحكومة التسلطية

كان كنفوشيوس في نواح متعددة فاشــــلا في حياته ، ولكن اسمه اليوم معروف في أرجاء العالم ، وكان للفيلسوف الكنفوشيوسى « هسين تزو Hsün Tzü » مصير على النقيض من ذلك : فقــــد كان في أيامه موظفا ، وكان مبجلا أسمى تبجيل باعتباره عالمــــا مشهورا ، وكان تأثيره على الصورة التى اتخذتها الكنفوشيوســية لنفسها في النهـــاية تأثيرا كبــــيرا ، وقـــد نعته « هومر هـ • دبز Homer H. Dubbs » نعتا يلائمه وهو « صائغ الكنفوشيوســية القديمة » ومع ذلك فلم يتمتع بحظوة سامية بين الكنفوشيوسيين وخاصة خلال الألف سنة الأخيرة • وخارج الصين نجد حتى أولئك الذين كانوا على علم باسم منشيوس ، كانوا غير متثبتين ممن كان هسين تزو •

لقد قيل أحيانا ان هذا القصور في زيادة التبجيل مرده الى حقيقة أن أعظم فيصل في الكنفوشيوسية الصحيحة الحديثة ، وهو « تشوهسى Chu Hsi » في القرن الثـــانى عشر ب • م ، قد ذم « هسين تزو» لأنه اختلف مع رأى منشيوس في أن الطبيعة البشرية خيرة • وهذا أمر هام ولكن ليست هذه هي القصة كاملة • وقد

جر هسين تزو على نفسه الى حد كبير زوال شهرته زوالا تاما بتضييقه حدود تفكيره تضييقا عجيبا ٠

ولم يكن هناك أى قصور في قوة تفكيره ، فقد كان هسين تزو ، رغم أنه بدون مؤهل ، واحدا من ألمع الفلاسفة الذين أنجبهم العالم حتى الآن ، ولكنه كان يفتقر الى الايمان بالبشرية ٠ وهذا العيب الشبيه بالضعف الخطير لبطل المأساة الاغريقية ، قد تفاقم حتى أحبط أحسن جهوده ٠ انه لم يصب شهرته فحسب بل فعل الكثير ليفرض على الكنفوشيوسية المتأخرة قيود المحافظة الأكاديمية academic orthodoxy .

ولقد ولد هسين تزو حوالى سنة ٣٠٠ ق٠م فى ولاية « تشاو Chao الشمالية الغربية ، ودرس الفلسفة فى ولاية تشى Ch'i حيث كرم تكريما ساميا بوصفه من العلماء ، وأسند اليه منصب فى البلاط ٠ وكان فى بلاط تشى ممثلون لفلسفات عديدة ، وكان من الطبيعى أن يتجادلوا حول مبادئهم ، ولعله ، نتيجة لذلك ، أثار هسين تزو عداوات وكان عليه أن يغادر تشى فى النهاية ٠

وكان قد عين قاضيا لاقليم تشو Ch'u الجنوبية ٠ ويبدو أنه عزل من هذا المنصب ولكن أعيد تعيينه فيه بعد ذلك ٠ وفى وقت ما زار ولاية تشاو مرة أخرى ، وهى الولاية التى نشأ فيها ، كما قام أيضا برحلة الى ولاية تشن Ch'in الغربية ، التى ما لبثت أن لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الصين٠وخلال الجزء الأخير من حياته قضى معظم وقته فى التدريس ــ وقد اشتهر اثنان من تلاميذه فى التاريخ الصينى وفى التأليف ٠ وما أن توفى رئيسه حتى طرد من وظيفته فى سنة ٢٣٧ ق٠م ٠ ونحن لا نعلم عن حياته أكثر من هذا ٠

وهناك كتاب يحمل اسمه ، وهو مصدرنا الرئيسى فى التعرف

على الفيلسوف • والمفروض أن يكون قد دونه بنفسه ، ولكن بعض أجزاء منه من الواضح أنه قد دونها تلاميذه • وتوضح الفصول الستة الأخيرة من الكتاب اختلافات بينة عن الباقى ، ومن المحتمل أن كان هناك جدال حول مسألة هل أضاف هذه الاضافات كنفوشيوسيو عهد أسرة هان Han • ويبدو فى أماكن أخرى من النص أنه قد دست حواش قصيرة •

ومن أهم الكتب الكنفوشيوسية الكلاسيكية كتاب « لى تشى Li Chi » أو « تسجيلات عن الطقوس » ويتضمن مقتطفات طويلة من نص مماثلة لأجزاء من كتاب هسين تزو • ويبدو أن هذه الفقرات قد نقلت ، من غير شك ، الى الكتاب الكلاسيكى نقلا عن كتاب فيلسوفنا • وهذا هو أحد المظاهر التي أثر فيها على الكنفوشيوسية تأثيرا كبيرا برغم أنه لم يقطع بأنه المؤلف للكتاب الكلاسيكى الذى ينقل عنه الشيء الكثير •

وكفيلسوف ، ربما كان هسين تزو أكثر اثارة للاهتمام وهو يناقش نظرية اللغة the theory of language • وهنا يبدو أنه فيلسوف حديث بصورة غريبة ، وهو يناقش المشاكل التى تحير الفلاسفة حتى اليوم : ما هى الكلمات ؟ وما هى المفاهيم ؟ وكيف تنشأ ولماذا يختلف الناس كثيرا حولها وفى استخدامها ؟ هذه مشاكل تواجهنا وكانت تشكل مشاكل كبيرة فى نظر هسين تزو •

لقد رأينا أنه كان هناك فى الصين القديمة فلاسفة عرفوا باسم « الجدليين dialecticians » شرحوا قضايا مثل « الجواد الأبيض ليس بجواد » وهناك مدارس أخرى استخدمت أيضا قضايا معقدة وأحيانا متناقضة فى محاولة لكسب عقول الرجال • ونظرا لأن هسين تزو كان زعيم الكنفوشيوسيين فى عصره ، لذا كان عليه أن يتصدى لمثل هذه المحاورات • لم يكن قانعا فحسب بمعالجة هذه

المشاكل واحدة واحدة ، ولكنه بدلا من ذلك كان ينشد التحرى عن نفس طبيعة اللغة ويضع القوانين لاستخدامها الاستخدام السليم ٠

وقد وضع هسين تزو عدة أسئلة حول اللغة وحاول أن يجيب عنها وكان أول سؤال أورده هو: «لماذا يطلق على كل الاشياء أسماء؟» وكان جوابه ، فى الحقيقة ، هو أن الاسماء كانت مطلوبة كوسيلة للحديث عن الأشياء ، والأمور ، وأنه قد اخترعها الناس ليفوا بهذه الحاجة ٠ ونحن فى حاجة الى أسماء ، كما يقول ، حتى نتمكن من تمييز الأشياء المتشابهة وتلك الأشياء المتباينة ، ولتمييز الأشياء التى هى أكثر أو أقل قيمة ٠

ولكى نعطى صورة مبسطة لهـــذا : قد لا يكون فى منتهى الوضوح أن نقول انه كان هناك « عشرة أشياء » فى حقل ؛ ولكن لو كان فى استطاعتنا أن نستخدم أسماء لنضعها فى مجموعـات طبقا لتشابهها أو لاختلافها قائلين ان هناك « خمس بقرات وثلاثة جياد وكلبين » قد يعنى هذا شيئا كثيرا ٠ وقد يتمادى المرء الى أبعد من هذا حتى يقوم بتصنيفها طبقا لتشابهها أو لاختلافها ، كأن يقول انه كانت هناك « بقرتان سوداوان وثلاث بقرات بنية » الخ ٠٠٠

وكان سؤال هسين تزو ، الثانى هو : « ما هو أساس التشابه والاختلاف ؟ » ولأول وهلة قد يبدو هذا سؤالا عجيبا أو حتى سؤالا أحمق ولكنه فى الحقيقة سؤال فى منتهى العمق ٠ لماذا الكلاب كلاب والجياد جياد ؟ ربما قال أفلاطون انها كذلك لأنها نسخ من الكلب المثـالى ، بنفس الطريقة التى قال فيها ان كل المكاكيك المستخدمة فى الغزل تفصل على نسق « المكوك الحقيقى أو المكوك المثالى » وهو نمط ميتافيزيقى لا يتغير ٠ وبالمثل يقول أفلاطون ان الاسرة والموائد هى كذلك لأنها نسخ من السرير المثـــــالى والمائدة المثالية ، وأن

«الأشياء الجميلة جميلة فقط لأنها «تشارك فى الجمال المطلق»(١)

وهذا نوع من مشكلة شغلت أذهان الفلاسفة ، خاصة فى الغرب لدرجـــة كبيرة : هل الكلاب فصـــيلة الداشهند dachshund (*) وسنت برنارد St. Bernard كلاب لأنها تبدو فى بعض الحـالات متشابهة وتتصرف تصرفا متشابها ، ومن ثم فتسهيلا للأمر نضعها فى مجموعة تحت اسم « كلب » ؟ أو أنها تتقاسم صفة غامضة من الصفات « الكلبية » لا يمكننا أن نحددها بحواسنا وحدها ؟

يقول علماء النفس لو أن شخصا كان ضريرا منذ ولادته ثم أنعم الله عليه فجأة بقــوة الابصار لرأى بالفعل نفس الأشياء التى يراها كل منا ، ولكنها فى بادىء الأمر لا تعنى شيئا تقريبا بالنسبة له . ومن ثم فان مجموعة من الكلاب والجياد ستبدو له فى بادىء الأمر على أنها مجرد سلسلة من اللطخ ، ولكن بعد تجارب متكررة، سيصبح متعودا عليها وسيكون «مفهوما » عن ما هو الكلب و«مفهوما» آخر عن ما هو الجواد . ومن ثم ، فانه اذا ما رأى كلبا آخر ، على الرغم من أنه ربما لم يكن مثل أى كلب سبق أن رآه من قبل ، فان ذهنه سيصنفه على الفور ويقول « هذا كلب » .

ان ما كان يريد هسين تزو أن يقوله عن هذا الموضوع هـــو ما يشبه تمام الشبه فى بعض الحالات اكتشافات علمـــاء النفس المحدثين . ويتساءل « ما هو أساس التشابه والاختلاف ؟ »ويجيب « شهادة الحواس the testimnoy of senses » . وليس هناك أى سؤال هنا عن أى شىء من هذه الأشياء مثل «المشاركة فى الجمال

---

(١) أفلاطون : «كراتيلوس Cratylus »: الجمهورية فصل ١٠ ص ٥٩٦ ، « فيدو Phaedo » ، ص ١٠٠ .

(*) فصيلة من الكلاب تتميز بجسدها الطويل وارجلها القصيرة . (المترجم)

المطلق partaking of absolute beauty » أو اية عملية ميتافيزيقية أخرى . وتعد الأشياء تابعة لنفس الطبقة أو الصنف كما يقول هسين تزو ، اذا أوضحت الحواس أنهـا متفقة مـع « الموضوع العقلى mental object » الذى كونه المرء ليمثـل تلك الطبقـة . وبمعنى آخر عندما أرى حيوانا يشبه الكلب أقارنه بمفهوم (« الموضـوع العقلى ») للكلب ، لكى أقرر أهو كلب أم ليس بكلب . (٢)

وقد أوضح هسين تزو تمام الوضوح أنه لا يؤمن بأن هناك أى شىء مفروض بصورة مقدسة بالنسبة للأسماء المطلقة على الأشياء وقال : « ليست الأسماء مناسبة بفطرتها للأشياء التى تدل عليها ، اذ قد اتفق الناس فقط على أنهم سيستخدمون أسماء معينة لتمييز أسماء معينة ، واذا ما استقر الرأى على اصطلاح مرة وصـار عرفا مرعيا قالوا ان الأسماء مناسبة ... ومع ذلك فهناك أسماء ليست صالحة بالفطرة . والأسماء اذا كانت بسيطة ومباشرة كان من السهل ادراكها ولا تدعو الى البلبلة ، ويمكن أن يقال عنها بحق انها أسماء صحيحة . » (٣)

وقد استخدم هسين تزو مختلف المبادىء التى وضعها فيما يتصل باللغة لتحليل القضايا المحيرة التى تثيرها الفلسفات المنافسة وهدمها . وقد قدم حجة ممتازة للاستخدام الجاد المستقيم للغـة غير منمقة ومباشرة للتعبير عن الآراء . ولكن لسوء الطالع فان كثيرين من الصينيين بل حتى من الكتاب الكنفوشيوسيين لم يهتموا كثيرا بعباراته (التى كانت بالنسبة لهذا الأمر متمشية تماما مع تعاليم كنفوشيوس) . وفى الأدب الصينى ، كما هو الحـال فى بعض الآداب الأخرى ، كان غموض التعبير يزيد فى قيمته أحيانا .

---

(٢) ديفنداك Duyvendak : « هسين تزو وتقويم الأسماء » ص ص ٢٢٨ — ٣٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٣٤ .

ومن أشهر مبادىء هسين تزو هو ما أثاره من جدل حول أن الطبيعة البشرية شريرة ، وهو المبدأ الذى عارض به نظرية منشيوس الذى ذهب الى أن الطبيعة البشرية خيرة • ولعل منشيوس قد استمد جانبا من رأيه من مشاهدته للفلاحين الصينيين الوديعين • وقد تأثر كثير من المشاهدين الحاليين بسلامة الأخلاق الجديرة بالاعتبار بين عامة الشعب الصينى بينما نجد ، من ناحية أخرى ، أن بعض الجنود القادمين من البلدان الاخرى وأقاموا فى الصين خلال الحرب العالمية الثانية ، وسرقت بعض ممتلكاتهم فى أشد أوقات الفاقة يأساء قد خلصوا الى أن الشعب الصينى غير أمين • فهذان الحكمان متفقان مع حكمى منشيوس وهسين ، وهما الحكمان اللذان توصلا اليهما أيضا تحت ظروف مختلفة الى حد ما •

وفضلا عن هذا ، فانه حتى من قبل عصر كنفوشيوس ، كان هناك فى كل جيل قدر كبير من التحرك الاجتماعى • وفى الأيام الأولى التى كان فيها النظام الطبقى شديد الوطأة ، ندر أن صار ابن الفلاح شيئا غير فلاح بل كان لا يكاد يحلم بأنه سيصبح كذلك • ولكن كنفوشيوس دافع عن التعليم العام ونادى بأن الانسان يمكن أن يرتفع حتى يصبح حاكما عن طريق الفضيلة والحكمة بغض النظر عن وضاعة أصله • وفضلا عن هذا فان النظام القديم الذى كان فيه الفلاحون فلاحين وكانوا يبجلون فى سكون الاريستوقراطيين الأمجاد ، قد بدأ يختفى حتى قبل ظهور كنفوشيوس • فلما تقدم الوقت صارت رعاية الجمهور عاملا فى استقرار قوة الموظفين والحكام ، ثم نجد أن أريستوقراطيين معينين قد صاروا ديماجوجيين وكانوا يقدمون هدايا وهبات للجمهور ومن ثم فازوا بالسلطة التى مكنتهم من أن يضطلعوا بعروش الولايات ، وفى نفس الوقت ارتفع أفراد من عامة الشعب الى مناصب رفيعة وصار كثير غيرهم يحسدونهم على نجاحهم •

وهناك عامل آخر ربما أثر على وجهة نظر هسين تزو فى الطبيعة البشرية وكان ذلك هو حقيقة أنه شهد اختلافا كبيرا فى الأنماط الثقافية ربما أكثر مما شهده منشيوس ' وكانت ولايته التى نبت فيها وهى ولاية « تشاو » متأثرة الى حد كبير بالبرابرة البدو القادمين من الشمال ، وهو لم يقض حياته فى ولاية تشى المثقفة نسبيا وحدها بل قضاها أيضا فى ولاية «تشو» فى الجنوب ، وكانت هى أيضا لها عاداتها الفريدة الخاصة بها • ولذلك يشير هسين تزو الى أنه فى الوقت الذى يصدر فيه عن الأطفال عند ولادتهم نفس الأصوات فى مختلف الأقاليم، فانهم يتعلمون كيف يتحدثون بصورة مختلفة تمام الاختلاف نتيجة للمران•وفضلا عن هذا يقول ان ولايتا « لو » و « تشن » بهما عادات متناقضة تناقضا شاسعا (٤) ، ومن ثم فلم يكن يصدق أن الناس قد ولدوا ولهم نمط واحد ، طبيعى « حسن » من السلوك •

ويبدأ هسين تزو فصله المشهور المعنون « طبيعة الانسان شريرة » على هذه الصورة :

« طبيعة الانسان شريرة وكل ما هو طيب فيه فهو نتيجة للمران الذى اكتسبه • يولد الناس وفيهم حب الكسب ، فاذا اتبعوا هذا الميل الطبيعى صاروا ميالين الى الخصام ونهمين ، ينقصهم تماما متانة الأخلاق وتقدير الغير، وهم ممتلئون منذ ولادتهم بالحقد والكراهية للغير ، واذا ترك العنان لهذه العواطف كانت عنيفة وشريرة ،خالية خلوا تاما من النزاهة والايمان الصادق • وعند الولادة يزود الانسان برغبات الأذن والعين : حب الصوت واللون ، فاذا فعل كما يمليان

---

(٤) لودين كريل : « مفهوم النظام الاجتماعى فى الكنفوشيوسية الأولى» ص ص ١٣٥ ـ ٦ ، وانج هسين ـ تشين : « هسين تزو تشى تشيه » ج ١/٢ .

عليه فهو متعد للحدود ومتمرد ، ولا يعير اعتبارا لد (لى) أو العدالة أو الاعتدال (وال (لى) كما نذكر ، كان الدستور الكنفوشيوسى للسلوك القويم) ٠

« وواضح اذن أنه مجاراة للطبيعة الأصلية للانســان والعمل وفقا لما تمليه الغريزة : لابد وأن يؤدى هذا الى النضال والجشـــع والتمرد، ويدفع بالبشرية الى الارتداد الىحالة العنف٠ ولهذا السبب كان من الضرورى أن يصلح الناس على يد المعلمين والقـــوانين وأن تهديهم ال (لى) أو العدالة ، وبعد هذا وحده سيصبحون مجاملين للناس ومتعاونين ، وبعد هذا وحده يمكن تنظيم الأمور ٠ ويتضح ، فى ضوء هذه الحقائق ، أن الطبيعة الأصلية للانسان شريرة ، ولن يصبح المرء خيرا الا عن طريق المران المكتسب ٠

« والخشب المقوس يجب أن يقوم بالبخار ويجبر على أن يتخذ وضعا مستقيما وذلك حتى يستقيم ، والنصل المثلم يجب أن يشحذ ليصير حادا ٠ وبالمثل لما كانت الطبيعة البشرية شريرة ، فيجب أن يؤثر عليها عن طريق المعلمين والقوانين لتقوم ويجب أنيضاف اليها ال (لى) والعدالة قبل أن يصبح الأشخاص قابلين للنظام ، وبدون المعلمين والقوانين يكون الناس أنانيين حقودين وأشرارا ٠ وبدون ال (لى) والعدالة يصبحون متمردين ثائرين ومخلين بالنظام ٠

وقديما لما عرف الملوك الحكماء هذا الأمر ، استنوا ال (لى) والعدالة وأصدروا القوانين والتعليمات ليفرضوا ويجملوا الأهداف البشرية للناس ٠ لقد جعلوهم مطيعين وهذبوهم حتىيمكن أن يكونوا على استعداد للانقياد ، ثم كانت هناك لأول مرة حكومة صـــالحة متمشية مع الطريق الصحيح (طاو) ٠ والآن نجد أن الأشخاص الذين أصلحهم المعلمون والقوانين،وصاروا على علم، وعملوا وفقا لد (لى) والعدالة ، هم السادة ، بينما أولئك الذين يطلقون العنان لميولهم الطبيعية قانعين فحسب بعمل ما يحلو لهم بغض النظر عن ال (لى)

والعدالة ، هم أناس قاصرو التفكير • وواضح فى ضوء هذه الحقائق أن الطبيعة البشرية للإنسان شريرة وأنها تصبح خيرة عن طريق المران المكتسب فحسب •

ويقول منشيوس ان حقيقة امكان تعلم الناس يبرهن على أن طبيعتهم الأصلية خيرة • ولكن ليست هذه هى القضـــية اذ أن منشيوس لم يدرك ادراكا صحيحا ما هى الطبيعة البشرية ، كما أنه لم يميز تمييزا سديدا بين الطبيعة الأصلية original nature والشخصية المكتسبة acquired character • وطبيعة الانسان هى ما حبته به السماء عند ولادته ؛ وهذا أمر لا يمكن تعلمه أو العمل له • وال (لى) والعدالة أمران ابتدعهما الحكماء • ويستطيع الناس أن يتعلموا من ال (لى) والعـــدالة بالدراســـة ويدمجوها فى شخصياتهم ببذل الجهود • وطبيعة الانسان هى ما لا يمكن اكتسابه بالدراسة أو ببذل الجهد بل هى أمر غريزى • ولكن كل شىء يمكن تعلمه والعمل له هو خلق مكتسب ، وهذا هو الخلاف بين الطبيعـة والخلق المكتسب •

ومن المتفق على أنه جزء من طبيعة المرء الأصـلية ، أن العين يمكن أن ترى والأذن يمكن أن تسمع ، وهذه ليست أمورا منفصلة عن العين والأذن نفسيهما ، كما أن قوى الابصار والسمع لا يمكن أن تعلم • ويقول منشيوس ان النـــاس كافة بطبيعتهم خيرون ، ويصبحون أشرارا فقط لأنهم يفقدون ويحطمون طبيعتهم الأصلية ، وقد كان مخطئا فى هذا ، لأنه لو كان هذا حقيقة ، لصارت هذه اذن القضية (نظرا لأن الناس فى الحقيقة لم يولدوا أخيارا) أنه حالما يولد شخص يكون بالفعل قد فقد ما كان مفروضا أن يكون طبيعته الأصلية • وفى ضوء هذه الحقائق يتضح أن الطبيعة الأصلية للانسان شريرة وانه يصبح خيرا فقط عن طريق المران المكتسب acquired training

وفكرة أن طبيعة الانسان البشرية خيرة يجب أن تعنى أن شخصيته ، بدون أى تغيير منذ حالتها البدائية الأولى ، حسنة وخيرة • واذا كانت هذه هى الحقيقة ، فان صفات كونها حسنة وخيرة تكون وثيقة الارتباط بشخصية الانسان وبذهنه كارتباط قوة الابصار وقوة السمع بعينيه وأذنيه ، ومع ذلك فطبيعة الانسان فى الحقيقة،هى عندما يكون جائعا فانه يريد أن يلتهم الطعام التهاما، واذا ما أحس ببرد يطلب الدفء واذا ما اشتغل طلب الراحة • وعلى الرغم من ذلك نشاهد أناسا جياعا يكبحون جماح أنفسهم فى حضور الطعام ويعطون الأولوية لمن هم أكبر منهم سنا • ونشاهد أولئك الذين يكدحون دون أن يستريحوا لأنهم يعملون من أجل المتقدمين فى السن • وهذه الأعمال الأخيرة على النقيض من الطبيعة البشرية وهى تخالف رغبات الانسان الغريزية ولكنها تتمشى مع أسلوب حب الوالدين ومع مبادىء الـ (لى) والعدالة • ومن ثم فلو أن الانسان اتبع ميوله الطبيعية فلن يعطى الأولوية للغير ، لأنه لو أعطى الأولوية للغير لناقض ميوله الطبيعية • ويتضح فى ضوء هذه الحقائق أن الطبيعة الأصلية للانسان شريرة وأنه يصبح خيرا عن طريق المران المكتسب فحسب (٥) •

وليس الناس ، كما ذكر هسين تزو أشرارا فحسب بطبيعتهم عند ولادتهم ، بل ان كل الناس مولودون سواء • فالنبيل والشخص العادى ، وأسمى ملك حكيم فى التاريخ وأحط وغد ،جميعهم يبدءون تماما بنفس المستوى • (٦) وكل فرد يبدأ بداية متساوية فى القدرة والمعرفة والطاقة ، والكل سواء : يحبون الشرف ويكرهون

---

(٥) دبر : « أعمال هسين تزو » ص ص ٣٠١ — ٤ •

(٦) المرجع السابق : ص ٣٢٥ •

الخزى ويحبون ما هو خير ويكرهون ما هو ضار (٧) ، وأكثر الرجال تمثيلا للرجل العادى فى العالم يمكن أن يصبح حكيما بممارسة ما هو خير • (٨)

ولكن المرء لا يمكن أن يمارس ما هو خير ما لم يكن له معلم يهديه السبيل • ويتساءل هسين تزو : اذ كيف يمكن لأفواه الناس وبطونهم أن تتعرف على الـ (لى) والعدالة ؟ أنى لهم أن يتعلموا المجاملة والحياء والعار ؟ •• فكل ما يفعله الفم هو أن يمضغ فى رضا ، والبطن تسعد لامتلائها • والمرء بدون معلم أو قوانين لا يعدو أن يكون أكثر من فم وبطن » (٩).

ومع ذلك ، فواضح أن هنـــاك صعوبة • فاذا لم يكن فى استطاعة المرء أن يصبح خـيرا بدون معلم ، فكيف استطاع المعلم الأول ان يعلم ؟ والتعليم ومبادئه تولى وضعه الحكماء ولكن هسين تزو ينكر بنوع خاص أن الحكماء كانوا أصلا مختلفين عن أى فرد آخر • وهو يعترف بهذه المشكلة ويحاول أن يناقشها •

ويكتب هسين تزو : « قد يسأل سائل : لو أن الطبيعـــة الأصلية للمرء شريرة ، اذن كيف يمكن لد (لى) والعدالة أن تظهرا ؟ وجوابى هو أن الـ (لى) كلها والعدالة كانتا نتيجة مران الحـــكماء المكتسب ، وليستا بطبيعة الانسان الأصلية • وهذا أشبه بالفخار الذى يقوم بصحن الطفل الى شكل يمكن أن يصنع منه وعاء ، ولكن الوعاء هو نتيجة مهارته المكتسبة ، وليس نتيجة طبيعته البشرية الفطرية • والنجار يشكل الخشب ويصنع منه سفينته ، ولكن هذه السفينة لا تنتجها قدراته الفطرية بل مرانه المكتسب • وبالمثـــل

---

(٧) دبز : « أعمال هسين تزو » : ص ٥٨ •

(٨) المرجع السابق : ص ص ٦٠ — ٦١ •

(٩) المرجع السابق : ص ٦١ •

كان الحكماء قادرين على أن يوجدوا ال (لى) والعدالة وأن يضعوا قوانين ونظما ، وهي نتيجة لطول التفكير والممارسة الجادة • وهكذا يتضح أن ال (لى) والعدالة والقوانين والنظم كانت نتيجة مران الحكماء المكتسب ولم تكن نتيجة لطبيعة المرء الأصلية • » (١٠)

وهنا يعترف هسين تزو ضمنا أن الحكماء قد أصبحوا فى الحقيقة خيرين بفضل جهودهم الذاتية دون أن يعاونهم معلمون •ومع ذلك فهو ينكر بشدة ، فى نفس الوقت ، أنه يمكن أن يتحقق هذا فى زمنه ، برغم أن كافة الناس لهم نفس القدرات الغريزية كالحكماء (١١) • وهنا نقترب من الضعف الأساسى فى تفكير هسين تزو • لقد اكتشف خصومه ، بلا شك ، فى حججه نقطة الضعف هذه ، وعارضوه فيها • ويحاول أن يجيب كما يلى :

« قد يقول قائل : الحكماء قادرون بمجهود مستمر ، أن يصلوا الى الحكمة، اذن لماذا لا يمكن أن يفعل أى فرد نفس الشيء؟» وجوابى هو أنه يمكنه ولكنه لا يفعل • والشخص ذو العقلية المحدودة يمكن أن يصبح شخصا رفيعا ولكنه ليس على استعداد لأن يصبح رفيعا؛ والشخص الرفيع يمكن أن يصبح شخصا ذا عقلية محدودة ، ولكنه ليس على استعداد لأن يصبح شخصا ذا عقلية محدودة • ولا يمكن أن يكون مستحيلا بالنسبة للشخص ذى العقلية المحدودة والشخص الرفيع أن يتبادلا مكانيهما ؛ وعلى الرغم من أنهما لا يغيران مكانيهما فان فى استطاعتهما أن يفعلا هذا ، ولكنهما لا يستطيعان بصورة مؤثرة أن يفعلا هذا •

ورجل الشارع يمكن أن يصبح « يو Yü » (أحد حكماء الأباطرة الأسطوريين القدماء) ولكنه أمر بعيد الاحتمال أن يفعل

(١٠) دبز : «أعمال هسين تزو» : ص ٣٠٥ •

(١١) المرجع السابق : ص ص ١١٣ — ١٤ •

هذا • وعلى الرغم من ذلك ، فان حقيقة عجزه حقا أن يصبح « يو » لا تغير من حقيقة أنه يمكن أن يصبح « يو » •• والعامل والصانع والفلاح والتاجر يمكن أن يبدلوا مهنهم ، ومع ذلك فلا يســـتطيع واحد منهم ، في الحقيقة ، أن يفعل هذا • وهكذا نرى أن امكان عمل شيء ما لا يستلزم بالضرورة امكان فعله (١٢) » •

وليس هذا الأمر مقنعا تمام الاقناع اذ من المؤكد أن النـــاس يختلفون فى قدراتهم على تنظيم أنفسهم ، وسواء اتفقنا مع هسين تزو أم لم نتفق فاننـــا يجب أن نعترف بأن أولئك الذين هم على شاكلة الحكماء الذين يتحدث عنهم : قلة قليلة • ومع ذلك ، فان هذا الاختلاف ذاته يبدو أنه يناقض زعمه أن الناس فى الأصل على شاكلة واحدة فى القدرات كما فى الأخلاق • ويبدو أن ما آمن به هسين تزو هو أنه اذا كان قد مضى زمن أمكن الناس فيه أن يكتشفوا ما هو خير وما هو حقيقى بالنسبة لأنفسهم ، فان مثل هؤلاء الناس لم يعد لهم وجود فى زمنه •

وحقيقة أن الصين فى عهد هسين تزو كانت فى حال يرثى لها لتفسر الى حد كبير ، ان لم تكن لتبرر تشاؤمه • ولكن نتيجة هذا الايمان ، بأنه لا أن جمهرة الناس وحدهم بل والناس كافة عاجزون عن التفكير بأنفسهم فى المسائل الأساسية ، لا تعوق التقدم الأخلاقى والثقافى فحسب، بل تعمل على استحالة الصحة الأخلاقية والثقافية• وبالنسبة للانسان أو العقل ، الذى يتبع على الدوام طريقا وضعه شخص آخر : لا يعمل فى أسلوب عادى ، وستظهر عليه فى الوقت المناسب أعراض مرضية • وقد أدرك كنفوشيوس هذا الأمر عندما امتنع عن أن يضع أى أساس دوجماتيكى (*) للسلطة • ومع ذلك

(١٢) دبز : « أعمال هسين تزو » ص ص ٣١٣ – ١٤ •

(*) نسبة الى المذهب الدوجماتيكى dogmatism المعروف باسم المذهب الاعتقادى أو مذهب اليقين • (المترجم)

فيجب ألا نلوم هسين تزو كثيرا • وعدد الفلاسفة فى أى عهد أو شعب ، ممن كانوا فى الحقيقة على استعداد لأن يكون لهم أتبـــاع يفكرون لأنفسهم وكانوا على استعداد لذلك حتى لو عارضهم هؤلاء الاتباع فى آرائهم ، ليس بالعدد الكبير •

ونظرا للأهمية المعزوة لدور المعلم فى الكنفوشيوسية فقـــد يكون من الطريف أن نذكر أن كنفوشيوس نفسه لم يكن له معلم • وفى عهد متقدم يرجع الى زمن منشيوس كان المعـــلم مبجلا تبجيلا ساميا ، ولكن هسين تزو هو الذى مجده ورفعه الى عنان السماء ، اذ قال :

« اذا كان المرء بدون معلم أو نواميس فانه : لو كان ذكيا فسيصبح لصا لا محالة ، ولو كان شجاعا فسيصبح قاطع طريق ، ولو كان قد وهب قوة جسمانية فسيصبح مثيرا للمتاعب ، ولو كان باحثا فسيهتم فقط بالمظاهر الطبيعية الغريبة ، ولو كان جدليـا فستكون محاوراته لا معقولة ؛ أما اذا كان له معلم ونواميس ، فانه: اذا كان ذكيا فسيصبح عالما فى أسرع وقت ، واذا كان شـــجاعا فسيصبح بسرعة شخصا يلقى الرعب فى القلوب ، واذا كان قد وهب قوة جسمانية فسيحقق بسرعة ما يسند اليه من عمل ، واذا كان باحثا فسيسرع فى تحرياته ، حتى يصل الى نتائجهـا ، واذا كان جدليــــا فسيحل بسرعة كل مشـــكلة • وهكذا فان المعلم والنواميس هى أهم كنوز يمكن أن يعتز بها المرء ، أما أن تكون بدون معلم أو نواميس فهذا هو الخطب الجسيم • والمرء الذى يفتقد معلما ونواميس يعمل على تمجيد طبيعته الأصلية ، أما من كان له معلم ونواميس فيؤكد تثقيفه الذاتى (١٣) » •

---

(١٣) دبز : «أعمال هسين تزو» : ص ص ١١٣ ــ ١٤ •

فالدراسة اذن هى الوسيلة الوحيدة لتحسين حال الشخص ٠ ويقـــول هسين تزو ان فن الدراسة يجب أن يشـــمل حياة الفرد بأكملها ، وللوصول الى هذا الهدف يجب ألا يتوقف المرء لحظة عن الدراسة ٠ وللدراسة بهذه الطريقة يجب أن تكون انسانا ، فاذا توقفت فأنت مثلك مثل الطيور والدواب (١٤) ٠ والشىء الهـــام هو المثابرة : فالجياد الرشيقة الحركة التى تتسكع بجانب الطريق قد تسبقها سلحفاة عرجاء تتهادى فى سيرها بغير توقف (١٥) ٠ والدراسة يجب ألا تكون سطحية ٠ وتعلم النبيل الحقيقى يدخل من أذنيه ويخترق قلبه وينفذ الى جسده كله ، ويعلن عن نفسه فى كل عمل من أعماله (١٦) ٠ والتعلم يجب ألا يكون مقصورا على مجرد المعرفة بل يجب أن يمتد ليتجسد فى السلوك ٠

ورغم ذلك فان مجال الدراسة لابد وأن يكون مقيدا ، وجانب من اللوم على هذا التقيد الذى ميز الكنفوشيوسية بصورة خاصة ، يجب أن يقع على كنفوشيوس نفسه ، على الرغم من أن كنفوشيوس لم يحدد مجاله بأى شىء بمثل ذلك المجال الضيق الذى حدده به خلفاؤه من بعده ٠ ولكن كنفوشيوس كان ينشد خلاص العالم ، وأن يعلم الناس الذين يمكن أن يعاونوا فى ذلك الخلاص بأن يعملوا كموظفين ٠ ومن ثم ، فقد حصر تربيته فيما اعتقد أنه ضرورى لذلك العمل؛ ونفس الشىء يصدق بالنسبة لكافة الكنفوشيوسيين الأولين ٠ ويوضح هسين تزو هذه النقطة ويقول :

« السبب الذى يقال من أجله أن هذا النبيل جدير بالتقدير ٠ ليس هو أنه قادر على أن يفعل أى شىء يمكن أن يؤديه أمهر شخص؛

(١٤) دبز : «أعمال هسين تزو» : ص ٣٠ ٠
(١٥) المرجع السابق : ص ص ٥٠ ـ ٥١ ٠
(١٦) المرجع السابق : ص ٣٧ ٠

والسبب الذى من أجله يطلق على النبيل أنه الحكيم لا لأنه يعرف كل شيء يعرفه الشخص الحكيم ٠ وعنـــدما يطلق عليه أنه حسن التمييز فلا يعنى هذا أنه قادر على التدقيق المضنى كالذى يمارسه السفسطائيون ، وعندما يطلق عليه أنه باحث فــلا يعنى أنه قادر على أن يفحص باسهاب كل شيء يمكن فحصه فحصا مستوعبا مثل أى باحث يمكن أن يفحصه ٠

« والنبيل فى مشاهدته للأراضى العالية والمنخفضة ، وفى الحكم على مسألة أكانت الحقول مجدبة أم خصبة وتقرير الوقت الذى يجب أن تزرع فيه الحبوب المختلفة ، فهو لا يبلغ كفاءة الفــلاح ٠ واذا كان الأمر أمر تفهم البضائع وتجديد نوعها وقيمتها فلا يمكن للنبيل أن يبارى تاجرا وأما فى مجال المهارة فى استخدام البوصلة والمربع وميزان استقامة البناء والآلات الأخرى فهو دون أى صانع. وفى الاستخفاف بالصواب والخطأ والصـــدق والكذب ، ولكن فى معالجتها حتى تبدو كأنها بدلت أماكنها وفضحت احداها الأخرى ، فان النبيـــل لا يمكن أن ينافس « هوى شـــيه Hui Shih » و « تنج هسى Têng Hsi » (وكان هذان الشخصان جدليين) ٠

ومع ذلك فاذا كان الموضوع موضوع ترتيب الناس وفقـــا لفضائلهم واذا كانت المناصب تمنح بناء على الكفاية ، واذا وضع كل من الشخص الجدير بالتقدير وغير الجدير فى مكانهما الصحيح ٠٠ واذا كانت كل الأشياء والأحداث تعالج معالجة سليمة ، واذا كانت ثرثرة « شين تزو Shên Tzü » (وهو فيلسوف ربط النزعات الطاوية بالنزعات الشرعية) وموتزو قد توقفت ، واذا كان « هوى شيه » و « تنج هسى » لم يجرؤا على طرح محاوراتهما ، واذا كان الحديث من الواجب أن يتمشى مع الحقيقة والأمور يجب أن تدبر دائما على وجهها السليم ــ فان النبيل يتفوق فى هذه الأمور (١٧)»٠

(١٧) دبز : «أعمال هسين تزو» ص ص ٩٦ ــ ٧ ٠

ومناقشات الجدليين مناقشات لا جدوى من ورائها ، وحتى الحكيم لم يكن فى استطاعته أن يجيدها جميعا ، ولهذا لا يتحدث النبيل عنها ، وفضلا عن هذا ، فلا يمكن للمـــرء أن يكتشف تماما كل ما يمكن أن يعرف ، واذا « أراد المرء أن يستنزف ما لا يستنزف وبلوغ حد ما لا حد له ، فانه لن يفلح حتى ولو كسر عظامه وحطم قواه فى محاولاته حتى نهاية أيامه » (١٨) ولكن لو أنه وضع هدفا معقولا لجهوده لأمكن بلوغه · ما هو الحد الذى يجب أن يقيمـــه الانسان لبحوثه ؟ انها خبرة الملوك الحكماء (١٩) وهذه الخبرة يمكن أن تكتسب ، كما يقول هسين تزو ، خاصة بدراسة الدراســـات القديمة ·

وهذا اصطلاح جديد · كان كنفوشيوس يعتبر الكتب وحدها جانبا من موضوع التربية ، وكان منشيوس متشككا بصـــــورة واضحة حتى بالنسبة لصـحة بعض الكتب التى كانت متداولة فى زمانه ، ولكن الآن ، نجد مع هسين تزو ، بداية تعليق قيمة سامية بكتب معينة ، الأمر الذى ميز الكنفوشيوسية منذ ذلك الوقت · والدراسات القديمة التى كان يشير اليها هسين تزو بالذات تشكل مشكلة صعبة لا يمكن حلها الآن حلا كاملا · وهو يذكر أسماء كتب معينة ، ولكن بعضها يبدو أنه قد فقد ، والبعض الآخر لا يكاد يكون نفس الكتب التى تحمل نفس الأسماء التى لها الآن · وعندما يتحدث عن الـ (لى) لا يبدو واضحا كل الوضوح هل هو يتحدث عن كتاب معين أم لا ،عن الـ (لى) ·

ويقول هسين تزو : « من أين ينبغى أن تبدأ الدراسة ، وأين ينبغى أن تنتهى ؟ يبدأ الفصل الدراسى فى تلاوة الدراسات القديمة

---

(١٨) دبز : « أعمال هسين تزو » : ص ص ٤٩ — ٥٠ .

(١٩) المرجع السابق : ص ٢٧٦ .

وينتهى فى تعلم ال (لى) وتبدأ غايته فى تكوين شخص العالم وتنتهى فى تكوين الحكيم . » (٢٠) ودراسة الكتب الكلاسيكية تعنى الدراسة مع توحيد الهدف والتصميم عليه .. ولا تكون دراسة الكتب القديمة دراسة حقة الا اذا كان هناك استيفاء وسعة المام . ويعرف النبيل أنه اذا كانت معرفته ناقصة أو غير ممحصة فهى قاصرة ولا يمكن اعتبارها ممتازة ، ولذلك فهو يتلو بصورة متكررة ليتعمق ويفكر بعمق حتى يفهم ويمارس ليضمنها حياته . » (٢١)

وعلى الرغم من أن هسين تزو كان أكثر صراحة فى مناهضته للامتيازات الموروثة من كنفوشيوس ، الا أنه لم يكن يظن أن كل فرد قادر على تفهم الدراسات القديمة ، وقد قال بصورة خاصة أنها فوق مستوى ادراك « الشخص العادى » (٢٢) ومع ذلك فقد كان يؤمن بأن الدراسة باب مفتوح عن طريقه ـ لو ساروا فيه وبذلوا جهدا ـ يصبح المتواضع نبيلا والجاهل حكيما والفقير غنيا (٢٣) ، وكان فى هذا القول جانب من الحقيقة فى عصره ، نظرا لأن بعض الأريستوقراطيين يدركون ذلك فى مرارة شديدة وأسف . بل أكثر من هذا ، كانت هذه الكلمات تنبىء بما هو متوقع حدوثه . ولكن هسين تزو أعطى لها معنى أبعد من مجرد ادراك للثروة والسلطة بأن أوضح أن ما يمكن الوصول اليه عن طريق الدراسة هو التثقيف الذاتى وهو أصدق مكافأة ، وبجانبها لا يعد الاعتراف بها أو عدم الاعتراف بذى أهمية . وقال :

---

(٢٠) دبر : «أعمال هسين تزو» : ص ٣٦ .
(٢١) المرجع السابق : ص ٤٠ .
(٢٢) المرجع السابق : ص ٦٥ .
(٢٣) المرجع السابق : ص ٦٩ .

« ولذا فان النبيل الحق هو نبيل برغم أنه لا يحمل لقبا وهو غنى برغم أنه ليس له راتب رسمي ، وهو مصدق برغم أنه لا يباهى بنفســـه ، وله تأثير برغم أنه لا يغضب ، ومبجل برغم فقره ، ومعيشته فى عزلة ، وهو سعيد برغم أنه يعيش وحده .

ولذلك يقــال أن الاسم المبجل لا يمكن أن يكافح من أجـله بتكوين أحزاب ولا يكتسب بالمباهاة والتفاخر ، ولا يؤخذ بالقوة ولا يمكن بلوغه الا بالاخلاص فى الدراسة ، واذا ما جاهدت من أجله فقدته ، ولكن اذا رفضه الانسان فانه يأتى طوعا واختيارا ، فاذا كان المرء متواضعا زادت شهرته ، فاذا ما تفـــاخر ضاعت عبثا .

ولذا ، فان النبيل يوجه اهتماما الى تطوير قدراته الداخلية ، ولكنه لا يشغل نفسه بالأمور الخارجية وينمى فضيلته ويحيا حياة متواضعة ؛ ومن ثم ترتفع شهرته كالشمس والقمر فيستجيب العالم بأسره له كما لو كان قصف رعد . ولذا يقال « ان النبيل فى خفائه معروف ؛ وعلى الرغم من أنه يبـــدو لا شأن له فان شهرته تطبق الآفاق ؛ ولا يخاصم أحدا ، ومع ذلك فهو يقهرهم جميعا . » (٢٤)

وهذه العبارة الأخيرة فيها تشابه واضح مع ما يقوله لاوتزو من أن الحكيم الطاوى يبلغ الحكمة عن غير طريق الدراسة .

وبرغم توكيده الشديد على الدراسة ، لم يكن هسين تزو عقلى النزعة . لقـــد أدرك أهمية الرغبات والعواطف وتنظيمها مع الـ (لى) . لقد اتفق مع منشيوس على أن أســاليب معالجة الرغبة لا تكون بكبتها — اذ معنى هذا الموت — أو حتى الاقلال من الرغبات، بل بتوجيهها الى الطريق الصحيح .

---

(٢٤) دبز : « اعمال هسين تزو » ص ص ١٠٠ — ١٠١ .

ويناقش فى فقرة من أحسن فقراته : أهمية توجيه رغبات المرء تجاه الأمور الروحية بدلا من توجيهها الى الأمور المادية البحته • وكلماته جديرة بالتأمل اليوم ، فى الوقت الذى نتمتع فيه معا بأسمى مستوى عام من الرخاء المادى ، وأيضا من المحتمل جدا أن تواجهنا أقصى ظروف لمرض نفسى وعقلى عرفه العالم ، فيقول :

« ان أولئك الذين ينظرون الى المبادىء الأخلاقية نظرة استخفاف دائما يعلقون اهتماما كبيرا على الأمور المادية • وأولئك الذين يعلقون ظاهريا ، أهمية كبرى على الأمور المادية هم دائما قلقون داخليا ، وأولئك الذين يعملون دون مراعاة للمبادىء الأخلاقية هم دائما فى وضع خطير خارجيا ، ومثل هؤلاء الأشخاص هم دائما فى خوف داخليا •

« وعندما يكون القلب قلقا ووجلا فان الفم اذا تناول طعاما فاخرا فانه لا يتذوقه ، وقد تسمع الآذان الأجراس والطبول ولكنها لن تسمع الموسيقى ، وقد تشاهد العين التطريز الدقيق ولكنها لن ترى نمطها ، وقد يرتدى المرء أكثر الملابس مجلبة للراحة ويجلس على حصيرة سوية ولكن جسده سينساها • وحتى لو أتيحت كل الأمور السارة فى العالم لشخص فى هذه الحالة فلن يكون راضيا • فاذا ما سأله سائل عما يريده وأعطاه كل شىء طلبه فقد يكون مع ذلك ساخطا ، ومن ثم فانه لو قدم له كل شىء يبعث على سروره فان الأسى لا يزال بالغا ، واذا ما أضيفت اليها كافة الأشياء المفيدة فلا يزال الضرر بالغا • هذه هى حال أولئك الذين ينشدون الأمور المادية •

« هل الحياة طعام ؟ وهل الشيخوخة تناول الحساء ؟ ان الناس اذا أرادوا أن يرضوا رغباتهم يطلقون العنان لغرائزهم بدلا من ذلك ، ورغبة منهم فى حماية فطرتهم يعرضون أجسادهم للخطر

بدلا من ذلك ، ورغبة منهم فى أن يمتعوا أنفسهم يضرون عقولهم بدلا من ذلك ، وفى سعيهم لزيادة شـهرتهم يتسببون ، بدلا من ذلك ، فى اختلال نظام سلوكهم .

« مثل هؤلاء الأشخاص ، برغم أنهم قد خلعت عليهم اقطاعيات بوصفهم نبلاء ، أو نودى بهم حكاما ، لا يختلفون عن اللصـوص العاديين . وقد يركبون عربات ويرتدون قبعات الاحتفالات ولكنهم ليسوا بأفضل من الصعاليك . وهذا ما يقال عن أن المرء قد جعل من نفسه عبدا للأمور المادية .

« واذا كان عقل المرء فى سلام وسعادة فان المشـاهد دون العـادية ستسر ناظريه ، وستطرب أذنيه الأصوات دون العادية ، وسيكفيه لطعامه : الأرز الخشن والخضروات والحساء ، وسيبعث فى جسده الراحة أن يلبس القماش الخشن وينتعل النعال المصنوعة من الحبال الخشنة ، وسيكفيه من الناحية الشكلية : قبعة من القش وحصير على الأرض وكرسى بلا ظهر .

« ومثل ذلك الشخص الذى تنقصه كل الأشياء الفاخرة فى العالم ، سعيد برغم ذلك وبرغم أنه ليس له نفوذ أو منصب ، فان اسمه سيصبح معروفا . فلو أنه عين ليحكم امبراطورية لكان هذا يعنى الكثير بالنسبة للامبراطورية ، ولكن قد يؤدى هذا الى تغيير بسيط فى راحة باله وفى رضاه ، وهذا ما يقال عنه بحق اعطـاء الشـخص ما يستحقه من الاعتبـار وجعل الأمور المادية لخدمة الشخص . » (٢٥)

ونلاحظ هنا مرة أخرى تشابها واضحا مع الطاوية . لقـد

---

(٢٥) ديفنداك : « هسين تزو وتقويم الاسماء » ص ص ٢٥٢ ـ ٣ ، وانج هسين ـ تشين : «هسين تزو تشي تشيه» الفصل ١٦ صص ١٤اب ـ ١٥اب

عاش هسين تزو فى عصر أكثر شبها بعصرنا ، تميز بانهيار الأخلاق والحروب المتكررة والاحساس بتوقع وقوع الكوارث • ثم ، كما هو الحال اليوم ، كان هناك أناس ينشدون طريقا للخلاص من مخاوفهم وقد عرضت الطاوية طريقا سهلا : هو ببساطة أن تكون راضيا • وهسين تزو عرض ، أيضا ، الرضا ، ولكنه لم يعتقد أن من السهل بلوغه • وهو يمكن تحقيقه ، كما قال ، ولكن فقط عن طريق تهذيب الرغبات والعواطف بفضل ال (لى) (٣٦) •

وكانت ال (لى) تدل أصلا ، كما سبق أن عرفنـــا ، على التضحية ، وكانت مرتبطة بالدين ، ولكن هسين تزو كاد أن يستبعد تماما العامل الدينى لا من مفهومه عن ال (لى) فحسب بل أيضا من أفكاره كافة • لقد كان شديد التمسك بالمذهب العقلى • لقد قال ان الأشباح لا يتخيلها الا الأشخاص المضطربون وهم فى الحقيقة لا يرونها ، والدق على الطبلة للشفاء من داء المفاصل سيبلى الطبلة ولكنه لن يشفى من داء المفاصل (٢٧) • ويتساءل هسين تزو : « لو أن الناس صلوا صلاة الاستسقاء وسقط المطر فلم حدث هذا ؟» ويجيب : « ليس هناك من سبب اذ لو أنهم لم يصلوا طلبا لنزوله ، لنزل المطر على أية حال • » (٢٨)

ويجب أن نذكر أن موتزو سبق أن قال ان الحصـــاد الطيب والرخاء هما علامتان بأن السماء قد أقرت فضائل الحاكم الصالح ، فى حين أن الكوارث الطبيعية هى انذارات مقدسة على سوء حكم الحكام الأشرار • ويسخر هسين تزو من مثل هذه الأفكار ويقول انه ليس هناك من سبب للخوف من تفسير العمليات الطبيعية للكون•

---

(٣٦) دبز : « اعمال هسين تزو » ص ٤٤ — ٤٥ •
(٢٧) المرجع السابق : ص ص ٢٧٥ — ٢٧٦ •
(٢٨) وانج هسين تشين : « هسين تزو تشي تشيه » ١١/١٨ ب •

ويقول أن هناك بلا شك نذرا سيئة ، ولكن بالنسبة لهذه النـــذر يجب أن تفحص الأسلوب الذى تتبعه الحكومة لترى هل تحظى بثقة الشعب وهل يستمتع الناس بالكثير أم أنهم يموتون جوعا • ان هذه الأمور ، وليس ظهور الشهب وكسوف القمر ، هى التى يجب أن تجذب اهتمام الناس اهتماما بالغا • (٢٩)

ولا ينادى هسين تزو بأن من واجب الناس ألا يضحوا ، بل يعلن ، على العكس من ذلك أن السلوك القديم لاحتفالات القرابين هو أسمى تعبير عن التهذيب • ويقول ، مع ذلك ، فان ما يضحى من أجله ليس له « لا جوهر ولا ظل » • هذه مجرد احتفـــالات تقدر لقيمتها الاجتماعية وتهيىء الســـبيل للتعبير عن العواطف بأسلوب معروف وطريقة نافعة • ويعتبرها عامة الشـعب إجـراء لخدمة الأرواح ، ولكن النبيل على علم بأنها فى الحقيقة يجب أن تكون وقفا على الأحياء (٣٠) •

وهسين تزو لم ينبذ فكرة السماء والاله العلى ، ولكنه يعيد تعريفها : فالسماء هى نظام الطبيعة • ولكن ، على شاكلة الهالمتألهين، يعتقد هسين تزو أن السماء لا يمكن أن تتدخل بقوانينها الخاصـــة لتحدث معجزة (٣١) • والسماء هى نظام الطبيعـــة وعلى المرء أن يدرس قوانين السماء وأن يعمل طبقا لها • والسماء بالمعنى اللفظى التام ، تساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم — فى ذكاء •

ولنرجع ثانية الى الـ (لى) : كان كنفوشيوس قد توسع فى هذا المفهوم حتى جاوز معناه الدينى ، ويبـــدو أن هسين تزو قد توسع فى مدلوله الى أبعد من هذا • ان سلوك الفرد فى أى وضع

(٢٩) دبر : « اعمال هسين تزو » ص ص ١٧٩ — ٨١ •
(٣٠) المرجع السابق : ص ص ٢٤٤ — ٤٦ •
(٣١) المرجع السابق : ص ص ١٧٣ — ٧٦ •

يجب أن تحكمه ال (لى) فاذا لم يكن الأمر كذلك فهو على خطأ . (٣٢)
لقد ابتدعها ، على حد قول هسين تزو ، حكماء ، ولكنها لم تكن
اجراء تعسفيا . وحتى الطيور والدواب تبكى أقرانها عند وفاتها ،
والى أى مدى يجب أن يفعل المرء مزيدا من هذا ؟ (٣٣) وال (لى)
تضفى على أعمـــال الانســـان كل الجمال والأهمية والاتزان
والتحكم .(٣٤) .

وفى عهد هسين تزو كان التسلسل الطبقى بل وتنظيم المجتمع
قد تدهورا بدرجة كبيرة . ولهذا كان قلقا بالنسبة لحقيقة أن الناس
كانوا يحسدون جاه الغير وممتلكاته ، وكان يدافع عن أن ال (لى)
وسيلة من وسائل التقويم . وكتب يقول :

« لو كان الناس كافة متساويين فى السلطة لما أمكن توحيد
الدولة ؛ واذا وقف الكل على قدم المساواة فلا يمكن أن تكون هناك
حكومة . وما أن وجدت السماء والأرض حتى ظهرت هنـــاك تفرقة
بين العظيم والحقير وعندما اعتلى العرش أول ملك حكيم كانت هناك
طبقات اجتماعية .

« ولا يمكن لنبيلين أن يخدم أحدهمـــا الآخر ، ولا يمكن
لفردين من عامة الشعب أن يأمر أحدهما الآخر ـ هذا هو قانون
الطبيعة . ولو كان الناس جميعهم متســـاويين فى الجاه والمركز
وكانوا جميعهم يحبون ويكرهون نفس الأشـــياء ، فانه ما دام
لا يوجد ما يكفى للتقسيم ، فان النتيجة الحتمية هى النضـــال
وستكون نتيجة هذا هو الاضطراب وفقر الجميع .

---

(٣٢) دبز : «أعمال هسين تزو» : ص ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٣٣) المرجع السابق : ص ٢٤٠ .
(٣٤) المرجع السابق : ص ص ٢١٣ ـ ٤٦ .

« ولما كان الملوك القدامى يتوقعون مثل هذا الاضـــطراب ، لذا فقد أقاموا ال (لي) والعدالة لتقسيم الناس الى طبقات : الأغنياء والفقراء والنبلاء وعامة الشعب ، حتى يصبح الجميع تحت الرقابة. هذه هي الضرورة الأساسية للحفاظ على الامبراطورية • » (٣٥)

ولم يعتبر هسين تزو هذا التقسيم الى طبقات تقسيما وراثيا في الأصل • والشخص الذى عنده من العلم والشخصية ما فيـــه الكفاية يجب أن يكون رئيس وزراء بغض النظر عن أن أصله من عامة الشعب • ومن ناحية أخرى فان أى وريث للملك غير جدير بهذا الارث يجب أن يرد الى طبقة عامة الشعب (٣٦) • وقيمة النبيل الحقيقى ومجده يفوقان قيمة ومجد امبراطور (٣٧) •

وآراء هســـين تزو فى الحـــكومة مماثلة فى أهميتها لآراء كنفوشيوس : فالحكومة للشعب وليست للحاكم (٣٨) • وافتقـــار الناس وسوء معاملة العلماء تشجيع للاضطراب (٣٩) ، ولا يمكن أن يفوز أى حاكم فى حرب وليس بينه وبين شعبه تناسق ولا يلتف حوله (٤٠) • والحرب شر ولكن الجيوش لازمة لأغراض المحافظة على النظام (٤١) • وعمل الحاكم هو أن يختار الوزراء الأفاضل القادرين وأن يرقيهم على أساس ما يؤدونه من أعمـــال ، بغض النظر عن

---

(٣٥) دبر : « أعمال هسين تزو » ص ١٢٤ •
(٣٦) المرجع السابق : ص ١٣١ •
(٣٧) المرجع السابق : ص ١٠٩ •
(٣٨) وانج هسين تشين : « هسين تزو تشى تشيه » ١٩ ١٢/ب •
(٣٩) دبر : « أعمال هسين تزو » ص ١٢٥ •
(٤٠) المرجع السابق : ص ص ١٥٧ ــ ٨ •
(٤١) المرجع السابق : ص ص ١٦٧ ــ ٩ •

علاقتهم به وبلا محاباة (٤٢) • والحاكم الشرير يجب أن يساس كما يسوس انسان جوادا جامحا أو يرعى طفلا (٤٣) • وفى عصيان أوامر الحاكم اذا كان ذلك فى صالحه ، ولاء (٤٤) ، والحاكم الفاضل شخص محصن والحاكم الشرير لم يعد حاكما ؛ ويجب أن يعزل عن العرش (٤٥) •

وبرغم أن هسين تزو كان على علم بالطاوية ، لم يتأثر بها تأثرا كبيرا • كان هناك تيار آخر من التفكير انتشر فى عهده وكان له تأثيره الشديد عليه • لقد كان الاعتقاد السائد هو أن التخلص من اضطرابات العصر لا يكون الا فى « النظام » • وعلى الرغم من أن هسين تزو قد تربى على التقاليد الكنفوشيوسية التى اهتمت بموافقة المحكوم ، فقد فكر فى أن مزيدا من النظام قد يكون شيئا ممتازا • ومما لا شك فيه أنه كان يواجه صعوبات بوصفه موظفا اداريا ، وقد أقنعته هذه الصعوبات أن الرجال جميعهم كانوا مجموعة من الأوغاد ، أشرار بطبيعتهم ، وفى حاجة الى رقابة شديدة؛ وهو يقول ان الحكام الحكماء لم يناقشوا المبادىء الخاطئة ولم يسعوا لأن يطلعوا الناس على الأسباب التى من أجلها يقومون بكافة أعمالهم بل كانوا بدلا من ذلك يمضون فى حكم الناس بالسلطة ويهدونهم « بالطريق » ويكررون ايذاءهم بقراراتهم ويعلمونهم ببلاغاتهم

---

(٤٢) وانج هسين تشين : « هسين تزو تشى تشيه » ٨/٧ ب ـ ٩ ب ، ٨/١٩ ـ ١١ آ ، لودين كريل : « مفهوم النظام الاجتماعى فى الكنفوشيوسية الأولى » ، ص ١٢٨ •

(٤٣) وانج هسين تشين : « هسين تزو تشى تشيه » : ٩/٤ آ ـ ٥ آ •

(٤٤) المرجع السابق : ٩/٢ ب •

(٤٥) دبز : « أعمال هسين تزو » ص ص ١٩٠ ـ ١٩١ •

ويردعونهم بالعقوبات • ومن ثم فقد اتجه الناس الى الطريق القويم كما لو كان ذلك بفعل السحر (٤٦) •

ومع ذلك فبرغم أن هسين تزو كان يتحدث أيضا بهذه الطريقة الا أنه لم يكن من دعاة الحكومة التسلطية • وقد تطور نظام الحكم التسلطى فى الولاية الغربية البعيدة وهى ولاية « تشن » ، وكانت الفلسفة التى أوحت به هى الفلسفة التشريعية ، التى سنناقشها فى الفصل القادم • ولم يكن هسين تزو يحب أى شىء عنها ، وكان فى الحقيقة يذم مبدأها الأساسى ، ولكنه فى نفس الوقت لم تكن له مندوحة عن أن يظهر اعجابه ببعض مظاهر هذا النظام •

وزار هسين تزو ولاية تشن ، وكان بعد ذلك شديد التحمس للنظام الصارم الذى شاهده هناك وقال انه لا يمكن أن يجرؤ أحد على أن يفعل شيئا مخالفا لما رسمته له الدولة • وكان النـــاس « شـــديدى الخوف من الموظفين وكانوا مؤدبين • » (٤٧) هذه صيحة بعيدة عن الدولة المثالية لكنفوشيوس التى يتعاون فيهـــا الناس بعضهم مع بعض بمحض ارادتهم •

وكان أشهر طالبين من طلاب هسين تزو كلاهما من رجـــال التشريع ، وأعد أحدهما الكثير من الفلسفة التى ألهمت حكومة تشن، وأما الآخر فكان موظفا كبيرا فى تشن ، وعاون تلك الولاية فى ايجاد حكومة تسلطية فى الصين بأسرها سنة ٢٢١ ق • م • ، ولهذا أهمية كبيرة بالنسبة للتقدير المنحط نسبيا الذى كان من نصيب هسين تزو فى الدوائر الكنفوشيوسية •

ومع ذلك فان الضرر الحقيقى الذى ألحقـــه هســـين تزو

---

(٤٦) ديفنداك : « هسين تزو وتقويم الأسماء » ص ٢٤٠ •
(٤٧) وانج هسين تشن : « هسين تزو تشى تشيه » ١١/٩ ب •

بالكنفوشيوسية لم يكن هذا ، لقد كان يكمن ، بالأحرى فى انحرافه (ليس لأول مرة فى تاريخ الكنفوشيوسية ، ولكن ربما كان أكثر تأثيرا) عن رغبة كنفوشيوس نفسه فى أن يعول على ذكاء الجنس البشرى بوجه عام وقدرته على الابتكار • لقد سبق أن قال كنفوشيوس : « يستطيع الناس أن يعظموا من شأن « الطريق » ولكن « الطريق » لا يمكن أن يعظم من شأن انسان • » (٤٨) ولكن هسين تزو لم يكن واثقا من أن الناس تفكر لأنفسهم • لقد اراد أن يضع سلوكا على أساس مضمون ، فارضا على كل جيل ، بدون تبصر ، أن يسير على نسق ما جاء بالكتب القديمة التى يفسرها له المعلمون • لقد قال : « ان عدم اعتقاد المرء أن الأساليب التى يتبعها معلمه صحيحة ، وايثار المرء أساليبه الخاصة ، كمثل الاستعانة برجل ضرير ليميز الألوان •• فلا سبيل للتخلص من اللبس والخطأ • » (٤٩) وهكذا ، كما قال دبز : « طور هسين تزو الكنفوشيوسية الى نظام تسلطى ، تستمد فيه الحقيقة كلها من أقوال الحكماء • » (٥٠)

ولما كان هسين تزو يرتاب فى الناس ، ولم يكن على استعداد لأن يخاطر بشىء ، لذا فقد فقد الشىء الكثير فى نظر الكنفوشيوسية • وعبارة « ما لم تخاطر لا يمكن أن تفوز بشىء » صادقة فى الفلسفة صدقها فى مجال الأعمال ، وكان هسين تزو وآخرون ممن يفكرون

---

(٤٨) المقتطفات الادبية : ١٥/٢٨ •

(٤٩) دبز : « أعمال هسين تزو » ص ٥٢ •

(٥٠) دبز : « فشل الصينيين فى اخراج نظم فلسفية » ص ١٠٦ •

على شاكلة تفكيره ، يتهمون الكنفوشيوسية بأنها على قدر كبير من الجدب • ولكنهم بجعلها نظاما تسلطيا جعلوها أيضا معرضة لخطر أن تكون مضللة على يد من ينجح فى اقناع الناس أنه يمتلك السلطان •

وكان هسين تزو حسن القصد الى أقصى حد ، ولأنه كان كذلك ـ لأنه ، كما قد يقول عنه الطاويون ، حاول ذلك جاهدا ـ أنزل فعلا قدرا كبيرا من الضرر • لقد كانت هذه مأساة عقل من أذكى عقول الصين •

الفصل الثامن

استبداد المشرعين

ان كل الفلسفات التى عرضنا لها حتى الآن ، من فلسفة كنفوشيوس حتى الفلسفة الطاوية تتميز بأنها تشترك فى نقطة واحدة : لقد اهتمت بالحالة السيئة التى كان عليها شعب الصين القديمة ، الذى طحنه الفقر والظلم ومزقته الحرب ، لقد انتقدت جماهير الشعب كلها الحكام وناشدت منع أو تخفيف ابتزاز الشعب وظلمه وحاولت أن توقف الحرب .

والفلسفة التى علينا أن نناقشها الآن اهتمت أيضا بالظروف. لقد كانت انذارا بالخطر ، مع ذلك ، لا لأن الناس كانوا منظمين فرقا ، وانما لأنهم كانوا عصاة أحيانا ، ولا لأنهم كانوا فقراء وانما لأنهم لم يعملوا بجد كاف لاثراء حكامهم ، ولا لأنه كانت هناك حروب بل لأن الناس كانت تعوزهم الحماسة للحرب . لقد كانت تعزو تلك الظروف الى حد كبير ، الى حقيقة أن الكنفوشيوسيين والموويين قد جعلوا الناس برمين كما أنهم أفسدوهم .

وكانت الفلسفة المعروفة باسم الفلسفة التشريعية Legalism الى حد كبير ، فلسفة ثورة مضادة counterrevolution ، تنشد الدفاع عن نفوذ الحاكم ضد الاصرار المتزايد على أن الحكومة قائمة

من أجل الشعب لا من أجل الحاكم وأن أية حكومة تفشل فى ارضاء الشعب مقضى عليها ٠

ولقد ادعى الكثير من العلماء ، ولا زال البعض يدعون ، أن المشرعين ليسوا بالمرة رجال ثورة مضادة ٠ وقد نادى المشرعون أنفسهم بأنهم مجددون جريئون ، يعلنون عن رأى جديد ٠ لقد وصموا الكنفوشيوسيين والموويين بأنهم تقليديون traditionalists أشبه بعصا مغمورة فى الوحل ، يتمسكون بالنظريات البالية وليسوا على استعداد لأن يشهدوا العالم وقد استفاد من المدنية ٠

وكانت مسألة من هم الذين كانوا عصريين حقا ومن كانوا رجعيين حقا ، يزيد فى غموضها عوامل عديدة ٠ لقد كان عند كنفوشيوس نفسه بعض الاستعداد لأن يتحدث مثل شخص متحفظ. على الرغم من أن برنامجه كان ثوريا فى أساسه ٠ وقد صار الكنفوشيوسيون المتأخرون ، أو اعتقدوا أنهم صاروا ، تقليديين حقا ، ولكن تمسكهم بالتقاليد اتخذ صورة غريبة جدا ٠ كانت الأسطورة تملأ الماضى بكل أنواع القوانين والتجارب التى لم يكن لها وجود على الاطلاق على الأرض أو البحر ولكنها كانت التعبير الخيالى لما كان يتصور الكنفوشيوسيون ما ينبغى أن يكون عليه العالم المثالى ٠ وقد دونت هذه الأساطير فى كتب وقبلت على أنها صحيحة ودخل جانب منها صلب الدراسات القديمة ٠ وهكذا اعتقد الكنفوشيوسيون أنفسهم أنهم كانوا يدافعون عن العودة الى خبرات القدامى بينما كانوا فى الحقيقة يقترحون تجديدات كاملة ، وقد اتفق الكنفوشيوسيون مع أولئك الذين وصموهم بأنهم تقليديون ، حتى ولم تكن هذه حقيقة ٠

وكانت الكنفوشيوسية تعارض الحكم بالقوة بدلا من الاقناع، وقد دافع المشرعون عن قيام حكومة مركزية ، يجب أن تباشر سلطة مطلقة تهدد بالعقوبات القاسية ٠ وهذه السياسة لم يكن يكرهها

الكنفوشيوسيون فحسب ، بل أيضا السادة الاقطـاعيون التابعون الذين كانوا يفقدون نفوذهم بل عروشهم من جرائها • وعلى أساس نظرية أن أولئك الذين لهم عدو مشترك يجب أن يتصادقوا ، لذا كان مفروضا أن يؤيد الكنفوشيوسيون النظام الاقطاعى من ناحية المبدأ •

وفضـــلا عن هذا فقد كانت حقيقـــة الأمر أن كثيرين من الكنفوشيوسيين كانوا يعتمدون على صغار السادة الاقطاعيين ،ومن ثم فلا شك فى أنهم كانوا يرعون مصالحهم • ولقد رأينا كيف كان لمنشيوس ارتباط عاطفى معين بالنظام الاقطاعى ، وعلى الرغم من ذلك ، فليس حقيقة ، كما يقال أحيانا ، أن الكنفوشيوسية كفلسفة تؤيد استمرار الانتقال الوراثى للمناصب والنفوذ الاقطاعى ، انها ـ على العكس من ذلك ـ قد أصرت على أن المناصب يجب أن تشـغل على أساس الموهبة فحسب ، وهذا يتعارض بوضوح مع ما يدعونه عنها •

ومن ناحية أخرى ، لم يكن المشرعون مخطئين تماما فى ادعائهم بأنهم كانوا مجددين ، فالكثير من مناهجهم كانت حديثة • لقد كانوا ينشدون فصم عرى رابطة الأسرة الموقرة ، القائمة على سلطة الأب باعتبار أنها تمثل نظاما قديم العهد • لقد أيدوا الملكية الخاصـــة للأرض (ولكن يجب أن نلاحظ أنهم أيدوا أيضا تلك الرقابة الحازمة التى تمارسها الدولة على كافة الأنشـــطة التى قد يزاولها المالك الخاص فى مجال اختيار ضيق بالنسبة لما يمكن أن يفعله بأرضه) كما أنهم أيدوا بقوة : الحكومة المركزية التى تعمل وفقا لقوانين محددة وصارمة ، وكانت شيئا جديدا •

ومع ذلك ، لم يكن هدف المشرعين جديدا كل الجدة • لقـد كانوا ينشدون فى حاكم الولاية بأسرها ، الكثـير من نفس نوع السلطة المطلقة على رعاياه كالتى كان يمارسها كل سيد اقطاعى فى

« الأيام القديمة الطيبة » قبل أن يبدأ الناس فى التفكير فى الحقوق والحرية أو أن يفسدوا بما كان يتحــدث به الكنفوشيوسيون عن هذه الأمور ٠

والمهم فى هذا الخصوص هو أن الممارسة الفعلية للنظريــة الشرعية قد حدثت فى ولاية تشن التى كانت تقع على الحــدود الغربية للعالم الصينى ٠ وقد علمنا أنه فى وقت متأخر يرجع الى سنة ٣٦١ ق٠م كان الصينيون بوجه عام ينظرون الى تشن على أنها فى الحقيقة دولة بربرية (١) ونجد باستمرار أنه يقال أن المفاهيم الكنفوشيوسية لل (لى) والعدالة غير مفهومة فى تشن ٠

ولقد لاحظنا فى الفصل السابق أنه عندما توجه هسين تزو لزيارة تشن فى وقت ما بعد سنة ٣٠٠ ق٠م ذكر أنه وجد شعبها بسطاء ريفيين يخشون الموظفين ، ومؤدبين غاية الأدب ٠ أما بالنسبة للموظفين ، فكانوا أيضا شديدى الالتزام بعملهم ويذهبون من دورهم الى مكاتبهم ويتوجهون رأســا من مكاتبهم الى دورهم وليست لهم مصالح شخصية ، وكان الشعب والموظفون ، كما قال هسين تزو ، « من الطابع القديم » ولم تكن بهــم أية حماقة من الحماقــات الحديثة (٢) ٠ وواضح أن هذا الشعب كان شعبا ليس من الصعب اخضاعه لتنظيم تسلطى ٠ وفى الحقيقة يلاحظ أن الشعب لم يتخل تماما عن التنظيم الذى كان متبعا قديما ٠

ولم يكن التشريع ممارسا بصورة خاصة فى ولاية تشــن فحسب ، بل ان أشهر ثلاثة مشرعين ولدوا جميعهم ـ ويبدو أنهم قضوا معظم حياتهم ـ فى ولايات خارجية بعيدا عن الولايات المركزية التى كان معروفا بوجه عام أنها تشكل أعظم جزء فى الصين يتميز

---

(١) شافان Chavannes : «مذكرات سى ـ ماتسين التاريخية» ٢/٦٢

(٢) وانج هسين تشين : « هسين تزو لشى تشيه » ٩/١١ ب ٠

بسمو ثقافته وبنفوذ الكنفوشيوسية فيه · ومن ثم ، فليس غريبا أن رأوا أشـياء فى ضوء مختلف عما يراه الكنفوشيوسـيون بل والمو ويون ·

وهناك اختلاف آخر بين الفلاسفة الكنفوشيوسيين والفلاسفة المشرعين ، فلقد شب كنفوشيوس فى ظروف وضيعة ، كما يقـال أن منشيوس كان سليل أسرة نبيلة ، ولكن حتى هذا ليس بالأمر الواضح ، واذا كان هذا صحيحا ، فان الأسرة يبدو أنها كانت فى أحوال سيئة نسبيا فى أيامه ، بينمـا نجد أن أكثر فيلسـوفين مشرعين تأثيرا كانا فردين فى عائلتين كانتا بالفعل تحكمان فى أيامهما ولايتى « واى wei » و «هان Han» على التوالى·ومن ثم فقد كان أمرا طبيعيا أنهما لا بد وأن يدافعا عن القضية لصـالح الحكام وليس لصالح الشعب ·

وحينما اتفق كل النقاد تقريبا على أن وجهة نظر المشرعين هى فى الحقيقة وجهة نظر الحاكم ، لا يمكننا أن نفترض أنهم أعلنوا أن سياساتهم نظام استبدادى ، اذ هم يذكرون لنا على النقيض من ذلك أنهم ، وهم وحدهم ، يعملون باخلاص لمصلحة الشعب (٣)· وهم فى الحقيقة ، كما يقولون ، يدافعون عن الحكومة الجادة ،ولكن الحكومة يجب أن تكون جادة لصالح الشعب ، تماما كالجند الذين يجب أن يموتوا للصالح العام أو كاللحم المصاب حول جرح يجب أن يجرح حتى يشفى الجزء المصاب · والحاكم يوقع العقاب على الشعب ، ويؤكد المشرعون أنه يفعل ذلك فقط لمصلحتهم الذاتية(٤)

وبرغم أن المشرعين كانوا ناقدين بصراحـة ومحتقـرين

---

(٣) وانج هسين شين : « هان فاى تزو تشى تشيه » ١٧/٧ أ ·
(٤) المرجع السابق : ١٨/١٠ أ ، ٢٠/٧ ب ·

للكنفوشيوسية الا أن كلتا الفلسفتين ، على الرغم من ذلك ، بهما بعض نقط مشتركة : اذ أن كنفوشيوس لم يرض عن فوضى الاخلال بالنظام فى عصره تماما كما فعل المشرعون ، وكان يؤيد المركزية برغم أنه كان يذم المنهج التشريعى فى تحقيقها ، وبرغم أن المشرعين قد هاجموا كنفوشيوس ، فقـــد كانوا يحترمون شهرته احتراما بالغا حتى ادعوا فى بعض كتبهم أنه قد تحول الى التشريع ، بل وتمادوا حتى وضعوا أحاديث تشريعية على لسانه (٥) • وفضـــلا عن هذا فقد تسلل التفكير التشريعى فى النهاية الى الكنفوشيوسيين بدرجة خطيرة ، حتى أننا نجد الأفكار التشريعية فى بعض الدراسات الكنفوشيوسية القديمة ، بل ان « المقتطفات الأدبية » تتضمن بعض الخطب التشريعية المعزوة الى كنفوشيوس والمدرجة فى أقدس دراسة من الدراسات الكنفوشيوسية القديمة • (٦)

ويشـــكل هسين تزو ضربا من جسر بين الكنفوشيوســـية والمشرعين ، وبرغم أنه عارض الأفكار التشريعية على هذه الصـــورة فان رأيه فى أن الطبيعة البشرية شريرة ، ونزعته التسلطية فى الأمور يميلان الى الاتجاه التشريعى ، وكان من أشهر تلاميذه اثنان مشرعان ، وكان أحدهما أعظم مشرع على الاطلاق •

كان موتزو يكره الحرب ، فى حين كان المشرعون يمجدونها • وعلى الرغـــم من ذلك فان مبدأه عن « الاندماج بالرئيس » الذي يتمسك بأن « ما يظن الرئيس أنه صـــواب يجب على الجميع أن يؤمنوا بأنه صواب ، وما يعتقد الرئيس أنه خطأ ، يجب على الجميع أن يؤمنوا بأنه خطأ» ، فيه تضمينات واضحة عن النظام التسلطى • وقد أيد موتزو أيضا نظاما يوصى الناس بأن يبلغوا عن « الأعمال

---

(٥) وانج هسين شين : «هان فاى تزو تشى تشيه» ٩/٩ ب ــ ١٠ أ ، ١١

(٦) كريل : « كنفوشيوس : الرجل والاسطورة » ص ص ٢٢٠ ــ ٢١ .

الخيرة والشريرة » التى يؤديها الغير فى مجموعاتهم الى رؤسائهم بطريقـــة فيهــا بعض الشـــبه بنظـــام المخبرين informers الذى استخدم فيها بعد فى ولاية تشن ٠

ومع ذلك فمع الطاوية يلاحظ أن المطابقـات مع المشرعين فى منتهى الوضوح ٠ ولأول نظرة يبدو هذا مثيرا لأعظم دهشة ، لأن الغرض الأساسى للطاوية ، كما هو معروف ، توكيد الاسـتقلال الذاتى للفرد ، وفضلا عن هذا ، كانت الطاوية تذم بمرارة كلا من الحرب والحكومة الظالمة ، فكيف اذن يمكن أن يكون للطاوية أية علاقة بفلسفة تعتقد أن الحرب مصير الانسان الطبيعى ، وتؤيد الســلطة الاستبدادية الكاملة ؟

هذا أمر غير معقول ما لم نتذكر أن الطاوية لها مظهران وليس من السهل أن يكون هناك وفاق فيما بينهما ٠ ونجد فى المظهـــر الثانى أن الطاوى الحكيم يأخذ على عاتقه أن يحكم العالم عن طـريق سلطاته الواسعة مثل تلك السلطات التى لل (طاو) نفسها ٠ويروى لنا أنه «يفرغ عقول الناس ويملأ بطونهم ويضعف من عزائمهم ويقوى من بنيتهم ٠ » (٧) واستشهاد المشرعين بمثل هذه الآراء واضح ، فقد كانوا يعتبرون الطاوية ضربا من الخلفية الميتافيزيقية لنظامهم ، وكيفما تراءى لهم كانوا يلغون أو يغيرون مالا يتفق وغرضهم ٠

والتشريعية كفلسفة : صعبة التعامل الى حد ما : ففى المقام الأول فان اسم « التشريعية » (الذى هو ترجمة قريبـــة للكلمة الصينية فاتشيا fa chia) ليس دقيقا ٠ ويهتم المشرعون بالقانون ولكن باعتباره وسيلة فحسب ، وليس الوسيلة الوحيدة ، لتحقيق أهدافهم ، وفضلا عن هذا فليس المشرعون « قانونيين » بمعنى أنهم يهتمون اهتماما رئيسيا بنص القانون وتفسيره ٠ ويوضح « فونج

(٧) «لاو تزو» : الفصل ٣ ٠

يو ــ لان Fung Yu-lan «توضيحا صادقا أنه « من الخطأ أن تربط فكر مدرسة المشرعين بالشريعة » (٨)

ولمثل هذه الأسباب أخذ بعض العلماء يتحدثون عن هؤلاء الفلاسفة على أنهم واقعيون ، وهم بهذا يعنون أنهم غير عاطفيين ، «شديدو التمسك برأيهم» ، ومن ثم فهم واقعيون ، ولكن هذا اللقب له صعوباته أيضا ٠ ولربما وافق المشرعون على أنهم واقعيون ،ولكن ليس من المؤكد أننا يمكن أن نوافق على ذلك ٠ لا شك أنهم رأوا جانبا من الحقيقة ، ولكن هل رأوها كلها ؟ هناك ، كما سنرى ، سبب يدفعنا الى أن نتساءل اذا كانوا قد رأوه ٠

ان أصدق كلمة وصفية يمكن أن يوصف بها هؤلاء الفلاسفة هى «التسلطيون authoritarians» أو من الأفضل أن نطلق عليهم « الكليين **totalitarians** » ما داموا يعلمون الناس أن كل فرد يجب أن يجبر على العيش والعمل والتفكير وأن يموت بناء على رغبة الحاكم ، كل هذا من أجل الدولة بغض النظر عن رغبات الفرد أو مصلحته ٠ ولكن ما دامت عبارة « الكلية » عبارة غير دقيقة فاننا سنتخلص من هذه العبارة ونلتزم بالتقليد ونستمر فى الاشارة اليهم على أنهم مشرعون ٠

ولكننا لا نستطيع أن نتحدث كما ينبغى (رغم أن هذا أمر قد انتهى) عن «المدرسة التشريعية» لأنه لم تكن هناك مدرسة تشريعية٠ ان هذا المبدأ الذى أكد السلطة دون أى مبدأ آخر ، كان وحده، من بين الفلسفات،ليس له من مؤسس معروف ٠ والمعروف أن « هان فاى تزو Han Fei Tzu » وهو أعظم المشرعين طرا ، لم يكن معلمه مشرعا بل معلمه هو « هسين تزو » الكنفوشيوسى ٠ ولم يكن هناك سوى رجال مختلفين وكتب مختلفة استطاعت بأساليب مختلفة

(٨) فونج يو ــ لان : «موجز تاريخ الفلسفة الصينية» ص ١٥٧ .

وبدرجات متفاوتة تأييد نوع التفكير الذى ندعوه «التشريع» ؛ ومما يزيد فى البلبلة هو أن بعض الفلاسفة وبعض الكتب قد صنفها بعض العلماء دون غيرهم على أنها تشريعية ، وفضلا عن هذا ، فان بعض الكتب التى أطلق عليها أنها تشريعية هى مجرد خليط ، فهى تحوى بعض أجزاء لا تتعرض للفلسفة التشريعية على الاطلاق ٠

ومما كان له دلالته هو أن معظم الأشخاص الذين يعدون مشرعين كانوا موظفين يحسنون استعمال السلطة الادارية الفعلية ٠ ولم يكن هذا صحيحا ، وعلينا أن نتذكر ذلك ، بالنسبة لكنفوشيوس أو منشيوس : اذ بينما كانا يتقلدان منصـــبين ، يبدو أنهما كانا يخدمان فقط بوصفهما « مستشارين » ، وكان هسين تزو ، وحده من بين زعماء الكنفوشيوسية هو الادارى العملى ، وقد انحرف فى بعض الوجوه تجاه التشريع ٠

ولعل أقدم فرد أطلق عليه اسم مشرع هو « كوان تشـــونج Kuan Chung » وكان رئيس وزراء مشـــهور فى القرن الســابع ق٠م ، ومع ذلك لم يكن دائما فى عداد المشرعين ، وصـــحة اللقب موضع شك ، وفى الوقت الذى لا يتوفر لدينا فيه قدر كبير من المعلومات عن آرائه ، يبدو أن بعضها أكثر شبها بالكنفوشيوسية ٠ ويعزى اليه تأليف كتاب معروف باسم كتاب «كوان تزو Kuan Tzu » وهو فى حقيقة أمره لا يعدو أن يكون تجميعا لمقالات كتبها كتاب متأخرون ، وبعض هذه المقالات يغلب عليها الأسلوب التشريعى فى حين أن بعضها الآخر بعيد البعد كله عن هذا الأسلوب ٠

وخلال هذه الفترة كان « شن بو ـ هاى Shên Pu-hai الذى توفى سنة ٣٣٧ ق٠م وزيرا فى عهد أسرة هان لمدة خمســة عشر عاما ، ويقال بأن البلاد فى أثناء ذلك الوقت ، كانت تحكم على أكمل وجه كما كانت جيوشها قوية ٠ وقد كان لكتاب يحمل اسمه

تأثير قوى فى عهد أسرة هان ولكن لا وجود له اليوم • لقد أكد أهمية المناهج الادارية الحكومية التى تدعى بالصينية « شو Shu » •

وقد عاش « شن طاو Shên Tao » فى نفس الوقت الذى عاش فيه منشيوس ، أى حوالى سنة ٣٠٠ ق•م ، وقد ولد فى « تشاو » ولكن كان عمله فى « تشى » ، ومع ذلك يبدو محتملا أنه لم يكن اداريا بالفعل •لقد كان طاويا ، فضلا عن أنه كان مشرعا ، وكان يؤكد أهمية ال « شيه Shih » أو السلطة والمنصب ، وسنتناولهما بالتفصيل فيما بعد • والكتاب المعزو اليه يعتبر كتابا مدسوسا عليه •

ويمكن التوسع الى حد كبير فى سرد أسماء المشرعين ومشاهير المشرعين ، ولكن هذا لا فائدة منه • ولربما كان أهم وأعظم المشرعين الأولين بكل تأكيد هو «شانج يانج Shang Yang » ويدعى أيضا « واى يانج Wei Yang » أو «كونج-سون يانج Kung-Sun Yang الذى توفى سنة ٣٣٨ ق•م وكان وثيق القرابة بالبيت الحاكم فى ولاية أخرى ولكنه كان يعمل موظفا تحت رئاسة رئيس وزراء ولاية « واى » • ويقال ان رئيس الوزراء هذا لما علم أنه مريض مرضا فتاكا ، طلب من حاكمه أن يعين شانج يانج خليفة له ، وحذر الوزير حاكمه بأنه اذا لم يتم هذا الأمر فلابد من اعدام شانج يانج نظرا لأنه سيكون عدوا خطيرا لو سمح له بخدمة ولاية أخرى • ولكن بناء على ما ذكرته الرواية لم يحقق له حاكم ولاية « واى » أى الطلبين ، الأمر الذى أحزنه •

وقد حدث بعد ذلك بفترة قصيرة أن سمع شانج يانج أن أميرا فى الولاية الغربية ل « تشن » كان يبحث عن رجل ليعاونه فى تقوية ولايته وفى أن يزيد من قوته العسكرية•فاتجه شانج يانج الى تشن، وما لبث أن نال حظوة لدى الأمير وأسند اليه منصبا ، فاقترح اصلاحات شاملة ، وقد عارضها الوزراء الآخرون ولكن أخذ بها فى

النهاية . وتذكر لنا « السجلات التاريخية » التى دونت فى عهد أسرة هان ، ما يلى :

« كان قانونه ينادى بأن يرتب الناس الى مجموعات من الاسر التى يجب أن تكون مسئولة بالتبادل عن السلوك الطيب ازاء بعضها بعضا وتشارك بعضها البعض فى العقوبات . وكل فرد لا يبلغ عن مجرم يجب أن يشطر شطرين عند الوسط ، وأى فرد يبلغ عن مجرم يتلقى نفس المكافأة التى يتلقاها الشخص الذى يقطع رقبة جندى من الأعداء . وكل من يأوى مجرما يتلقى نفس العقوبة التى يتلقاها من يستسلم للعدو . والأسرة التى بها فردان بالغان يجب أن تقسم أو تدفع ضرائب مزدوجة . والبسالة العسكرية يكافىء عليها الحاكم بألقاب النبالة ، طبقا لجدول ثابت ، وأولئك الذين يحاربون بعضهم بعضا لوجود حزازات شخصية يعاقبون طبقا لجسامة اعتداءاتهم . والكل ، صغيرا كان أم كبيرا ، يجب أن يجبروا على العمل فى أعمال رئيسية فى الفلاحة والنسج ، وأولئك الذين ينتجون قدرا كبيرا من الحبوب أو الحرير يمكن أن يعفوا من الأعمال الشاقة وأولئك الذين كانوا ينشدون الكسب عن طريق الوظائف الثانوية (التجارة والحرف) ، والكسالى والمعدمون ، يصبحون عبيدا . وأفراد الأسرة الحاكمة يجب ألا يعتبروا منتمين اليها ما لم يظهروا موهبة عسكرية .

« وقد أوضح القانون بوضوح الفوارق بين السامى والحقير ، وبين مختلف الدرجات فى سلم الترقى ، كما تناول أيضا : الأراضى والخدم ، الذكور منهم والأناث ، والكساء المصرح به لمختلف الأسر وفقا لهذا السلم . والأشخاص ذوو المواهب يجب أن يكرموا ولكن أولئك الذين لا مواهب لهم ، حتى لو كانوا أغنياء ، يجب ألا يمنحوا أية امتيازات .

« وبعد أن دون القانون لم ينشره شانج يانج على الفور اذ كان يخشى من أن الناس قد لا يثقون فيه . ولذا جاء بقائمة خشبية

طولها ثلاثون قدما وأقامها قرب البوابة الجنوبية للعاصمة • ولما جمع الناس قال انه سيعطي عشرة مكاييل من الذهب لأى فرد يمكن أن ينقل القائمة الخشبية الى البوابة الشرقية ، وتعجب الناس من هذا ، ولكن لم يجرؤ أحد على نقلها ، فقال شانج يانج بعدها: «سأعطى خمسين مكيالا من الذهب لأى فرد يمكن أن ينقلها ، فلما نقلها رجل أعطاه شانج يانج على الفور خمسين مكيالا من الذهب ليبرهن على أنه لا يخدع الناس • » (٩)

وذكر منح الألقاب للموهبة العسكرية يؤكد ، فى الحقيقة ، ماذا كان الغرض الرئيسى لهذا الاصلاح • لعلنا نذكر أنه كان هناك اتفاق عظيم بين مختلف الولايات على ادارة الصين كلها • ولقد كان رأى الكنفوشيوسين أن مثل هذه الادارة يمكن أن تتحقق بالفضيلة • ورد المشرعون بأن هذا محض حماقة وأن الطريق لتملك البلاد هو أن تغزوها ، ولكى تفعل هذا ، على المرء أن يعمل على اثراء ولايته وينظمها أحسن تنظيم ويحيل شعبها الى جند •

وقد وجد شعب تشن أن التعليمات الجديدة قاسية وانتقدوها• وقام ولى العهد بخرق القانون ، وليكون عبرة ، أنزل شانج يانج العقاب بمؤدب ولى العهد كما أمر بوسم معلمه ، وبعدها احترمت القوانين ، ثم امتدح بعض الناس القوانين فنفاهم شانج يانج لأنهم تجرءوا وقالوا أى شىء عن القوانين ، وصارت تشن شديدة المحافظة على النظام •

وكانت لاصلاحات شانج يانج ، اذا كانت سجلاتنا أمينة ، أهداف عديدة • وقد تحولت تشن من مجموعة أصقاع اقطاعية صغيرة

---

(٩) ديفنداك : «كتاب لورد شانج» ص ص ١٤ ـ ١٦ ، تاكيجاوا كاميتارو: «شيه تشى هوى تشوكاو تشنج» ٦٨/٧ ـ ٩ •

الى ولاية مركزية قوية منظمة تنظيما بيروقراطيا ، وقل نفوذ الأسر الأريستوقراطية الى حد بعيد ، وأنشىء نظام جديد لدرجات الترقى على يد رجال مشهود لهم بمهارتهم العسكرية • وفى نفس الوقت كان استخدام الأسلحة فى السلب والنهب وفى المشاجرات الخاصة (أعنى التى لا تخدم الولاية) يعاقب عليها عقابا عسيرا وكانت هذه محاولة لتقويض أسر الزعماء ، وذلك عن طريق اجبار أفرادها على أن يعيشوا منفصلين تحت تهديد زيادة الضرائب وبأن يجعلوا من بين أفراد الأسر من يتجسسون ويعملون كمخبرين ضـــد بعضهم البعض • وشجعت الزراعة والنسج بينما لقيت التجـــارة (التى تعتبر غير منتجة) تثبيطا ، وتغير نظام الضرائب ووحدت الأوزان والمكاييل (١٠) •

وقيل أيضا ان شانج يانج أدخل نظام الملكية الخاصة فى الأرض ليكون مقابل الوضع الاقطاعى الذى كان فيه أولئك الذين يزرعــون الأرض يقومون بهذا العمل لصالح السيد الذى كان بدوره يستأجرها من سيده الأكبر منه شأنا • ولعل هذا التغيير قد حدث فى تشن ، ولكن بعض العلماء قد ذكروا حديثا أن هذا كان تطورا تدريجيـــا وأنه شمل الصين بأسرها نتيجة لتدهور النظام الاقطاعى •

وجعل شانج يانج ولاية تشن غنية وجيوشها قوية،وكانت على حدودها الشرقية أراضى معينة كانت موضع شجار طويل بين «تشن» و «واى» • وفى سنة ٣٤١ ق٠م بعد أن غزيت «واى» على يد ولاية أخرى ، قاد شانج يانج جيش تشن ليغزو به «واى» • ولعلنا نذكر أن « واى » كانت ولاية سبق أن عمل بها شانج يانج أصلا ، ومن ثم فقد تعرف شخصيا على الأمير الذى قاد جيش « واى » ضده • فاقترح شانج يانج على الأمير أن يتلاقيا ويسويا ما بينهما من مشاكل

(١٠) ديفنداك : « كتاب لورد شانج » ص ص ٣٩ — ٤٠ •

كأصدقاء تربط بينهما صداقة قديمة • فوافق الأمير ولـكنه وقع فى كمين كان قد دبره له شانج يانج ، وألقى القبض على الأمير وأبيد جيشه واستولت « تشن » على الأرض مثار النزاع •

وأنعم على شانج يانج بلقب النبالة ومنح اقطاعية كبيرة ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن محبوبا بوجه عام فى تشن ، ويقال ، فى الحقيقة أن قوانينه القاسية قد جعلته غير محبوب بين الجمهـــور حتى أنه لم يكن يجرؤ على أن يخرج دون أن يكون فى رفقة ثلة صغيرة من الحرس • ولما توفى السيد حاكم تشن ، خلفه ولى العهد الذى قام شانج يانج بعقاب معلميه ، فكان على شانج يانج أن يهرب وأخيرا قيل انه قتل وأن العربات الحربية قد قطعته اربا •

وقد وصل الينـــا الكتاب المسمى « بكتاب لورد شـــانج The Book of Lord Shang » الذى يظن أن شانج يانج قد كتبه، وجدير بالذكر أن ديفنداك Duyvendak الذى درسه وترجمه ، لا يعتقد أنه قد دون أى جزء فيه ، فهو خلاصـــة كتابات عدد من المؤلفين المشرعين جديرين بالاهتمام ولهم قيمتهم رغم أنه من الصعب تأريخهم تأريخا صحيحا (١٠)

ومن وجهة النظر العقلية ، كان أهم المشرعين قاطبة « هـــان فاى تزو » الذى توفى سنة ٢٣٣ ق•م وكان فردا من أفراد الأسرة الحاكمة فى ولاية هان التى كانت تقع الى الشرق من تشن • وقد أدت به عقدة فى لسانه الى أن يتجه الى الكتابة كوسيلة للتعبير ، وصار طالبا نهما وبخاصة فيما يتصل بدراسة القانون والحكومة ، وكان على علم تام بمن سبقوه فى تطوير النظرية التشريعية ، ولكنه درس على يد الكنفوشيوسى «هسين تزو» • وكان زميله فى التلمذه

---

(١١) ديفنداك : «كتاب لورد شانج» ص‌ص ١٣١ ــ ٥٩ •

على «هسين تزو» شخصا يدعى «لى سو Li Ssü »وكان في نفس عمره تقريبا ، وقد بدأ حياته كاتبا فى الحكومة فى ولاية تشو ، ويقال بأن « لى سو » كان يعلم أنه أقل كفاءة من « هان فان تزو » وهذا محتمل جدا لأنه لا توجد موازنة فعليه بينهما ٠

وكان « هان فاى تزو » مهتما اهتماما بالغا بضعف الولاية مسقط رأسه وكان باستمرار يحث حاكم هان على أن يقويها ٠ وعلى الرغم من أن برنامجه كان شبيها الى حد ما ببرنامج شانج يانج ، الا أن هان فاى تزو كانت له آراؤه الخاصة ولم يتبع أى نموذج دون فحص ٠ ولم يعره أحد اهتماما ٠ ولما ذهب كلامـــه أدراج الرياح وتملكه الغيظ ، صب أفكاره فى عدة مقالات مطولة ، ووصلت اثنتان منها الى أيدى حاكم « تشن » فقال متعجبا : « آه ، لو أتيح لى فقط أن أرى هذا الرجل وأتعرف عليه ، فانى لن آسف على المـوت » وقد أتيحت له هذه الفرصة سنة ٢٢٣ ق٠م عندما بعث بـ « هـــان فاى تزو » الى ولاية تشن مندوبا عن هان ، فأحب حاكم تشـــن الرجل كما أحب كتاباته وفكر فى أن يعرض على « هان فاى تزو » منصبا فى حكومته ٠

وكان زميل هان فاى تزو السابق فى الدراسة وهو «لى سو» يعمل فى ولاية تشن منذ ما يقرب من أربعة عشر عاما ، وكان واحدا من وزرائها ، ولعله أزعجه توقع أن يصبح النابغة « هان فاى تزو» منافسا له ، وربما كان يخشى أصلا من أنه لن يكون وفيا لـ (تشن) ٠ وعلى أية حال أوضح أن « هان فاى تزو » لا يتوقع منه تمـــاما أن يشترك فى خطط لغزو ولايته ، ومن ثم فقد زج بالفيلسوف فى غياهب السجن ٠ ولما حل بالسجن ، عمل « لى سو » على دفعه الى أن ينتحر (١٢) ٠

---

(١٢) تاكيجاوا كاميتارو : « شيه تشى هوى تشو كاو تشنج » ٦٣ / ١٤ ــ ٢٨ ٠

ويعطينا الكتاب المعنون « هان فاى تزو » أكمل وأنضج صورة للفلسفة التشريعية . وهو يتضمن ، فى صورة أقرب من صورته الأصلية ، عددا من مقالات هان فاى تزو . ولكن لم يكن هذا هو كل ما احتواه . وهذه المقالات مختلطة بعدد ضخم من الكتابات التشريعية الأخرى ، وبعض مواد ليست تشريعية بالمرة . ولهذا يجب أن نستعمل هذا الكتاب بحذر .

وعلى شاكلة مؤيدى الفلسفات الأخرى كان المشرعون لهم روايتهم الخاصة للتاريخ ، ولكن كانت روايتهم فى كثير من الوجوه مشابهة بصورة ملحوظة حتى لرواية خصومهم الرئيسيين الكنفوشيوسيين ، ولم ينكر المشرعون (كما يمكن أن يتوقع منهم) أن الامبراطورين الحكيمين : « ياو » و « شن » لم يكن لهما وجود بالمرة أو أنهما تنازلا عن العرش أو أن الناس كانوا أفاضل بوجه عام أثناء حكمهما ، ولكنهم دونوا تفسيرا مختلفا لهذه الأمور ، فقد كتب « هان فاى تزو » :

« لم يقم الناس فى العصور القديمة بفلاحة التربة ، ولكنهم كانوا قادرين على جمع غذائهم من النباتات والأشجار ، ولم تقم النسوة بالنسج لأن جلود الطيور والحيوانات كانت كافية لكسائهم . وبدون أن يعملوا تمتعوا بالكثير نظرا لأن الناس كانوا أقلية والسلع وفيرة ، وهكذا لم يكن هناك تنافس . ولم تستخدم المكافآت السخية ولا الأشغال الشاقة، ومع ذلك فقد كان الناس يحافظون على النظام . ولا تعد الآن الأسرة التى بها خمسة أطفال بالأسرة الكبيرة وكان لكل أسرة خمسة أخرى فوق هذه الخمسة . ومن ثم كان للجد ، وهو على قيد الحياة ، خمسة وعشرون حفيدا . ولهذا السبب كانت البضائع نادرة والناس كثيرين حتى أنهم ، برغم اشتغالهم

بجد ، كانوا لا يزالون يحيون حياة فقيرة • ولهذا كان النـــاس ينافس بعضهم بعضا ، وعلى الرغم من أن المكافآت قد ضـــوعفت والعقوبات قد زادت ، فانه من المستحيل التخلص من الاضطراب •

« عندما حكم ياو الامبراطورية كان يعيش فى كوخ سقفـه من قش غير منسق وكتل خشب السقف من خشب البلوط غـــير المدهون • وكان يأكل العصيدة المصنوعة من الذرة العويجة وكان حساؤه يصنع فقط من الخضروات • وكان غطاؤه فى الشـــتاء من جلد الغزال ، وفى الصيف يرتدى القماش الخشن • ولم يكن كساؤه وغذاؤه أفضل من كساء وغذاء حارس بوابة • وعندما صار « ياو » امبراطورا قدم للناس نموذجا بأن قام بنفسه بحرث الأرض فى مزرعة عمل ، وبينما كان يشتغل كانت تبدو فخذاه نحيفتين وقد زال الشعر عن قصبتى رجليه • ولم تكن هناك أعمال سخرة أشق مما فعله •

« وواضح ، فى ضوء هذا أن أولئك الذين تنازلوا عن العرش فى العصور القديمة كانوا فى الحقيقة يتخلون عن عيشة حارس البوابة ويتخلون عن أعمال السخرة • وسلوكهم من الصعب أن نقـــول انه جدير بالمديح الزائد ، ومع ذلك فاليوم نجد أن مجرد قاضى مركز يجمع ثروة طائلة حتى يمكن لحفدته أن يحتفظوا ، لأجيال كثيرة بعد وفاته ، بعربات ، ولهذا السبب فان مثل هذه المناصب لهـــا قدرها • وهذا هو السبب الذى من أجله تنازل الأباطرة عن عروشهم فى استخفاف ، من قديم الزمان ، فى حين أننا نجد اليوم حتى قضاة المراكز يتمسكون بمناصبهم ، والأمر مجرد موضوع تغيير قيمة مثل هذه المناصب فحسب » (١٣)

---

(١٣) وانج هسين ـ شين : « هان فاى تزوتشى تشيه » ١٩/١ب ـ ٢ب

ويذكر هان فاى تزو أنه فى الأزمنة القديمة كان فى استطاعة الناس أن يكونوا شفوقين ومؤدبين لأنه لم يكن هناك الكثير منهم • ولهذا كان من المفيد ، فى العصور القديمه ، بالنسبة للحكام أن يكونوا محبين للخير وعادلين ، وفى تلك الأيام كان من الممكن أن يأمل المرء فى أن يصبح ملكا وفقا لهذا المنهج (١٤) •

وفى ناحية واحدة انتقد « هان فاى تزو » فى مرارة الحكام الذين كان الكنفوشيوسيون يكبرونهم • لقد اتهمهم فى الحقيقة بافساد العالم • أما « ياو » و « شون » ففى تنازلهما عن عرشهما للشعب ، عاملا رعاياهما كما لو كانوا حكاما ؛ ومؤسسا أسرتى « شانج » و « تشو » ، اللذان امتدحهما الكنفوشيوسيون لأنهما أنجزا رسالة مقدسة بانقاذ الناس من الطغيان ، قد قاما فى الحقيقة باغتيال حكامهما ، ومن ثم فقد قللا من احترام السلطة الدستورية (١٥) وهنا نرى بوضوح « هان فاى تزو « الأمير ، وهو يخشى من الهجوم الموجه الى كرامة الطبقة التى ينتمى اليها •

ويقول هان فاى تزو ، انه حتى فى العصور القديمة قد وجدت أساليب مختلفة ، ضرورية فى مختلف الفترات ، ولكن الى أى مدى كان هذا صحيحا حينما تغيرت الأزمنة تغييرا جذريا ؟ وهو يقص قصة فلاح شهد مرة أرنبا يصطدم بشجرة فسقط مغشيا عليه ، وقضى بقية حياته فى الانتظار خلف نفس الشجرة على أمل أن مزيدا من الأرانب قد تفعل نفس الشىء • ويقول ان هذا هو تماما موقف الكنفوشيوسيين الذين كانوا يتوقعون أن تعود الظروف القديمة • (١٦)

ويلقى « هان فاى تزو » جانبا كبيرا من اللوم لوجود هـــذا

---

(١٤) وانج هسين شين : « هان فاى تزوشى تشيه » ١٩/١٣ •
(١٥) المرجع السابق : ٢٠/١ •
(١٦) المرجع السابق : ١٩/١ •

الاضطراب فى العالم على مثل أولئك « العلماء القليلى الفائدة »الذين يفترون على حكامهم بامتداح العهد القديم ويضيعون الوقت فى مناقشات لا طائل تحتها (١٧) وكلما زاد عدد المواطنين الدارسين كلما قل توفير الطعام وامكان تقوية الولاية واثراء الحاكم ٠ بل يتمسك « هان فاى تزو » بأنه حتى دراسة فن الحرب مضرة ٠وكلما زاد عدد أولئك الدارسين للاستراتيجية كلما قل عدد الجند الذين يمكن أن يقذف بهم الى خط المعركة ٠ (١٨)

وهكذا كان من الواجب ، كما ذكر ، أن يوقع العقاب على العلماء وأن يتخلوا عن مهنتهم الضارة وأن يقوموا بعمل مفيد ٠ ويشكو من أن الحكام بدلا من أن يفعلوا ذلك يتنافسون فيما بينهم ليكرموا مثل هؤلاء الناس ، وهذا يؤدى بطبيعة الحال الى أن يحذو الآخرون حذوهم ٠ واذا ما أمكن المرء أن يصبح ثريا وقويا عن طريق الدراسة فحسب دون أن يعانى مشقة الكدح أو المخاطر ، فمن لا يفضل أن يصير طالبا ؟ وهكذا تخلى كثير وكثير جدا من الناس عن متابعة الانتاج فأضعفوا الولاية واقتصادياتها ، وقد سبب هذا اضطرابا عاما ٠ وفضلا عن هذا فقد حذر « هان فاى تزو » الحكام الذين يكرمون العلماء الأفاضل من أنهم، برغم أن أصلهم من عامة الشعب، هم فى الحقيقة يحطون من قدر طبقتهم الخاصة ، ومن ثم يشكلون خطرا على مناصبهم الشخصية (١٩) ، ويتمادى الى التشهير بالأدب بوجه عام معلنا أنه « فى الولاية التى يكون حاكمها ذكيا ، لن تكون هناك أية كتب ، ولكن القوانين تقوم مقام التعاليم ، ولا توجد أقوال مأثورة للملوك السابقين ، ويقوم الموظفون مقام المعلمين» (٢٠)

(١٧) انج هسين شين : « هان فاى تزو تشى تشيه » ١٩/٨ ب ٠
(١٨) المرجع السابق : ١٩/٨ ب ٠
(١٩) المرجع السابق : ١٨/١ ، ١٩/١٧ ــ ١٩ ٠
(٢٠) المرجع السابق : ١٩/٩ ١ ٠

وكان « هان فاى تزو » يشـــــهر باســـتمرار بالمووين مع الكنفوشيوسيين ٠ كما حكم على أن من كانوا من المفسدين لعصره : المتحدثون الذين ينمقون حديثهم والسفلة والتجار والصناع الذين يجنون مكاسب على حساب الفلاحين ، والموظفون العموميون الذين يخونون أماناتهم من أجل مكاسبهم الشخصية (٢١) ٠ وكانت وجهة نظر المشرع للطبيعة البشرية مختلفة اختلافا تاما عن وجهة نظـر الكنفوشيوسيين ٠ فقد ذكر منشيوس ، كما سبق أن رأينا ، أن طبيعة الانسان خيرة فى حين أكد هسين تزو أنها شريرة ، ولكن على الرغم من أن هسين تزو كان يعتقد أن كل الأشخاص قد ولدوا وهم « أنانيون ، فاسدون وآثمون » ، الا أنه يؤمن بأنهم يمكن أن يســتحيلوا بالتعليم الى كائنات فاضلة تماما وجديرة بالتقدير ٠ وفى مناقشاتنا لهسين تزو لاحظنا أن هذا الانتقـــال غامض بعض الشىء نظرا لأن المعلمين أنفسهم كائنات حية ومن ثم فهم أصلا أشرار، ويستبعد هسين تزو ، عن قصد ، تدخل أى عامل غير بشرى ٠

وكان هسين تزو ، كشأن معظم المشرعين ، موظفا اداريا عمليا ولعله قضى جانبا من عمره يشغل أرقى منصب بين ضباط الشرطة ، وهناك رجال شرطة لهم وجهة نظر تفاؤلية بالنسبة للطبيعة البشرية ولكنهم ندرة ، اذ جعلتهم خبرتهم ينظرون الى الجنس البشرى بوجه عام نظرة تشكك ٠ وكان هسين تزو متشككا ، ولكنه بوصفـــه كنفوشيوسيا وجد دستورا لحل المشـــكلة : ببعض التضحية من جانب المنطق ٠ وكان تلميذه « هان فاى تزو » من هذه الناحية ، منطقيا حازما ، وعلى شاكلة المشرعين الآخرين قبل وجهة النظر التى تقول بأن الناس وصوليون self-seeking ولا يحـــاولون ان يخففوا من ذلك فى أية صورة ٠ وقال :

---

(٢١) وانج هسين شين : «هان فاى تزو تشى تشيه» : ١٩/١١ ــ ١٢ أ.

« ويمكن أن تحكم الامبراطورية بالاستفادة من الطبيعة البشرية فحسب» · والناس لهم ما يحبونه وما يكرهونه ، وهكذا يمكن التحكم فيهم عن طريق المكافآت والعقوبات · وعلى هذا الأساس يمكن تطبيق المحظورات والأوامر ومن ثم أقيم نظـــام كامل للحكومة · ان كل ما يحتـــاج اليه الحاكم هو أن يلتزم بهـــذين العـــاملين (المكافآت والعقوبات) بحزم كي يحافظ على سيادته ·· هذان العاملان هما قوة الحياة والموت·والقوة هي المادة التيتبقى الجماهير خاضعة»(٢٢)

وحتى داخل نطاق الأسرة كان « هان فاى تزو » يؤمن بأن البحث عن المصلحة الخاصة هي القاعدة ، وكتب يقول « اذا ما ولد طفل فان أباه وأمه يهنئان بعضهما بعضا ، ولكن اذا ولدت بنت فانهما يقتلانها ·· والسبب في هذه التفرقة في المعاملة هـــو أن الأبوين يفكران في راحتهما الأخيرة ويحســـبان ما سيكسبانه في في النهاية · وهكذا نجد حتى موقف الوالدين تجاه أطفالهم يحدده حساب المكسب · هل من وضع أكثر من وضع صـــلات القرابة هذه التي لا تتسم بالحب المفروض قيامه بين الأب وطفله ؟ » (٢٣) ·

واذا كانت الطبيعة البشرية من هذا النوع ، فمن الواضح أنه من الحماقة والخطورة الاعتماد على مثل هذه الفضائل كعرفان الجميل والولاء في نطاق العمل السياسي · ويؤكد « هان فاى تزو » ، في الحقيقة ، أن الرعايا والوزراء قد خلقوا هكذا حتى أنهم جميعهم ، بلا استثناء ، سيغتالون رؤساءهم ، ويحلون محلهم استمتاعـــا بسلطتهم وثروتهم ، اذا كانوا قادرين على أن يفعلوا هذا دون أن يقع بهم عقاب · ورقابة الحاكم الشديدة والكبت الصارم لهـــذه الميول التي يؤكد « هان فاى تزو » وجودها حتى في أكثر مستشاريه ثقة،

---

(٢٢) وانج هسين شين : «هان فاى تزو تشي تشيه» ١٨٠/١٢ ب ــ ١٣ أ

(٢٣) المرجع السابق : ١٨/٢، ·

ستمكنان الحاكم من أن يسترد نفوذه أو حتى حياته • (٤٢)

وتبدو سيكولوجية المشرعين أكثر شبها بالتحليل الذى قد يخرج به مدرب الأسود والنمور من حراسته ، ويقال (ومؤلف هذا الكتاب ليست لديه معلومات أصيلة عن تدريب الأسود) ان القطط الكبيرة لا يمكن أن تستأنس فى الحقيقة ، ولكن يجب أن ينظر اليها دائما فى تشكك وأن تكون عليها رقابة عن طريق المكافآت والعقوبات• هذا هو أسلوب المشرعين الفنى مع الكائنات البشرية • فهل التحليل والأسلوب الفنى صحيحان ؟

من المؤكد أنه صحيح اذا كان الدافع الذاتى **self-interest** مفهوما بالمعنى العريض ، أن كل فرد يعمل من أجل الدافع الذاتى • لقد عرفت امرأة قالت انها لن تقترف أى عمل غير أمين لأنها تريد أن تصعد الى السماء ، وهناك آخرون يكفون عن أن يقترفوا أعمالا غير أخلاقية لأنهم يقدرون احترام أولئك الذين حولهم أكثر مما يقدرون ما قد يكسبونه من وراء مثل هذه الأعمال • وبعض الناس سيفعلون ما يظنون أنه صواب حتى لو لم يعرف أحد قط عن أعمالهم شيئا لأنهم يقدرون الدافع الذاتى ، ومثل هؤلاء الأشخاص يقولون أحيانا : «اننى لن أذوق النوم بالليل لو فعلت ذلك» •

كل هذه البواعث الأخلاقية يمكن أن تفسر فى عبارات الدافع الذاتى ، ولكن فى هذه الأمثلة كان الدافع الذاتى يحسب حسابه بأساليب خاصة ومعقدة • وأولئك الذين يدرسون سيكولوجية الحيوان يعرفون أن مثل هذه العوامل كالأفعال المنعكسة الشرطية والبواعث البديلة تجعل حتى العمليات السيكولوجية للحيوانات صعبة ، وتلك الخاصة بالكائنات البشرية أكثر تعقيدا الى حد كبير •

وقد يكون نقد الكنفوشيوسيين لسيكولوجية المشرعين ، لهذا

---

(٢٤) المرجع السابق : ١٦/١٠ ب - ١١ .

السبب ، هو أنها بسيطة جدا الى أبعد الحدود · وهي لا تأخذ في اعتبارها ما يؤكده كل كنفوشيوسى : عظمة قوة التعليم في تحويل الكائنات البشرية وجعلها اجتماعية · ولا تعترف انه ، بينما يدفع الناس ، في الحقيقة تماما ، دافع الرغبة ، فهم قد يتمنون كافة أنواع الأشياء : قد يرغبون مثلا في أن يكونوا محل ثقة ، أكثر من رغبتهم في المال · وهكذا قد يقول الكنفوشيوسيون ان الزعيم المخلص هو الذى يجعل رعاياه يشعرون بأنه يعتمد عليهم ، وبذا يمكن أن تكون خدمتهم له أكثر أمانة مما لو كان حاكما أكثر ذكاء يستغل رعاياه فقط واعدا اياهم بمكافآت كبيرة ويهددهم بالعقوبات الصارمة ليحقق أغراضه ·

وقد سجلت النظرية التشريعية ثلاثة أمور يجب على الحاكم أن يتبعها ليحكم العالم حكما صحيحا : أولاها « شيه Shih » التى تعنى كلا من السلطة والمركز ، وثانيها « شو Shu » ومعناها الأساليب الادارية ، وثالثها « فا Fa »ومعناها القانون · وقد اهتم بعض المشرعين اهتماما خاصا بواحدة من هذه ، واهتم البعض بغيرها ·

ومما يوضح أهمية ال « شيه » وهي السلطة والمركز هو أنه حتى الأباطرة الحكماء كانوا عاجزين عن أن يضمنوا طاعة الناس حتى يجيء الوقت الذى يعتلون فيه العرش ، في حين أن الحكام الذين هم أقل جدارة منهم قد ضمنوا الطاعة · وهكذا كانت النتيجة هي أن الفضيلة والحكمة لا يعتد بهما اذا ما قورنتا بالسلطة والمركز

وفي اصرار المشرعين على أن ادارة شئون الحكم تستلزم الالمام بالأساليب الادارية أى ال « شو » ، كان المشرعون أرسخ قدما في منافسة الكنفوشيوسيين لهم · وعلى الرغم من أن كنفوشيوس قد أصر على أن مجرد التعليم لم يكن بذات قيمة ما لم يكن في استطاعة صاحبه أن يستغله في الادارة الصحيحة للحكومة ، فقد اهتم اهتماما

أساسيا بالفضيلة باعتبارها الشيء الرئيسي المطلوب للاداري الصالح .
لقد حافظ الكنفوشيوسيون على حرفية تعاليمه ولكنهم نسوا الكثير من روحه ، حتى أصروا في النهاية على أن كل ما يحتاج اليه الاداري هو الفضيلة والالمام ببعض كتب معينة من كتب الدراسات القديمة، ولكن لما صارت الولايات أكبر وأكثر تركيزا وصار النشـــاط الاقتصادي أكثر تعقيدا ، صارت ادارة الحكومة تتطلب معرفة فنية خاصة ومهارات خاصة أيضا . وقد أدرك المشرعون هذا ، ولعل هذا هو السبب الرئيسي في أن ظلت الحكومة الصينية أشد تأثرا بحركة المشرعين بعد انقضـــاء مدة طويلة لم يعد فيها في الحقيقة وجود لحركة المشرعين كفلسفة متطورة .

وأما بالنسبة للأمر الثالث ، وهو القانون ، فيلاحظ أن الخلاف بين المشرعين والكنفوشيوسيين لم يكن أقل حدة . ويلاحظ هنا أن الموقف الكنفوشيوسي قد نشأ بلا شك من الوضع الذي كان قائما في عهد الاقطاع حيث كان مالك الأرض يباشر سلطة شرعية تكاد تكون غير محدودة ، على الفلاحين الذين يعملون في أملاكه . واذا كان قاسيا ، فواضح أن من المرغوب فيه أن تكون سلطته محـــدودة بدستور قوانين محكم ؛ ولكن لو كان صالحا وعاقلا ، فان مثل هذا الشخص الذي يتحكم في رفاهية عدد صغير من الناس معروفين جميعهم له شخصيا قد يكون قادرا على أن يقيم العدل المكين لو أتيح له التعرف الكامل على كافة الظروف الخاصة، ويصدر حكمه على أساس من ادراكه الشخصي الحسن الذي يحدده العرف فقط . هذه هي وجهة نظر الاجراء القانوني الذي اتخذه الكنفوشيوسيون بانتظام: ولهذا فقد اهتموا بأن تســـند اقامة العدل الى الأشخاص الصالحين العاقلين بدلا من حصر اقامته بدساتير القانون .

ونظرا لأن الوحدات السياسية صارت أكبر ، ولم يكن الموظفون في الحقيقة على علم شـــخصيا بكل أولئك الذين كانوا في دائرة

اختصاصهم ، صار وجود دساتير القانون أمرا لا غنى عنه • وقد قبل الكنفوشيوسيون هذه الحقيقة في تذمر ، ولكنهم مع ذلك كانوا يهتمون اهتماما أساسيا بأن يكون الحكم فى يد أشخاص بدلا من أن تكون السيادة للقوانين •

وكانت المحاكم الصينية حتى نهاية أسرة مانتشو Manchu تتبع أسلوبا يختلف كل الاختلاف عن الأسلوب المتبع فى عصرنا ، فلم يكن نظر الدعوى فيه نزاع بين محامى الاتهام والدفاع ،ويفصل فيها قاضى يصدر حكمه طبقا لما ورد بالدستور ، بل كانت فى الحقيقة عبارة عن تحقيق تقوم به المحكمة فى حقائق القضية بما فى ذلك كل ظرف مخفف أو مشدد ، ويعقب ذلك قرار صادر فى ضوء القانون والعرف وكافة الظروف • واذا كان هذا النظام يبدو مختلفا تمام الاختلاف عن نظامنا ، فاننا يجب أن نذكر أن كثيرا من المحاكم الغربية قد أضافت حديثا الى موظفيها موظفين للمراقبة ، عملهم تماما هو فحص كافة ظروف القضية والتوصية باتخاذ اجراء تمشيا مع هذه الظروف ، وهذا اجراء يرحب به على أنه تقدم عصرى ضخم •

وغالبا ما كان هناك من اتهام بأن المحاكم الصينية التقليدية كانت عاجزة وفاسدة ، ولكن المشرع الفرنسى المشهور « جان ايسكارا Jean Escarra » الذى قضى بضع سنوات فى دراسة نظام التشريع الصينى ، يناقش هذا الاتهام فيقول انه فى بعض الحالات ، يكون مرد ذلك الى حقيقة أن المحاكم الصينية قد تضع الانصاف والعدالة الاجتماعية فوق حرفية القانون • لقد اكتشف أن النظام القضائى التقليدى فى الصين (الذى كان أساسه كنفوشيوسى) جدير بالمزيد من التقدير لا النقد •» (٢٥)

وكما كنا نتوقع ، لقد أثنى هسين تزو كثيرا على القانون أكثر من أى كنفوشيوسى غيره من الكنفوشيوسيين الأولين • ولكن حتى

(٢٥) ايسكارا : «القانون الصينى» ص ٧٩ .

هسين تزو يشير الى أن القوانين لا يمكن أن تفرض نفسها ، ويؤكد بأنها أقل اهمية بكثير من الرجال الصالحين لتنفيذها • وفضلا عن هذا يقول انه لو كانت كافة ظروف قضايا معينة لا تقدر تقديرا دقيقا ، اذن فان تلك القضايا التى لا يسعفنا فيها القانون ستكون معالجتها معالجة خاطئة بكل تأكيد • » (٢٦)

لقد كان المفهوم التشريعى للقانون فى بعض الوجوه أكثر شبها بذلك المفهوم عند الغربيين منه بالمفهوم الكنفوشيوسى ، ولكن كان هدفه مختلفا تمام الاختلاف عما نفهم أن يكون بوجه عام هدفا لقانون • ففى رأينا أن « تحفظات القانون » تعنى حماية الفرد ضد ابتزازات الحكومة غير المحدودة ، ومع ذلك فقد كان المشرعون ينظرون الى القانون على أنه أداة رقابة كاملة للحكومة على كافة المواطنين • لقد كانوا يريدون قوانين ثابتة واضحة معروفة للجميع• وفى الحقيقة لقد أدى هذا الى تنظيم نشر بيان دقيق عن المكافآت والعقوبات حتى يمكن للمواطنين أن يعرفوا تماما ما سيحل بهم اذا ما عملوا عملا ما • وقد كتب « هان فاى تزو » أن « المكافآت يجب أن تكون سخية ومحققة حتى يمكن للناس أن يقدروها • والعقوبات يجب أن تكون صارمة ولا مناص منها حتى يخشاها الناس • والقوانين يجب أن تكون منظمة وباتة حتى يمكن للناس أن يفهموها • ومن ثم كان على الحاكم أن يكافىء بلا حدود ويعاقب بلا شفقة » (٢٧)

ويقال ان قانون شانج يانج نص على أن أى شخص يلقى بالرماد فى الشارع يجب أن تقطع يده • ويقال انه قال : « ان الأخطاء البسيطة يجب أن يعاقب عليها عقابا صارما ، فاذا ما ردعت

---

(٢٦) وانج هسين تشين : «هسين تزو تشى تشيه» ٥/٣ ١ ، ٨/١ ١ .
(٢٧) وانج هسين شين : «هان فاى تزو تشى تشيه» ١٩/٥ ب .

الأخطاء البسيطة فستختفى الجرائم الكبرى . ويطلق على هذا : استخدام العقاب للتخلص من العقاب » (٢٨) واذا بدا هذا صعبا بعض الشيء على الفرد الذى يفقد يده ، وجب علينا أن نتذكر ، كما يقول لنا « هان فاى تزو » أن المكافآت والعقوبات لا تختص أصلا بالفرد الذى تطبق عليه ، ولكنها مخططة ليكون لها تأثير نموذجى على الشعب بأسره . » (٢٩)

وبتطبيق القانون والأساليب الفنية الأخرى للمشرعين يستطيع الحاكم الذكى أن يجبر الناس على أن يفعلوا ما ينبغى عليهم أن يفعلوه ، وهو ، كما يقول « هان فاى تزو » لا يحدد على الاطلاق قدرا للفضيلة الذاتية للأفراد اذ هى طارئة ولا يمكن أن يعتد بها ،ولايمكن لمثل هذا الحاكم نفسه أن يعمل بالأسلوب الذى يسميه العلماء « الأسلوب الفاضل » بأن يكون شفوقا على الشعب ويساعده فى شدته . وفى مساعدة الفقراء بتقديم معونات لهم مأخوذة من فرض ضرائب على الأغنياء هو مجرد الحاق أذى بالصناعة والاقتصاد وتشجيع على البذخ والكسل . » (٣٠) . ويقول هان فاى تزو :

« ليس للأسرة الحازمة عبيد متمردون ، ولكن الأم المسلوبة اللب من المؤكد أن يكون لها ابن مدلل . ومن هذا أعرف أن قوة بث الرعب وحدها يمكن أن تقمع العنف فى حين أن الشفقةوالأخلاق الكريمة لا ينتظر لها أن تردع المتمرد . والحكيم فى حكمه لولاية ما لا يثق فى أن يؤدى الناس الخير من تلقاء أنفسهم ولا يستبعد أن يقترفوا الخطأ . وفى ولاية كاملة لا يمكن أن تجد عشرة أشخاص

---

(٢٨) وانج هسين شين : « هان فاى تزو تشى تشيه » : ٩/١٠ ب .

(٢٩) المرجع السابق : ١٨/٤ ب .

(٣٠) المرجع السابق : ١٥/٥ ب ـ ٦ أ ، ١٠ ب ـ ١١ أ ، ١٩/١٣ ب ـ ١٤ أ .

يمكن أن يوثق بأنهم يفعلون الخير من تلقاء أنفسهم ، ولـــكن اذا استطعت ألا تستبعد على الناس أن يقترفوا الخطأ لأمكن للولاية بأسرها ، رغم ذلك ، أن تكون منظمة ، وعلى الحاكم أن يهتم بشأن الأغلبية لا بالندرة من الأفراد ، اذ لو فعل ذلك لما حسب حساب الفضيلة ولشغل نفسه بالقانون ٠ » (٣١)

ولهذا كان من الخطأ أن نقرن الحاكم بالوالد ٠ والحاكم لا (أو على أية حال يجب ألا) يشعر بحب تجاه شعبه ٠ وهناك قصة تروى عن أن حاكم تشن ، وكان قد شفى من مرضه ، سمع بأن بعض أفراد شعبه قد ضحوا بثــور كي يشفى ؛ فعاقبهم على فعلتهم لأن الحب بين الحاكم والرعية سيفسد الحكم ولذا يجب أن يقتــــل فى مهده ٠ (٣٢)

كما أن الحاكم يجب ألا يسمح بقيام أى تعــاطف أخرق بينه وبين أقرب المقربين له من وزرائه ، اذ كلما كانوا أكثر انعطافا نحوه كانوا أكثر احتمالا لاغتياله ٠ ويجب أن يكونوا قادرين على أن يؤدوا مهام مناصبهم ويجب أن تسند اليهم المناصب الرفيعة وأن تمنح لهم رواتب سخية ، ولكن يجب ألا تمنح لهم سلطة أو نفوذ ٠ ويجب على الحاكم ألا يعير اهتماما كبيرا لنصائحهم(٣٣) ٠ والوزراء يجب ألا يكونوا حكماء والا فسيغشون الحاكم ، ويجب ألا يكونوا أطهارا أصفياء لأنه من المحتمل أن يكون الأصفياء حمقى ٠ ولا يســـتلزم الأمر بالمرة أن ينشدوا الرجال الأفاضل العادلين ليعملوا كموظفين ولا يمكنك أن تجد قدرا كبيرا من مثل هؤلاء الأشخاص لتدير بهم الحكومة على أية حال ٠ لو يجعل الحاكم القانون على نسق واحد ،

---

(٣١) وانج هسين شين : «هان ماى تزو تشى تشيه» ١٩/١٦ أ ٠
(٣٢) المرجع السابق : ١٤/١٥ – ١٦ ، ١٨/٢ ٠
(٣٣) المرجع السابق : ١٢/٥ ب ، ١٤/٣ ب – ٤ أ ، ١٨/١٢ ب ٠

ويرهبهم بقوته ، فلن يجرءوا على أن يكونوا أشرارا مهما ارادوا أن يكونوا كذلك · (٣٤)

والقوة والشدة هي الشيء الوحيد الذى يحسب حسابه كما قال « هان فاى تزو » (٣٥) · لقد كان مهتما باثراء الحاكم وجعله قويا ليشن الحروب · لقد كان « كتاب اللورد شانج » يرثى لحقيقة أن الناس يكرهون الحرب ، ولكنه اقترح علاجا عمليا : هو جعل حياة الناس العادية قاسية جدا حتى يرحبوا بالحرب خلاصا منها (٣٦) · واذا دققنا فى التاريخ وجدنا أن الحرب والاستبداد متلازمين معا بصورة متكررة ، حتى يندر أن يكون اتحادهما عرضا· ويبدو أن الاستبداد نادرا ما يفلح اللهم الا فى أثناء الحرب وتحت تأثير الحرب · واذا لم يكن لهذه الظروف وجود ، فان الولايات الاستبدادية غالبا ما تكون نفسها صناعيا لتعيش ·

وفى ولاية تشن ، بعد أن كان « لى سو » سببا فى موت « هان فاى تزو » دأب لى سو على الأخذ بآراء زميل دراسته السابق· وأخذت ولاية تشن يزداد نموها قوة وتطلعت بقية الصين الى نهضتها تطلعا ممزوجا بالافتتان والرهبة · وفى سلسلة من الأحداث تذكرنا بقرننا العشرين كونت الولايات الأخرى اتحادا ظل ثابتا لفترة ، ولكن أفلحت تشن فى تقويضه بشتى الطرق ·

وتذكر « السجلات التاريخية » أن حاكم ولاية تشن ، بناء على نصيحة لى سو « أرسل سرا أعوانا كانوا مزودين تزويدا كاملا بالذهب والمجوهرات التى كان عليهم أن يستخدموها لاغراء مختلف السادة الاقطاعيين ليتحالفوا مع ولاية تشن ، وهكذا اشتروا اتحاد أولئك الحكام والساسة الذين يمكن أن يرتشوا · أما أولئك الذين

---

(٣٤) وانج هسين شين : «هان فاى تزو تشى تشيه» : ١٨/٧ ب ، ١٩/٧ ب – ٨ أ .

(٣٥) المرجع السابق : ١٩/٣ ب .

(٣٦) ديفنداك : «كتاب اللورد شانج» ص ٨٣ .

لايمكن أن يرتشـــوا فقد كان يتولى سفاح قطع رقابهم . وهكذا فصلوا بين الحكام ورعاياهم . وبعد أن أدى هؤلاء المتآمرون أعمالهم بعث ملك تشن بقواده الممتازين لجنى الحصاد . » (٣٧)

وقد اسـتطاعت تشـن أن تتحكم فى الصين بسـلسلة من الفتوحات التى يبدو أنها كانت أكثر دموية حتى عن المســتويات الحديثة . وقد قيل انه حدث فى احدى المناسبات أن ذبح ٤٠٠ر٠٠٠ جندى دفعة واحدة وكانوا قد استسلموا لولاية تشن . ولا شك أن الرقم مبالغ فيه ، وحتى اذا قسمته كما يتراءى لك فسيظل العدد كبيرا . لقد فقدت أعداد ضخمة من الأرواح ، ولكن حدث أخيرا فى سنة ٢٢١ ق.م أن كانت الصين بأسرها خاضعة لحاكم ولاية تشن الذى اتخذ لنفسه لقب امبراطور .

وزفر الشعب زفرة راحة فى كافة أرجاء الصين . لقد مرت قرون منذ أن استطاع حاكم واحد قوى أن يحكم الصـــين بأسرها ويفرض السلام . واتخذ الامبراطور لنفسه فقط لقب «الامبراطور الأول » وأصدر تعليماته بأن يطلق على خلفائه « الامبراطور الثانى » و « الامبراطور الثالث » وهكذا حتى الألف . وقد قام ، كما أعلن فى نقش أقامه ، ببداية جديدة .

ومع أول رئيس وزراء له من المشرعين وهو « لى سو » عمل على خلق عالم جديد شجاع لا يتقيد بالماضى . ويذكر لنا التاريخ أنه « وضعت القوانين والتعليمات على نسق واحد ووحدت المـكاييل والموازين ووحد معيار كافة العربات كما وحدت أشكال الحروف المكتوبة . » (٣٨) وحتى لا يعكر صفو السلام جمعت الأسلحة من كافة أرجاء الامبراطورية ، ونقلت مائة وعشرون أسرة غنيـــة ذات نفوذ للمعيشة بالقرب من العاصمة حتى يمكن بسهولة منعهم من

---

(٣٧) تاكيجاوا كاميتارو : «شيه لنى هوى تشوكاو تشـنج» ٥/٨٧ .

(٣٨) شافان : «مذكرات سي – ماتسين التاريخية» ج ٢ ص ١٣٥ .

القيام بأية مشكلة ، وبدلا من النظام الاقطاعى القديم قسمت الصين الى عدد من المناطق الادارية برأس كل منها أحد موظفى الامبراطور ؛ وهكذا قامت الحكومة المركزية ٠

ولا يمكن أن تكون هذه التعديلات قد تمت بسرعة دون أن يكون قد حل النظام التشريعى للحكومة الأوتوقراطية ، ودون أن تكون العقوبات الصارمة قد حلت بأولئك الذين يعارضون الأحكام أو يخرقون القوانين ٠ لقد كانت الحكومة قوية الشكيمة ولكنها حققت أهدافها ، ومع ذلك فقد كانت هناك صعوبتان على الأقل ٠

اذ تعانى الولايات الكلية بوجه عام من حقيقة أن المبادأة الكاملة محظورة على أى فرد سوى الديكتاتور ، ويجب أن تبقى كافة الأمور كما هى حتى يصدر قراره ٠ وكان الامبراطور الأول يعمل كل ليلة حتى وقت متأخر ، ولكن كان من الصعب عليه أن يفحص كافة الوثائق التى كانت تتطلب اطلاعه الشخصى ٠ وقد توفى فى الخمسين من عمره ، ربما من كثرة العمل ٠

وفضلا عن هذا لم يقدر كل فرد مزايا الحكم الجديد ٠ وكثير من العلماء الذين تخصصوا فى العلوم القديمة لم يؤيدوا محو كل ما سبق من أعمال ٠ لقد قتل بعضهم لأنه كان هناك شك فى أنهم انتقدوا الامبراطور الأول شخصيا ، وانتقد البعض الآخر فعلا نظام الحكم ولهذا اتهمهم « لى سو » «ببث الشك والاضطراب بين الشعب» وقد صدر قرار باحراق كافة الكتب المتداولة بين الجمهور فيما عدا كتب الطب والالهيات والزراعة ، وباعدام كل الأشخاص الذين يتجرءون على ترديد المبادىء الكنفوشيوسية القديمة بقصد انتقاد الحكومة ٠

ولا يكون لمضاعفة العقوبات دائما التأثير الذى يأمل المشرعون فيه ٠ لقد كان من السهولة بمكان أن تصبح عرضة لعقوبة الاعدام ، مصادفة تماما ومع الاقتناع تماما بحسن نياتك ٠ ولما لم يكن من

المتوقع ، طبقا لمبادىء المشرعين ، أن تكون هناك رأفة ،فلا يهم البحث عن الظروف المخففة للجريمة وعقابها ، اذ أن أولئك المجرمين الذين يمكن أن يقترفوا ذلك قد فروا بطبيعة الحال الى الجبال · لقد انضم اليهم كل من لم يريدوا العيش فى ظل ديكتاتورية تسلطية وكانت عندهم الشجاعة ليتوجهوا الى الغابات · ومن ثم فقد عاش عدد من العصابات ، من أحجام كبيرة ، كقطاع طرق · وعلى الرغم من كل ما تملك الامبراطور الأول من غضب ، يبدو أن الجيوش قد انتصرت انتصارا قليلا فى اقتفاء آثار هؤلاء الأعداء المراوغين ·

وقد توفى الامبراطور الأول بعد احدى عشرة سنة من توطيده للعالم الصينى · وقد دبر « لى سو » مؤامرة بالاتفاق مع خصى ، ليودى بحياة الابن الأكبر للامبراطور الأول (الذى يقال انه كان يناصر الكنفوشيوسيين) وأحلا محله امبراطورا ضعيفا ، وبعد ذلك بسنتين قام الخصى باغتيال لى سو ·

وفى هذه الأثناء اذا بالأسرة التى كانت قد انشئت لتدوم لعشرة أجيال قد تهاوت كما لو كانت بيتا من ورق · ورفع فلاح راية الثورة · وعلى الفور اذا بالكنفوشيوسيين والموين وكافة فئات الناس الذين كانوا يكرهون آل تشن يتجمعون تحت لوائه · وبعد بضعة أشهر قتل ، ومات معه الحفيد المباشر لكنفوشيوس فى الجيل الثامن ، وكان واحدا من أكثر مستشاريه تقربا منه ؛ ولكن هذا الاجراء لم يوقف الثورة التى انتشرت كحريق فى البرارى ·

وفى سنة ٢٠٧ ق·م لم يعد لآل تشن من شىء سوى ذكرى ممقوتة · أما ابن الفلاح ، الذى تحول الى قاطع طريق عندما كان ينتهك ، بلا قصد ، أحد قوانين تشن ، والذى صار بعد هذا قائدا فى الثورة ، فقد أسس أسرة « هان » · ومن ثم ، اذا بالفلسفة التشريعية التى كان معروفا عنها أنها فلسفة الحكومة الصينية ، تصبح بائدة ·

الفصل التاسع

صفوة تعاليم أسرة هان

نحن فى الغرب لا نفكر عادة فى قيام علاقة وثيقة بين الحكومة والفلسفة . أما فى الصين فقد كانت العلاقة بينهما وثيقة عادة وكان الارتبـــاط بينهما قويا . وقد تقلد معظم الفلاسفة الصينيين الذين عددناهم مناصب حكومية من نوع معين، أما أولئك الذين لم يتقلدوا مناصب فقد اهتموا اهتماما كبيرا بالأسلوب الذى تتبعه الحكومة ، وصارت العلاقة بين الحكومة والفلسفة واضحة بصـــورة خاصة فى القرون الأخيرة قبل العصر المسيحى .

وفى سنة ٢١٣ق.م فى عهـد أسرة تشن التى لم تعمر طويلا كانت كل كتب الفلسفة محترقة تقريبا ، وكانت مناقشة الدراسات القديمة التى كانت شـــائعة بصورة خاصـــة بين الكنفوشيوسيين محرمة . وكانت الفلسفة التشريعية لها السيادة . وبعد ذلك ببضع سنوات ، بعد قيام أسرة هان كان الموقف بالنسبة للفلسفات مائعا. فاذا ما بلغنا عصر الامبراطور «وو wu » الذى حـــكم من ١٤٠ الى ٨٧ ق.م نجـــد أنه قد حظر على طـــلاب الكتابات التشريعية تقلد الوظائف الرســـمية ، واقيمت جامعة امبراطورية لدراسة المؤلفات الكنفوشيوسية القديمة وخطت خطوات واســـعة فى تطوير نظام

الامتـــحانات · ومنذ ذلك الوقت كانت نســـبة كبيرة من الموظفين الصينيين قد عينت ـ حسب ما كان متبعا ـ على أســاس امتحانات فى الدراسات الكنفوشيوسية القديمة ·

وهكذا ، يلاحظ أنه في فترة أقل من قرن ، تحول النشاط الكامل من الوضع الذى كان سائدا في عهد تشن الذى كانت فيه الفلسفة التشريعية المبدأ المعتمد رسميا ، الى الوضع الذى كان سائدا فى عهد امبراطور أسرة هان ، وهو الامبراطور « وو » ، ويمكن أن نقول عنه بوجه عام أنه كان عهد «انتصار الكنفوشيوسية» ·

وقد تأثرت طبيعة الكنفوشيوسية التقليدية ، كما تأثر الوضع الذى احتلته فى الصين خلال الألفى سنة الأخيرة ، تأثرا عميقا بما يطلق عليه «الانتصار» فى عهد أسرة هان · وقد بذلت محاولات لشرح هذه الحالة · لقد حاول العلماء تفسيرها على أنها ليست سوى نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية فى ذلك العصر ، فقد كانت تلك الظروف تســير فى خطوط حتمية الى نتيجة كان يمكن التنبؤ بها · وقد تمادى البعض وحاولوا أن يفسروها على أنها ترجع فقط الى ميول حكام معينين ومستشاريهم المقربين · ومع ذلك فقــد كان هناك آخرون ـ ومنهم كثيرون ـ قالوا بأن الامبراطور «وو» قد اتخذ الكنفوشــيوسية فلسفة رسمية لحكومته لأن الكنفوشيوسية تؤكد خضوع الرعايا للحـــاكم وتزيد سلطة الامبراطور والطبقة الحاكمة ومكانتهما ·

ومهما يكن نصيب هذه الآراء من الصواب أو الخطأ فان هذه التعميمات من البساطة بمكان · واذا أردنا أن نفهم حقيقة ماحدث ، فعلينا أن نحاول نسيان النظريات السابق تصورها ، وأن نفحص بعناية ما قد حدث فعلا ، ويجب أن نأخذ في اعتبارنا ، بطبيعة الحال، الظروف السياسية والاقتصادية، لأنها تعد جانبا هاما من المعلومات· ويستلزم الأمر توجيه اهتمام خاص ، مع ذلك ، الى عوامل انسانية

ثلاثة : الحكام والعلماء ، وأخيرا وليس آخرا : جماهير الشعب •

وقديما كان الأريستوقراطيون يستطيعون أن يتجاهلوا تقريبا الجماهير الجاهلة ولكن الجماهير صارت أقل جهلا الى حد بعيد • ولقد كان مؤسس أسرة هان شابا فقيرا جدا ، بل ان زوجته ـ التى صارت فيما بعد امبراطورة حاكمة ذات نفوذ سام وخطير ـ اشتغلت فى الحقول بيديها ، ولكن فى نفس الوقت ، كان أخوه الأصغر يدرس الفلسفة مع أحد تلاميذ هسين تزو(١) • وقد سبق أن لاحظنا أنه فى وقت متقدم فى أيام كنفوشيوس ومنشيوس كان عامة الشعب فى شرق الصين ينعمون بمثل هذا الاهتمام بهم حتى أن بعض الأسر الكبرى كانت تخطب ودهم ووجدت أن من المفيد تشجيع طموحهم السياسى •

ولم يكن هذا الوضع صحيحا بالمثل فى ولاية تشن التى لم تكن مثقفة نسبيا • ولدينا بعض الأدلة على أن شعبها لم يرض عن الكبت القاسى الذى كانت تباشره حكومتهم ، فلم يكونوا أكثر من جواد يحب أن يضرب ، بل كانوا كالجواد قد اعتادوا على الضرب ولم يحتجوا الا قليلا • ولقد كان أكبر خطأ من الأخطاء التى اقترفها أول امبراطور فى ولاية تشن هو أن يفترض أن الشعب الصينى بأسره يمكن أن يحد من تطوره عن طريق فرض نظام وحشى استسلم له شعب ولايته فى استكانة وخضوع •

ومرت بضع سنوات فقط قبل قيام فلاح بثورة فى الشرق ، وانضمت اليه على الفور كافة طوائف الأفراد ، بما فى ذلك عدد من الكنفوشيوسيين والموين وكان كبير مستشاريه الحفيد المباشر لكنفوشيوس فى الجيل الثامن • ويبدو أن القائد الفلاح قد آمن بأن دعوة الكنفوشيوسية كان لها استجابة فى نفوس الجماهير • وقد

---

(١) دبز : «تاريخ أسرة هان الأولى » ١/١٩ ، ٢٢ •

قتل هو وحفيد كنفوشيوس معا بعد مضى بضعة أشهر ، ولكن هذا الاجراء لم يوقف الثـورة بل أخذت تنتشر كالنـــار فى الهشيم ٠ وتقوض فى الحقيقة نظام الحكم الامبراطورى فى تشن تلقائيا نتيجه لمؤامرات القصر ، وبعد أن زال كان لا يزال من الضرورى الفصل فى مسألة من الذى عليه أن ينشىء أسرة لتحل محل الأسرة المنقرضة ٠ واستمرت الحرب سجالا لعـدة سنوات بين قائدين من أقدر قواد الثورة ٠

وكان أحد هذين القائدين اسمه «هسيانج يبى Hsiang Yü » وكان من نفس طابـــع الوارث الأريستوقراطى ٠ وكان لأجـــداده اقطاعيات ، وكانوا مشهورين كقادة لعدة أجيال ٠ وفى ميدان القتال كان ماهرا جدا حتى قيل بأنه لم يخسر معركة كان يقودها بنفسه٠ وكان سلوكه مؤثرا حتى قيل أن الناس كانوا بغريزتهم يخرون راكعين عند قدومه ، بل كانت خيول الحرب التى يمتطيها منافسوه تصهل وتهرب فزعا عندما كان يصوب اليها نظرته الثاقبة ٠ وحسب ما كان مناسبا لرجل له مثل هذا الأصـــل الرفيع ، كان ينظر الى البشرية نظرة وضيعة جدا بوجه عام ، ولم يكن ينعم بشىء مثل : أن يغلى أو يحرق العدو الأسير وهو حى أو يأمر جنوده بأن يقتلوا كل رجل وامرأة وطفل فى المنطقة التى يستولى عليها ٠

ولما كان هسيانج يبى مظفرا دائما فى ميدان المعركة ، لذا فقد يتولانا القليل من الدهشة لأنه خسر الحرب ٠ لقد أذهله وحيره تماما حقيقة أنه ، على الرغم من أنه قاد رجاله للنصر بعـــد النصر ، فقد فنيت جيوشه ببطء حتى اضطر فى النهاية الى أن ينتحر ٠

أما غريمه الذى أقام أسرة هان ، فقد كان أول رجل من عامة الشعب يتربع على عرش الصين ، ومن الملائم أن نسميه بالاسم الذى أطلقه عليه التاريخ وهو «هان كاوتسو Han Kao Tsu » ٠ وكان ابنا لفلاح ، وقد تصادف ونقض قانونا من قوانين تشن فكان عليه أن

يهرب خوفا على حياته وصار رئيسا لعصابة قطاع طرق ، فلما جاءت الثورة ، ظهر كواحد من زعماء قادتها • ولم يكن تفوقه على أساس أنه رجل استراتيجي بل كان تفوقه مع ذلك على أساس أنه كان زعيما للرجال ، لأنه شخص يمكن أن يختار الاستراتيجيين القادرين والأشخاص ذوى المهارات ويدفع بهم الى أن يبذلوا جهدهم فى خدمته •

وكان ضبطه لنفسه يكاد يكون بعيدا عن التصديق • ففى مناسبة عندما كان جيشه أمام جيش عدوه ، التقى ب «هسيانج ييى» على مشهد من الجيشين للمفاوضة ، فسحب «هسيانج ييى» قوسا مخبأ وصوبه الى الصدر فجرح «هان كاوتسو» جرحا بليغا • ولو أن جنوده الذين كانوا يشاهدون ما جرى أدركوا هذا لثبطت عزيمتهم بصورة خطرة ، ولكن «هان كاوتسو» أمسك بقدمه بدون أن يتردد وصاح : « آه ، لقد أصابنى هذا الوغد فى أصبع قدمى • »(٢)

وكان لا يرحم • كان يحارب بأية وسيلة ، مقبولة أو قذرة ، تؤدى الى النصر • كان يقطع على نفسه عهدا وينقضه اذا كان فى ذلك خدمة لغرضه • لقد كان قادرا على أن يضحى بأرواح آلاف من الرجال والنساء بل حتى بأرواح أبنائه اذا كان فى ذلك انقاذ لحياته •

واذا كان هذا هو كل شيء ، فلربما صار شخصا آخر ذكيا وطموحا فى قسوة • ولكن «هان كاوتسو» كان أكثر من هذا • لقد كان دارسا متعمقا فى علم النفس • لقد كان يعلم أنه لا يمكن أن يظهر بمظهر القاسى الذى لا يرحم ولذلك كان يتظاهر بسماحة الأخلاق اذا كان ذلك لا يضر بالغرض الذى ينشده • لقد كان يمنح كل مرءوسيه ثقة كاملة فى كل انجازاته وقال ان موهبته الوحيدة هى أنه قد قدر كفاياتهم واستعان بها • وعندما تآمر بعض أتباعه

---

(٢) دبز : «تاريخ أسرة هان الأولى» ١/٩١ •

للقيام بثـــورة ، ألقى القبض عليهم أولا ثم عفا عنهم وأعادهم الى مناصب شرفية ، بل انه كان يعامل جنوده العاديين معاملة طيبة لم يسمع أحد عن مثيل لها ٠

وحينما صار «كاوتسو» امبراطورا ، أعدت له ، بطبيعة الحال، سلسلة نسب تبرهن على أنه كان من سلالة الامبراطور الأسطورى «ياو» ٠ وقد نتوقع أن يتبرأ ، ان لم يكن يتخلص ، من كافة أولئك الذين كانوا يعرفونه رجلا من عامة الشعب ، ولكنه على العكس من ذلك ، قلد بعض زملائه الأولين مناصب ، وأعفى موطن رأسه من الضرائب ، بل وأكثر من هذا أنه ، عندما عاد الى هناك ، فى احدى المناسبات ، دعا كل أصدقائه ومعارفه القدامى الى ولائم لبضعة أيام وكان يغنى بنفسه ويرقص ليرفه عنهم(٣) ٠

ولم يكن «كاوتسو» ميالا الى التمجيد ٠ ولقد كان مخلصا فى هذا ، ولكنها كانت أيضا سياسة يتبعها ٠ لقد كتب هومر هـ٠ديز يقول : « لقد كانت نتيجة معاملة كاوتسو الكريمة الشفوقة للشعب أن أوجد عند الشعب الشعور بمزاملته ٠ لقد أدركوا أنه واحد منهم، وقد حدث أكثر من مرة أن توجه اليه زعماء الشعب يقـدمون له النصائح الهامة ٠ ولعل عدم التزامه بآداب السلوك واستخدامه لغة فظة حتى مع أفضل أتباعه ، مما زاد من ميل الشعب اليه ٠ لقد فاز لأنه كسب الرأى العام الى جانبه ، وكان هذا الشعور قويا جدا لمدى قرنين بعد ذلك ، وحينما سقطت أسرته لم يستطع أن يفوز بالعرش سوى أسرة هان أخرى تحمل الاسم نفسه ٠»(٤)

ولم يعمل «كاوتسو» على كسب ود الشعب باعلان العفو العام وتخفيف الضرائب وتحرير العبيد وما الى ذلك فحسـب بل أتاح

---

(٣) دبز : «تاريخ أسرة هان الأولى» : ١/١٣٦ ـ ١٣٨ ٠
(٤) المرجع السابق ١/٢٤ ٠

أيضا للناس فى أوائل عهده بالنضال من أجل السلطة بأن يكون لهم رأى محـــدود جدا فى الحـــكومة فقرر بأنه ينبغى على موظفيه أن يتشاوروا بانتظام مع ممثلى الشعب لتوكيد رغباتهم • وعندما صار امبراطورا قال انه قبل اللقب فقط «لصالح الشعب» (٥) وحتى بعد أن صار امبراطورا لم يمارس سلطته فى تعسف ، بل وفق مشورة وموافقة وزرائه فحسب •

وبالتدريج حققت هذه الممارسة قوة القانون غير المدون، وهكذا كانت قرارات خلفائه تعد غير قانونية ما لم يصدق عليها وزراؤه • ويقول دبز ان « اعتلاء كاوتسو العرش دليل على انتصـــار المفهوم الكنفوشيوسى أن السلطة الامبراطورية محدودة وأنها يجب أن تمارس لصالح الشعب ويجب أن تكون قائمة على أساس العدالة ،علىأساس المفهوم التشريعى للسلطة التعسفية والمطلقة • وفى الوقت الذى ظل فيه كاوتسو وخلفاؤه ، من الناحية الفنية ، حكاما مطلقى السلطة ، كانت سلطتهم ، من الناحية العملية محدودة بما يمليه العرف•»(٦) وهنا نجد،اذن،حكومة تتمشى الى حد ما ، من الناحية النظرية ،معمبدأ كنفوشيوس عما ينبغى أن تكون عليه الحكومة : الحكومة تعمل من أجل الشعب ، يديرها وزراء يختارهم حاكم ، يترك السلطة الادارية فى أيديهم • وواضح أنها كانت لا تزال بعيدة عن مثل كنفوشيوس العليا ، ولكن مما يبعث على العجب هو أن وغدا كبيرا مثل كاوتسو يكاد يقترب فى سلوكه من هذا المبدأ •

ولم يكن كاوتسو مواليا للكنفوشيوسيين • لقـد كان يعدهم من المكبين على قراءة الكتب المتباهين بذلك • ولم يكن أحب لديه من أن يذلهم بالنكات العملية البالغة الوقاحة• وعلى الرغم من ذلك، كان

---

(٥) دبز : «تاريخ أسرة هان الأولى» : ١/١٦ ، ٧٥ ، ٩٩ ـ ١٠٢ •
(٦) المرجع السابق : ١/١٥ •

من بين أخلص مستشاريه بعض الكنفوشيوسيين ، ومن بينهم أخوه الأصغر ، وكانوا يبذلون كل مافى وسعهم ليجعلوا منه كنفوشيوسيا الى حد أنهم ألفوا كتابا لهذا الغرض . ولما برم بخشونة سلوك أصحابه الحفاة فى البلاط ، استدعى كاوتسو أحد الكنفوشيوسيين ليضع مراسيم بسيطة تتبع فى البلاط . ومع ذلك ، فمما لا شك فيه أن ما شغف قلوب الكنفوشيوسيين بحب هذا السياسى الداهية هو شعبيته وسط الشعب .

وكثيرا ما كان يظن ، فى عهد أسرة هان ، أن الكنفوشيوسية كانت فى الأصل هى مبدأ الأريستوقراطيين والأعيان الأثرياء . ولم تكن الحال كذلك ، فحتى فى وقت متأخر مثل القرن الأول ق.م بعد أن أصبح كثير منهم أكثر ثراء ورخاء من جراء الهبات الحكومية وصف أعداؤهم الكنفوشيوسيين بأنهم طائفة من العلماء الذين عضهم الفقر بأنيابه وأنهم يعيشون فى مزارع فقيرة ويقطنون فى أزقة حقيرة ويرتدون الملابس البسيطة والنعال الممزقة(٧) ، وهم كجماعة يبدو أنهم قد ظلوا فى ظروف كبت اقتصادى طوال عهد أسرة هان . على أن نفس هذه الحقيقة ، قد جعلتهم ، برغم ذلك ، على اتصال بالشعب ، ومن ثم كانوا ذوى تأثير عليه .

لقد أدرك «هان كاوتسو» هذا الأمر ، واستغل قيمته الدعائية، وأثناء نضاله من أجل السلطة حث على شن حرب صليبية ضد خصمه «هسيانج يبى»، باللغة الكنفوشيوسية ، كانت لها نتائج مرضية . ونجد فيما بعد اللغة الكنفوشيوسية تظهر باستمرار فى منشوراته . وفى سنة ١٩٦ ق.م أمر بأن يقوم موظفوه فى أنحاء الامبراطورية بتزكية كافة الأشخاص الأفاضل والقادرين ، وأن يبعثوا بهذه التزكية الى العرش حتى يمكن تكريمهم واسناد مناصب

(٧) جيل Gale : «مقالات فى الملح والحديد» ص ص ٧٧ ، ١٠٣ ، ١٢١ .

اليهم(٨) • وقد استمر هذا الاجراء ، وأحكم خلفـــاؤه العمل به ، وتطور الى نظام كنفوشيوسى مميز وهو المعروف بنظام الامتحانات الصينى •

وعلى الرغم من ذلك لم يكن بلاط كاوتسو كنفوشيوسيا بوجه خاص أو تغلب عليه الـــكنفوشيوسية • وكانت الطـــاوية بآرائها الطليقة وتعميماتها المكتسحة ، تلقى بطبيعة الحال اعجاب المغامرين• ولقد تزايد اندماجها بالخرافات الشعبية ، وكان ذلك مدعاة لميل الجماهير اليها • ولما كان كثير من أتباع كاوتسو مغامرين من أصل شعبى ، فلم يكن عجيبا أن تكون الطاوية قد جذبتهم •

ولم يكن الفكر التشريعى قد مات على الاطلاق • وعلى الرغم من أن الكنفوشيوسيين كانوا يؤمنون ايمانا راسخا بأنه يجب أن تسند اليهم الوظائف الرئيسية فى الحكومة ، فقد كانوا أكثر انشـــغالا بموضوعات الطقوس الدينية والميتافيزيقيات والأدب عن أن يشغلوا أنفسهم بالمشاكل الدنيوية كادارة شئون الامبراطورية ؛ لقد كانوا يظنون أن مثل هذه الأمور ليست جديرة بالنبيل على أية حال • ولكن ولاية هان كانت هيئة سياســية واقتصادية ضـــخمة وكانت تتطلب فنونا ادارية معقدة وموظفين قادرين على أن يستخدموها • وكان الموظفون المتبقون من امبراطورية تشن هم وحدهم الذين كانت لهم هذه المهارات ، وكان على امبراطور هان أن يوظفهم • لقد كانوا شرعيين فى نظرتهم بصورة خاصة •

وقد اتبع رابـــع حاكم فى أسرة هان ، وهو الامبراطور « ون Wên » الذى حكم من ١٧٩ الى ١٥٧ ق•م، فى كثـــير من الوجوه ، المثل الأعلى الذى ينبغى أن يكون عليه الحاكم الكنفوشيوسى • لقد

(٨) دبز : «تاريخ أسرة هان الاولى» ١/٧٥ – ٧٧ ، ٩٩ – ١٠٢ ، ١٣٠ – ١٣٢ •

كان يعتبر وظيفة الامبراطور مسئولية هدفها رفاهية الشعب ٠ وقد خفض الضرائب حتى وصلت الى حدها الأدنى ، وأعتق عبيد الحكومة وقاوم فساد الموظفين وخفف من شدة القانون حتى صارت عقوبة الاعدام نادرة التنفيذ ، وأجرى معاشات للمسنين وألغى القوانين التي تحظر نقد الامبراطور ، قائلا انه يود أن يسمع عن أخطائه ٠ واقترح ، طبقا للمبادىء الكنفوشيوسية ، ألا يتولى عرشه ابنه ، ولكن بدلا من ذلك ، يجب أن يبحث عن أفضل شخص في الامبراطورية ويجعله وارثا له ، ولكن موظفيه ، أوعزوا اليه بأن هذا لن يفيد الامبراطورية بل يلحق بها الخطر ٠ ولقد عاش عيشة مقتصدة ، وطلب عندما يتوفى أن يكون العزاء في أضيق الحدود حتى لا يرهق الشعب ٠

لم يكن هذا رياء ، فلقد كان الامبراطور « ون » نموذجا كاملا حقا للفضيلة الكنفوشيوسية ، كما كان واحدا من أعظم الملوك المحبين للخير طوال التاريخ قاطبة ٠ وعلى الرغم من ذلك فقد كان شديد الايمان بالخرافات وكان يحتال عليه باستمرار المغامرون الذين كانوا يدعون بأن لهم قوى سحرية ، وكان العلماء الذين عينوا في بلاطه لدراسة الفلسفة يمثلون المذاهب الفلسفية المختلفة ، وفي أول الأمر لم يكن بينهم سوى كنفوشيوسي واحد ٠ وأكثر من هذا أنه عندما كان على الامبراطور «ون» أن يختار معلما لوارث عرشه اختار أحد المشرعين ٠ (٩)

وعلى الرغم من هذه الحقيقة فقد كانت للكنفوشيوسيين السيادة مرة أخرى في البلاط ، عندما اعتلى الامبراطور «وو» ، وهو الامبراطور السادس في الأسرة، عندما اعتلى العرش سنة ١٤٠ ق٠م٠ والمعروف بوجه عام أن الامبراطور «وو» كان مخلصا للكنفوشيوسية

---

(٩) وانج هسين ــ لشين : « تشين هان شو بوتشو » ٤٩/٨ أ ــ ١٩ ٠

وربما كان مضللا في ذلك · وكانت الكنفوشيوسية ذات أثر بالغ في بلاطه ، وقد «انتصرت» الكنفوشيوسية في عهده ·

ومع ذلك فاننا اذا نظرنا بامعان الى الحقائق التى أبقى عليها التاريخ لنا ، فانه من الصعب تجاهل النتائج التالية : أولا ، فى الوقت الذى كان يظن فيه أن الامبراطور « وو » كان كنفوشيوسيا عندما ورث العرش فى أول الأمر ، وكان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره ، الا أنه سرعان ما تجاوز هذه المرحلة ، وفى خلال حياته من بلوغه سن الرشد كان من دعاة الفلسفة التشريعية وان كان يتظاهر فى حرص بأنه كان كنفوشوسيا وذلك لأسباب سياسية · وثانيا ، كان مستشاروه الذين تحملوا العبء الحقيقى فى تشكيل سياسات حكومته ، كانوا بصراحة مشرعين ومناهضين للكنفوشيوسية · ولم يكن أولئك الموظفون الذين كانوا كنفوشيوسيين اسما ويتقلدون مناصب رفيعة فى بلاط «وو» فى الحقيقة كنفوشيوسيين صالحين تماما · ولم يعر «وو» فى أى مرة من المرات أدنى اهتمام لنصائحهم فى أمور ذات أهمية حقيقية · وأخيرا ، اذا وافقنا على أن الكنفوشيوسية قد « انتصرت » فى عهد الامبراطور «وو» فهذا لا يمكن أن يكون الا فى أضيق الحدود · والحقيقة هى أن الكنفوشيوسية قد ضلت طريقها وحرفت بأسلوب ربما أفزع كنفوشيوس ومنشيوس وهسين تزو ، كما أفزع فى الحقيقة الكنفوشيوسيين الحقيقيين فى عهد الامبراطور « وو » نفسه ·

وغالبا ما لوحظ ، أننا اذا نظرنا الى أعمال الامبراطور « وو » الظاهرة لوجدنا أنها تتمشى بصورة ملحوظة جدا مع تعاليم أولئك المشرعين أمثال « هان فاى تزو » · وقد شكا العلماء الكنفوشيوسيون من أنه اتبع أساليب الحكومة الكلية فى تسجيل أسماء أفراد الشعب الذين خلع عليهم شانج يانج أملاكا · ولم تكن القوانين الصارمة التى استنتها أسرة تشن قد ألغيت جميعها ، وفى عهد « وو » اتسع مداها

حتى صارت دستورا قانونيا حازما ومفصلا يطبق بلا هوادة ، وكان الأفراد يضطرون الى دفع غرامات باهظة نظير جرائم تافهة وكان يحكم عليهم بالخدمة في الجيش أو يصبحون من عبيد الحكومة ، ومن ثم تحطم التجار كما تحطمت الطبقة المتوسطة ، وقد شجع مستشارو « وو » من المشرعين : مصادرة الصناعات الأكثر ربحا ، وقد فعل ذلك وصار انتاج الملح والحديد وكذا السوائل المتخمرة احتكارا للحكومة . ولكي يهييء عملا لهذه الاحتكارات وحدها ، يبدو أن أكثر من مائة ألف شخص قد حكم عليهم بالسخرة ، ولكي ينفق على مغامراته الحربية فرض ضرائب باهظة وخفض قيمة العملة . وكانت العقوبات شائعة وصارمة حتى خشي الناس أن تسند اليهم وظائف حكومية . ووضعت خطة يمكن بها للمعينين على وظيفة أن يدفعوا أجرا ليفدوا به أنفسهم من « الشرف » المريب . وقد أدى هذا الى اثراء الخزانة (١٠) الى حد بعيد .

وقد عنى المشرعون بالخدمة العسكرية ، وكذلك فعل «وو» . ولقد كان هناك فى بداية حكمه خطر حقيقى من قبائل بربرية مجاورة، ولكن بعد زوال هذا الخطر صارت شهوته للفتح لا حدود لها ، فاندفعت جيوشه متوغلة حتى بلغت وسط آسيا . وفى مرة واحدة بعث بأكثر من ألف رجل الى « فرغانة » كى يحصل على نسل خيول فريدة . ولا يمكن حصر عشرات الألوف من الأرواح التى فقدت فى هذه الحملات التى لم تنته ، ولكننا نعلم أنها قد خربت البلاد من الناحية الاقتصادية . وعلى الرغم من ذلك فقد وسع « وو » حدود الصين اتساعا شاسعا ، ولاشك أن هذه الحقيقة قد ساعدت على جعل اجراءاته الرادعة مستساغة نوعا ما بوجه عام لدى الشعب .

ولم يعد الامبراطور « وو » يترك ادارة حكم البلاد فى أيدى

---

(١٠) شافان : «مذكرات سى – ماتسين التاريخية» ج ٣ ص‌ص ٥٥٧ – ٥٩ ، ٥٦٨ – ٦٩ .

وزرائه ، كما كان قد أوصى بذلك كنفوشيوس منذ أمد طويل ، وكما كان هو المتبع بوجه عام منذ قيام أسرة هان · وبدلا من ذلك أمسك بنفسه زمام الأمور فى الحكومة ، ويبدو أنه كف فعلا عن أن يسند أية سلطة فعالة الى أى وزير من وزرائه أو الى أى مستشار من مستشاريه تماما كما أوصى « هان فاى تزو » · وهكذا لم يعد من حق الفرد ، كما كان الحال فى عهد الامبراطور « ون » أن ينتقد الامبراطور ، اذ أن مثل هذا التطاول كان يعاقب عليه عقابا صارما · وعلى الرغم من ذلك كان هناك الكثير من النقد ، خاصة فى الدوائر الكنفوشيوسية ، وفى سنة ٩٩ ق·م· اندلعت ثورة ، وكان أهم ما فى الأمر هو أنها تركزت حول الاقليم الذى ولد فيه كنفوشيوس، وعندما قمعت ، أعدم أكثر من عشرة آلاف شخص (١١) ·

ولم يتصرف الامبراطور « وو » كمشرع فحسب بل اتخذ من المشرعين أكثر مستشاريه نفوذا ، وكما لاحظ أكثر من عالم ، فلقد كان هناك سبب معقول فى الاعتقاد بأنه حذا ، عن قصد ، حذو الامبراطور الأول لأسرة تشن ، وكان فى قراراته يقتبس من حين لآخر من مؤلفات المشرعين بما فى ذلك « هان فاى تزو » ليوضح أنه كان على علم بهم رغم حرصه غاية الحرص على عدم تحديد مصادره(١٢) فكيف استطاع اذن مثل هذا الامبراطور أن يشتهر عنه ، وربما كان ذلك نتيجة للتضليل به ، أنه نصير الكنفوشيوسيين ؟ لقد كان أمرا طريفا جدا ·

اذ عندما صار امبراطورا فى سن الخامسة عشرة كان البلاط يتحيم فيه وزراء كنفوشيوسيون معينون · ولما كانت دراسات الحاكم الصينى تميل تجاه الكنفوشيوسية ، فلم يجد هؤلاء الوزراء صعوبة فى ارغامه على توقيع مرسوم يحرم الوظائف على من يدرسون أعمال

---

(١١) دبز : «تاريخ أسرة هان الأولى» ج ٢ ص ١٦ و ١٠٦ ·

(١٢) كريل : « كنفوشيوس : الرجل والأسطورة » ص ص ٢٣٩ — ٤٠ ·

مشرعين معينين بما فى ذلك أعمال شـــانج يانج وهان فاى تزو • وواضح أن هذا المرسوم لم يلغ قط من الوجهة الشكلية ولكن كانت حماسة الامبراطور الصغير الحقيقية للكنفوشيوسية قصيرة الأمـد ، اذ كانت جدته لأمه ، وهى الامبراطورة أرملة الامبراطور الســابق القوية الشكيمة ، طاوية متحمسة وسرعان ما كبحت جماح نفوذ مستشاريه الكنفوشيوسيين •

وما لبث أن اكتشف الامبراطور أن الكنفوشيوسيين لايعجبونه فليس عندهم الاحترام الكافى الجدير بمكانته العظيمـــة ، وكانوا ينتقدونه فى وقاحة تامة • وفضلا عن هذا ، كان يشكو (وهنا كان الامبراطور على صواب تام) من أنهم غير عمليين على الاطلاق ، اذ أنهم لم يعارضوا فحسب، فى الحرب التى لا داعى لها بل جادلوا حتى ضد أى استعداد معقول ضد أىهجوم للقبائل الرحل المتوحشة التىكانت تقوم بالسلب والنهب على الحدود • وكان الكنفوشيوسيون يؤكدون أنه لو أن الامبراطور قابل هؤلاء المتوحشين بالفضيلة لخضعوا منتلقاء أنفسهم • وقالوا أيضا ، بالنسبة للحكومة ، ان الفضيلة وحدهـــا والالمام بالدراسات القديمة أمران ضروريان • وكان فى نظرهم أن الأمور التافهة مثل : الحساب والمناهج الادارية ، أمور لا يجوز للنبيل أن يلم بها بالمرة •

كان لا يمكن أن ينجح هؤلاء الرجال فىادارة شئون امبراطورية « وو » الشاسعة المعقدة ، ومع ذلك فقد كانوا يعتقدون أنهم جديرون بأن يقوموا بهذا العمل وأنهم محبوبون منالشعب • لقد أوضح مصير أسرة تشن أنهمن الخطر الاساءة اليهم • لقد بدأ «وو» حكمه بشهرةأنه نصير للكنفوشيوسية وكان حريصا على ألا يفقدها • وكان يشــير دائما الى الدراسات الكنفوشيوسية القديمة فى قــراراته ، ومنــح مناصب رفيعة ــ بدون أية ســـلطة ــ لحفيدين اثنين من حفدة كنفوشيوس • وبينما كان يضاعف من القوانين ويجعل العقوبات

أكثر صرامة ، أكد : « ان ما أهدف اليه هو أن أقلل من العقوبات حتى يقل الشر » • وبينما كان يعتصر آخر أوقية من الخراج من الشعب كان يصدر قرارات بصورة متكررة تعلن عن الكرب الذى كان يحسه من معاناتهم • أما بالنسبة لخططه القائمة على شدة السلب فقد ادعى فى براعة أن الباعث عليها دوافع معقولة من أخلص الدوافع لعمل الخير (١٣) •

ولقد كان المتبع لفترة من الزمن ، بالنسبة للعلماء أن كانت الأحياء التى يقيمون فيها تزكيهم ليتوجهوا الى البلاط حيث يتولى الامبراطور اختبارهم • وقد حضر كنفوشيوسى مشهور يدعى « تونج تشونج ـ شو Tung Chung-Shu » مثل هذا الاختبار وكان ذلك فى أوائل حكم « وو » • وقد اتهم ، فى ورقة اختباره ، الامبراطور بصراحة باستخدام الأساليب التشريعية لأسرة تشانج وأكد أن موظفيه يعنفون الشعب •

ولو كان الأمر بيد الامبراطور الأول تشن لجعل من تونج تشونج ـ شو شهيدا ، ولكن الامبراطور « وو » كان أكثر ذكاء فقد عينه وزيرا ساميا فى بلاط اقطاعى شديد الصلف كان يكره أدعياء العلم وكان من عادته أن يعدم الوزراء الذين يضايقونه • ومع ذلك اذا بكل توقعات « وو » المعقولة تبوء بالفشل ، اذ ما لبث « تونج تشونج ـ شو » أن صار محبوبا عند سيده الجديد • وحاول الامبراطور مرة أخرى الخلاص منه ، فأرسله الى بلاط وال اقطاعى آخر كان أكثر سفكا للدماء • وفى هذه المرة استقال تونج تشونج ـ شو ، كما قال «لأسباب صحية» وقضى بقية حياته متقاعدا • وخلال سنواته الأخيرة كان الامبراطور يبعث اليه من حين لآخر أحد رجال بلاطه « طلبا

---

(١٣) دبز : « تاريخ أسرة هان الاولى » ج ٢ ص ٥١ و ٥٨ ـ ٦٠ .

لمشورته » وبهذه الطريقة اشتهر « وو » وظل يتمتع بهذه الشهرة ، بأنه نصير للعالم الكنفوشيوسى تونج تشونج ــ شو(١٤) ٠

وبعد اختبار تونج تشونج ــ شو بقليل عقد اختبـــار آخر ، وكان من بين الممتحنين من العلماء المـائة : عالم يدعى « كونج ــ سون هونج Kung-Sun Hung وكان يعمل ســـجانا عند ما كان شابا ، ولعل هذه المهنة قد جعلته يهتم بالفلسفـة التشريعيـة ذلك الاهتمام الذى ظهر فيما بعد ٠ ولمـا طرد لاقترافه خطأ ما ، صـــار راعى خنـــازير ، وفى أواخـــر أيامه درس مؤلفا من الدراســـات الكنفوشيوسية القديمة ٠ وكان فى الستينات من عمره عندما حضر الاختبار الذى عقده الامبراطور ٠ وكان جوابه ، على الرغم من أنه كان كنفوشيوسيا فى مظهره الا أنه كان فى الحقيقة تشريعيا واضحا٠ لقد قال ان على الامبراطور أن ينشط فى اعلان القوانين وأن يستخدم الـ « شو » أى الأساليب الادارية .(ولعلنا نتذكر أن هذه هى العبارة التى يستخدمها المشرعون) وفضلا عن هذا يجب على الامبراطور أن « يحتكر العوامل التى تتحكم فى الحياة والموت » (وهذه العبارة هى ترجمة نثرية لفقرة فى الكتاب المعنون « هان فاى تزو ») وأن يبقى على وجود رقابة شخصية قوية على الحكومة ٠

وأساء ذلك الى شعور العلمـــاء الذين قاموا بمراجعـة أوراق الاختبار ، فوضعوا ورقة «كونج ــ سون هونج» فى امتحانه آخر المائة ورقة ، فلما وصلت الى الامبراطور جعلها أول ورقة (١٥) ٠ لقد وجد هنا أخيرا « الكنفوشيوسى » الذى كان ينشده ٠ وأنعم على كونج ــ سون هونج بألقاب التشريف ، وما لبث أن جعله رئيسا لوزرائه ٠ ولقد أبقى عليه الامبراطور فى هـــذا المنصب حتى توفى بمرض

---

(١٤) وانج هسين ــ تشن : « تشن هان شو بوتشو » ص ص ٥٦ ، ٥٣/٤ ب ــ ١٥ .

(١٥) المرجع السابق : ٥٨/١ ــ ١٤ .

الشيخوخة . وكان يدير الحكومة بالفعل : الامبراطور ومجموعةقليلة من المستشارين الذين يميلون الى الفلسفة التشريعية . وكان رئيس الوزراء يمثل، كما يذكر لنا شخص آخر من رجال بلاط الامبراطور، واجهة كنفوشيوسية مناسبة لعمليات الحكومة التشريعية (١٦) .

ارجع الى أي كتاب تاريخى تقريبا عن كونج ـ سون هونج فستقرأ فيه أنه كان عالما كنفوشيوسيا ، راعى خنازير سابقا ، كرمه الامبراطور « وو » تكريما بالغا لالمامه بالدراسات القديمة حتى جعله رئيسا للوزراء ، وأنعم عليه بلقب « أمير » ، ونكاد نكون واثقين من أن الامبراطور عمل على أن التأريخ يجب أن يقرأ على هذه الصورة .

لقد كافأ بسخاء أولئك الذين كانوا كنفوشيوسيين اسما ، وكانوا يصفقون له ، وعاقب أولئك الذين كانوا ينتقدونه . وكانت الرقابة على الفكر رقابة صارمة : لقد حكم مرة على « تونج تشونج ـ شو » بالاعدام لكتابته كتابا « سخيفا » ولكن الامبراطور عفا عنه . وقد شجع « وو » على التعاون مع الحكومة بأن أنشأ جامعة امبراطورية فيها خمسون طالبا كنفوشيوسيا تعولهم الدولة . وكانت الوظائف الحكومية تسند بصورة متزايدة للعلماء الذين أدوا الامتحان بصورة مرضية فى الاختبارات الحكومية عن الدراسات الكنفوشيوسية القديمة . وقد أتاحت هذه الاختبارات للامبراطور فرصة لا مثيل لها للتأثير على اتجاه الفكر الكنفوشيوسى ودراساته .

ونظرا لأن الكثير من الكتب قد أتلفت فى عهد تشن ، لذا فقد اهتم العلماء باحياء الكتب القديمة ، خاصة الدراسات القديمة . وقد شجع الامبراطور هذا الاهتمام بالنصوص ، الذى كان من وجهة نظره أفضل الى حد كبير من الاهتمام الذى ركزه كنفوشيوس ومنشيوس على نقد الأمور السياسية والاجتماعية .

---

(١٦) تاكيجاوا كاميتارو : « شيه تشى هوى كاو تشنج » ١١٢/٤

وحوالى هذا الوقت بدأت أعظم فترة فى وضــع التعليقــات ، لشرح الــكتب القديمة ، ومن هذه الشروح فسر علمـاء هــان كافة الآداب القديمة فى عبارات مستمدة من تفكير عصرهم • واستنادا الى حد كبير الى ما ذكره هؤلاء المعلقون فان الدراسات القديمة مازالت تدرس وتترجم فى القرن العشرين برغم حقيقة أن التفكير فى عهــد أسرة هان الذى نشروه كان مختلفا اختلافا كبيرا عن الزمن الذى كتبت فيه الدراسات القديمة الأولى •

من طبيعة البشر أنهم يريدون أن يفعلوا أشياء بأسهل الطرق• وقليل منا من يجمع عمودا من الأرقام اذا كانت الآلة الحاســـبة فى متناول يده أو يفكر فى حل مشكلة صعبة بينما الحل المختصر المرضى يجعل هذا أمرا غير ضرورى • لقد رأينا أن كنفوشيوس كان يؤمن بأن كل فرد يجب أن يفكر فى الأمور من وجهة نظره الخاصة ولــكن عقب وفاته تقريبا بدأ الكنفوشيوسيون يعتمدون اعتمادا أكثر فأكثر على السلطة وينشدون أسهل السبل لحل المشاكل •

واحدى هذه السبل هى العرافة divination ، وكانت مستخدمة فى الصين منذ أزمنة سحيقة • وكان هناك كتيب عراف قديم اسمه « كتاب التغيرات » اعتبر فى عهد أسرة هــــان من كتب الدراســـات القديمة الكنفوشيوسية على الرغم من حقيقة أن كنفوشيــوس وكــل الكنفوشيوسيين الكبار الأولين قد احتقروا ممارسة العرافة • ولقد كتبت عشرة ملاحق لـ «كتاب التغيرات» أيضا ، وهى تشكل أسلوبا لفهم الأحداث والتحكم فيها عن طريق العلم الصوفى للأرقام • ومن المحتمل أن تكون هذه الملاحق قد كتبها الكنفوشيوسيون الذين كانوا متأثرين تأثرا شديدا بالطاوية • وقد ادعت الملاحق ، مع ذلك ، بأنها مقتبسة عن كنفوشيوس بل نسب تاليفها اليه •

وهناك فكرة أخرى من المحتمل أن يكون قد بدأ ظهورها فى القرن الرابع ق•م• كانت هذه الفــكرة هى أن كل الأشــياء يمــكن

تصنيفها على أنها مستمدة من الـ « ين Yin » أو المبدأ السالب أو الـ « يانج Yahg » أو المبـدأ الموجب ، وقد صـنف كل شيء تحت هاتين الكليتين • والـ « ين » مؤنث والـ « يانج » مذكر ، فالسماء والشمس والنار « يانج » ، بينما الأرض والقمر والماء « ين » • فاذا أردت برهانا فان الزجاج المتقد سيستمد النار من الشـمس ، بينما المرآة اذا ما تركت بالليل جمعت الندى ، أعنى المـاء من القمر • ويجب أن يلاحظ ، مع ذلك ، أن هذا الأمر لم يكن ثنائيا من الطراز الغربى ، مثل ما بين الخير والشر أو الروح والمـادة ، ولـكن ، على العكس من ذلك ، يلاحظ أن الـ « ين » والـ « يانج » يكمل أحدهما الآخر للحفاظ على تناسق كونى ، ويمكن أن يتحول أحدهما الى الآخر ومن ثم فان الشتاء ، الذى هو « ين » يتحول الى صيف الذى هـو « يانج » •

وهناك مفهوم آخر فى غاية الأهمية يبدو انه قد ظهر فى نفس الوقت وهو ما يطلق عليه « العناصر الخمسة » والمصطلح الصينى من الأفضل أن يترجم على أنه « القوى الخمسة » وكانت هى : الخشب والنار والأرض والمعدن والماء • وقد ارتبطت بها خمسة اتجاهات ، وقد أضيفت الوسطى الى الجهات الأربع الأصلية • وقد وجد أيضا أنها تضاهيها خمسة فصول ، وذلك باضافة فصل وسط بين الصيف والخريف أطلقوا عليه « الأرض » اسم القوة المركزية • وأضيفتأيضا خمسة ألوان ونكهات وروائح وأرقام وأعضاء الجسـم الخ •• يـكاد يكون الى ما لا نهاية •

وفى الفلسفة كان تعاقب هذه القوى بالغ الأهمية ، فالخشـب يولد (أعنى أنه يمكن أن يساعد على توليد) النـار ، والنـار تولد الأرض (أعنى الرماد) ، والأرض تولد المعادن ، والمعادن تولد الماء (الندى الساقط على معدن المرآة) ، والماء يولد (أعنى يساعد على توليد) الخشب • ونظام ابادتها هو : بالماء تخمد النار ، والنار

تصهر المعادن والمعادن تقطع الخشب والخشب يخترق الأرض (سواء عن طريق جذور الأشجار أو عن طريق المحراث الخشبي) ، والأرض تجفف أو تعوق طوريق الماء ، من ثم تستكمل الدورة مرة أخرى ٠

وعن طريق مثل فنون العرافة هذه كتلك الواردة بـ « كتاب التغيرات » ونظريات علم الأرقام ، والـ « ين » والـ « يانج » والقوى الخمس ، نشأ هناك نظام ضخم ومعقد لتحليل الظواهر الطبيعية ومراقبتها ٠ ولو أن النظريات قد ذكرت بناء على تدقيق أو أمكن التحقق منها عن طريق التجربة لأمكن تطورها الى علم حقيقى ،ولكن لما كان هذا التفكير يكاد يكون عقائديا وغير تجريبى ، لذا لم يرق فوق مستوى علم منتحل ٠

ولقد سبق أن لاحظنا أن الطاوية فى أول عهدها قد اضطلعت بقدر كبير من الخرافات الشعبية ، وقد استصوبت هذه الآراء العلمية الزائفة ، وانتشرت فى الدوائر الطاوية ٠ وكان الامبراطور الأول فى أسرة تشن يغدق الهبات على السحرة الطاويين الذين أخذوا على عاتقهم أن يحضروا أكسير الخلود٠ وفى عهد أسرة هان زوج الامبراطور «وو» أكبر بناته من ساحر وعد بأن يحضر له هذا الشراب الخداع ، فلما عجز الساحر عن أن يحضره ، أمر « وو » بقطع جسده الى نصفين عند الوسط ٠

وأثناء حكم الامبراطور « وو » كان هناك أمير معين ، درس مختلف الفلسفات ولكنه كان يميل بصورة خاصة الى الطاوية ، وكان عنده كتاب جمعه له فلاسفة كان يعولهم بوصفهم ضيوفا له ، وقد وصل الينا تحت اسم « هوآى نان تزو Huai Nan Tzü »وهو طاوى الاتجاه بوجه عام ولكنه كان يوضح ميلا شديدا الى « المذهب التخيرى eclecticism » الذى هو من مميزات التفكير فى عصر أسرة هان ٠ ويقول فى أول فصل : « أطلق «الطاو» وستملأ الكون ، ومع ذلك ، يمكن أن تتجمع فى لفة دقيقة لا تملأ اليد !٠٠

انها نفس محور الكون والوعاء الذى يحتوى ال «ين» وال «يانج» • انها تربط كل الفضاء في كل الأوقات وتضىء الشمس والقمر والنجوم » (١٧) • ويقول فى فصل آخر :

« للسماء أربعة فصول وخمس قوى وتسع جهات أصلية وثلثمائة وستة وستون يوما • والانسان بالمثل له أربعة أعضاء وخمسة أحشاء وتسع منافذ وثلثمائة وستة وستون مفصلا ، وللسماء الريح والمطر والبرد والحرارة ، والانسان له أنشطة الأخذ والعطاء والسرور والغضب ، ومن ثم فكيس الصفراء يماثل السحب والرئتان الهواء والكبد الريح والكليتان المطر والطحال الرعد • وبهذه الطريقة يشكل الانسان ثالوثا مع السماء والأرض وقلبه هو سيده • ولهذا السبب فان أذنيه وعينيه تؤديان أدوار الشمس والنجوم والدم والتنفس دور الريح والمطر • هناك طائر له ثلاثة أرجل فى الشمس وضفدع ذات ثلاث أرجل فى القمر فلو أن الشمس والقمر خرجا عن مسارهما تكون النتيجة كسوفا وظلمة ، واذا ما هبت الريح وسقط المطر بدون فصول، ففى هذا دمار وكوارث، ولو أن الكواكب الخمسة خرجت عن مساراتها لتعرضت الدول بأسرها بل القارات لكارثة » (١٨) •

ويبدأ الفصل الثالث عشر بقوله ان الأباطرة القدامى لم يظهروا أية عظمة ولم يفرضوا عقوبات ولم يجمعوا ضرائب ، وبدلا من ذلك كانوا يعاملون الناس بالحسنى وكانوا يغدقون عليهم الثروات وكان

(١٧) « هيو آى نان تزو » ١/٢ ب – ٣ أ •

(١٨) المرجع السابق : ١٢/٧ •

الناس يتجاوبون معهم بأن يقدروا فضائلهم • « في هذا الوقت كانت الـ « ين » و الـ « يانج » في تناسق ، وكانت الريح في هبوبها والمطر فيسقوطه موسميين ومعتدلين ، وكانت كل الأشياء فيازدهار • وكان الغربان والعقعق شديدى الاستئناس حتى كان في استطاعة الناس أن يبلغوا أعشاشهم ويمسكوا بهم ، والحيوانات المتوحشة كان يمكن ربطها بحبل » • وواضح أن الفقرة طاوية ، ولكن في تناسق كنفوشيوسى • ويستمر الفصل في اظهار مسألة أن التجارب قد تغيرت ، وفي الحقيقة يجب أن تتغير بتغير الأزمنة • ويعزو سقوط أسرتى هسيا Hsia وشانج Shang الى «رفض عنيد لتغيير أساليبهما » وهذا ، بطبيعة الحال ، أسلوب الفلسفة التشريعية تماما•

ويعقب هذا مقال طويل يجمع بين الطاوية وفلسفة المشرعين ، ويوجه النقد الى الكنفوشيوسيين والموهيين ذاكرا اسميهما • ومع ذلك ففي نفس الوقت ، كان يوجه الى الامبراطور الأول لتشن النقد لأساليبه الرادعة ولعسكريته المتطرفة • ويتضمن نفس الفصل بعض الميول الكنفوشيوسية البحتة التى لا يمكن لا للطاوية ولا للفلسفة التشريعية أن تقرها ، فعلى سبيل المثال : « لو أن الحاكم في ولاية محكومة حكما سيئا يحاول أن يوسع رقعته ولكنه يتجاهل الانسانية والعدالة،ويحاول أن يرفع من شأن مركزه ولكنهيتجاهل «الطريق»، والفضيلة ، فهو يتخلى عما يمكن أن ينقذه ، وبهذا يمهد السبيل لسقوطه • »

وحقيقة أن كتاب « هيو آى نان تزو » يتضمن آراء مختارة من مختلف المدارس لا يثبت بطبيعة الحال أن مؤلفيه كانوا بالضرورة يخلطون بل ، على العكس من ذلك ، كانوا يبدون أحيانا متزنين بصورة غير عادية ويقصدون أنيقيموا توازنا بينالعسكرية واستبداد المشرعين من ناحية والمسالمة والثقة الكاملة الى أقصى حد في قوة فضيلة الكنفوشيوسيين من ناحية أخرى •

لم يكن الكنفوشيوسيون أقل تخيرا • والحقيقة أنه كان من الصعب أن نجد ما يمكن أن نطلق عليه الكنفوشيوسى « التقى » فى عهد أسرة هان • ومن أطول وأهم الكتب التى يطلق عليها الكتب الكنفوشيوسية القديمة كتاب « تسجيلات عن الطقوس » وقد جمع خلال القرن الأول ق•م• من وثائق مختلفة العهود • وبرغم أنه كان يعد فى الكنفوشيوسية ذا درجة رفيعة من التكريم ، الا أنه يحوى الكثير مما يشف بوضوح عن أنه تأثر عن فلسفة المشرعين وعن الطاوية ، فضلا عن أنه يتضمن نظريات الـ «ين» وآل «يانج» والقوى الخمس ، ويشرح قسم طويل من هذا الكتاب الأنشطة التى يجب أن تباشر(خاصة ما يباشره الامبراطور) وأى الألوان يجب استخدامها وما الى ذلك ، خلال كل شهر من أشهر السنة وأى النكبات المروعة يمكن أن تحل لو لم يحدث هذا • فالعقوبات على سبيل المثال مثل عقوبة الاعدام ، يجب أن تنفذ فى الخريف فاذا ما نفذت فى الربيع « فلا بد من حدوث فيضانات هائلة وهبوب رياح باردة ، ولتعرضت البلاد لهجمات المغيرين قطاع الطرق» (١٩) • وبعد نشر كتاب «تسجيلات عن الطقوس » بما يزيد على قرن من الزمان صدر قرار ، بناء على قانون امبراطورى ، أن مثل هذه العقوبات يجب من الآن فصاعدا أن تنفذ دائما بصورة طبيعية فى الخريف • » (٢٠)

وينقل نفس هذا الكتاب عن كنفوشيوس أنه وضع شروحا مختلفة حول المعنى الصوفى للأرقام ، وعن قوله المأثور وهو أن الحاكم الحقيقى يجب أن يكون قادرا على التنبؤ بالمستقبل(٢١) • وبعض أجزاء من هذا النص الكنفوشيوسى المقدس ، تنقل عن كنفوشيوس وهو يتكلم كما لو كان طاويا تماما ويهاجم نفس المبادىء

---

(١٩) ليجى : « لى كى » ١/٢٦١ – ٦٢ ، ٢٨٨ •

(٢٠) ابسكارا : « القانون الصينى » ص ص ١١ – ١٢ ، ٢٥٦ – ٥٧ •

(٢١) ليجى : «لى كى» ج ٢/٢٧٨ – ٨١ •

الكنفوشيوسية الأصلية(٢٢)٠ وليس هناك اتفاق بين أجزائه المختلفة: ففى قسم نجد أنه يوصى بطريقة الكنفوشيوسيين بأنه ينبغى على المرء أن يجعل الدراسات القديمة هى دراسته الوحيدة ، فى حين أنه فى جزء آخر نجد أن هذا المبدأ موضع ذم بطريقة المشرعين (٢٣) وهناك قدر كبير من تأثير المشرعين ٠ وفى الوقت الذى نجد فيه أن الكنفوشيوسية لا ترضى عن العقوبات الصارمة نجد هنا كثيرا من الجرائم التى قيل أنه قد صدرت عقوبات بشأنها فى الأزمنة المثلى فى قديم الزمان ، وكانت هذه العقوبات عقوبات الاعدام بلا رأفة ، وتتضمن العقوبات عقوبات بشأن استخدام الموسيقى الداعرة أو كون المرء منافقا أو دراسة مبادىء خاطئة أو ارتداء ملابس غريبة(٢٤) ولو درس المرء كتاب « تسجيلات عن الطقوس » دراسة دقيقة فلابد وأنه سيخلص الى أن الكنفوشيوسيين فى عهد أسرة هان لابد وأنهم كانوا مضطربى التفكير الى حد ما ٠

وكان « تونج تشونج ـ شو » غالبا ما يطلق عليه أعظم كنفوشيوسى فى عهد أسرة هان ٠ وقد وصلنا عدد من مؤلفاته ، وأهم هذه المؤلفات هو كتابه المسمى « الندى الغزير من حوليات الربيع والخريف » ٠ والفقرة التالية مأخوذة من فصله الثانى والأربعين وتصور الأسلوب الذى استخدم فيه المفاهيم الطاوية والمفاهيم الأخرى فى تطوير فلسفته الأخلاقية والسياسية :

« للسماء خمس قوى : الخشب والنار والأرض والمعدن والماء٠ والخشب أولها والماء آخرها والأرض أوسطها ٠ هذا هو التسلسل الذى رسمته السماء ٠والخشب يولد النار والنار تولد الأرض(الرماد)

---

(٢٢) ليجى : «لى كى» : ١/٣٦٤ ـ ٧ ٠
(٢٣) المرجع السابق : ١/٧٥ ، ٢/٢٢٤ .
(٢٤) المرجع السابق : ١/٢٣٧ .

والأرض تولد المعادن ، والمعادن تولد الماء ، والمـــاء يولد الخشب . هذه هي علاقتها الأبوية ــ البنوية . ويحتل الخشب اليسار ، والمعدن يحتل اليمين ، والنار المقدمة ، والمـاء المؤخرة والأرض الوســط . هذا هو الترتيب الذى يستمد به بعضهم من بعض ويعطى به بعضهم البعض ، كآباء وأبناء . وهكذا يستمد الخشب من المـاء والنار من الخشب، والأرض من النار ، والمعادن من الأرض ، والماء من المعادن. وهم بوصفهم معطين : آباء ، وبوصفهم مستمدين ، أبناء . ودوام الاعتماد على والد الانسان ليدخر لابن الانسان هو طريق الســماء (طاو Tao) .

« ولهذا يتغذى الخشب الحى بالنار(*) ، والمعادن اذا ماتت يدفنها الماء ، وتتوهج النار فى الخشب ، وتغذيه عن طريق قوة الـ «يانج» (الشمسية ؟) ويتغلب الماء على المعادن (أبيها) ومـع ذلـك تبكيــه عن طريق قوة الـ « ين » . والأرض فى خدمتها للسماء تظهر أقصى الولاء . وهكذا فان القوى الخمس تمدنا بنمط من السلوك للأبنـاء الموالين لآبائهم والوزراء الأوفياء ...

« والحكيم ، بادراكه لهذا ، قادر على أن يزيد حبه وأن يقلل من قسوته وأن يصبح أكثر كرما فى معاونته للأحياء وأكثر احتراما فى أدائه لطقوس الموتى ، ومن ثم يتمشى مع النمط الذى أقرته السماء . وهكذا يرعى الابن أباه فى سرور كما تسعد النار بالخشب ويبكى أباه كما يطغى (**) الماء على المعادن ، ويخدم حاكمه كما تبجل الأرض السماء . وهكذا يمكن أن يطلق عليه انسان «القوى» (***) وكما أن

(*) لعل المقصود هنا بـ (النار) دفء الشمس .

(**) هذا «الطغيان من المحتمل أن يكون المقصود به الاشـــارة الى الاسلوب الذى يحل به الجيل الأصغر محل الجيل الأكبر .«

(***) هناك تورية لم تترجم هنا قائمة على حقيقة أن كلمة «هســنج hsing» التى تعنى « قوة » « فى القوى الخمس » ، تعنى السلوك أيضا .

كل قوة من القوى الخمس تحتفظ بمكانها الصحيح طبقا لنظامها الموضوع ، فكذلك الموظفون المقابلون للقوى الخمس يبذلون قصارى جهدهم باستخدام قدراتهم فى واجباتهم المنوطة بهم (٢٥) » •

وقد أعلن موتزو منذ ثلاثة قرون مضت أن الكوارث الطبيعية تعبير عن غضب السماء على سلوك غير قويم من جانب الحاكم ، وتظهر نفس الفكرة ، كما سبق أن رأينا ، فى كتاب « تسجيلات عن الطقوس الدينية » • وقد حولها تونج تشونج ـ شو الى علم • لقد وضع نظامه على « حوليات الربيع والخريف » وهو أحد كتب الدراسات القديمة وهو تاريخ موجزللولاية التى ولد فيهاكنفوشيوس للسنوات من٧٢٢ الى٤٨١ ق•م• وكان يعزى تاليفه خطأ الى كنفوشيوس(٢٦)• لقد قام « تونج » بتحليل مستفيض للظواهر الطبيعية التى حدثت فى ذلك الكتاب الى جانب الأحداث السياسية التى سبقتها ، وعلى هذا الأساس قال انه حيثما كان يحدث فى أيامه أن يشب حريق كبير أو يحدث فيضان أو تقع مجاعة أو تحدث أية ظاهرة من مثل هذه الظواهر، كان من الضرورى فقط البحث فى«حوليات الربيع والخريف» لمعرفة السبب والعلاج •

وهكذا طعمت الكنفوشيوسية فى عهد أسرة هان بقدر كبير من مختلف الأفكار العلمية الزائفة بل وبأعمال السحر • وقد صار هذا اللون الجديد من الكنفوشيوسية ، كما قال «هوشيه Hu Shih» « ديانة مركبة عظيمة امتزجت فيها كافة عناصر الخرافات الشعبية وعبادة الدولة وادخلت فيها النزعة العقلية للتخلص من القليل من المبادىء التى يستحيل تأييدها والمستترة بدقة تحت ستار

---

(٢٥) تونج ـ تشونج شو : «تشون تشيوفان لو» ١١/٢ ب ـ ١٢ .

(٢٦) انظر كريل : « كنفوشيوس : الرجل والأسطورة » ص‌ص ١٠٣ ـ ٤

الدراسات القديمة للكنفوشيوسية والســـابقة للكنفوشيوسية لكى تبدو مبجلة وجديرة بالثقة · وبهذا المعنى كانت الكنفوشيوســـية الحديثة فى امبراطورية هان : الديانة القومية للصين بحق · » (٢٧)
ونجد فى بعض الكتب فى عهد أسرة هان أن كنفوشـــيوس كان يوصف على أنه آله وابن امبراطور أســـود أسطورى ، وأنه عنـــد ولادته ، كما يروى ، أخذت الأرواح والتنينات تحلق فى الهواء فوق مكان ولادته ·

كل هذا مختلف تماما عن تعاليم العالم « لو » ولكن هناك مظهر آخر من مظاهر الكنفوشيوسية فى عهد أسرة هان ، ربما كان قد أقلق كنفوشيوس كثيرا لو أنه عرف به : لقد رأينا فى تسلطية هسين تزو الكنفوشيوســـية أن هنـــاك بالفعل اصرارا على طبقية المجتمع ، برغم أن الطبقات لم تكن محددة بالوراثة ، وكان العلماء سواء كانوا كنفوشيوسيين أو غير كنفوشيوسيين ، لهم ميل قوى لأن يعتبروا أنفسهم صفوة خلقوا من شىء يفضل بكثير التراث الذى خلق منه عامة الشعب · وهكذا فان « تونج تشونج شو » فى معارضته وجهة نظر منشيوس أن الطبيعة البشرية خيرة ، يقول ان هذه ليست القضية بوضوح ، والا لما كانت هناك جماهير من الشعب يطلق عليها «العميان» التى يبدو أن المقصود بها « الحمقى · » (٢٨) ويقول : « لقد زودت السماء عامة الشعب بمواد طبيعيـــة للخير ولكنها لا يمكن أن تجعل منهم أخيارا · ولهذا قررت السماء أن يكون هناك ملك ليجعلهم أخيارا ، كانت هذه هى ارادة السماء ·· والملك مفوض من السماء بواجب تعليم الشعب ليكشف الطـــاقة

---

(٢٧) هوشيه : «نشأة الكنفوشيوسيه كديانة للدولة فى عهد أسرة هان» ص ص ٣٤ ــ ٣٥ ·

(٢٨) تونج تشونج ــ شو : «التشو تشيوفان لو» ١٠ ٤ ب ·

الحيرة الموجودة فيه » (٢٩) ولما كانت السماء قد أناطت به هذه المسئولية فان الملك يتطلع الى السماء على أنها أبوه ، ولذا فانه من الملائم جدا أن يطلق عليه اسم « **ابن السماء** » (٣٠) ٠

وتكاد تكون حقيقة محتومة أن ميتافيزيقيات أسرة هان ، كايديولوجية مفضلة لكى تلائم امبراطورية هان المركزية ، لابد وأنها منحت الامبراطور هذا التأييد الخارق للطبيعة لمركزه ، الذى كان كنفوشيوس حريصا على أن يحرم منه الحاكم ٠ وكان لابد بالمثل من أن يكون لعبة فى أيدى الملكية الاستبدادية ٠ وهكذا نجد موظفا من موظفى بلاط الامبراطور « وو » لا ينتمى الى الكنفوشيوسية يعلن أن المبدأ الكنفوشيوسى يقول ان الامبراطور يجب أن يتولى القيادة ، ويجب أن يتبعه وزراؤه (٣١) ٠ ومن ثم فقد كان طبيعيا أن يخلص بعض العلماء الى أن الامبراطور « وو » كان يساعد الكنفوشيوسية لأنها مبدأ أريستوقراطى مشجع للحكم الفردى ٠

ولا شك أنه منذ ذلك الوقت فصاعدا ، غالبا ما كانت الكنفوشيوسية يستغلها المستبدون ، يعاضدهم وزراء مؤدبون ، ليحققوا مآربهم الذاتية ، ولكن ليست هذه هى كل القصة أو أهم جزء فيها : فالمستبدون دائما يكتشفون أو يشوهون أو يخلقون أيديولوجية تتجاوز عن طغيانهم ٠ وعلى الرغم من أن الكنفوشيوسية قد أسيء استخدامها فى هذا الأسلوب ، فان تأثيرها التام كان أبعد بكثير من التخلص من الاستبداد أو على الأقل من تعديله ٠ ومنهج « تونج تشونج ـ شو » فى الجدل من القياسات المنطقية فى «حوليات الربيع والخريف » اعتبر كابحا لأوتوقراطية الامبراطور ، وقد

---

(٢٩) تونج تشونج ـ شو : «تشون تشيوفان لو» : ١٠/ب .

(٣٠) المرجع السابق : ١٠/١١ .

(٣١) تاكيجاو كاميتارو : « شيه تشى هو تشوكاو تشنج » ١٣٠/٩ .

استخدمه بالفعل فى هذا الأسلوب : الكنفوشيوسيون المتأخرون ٠ وقد دافع تونج أيضا عن أن الضرائب يجب أن تخفض وأن القدر الذى يمكن أن يتملكه المالك الخاص من الأرض يجب أن يحدد ، وأن العبودية يجب أن تلغى ٠

ونجد ، فى الحقيقة ، أنه فى أيام أسرة هان حتى النبلاء الأكثر سموا كانوا يعاقبون لسوء معاملتهم للعبيد وان الظروف لا تترك شكا فى أن هذا كان الى حد كبير نتيجة الانسانية الكنفوشيوسية٠ ومن عهد أسرة هان فصاعدا ، كانت الكنفوشيوسية تمشى فى ركاب الاستبدادية ، ولكن يصعب القول بأنها كانت خادمتها الطيعة : لقد كان أحسن الكنفوشيوسيين دائما يجهرون بالقول غير وجلين بما كانوا يؤمنون بأنه الحق ، سواء كان جزاؤهم النفى أو السجن أو الاعدام ٠

وفى عهد أسرة هان كانت الآراء الخاصـــــة بكل فلسفة من الفلسفات الكبرى ، يمكن أن يقال انها أحرزت انتصارا معينا ٠ ومما لا شـــك فيه أن نظام هان الامبريالى كان الى درجة كبيرة وليد فلسفة أو بالأحرى وليد فلسفات مختلفة ، ومع ذلك فقد كان الموقف هو أن الفلسفات لابد أنها وجدت نفسها فى وضع الرجل الذى ، بعد أن بلغ فى النهاية نجاحا ، يتعجب لماذا يقدر نجاحه تقــديرا ساميا ٠

ولاشك فى أن الفلسفة التشريعية قد انتصرت الى حد كبير نظرا لأن الادارة الفعلية للدولة كانت فى يد المشرعين ؛ ولكنها لم تكن كذلك من الناحية الاسمية ٠ وبعـــد « وو » كان كثير من الأباطرة كنفوشيوسيين الى حد بعيد فى الحقيقة كما كانوا كنفوشيوسيين اسميا ٠ وكان الوزراء يختارون ، من الناحية النظرية ، على الأقل وفقا للمبدأ الكنفوشيوسى ، ووفقا لدراســتهم وما يتمتعون به من فضائل ٠ وكان أشد ماتكرهه الفلسفة التشريعية أن هؤلاء الوزراء

أعطى لهم نفوذ . وفى الحقيقة ، لقد انتهت أسرتا « هان » الأولى والثانية بوزراء شديدى البأس والسلطة حلوا محل حكامهم .

وتمادت الطاوية . وكانت ماتسمى بالكنفوشيوسية فى عهد أسرة هان هى فى الحقيقة طاوية فى الجانب الأكبر منهـــا . وكانت الطاوية فى حد ذاتها لها الحظوة فى الدوائر الأريستوقراطية ، كما كانت لها الحظوة فى أغلب الأحيان فى البلاط . ولكن الحض على العدوان العسكرى فى عهـــد « وو » وظلم الشعب والحماقات الواضحة فى الكثير مما يطلق عليه الطاوية فى عهد أسرة هان ، ربما لم يكن ليرضى عنه مؤلفا كتابى « لاوتزو » و « تشوانج تزو » .

وقد يبدو أن الموهية قد نسيت ، ولكن هناك تأثر الى حد كبير بالنظام الطبقى فى عهد أسرة هان قد يرضى موتزو . وفضلا عن هذا فان الآراء التى قدمها تونج تشونج ــ شو ، وهى أن الظواهر الطبيعية نــذر من الســـماء وأن الامبراطور خليفة الســـماء على الأرض ، قد صارت شعبية بصورة متزايدة ، ويجب أن نذكر أن موتزو قد بشر بكلتيهما ؛ ومع ذلك فواضح أن حال العالم لم يكن ليرضيه أكثر مما كان يرضى الطاويين .

وكانت هناك الكنفوشيوسية أخيرا . لقد انتصرت ولكن على حساب ذلك التحول الذى قد يجعل المرء يعجب أيمكن أن تسمى حقا بالكنفوشيوسية . والحقيقة التى لاشك فيهـــا هى أن النظام السياسى فى عهد أسرة هان ، وكان يسمى بالنظام الكنفوشيوسى ، قد جعل الكنفوشيوسية مسئولة عن كبح الاستبدادية التى كانت تعمل مستترة تحت اســـمها . وقد أوضحت انتقادات أعدائها ــ وكثيرا ماكانوا ــ أن الكنفوشيوسية كانت تعتبر الى حد بعيد نظاما لتفكير قاصر ، تقليدى ، شعائرى لا معنى له ، وتابعا ذليلا للسلطة الاستبدادية .

واذا أردنا تعميم القول بالنسبة للحركة الفكريه فى عهــد أسرة هان من حوالى سنة ١٠٠ ق٠م حتى سقوط أسرة هان الثانيه فى سنة ٢٢٠ ب٠م لبدت لنا أنها غالبا ماكانت مضطربه ومتبلدة باستمرار وقلما كانت قوية بمعنى أنها كانت متطلعة الى الأمام ولها أصالة • وقد قال « هوشيه » عن الكنفوشيوسيين الذين كانوا فى عهد الامبراطور « وو » أنهم كانوا يتلمسون فى الظــلام بعــض الأساليب التى يستطيعون بها أن يكبحوا جماح الحكم المطلق للحكام فى الامبراطورية المتحدة الذى لم يكن هناك مناص من الخــلاص منه» (٣٢) • ويصف «ايتيين بالاز Etienne Balázs » تفكير القرن الثانى الميلادى بأنه متميز ب «قلق معين وتردد وتشكك بين أحسن المفكرين » ويحلل هذا بأن مرده الى حقيقة أن الفلسفة الصينية ، بغض النظر عما يبدو من صبغتها الميتافيزيقية ، هى أساسا فلسفة اجتماعية بل وسياسية ولذلك يجد المفكرون الصينيون أنه من الصعب أن تنعم بالراحة فى عالم واضح التفكك (٣٣) •

وقد وجد الكنفوشيوسيون بصورة خاصة أنه من المستحيل تجاهل اضطراب العالم ، لأن غالبيتهم كانوا الى حد ما فقراء وأسهموا فى هذا الاضطراب • وأخيرا صــار الكنفوشيوسيون فى النصف الأخير من القــرن الثــانى الميــلادى صريحين فى هجمــاتهم على الأريستوقراطية والأغوات الذين أبعدوهم عن السلطة حتى أن كثيرين من الكنفوشيوسيين أعدموا على يد أعدائهم • ومع ذلك ، فبالرغم من أن الكنفوشيوسيين ناضلوا من أجل تقويم أخطاء الناس ، فلقد

---

(٣٢) هوشيه : «نشأة الكنفوشيوسية كديانة للدولة خلال عهد أسرة هان» ص ٤٠ •

(٣٣) بالاز : « المحنة الاجتماعية والفلسفة السياســية فى نهــاية أسرة هان » ص ٩٢ •

كان من الثابت تماما بالنسبة للحكومة الجائرة أنهم قد صاروا قادرين بصورة حاسمة على أن يتحكموا فيما يفضله الشعب ٠

لقد تحقق حلم الفلاسفة الى حد ما : فلقد اتحدت الصين على يد حاكم كان يحكم باسم مصلحة الشعب وكان يردد الشعارات التي كان يحبها الفلاسفة ، ولكن برهن هذا الحكم على أنه كابوس ؛ وكان الامبراطور الحكيم فى أسوأ حالاته ، وحش فرانكشتين ٠ فماذا يمكن عمله ؟ لو لم يكن لفرد نفوذ فى البلاط فانه لا يمكن أن يعمل الا القليل جدا ٠ وفى عهد كنفوشيوس ومنشيوس وهان فاى تزو ، لو أن المرء لم يرض بالبقاء فى ولايته لأمكنه أن يتوجه الى ولاية أخرى ، ولكنه الآن لا يستطيع أن يتوجه الى مكان آخر ٠ وفى تلك الأيام كان الفلاسفة يلومون الحكام دون أن ينالهم جزاء ، ولكن الآن يمكن أن يعدم المرء اذا ماتصرف فقط تصرفا خاليا من اللياقة تجاه بعض المقربين من الامبراطور الذين لا قيمة لهم ، ولذا فاننا لا نعجب كثيرا اذا لم تكن أفكار الناس خلاقة تماما أو اذا هم لجئوا الى ذلك اللون من اللهو الذى يقوم على الأجوبة المسكتة والنكات البارعة ، وعلى ما يدعوه « بالاز » ب « العدمية nihilism » فى محاولة للهروب من الواقع ٠

لقد لاحظنا أنه كان هناك استعداد ، لفترة طويلة ، للوصول الى قواعد أسهل وأسهل لحل المشاكل ٠ وقد بلغ هذا الأمر ذروته فى نوع الاجراءات السحرية التى اقترحها رجال أمثال تونج تشونج ـ شو ٠ وكان هناك رد فعل لأيديولوجيته التى اتخذت أشكالا مختلفة وكانت بعضها مهذبة ودقيقة بصورة ملحوظة ٠ ومع ذلك لم يكن النقاد فى الجملة مبدعين تماما ، فقد اقترحوا هم أنفسهم قواعد أسهل ٠

وقد ذكر الكنفوشيوسيون فى كلمات تبدو مثل كلمات منشيوس أنه كان من الضرورى فحسب العودة الى أساليب القدامى

واستعادة حكم ال « لى » والعدالة • وقال الطاويون ان كل الأمور سيصلح حالها لو أن كل فرد كان طبيعيا تماما ، ويبدو أحيانا أنهم يكادون يرددون ما جاء بكتابى «لاوتزو» و «تشوانج تزو» • واتجه بعض المفكرين الى الفلسفة التشريعية ليجدوا مخرجا ولكن يبدو أنهم اعتبروا ممارستها أسهل بكثير من ممارسة هان فاى تزو لها ؛ وكان بعضهم يعتقد أن « القانون » يكاد يكون مبدأ ميتافيزيقيا ، واذا أخذ به فسيحل كافة المشاكل كما لو كان سحرا • وقد أصر أولئك المشرعون الأولون على أن المشكلة هى أن الناس يتطلعون الى الماضى ولا يدركون أن الأزمنة الحديثة فى حاجة الى معايير جديدة ، ولكنهم فى تأييد هذا الرأى غالبا مايبدو أنه يرضيهم ترديد نفس كلمات هان فاى تزو تقريبا •

هذه هى التعليمات التى لها استثناءات دائما • وهناك استثناء مشهور وهو « وانج تشونج Wang Ch'ung» الذى عاش من ٢٧ب٠م الى ٩٧ ب٠م • وهو على غير شاكلة معظم علماء عصره ، لم يدرس ويحفظ نصا أو بضع نصوص قديمة فحسب بل قرأ أيضا قراءات واسعة • ولما كان فقيرا فانه لم يتمكن من شراء كتب بل كان يتنقل باستمرار بين الكتب فى المكتبات ، ويقال : انه كان فى مقدوره أن يسترجع من الذاكرة كل مايقرؤه • ولما كان قد أسندت اليه وظيفة بسيطة ، فقد حاول ، كشاب من الشبان الأذكياء ، أن يعرف اخوانه ورؤساءه بأخطائهم ، وما لبث أن استقال • وقد ألف عدة كتب من بينها كتاب طويل هو كتاب «لون هنج Lun Hêng » أو «مقالات فى النقد » وهو الكتاب الذى بقى لنا من مؤلفاته •

لقد كانت كتبا نقدية بكل تأكيد • واذا أخذنا فى اعتبارنا البيئة التى ظهرت فيها ، فقد يكون هناك مثار شك فى مسألة هل كان هناك عمل أدبى آخر فى التاريخ الانسانى يوضح روحا أكثر استقلالا • ويهاجم وانج الأسلوب القديم بأكمله فى الدرس

والتحصيل قائلا : انه كان قاصرا تمام القصور • وعن الكتابة ، يقول ، ان المرء يجب ألا يعلق على الدراسات القديمة ولا أن يقلد ماسبق عمله فقط ، بل يجب أن يعبر عن آرائه الخاصه فى لغة واضحة يسهل فهمها • وعلى الرغم من أنه يعتبر التاريخ له أهميته الا أنه يؤكد أن الأزمنة الجديدة جديرة بالدراسة تماما كالعهد القديم ، ويعلن أن الكثير مما اتفق على أنه تاريخ ، ظاهر التزوير (٣٤) •

وبالرغم من أن وانج يعتبر نفسه كنفوشيوسيا بشكل واضح الا أنه لا يخشى أن ينتقد كنفوشيوس نفسه متهما اياه بأنه يتكلم بغموض ، وأنه متردد فى آرائه ، ويناقض نفسه بل ولا يتصرف تصرفا سليما • وقد قال ان معظم المشكلة نجمت من حقيقة أن تلاميذ كنفوشيوس لم يسألوه أو ينتقدوه بما فيه الكفاية • ان من واجب كافة التلاميذ أن يجادلوا أساتذتهم ، كما يقول ، وألا يتقبلوا شيئا لا يبرهن عليه الأستاذ (٣٥) •

ويقوم وانج بهجوم تفصيلى على آلاف من الخرافات التى كان يؤمن بها حتى المتعلمون • لقد كان هناك اعتقاد ــ ولازال يؤمن به الجهلة حتى اليوم ــ بأن الثقب فى نهر تشن ــ تانج Ch'ien-t'ang سببه روح وحش كان قد أعدم وقذف به الى النهر فى القرن الخامس ق•م• ويسخر وانج من هذا ويفسر الامر مصححا له ذاكرا أن الثقب سببه هو دخول مياه المد والجزر الى قناة ضيقة ، ويقول أيضا ان المد والجزر له علاقة بأوجه القمر (٣٦) •

---

(٣٤) وانج تشونج : «لون هنج» ٣/٢٣ أ ــ ٢٧ ، ١٨/١٦ أ ــ ٢٢ أ • ١٩/١ أ ــ ١١ ب ، ٢٠/١ أ ــ ١١ أ ، ٣٠/١٤ ــ ١٨ •

(٣٥) المرجع السابق : ٩

(٣٦) المرجع السابق : ٤/٥ ب ــ ٧ ب •

وقد كان وانج الى حد بعيد رجلا يؤمن بالفلسفة الآلية ايمانا شديدا ، ومن ثم فقد كان من دعاة الجبرية determinism فالسماء والأرض لا يخلقان الانسان عن قصد بل قضاء وقدرا • ليس للسماء عقل أو قوة عزيمة ، ولا يمكن أن تبارك الخير وتعاقب الشرير • والظواهر الطبيعية هى مجرد ظواهر طبيعية وليست تحذيرا من السماء • وليس التكهن بالمستقبل ولا الحبوب التى تطيل العمر لها أى تأثير • ان الناس يتوفون اذا ما دعتهم الظروف الى ذلك ، وعندما يموتون فهذه هى النهاية ، ولا أشباح هناك (٣٧) •

وتبدو كل هذه الآراء حديثة بصورة مذهلة ؛ ومع ذلك فنظرا لأن وانج تشونج لم يكن فوق الطبيعة البشرية لذا لم يكن فى استطاعته الفكاك تماما من معتقدات عصره • هذا ، وبالرغم من أنه دحض الكثير من الخرافات ، فقد أكد فى وقار أنه قد حدثت فى الحقيقة معجزات مختلفة سجلتها التقاليد (٣٨) • وغالبا ماكانت انتقاداته متحذلقة وعلى غير أساس كالقضايا التى يهاجمها ، وهو غالبا مايكون متناقضا • وفضلا عن هذا ، فهو فعلا كما قال «فونج يو ـ لان Fung Yu-lan » يغلب عليه أنه ناقد هدام، يعرض القليل البناء مما عنده ، حتى أن آراءه فى الحقيقة ليست بذات أهمية كما يعتقد كثير من العلماء المعاصرين (٣٩) •

ماذا كان تأثيره على التفكير فى عهد أسرة هان ؟ يعتقد عدد من علماء العصر الراهن أنه قد أثر تأثيرا قويا على رد الفعل على الكنفوشيوسية التقليدية فى القرن الثانى الميلادى ؛ ولكن يبدو أن هذا أمر مشكوك فيه • والحقيقة ذاتها هى أن الكثير من آراء وانج

---

(٣٧) وانج تشونج : «لون هنج» : ١٩/٣ ب ـ ٢٠ب ، ٤/١١٥ ـ ١١٦أ، ١٨/١ أ ـ ١٨ أ ، ٢٠/١١ أ ـ ١٩ ب •

(٣٨) المرجع السابق : ٢٢/١٢ أ •

(٣٩) فونج يو ـ لان : «تشونج كيوشيه هسيه شيه» ص ٥٨٨ •

تشونج التى تبدو لنا معقوله جدا تشير الى أنه من المحتمل أنها كانت تبدو غير معقولة ، ان لم تكن غير مفهومة ، عند كثير من معاصريه • ويبدو أنه ليس هناك من دليل على أن كتاب « مقالات فى النقد » كان معروفا فى الدوائر العلمية حتى وقت طويل بعد وفاة وانج • لقد اكتشف الكتاب فى مسقط رأس وانج تشونج - على الساحل الجنوبى الشرقى ، بعد مضى قرن على تأليفه ، واكتشفه عالم لم يقم بنشره ، بل احتفظ به كسر بدلا من ذلك ، واستعان به فى تجميل أحاديثه وادعى بأن الآراء التى كان يستعيرها منه كانت هى آراءه الشخصية • وقيل مرة أخرى فى القرن الثالث أن الكتاب اكتشفه موظف فى مسقط رأس وانج تشونج ، وقد استخدمه بنفس الطريقة ، ولكنه قام فى النهاية بنشره (٤٠) ، وهذا يدحض ماقيل من أن كتاب وانج تشونج كان معروفا معرفة جيدة فى وقت مبكر •

وكانت البوذية هى التأثير الجديد العظيم الذى أثر على الفكر الصينى ، وقد بدأت تجعل من نفسها شيئا محسوسا فى عهد أسرة هان • لقد اتخذت اتجاها يكاد يكون مناقضا على خط مستقيم لآراء وانج تشونج •

---

(٤٠) هوانج هو : «لون هونج تشيو تشيه» ١٢٣٦ - ٣٧ •

الفصل العاشر

البوذية والكنفوشيوسية الحديثة

حتى قرب بداية العصر المسيحى كان من المحتمل أن تكون الفلسفة الصينية أكثر عزلة من أية ثقافة كبرى أخرى • وليس معنى هذا أنه على الرغم من البحار العنيدة والجبال الشاهقة والأراضى الجرداء التى تقطنها شعوب لا تعرف قرى الضيف ، لم يتسرب اليها من الخارج تأثيرات ثقافية معينة • لقد تسربت بالفعل ، وكانت لها أهميتها ، ويمكن للدراسة وحدها أن تحدد لنا مدى أهميتها •

وبرغم ذلك نستطيع أن نقول بوجه عام أن الفكر الصينى حتى حوالى بداية العصر المسيحى يحمل طابعا صينيا بصورة خاصة • ودارس الفلسفة الغربية الذى يدرس الفكر الهندى ، يجد الكثير مما هو جديد ، ولكن ليس كل شىء غريبا عنه كل الغرابة بالمرة ، فالدقائق الميتافيزيقية التى تعود عليها موجودة هناك ـ وقد توجد فى صور أكثر تعقيدا • ولكن الفيلسوف الغربى الذى يدرس الفكر الصينى القديم قد يميل الى انكار أنه فلسفة بالمرة • وعلى المرء أن يسلم ، بكل تأكيد ، أنه فلسفة من طابع مختلف جدا ، تظل دائما شديدة الارتباط بأرض الحياة الانسانية وبالمشاكل الانسانية •

لقد بلغنا نقطة فى التـــاريخ لم يعد فيها هذا الأمر على هذه الحال : اذ انتشرت البوذية فى الصين من الهند حوالى بداية العصر المسيحى ، وكان هذا يعنى أكثر من مجرد قدوم دين · لقد كانت البوذية تعنى أســـلوبا جديدا للحياة بالنسبه لبعض الصينيين ، ولكنها كانت تعنى بالنسبة لكافة الصينيين ، سواء قبلوا البوذية أو نبذوها ، أن العالم من الآن فصاعدا يمكن أن يتطلع اليه بأساليب جديدة ، وأن الكون يفهم على أنه شيء مختلف تماما عما كان عليه · لقد تبدل كل أسلوب التفكير الصينى الى حد ما ، لقد تغير تدريجيا وعالميا حتى أن قلة قليلة من الناس عرفوا ماذا كان يحدث · ولقد سيطرت البوذية على التفكير الصينى الى حد بعيد ، لفترة تصل الى حوالى ألف سنة ·

واذا كانت وجهة النظر البوذية للعالم مختلفة عن وجهه النظر الصينية ، فلقد كانت مختلفة أيضا عن وجهة نظرنا ، ولكى نفهمها يجب أن ننظر باختصار الى الطريقة التى ظهرت فيها الى الوجود والى تاريخ الشعب الذى خلقها ·

لقد كان مصدر معلوماتنا الأولى عن التاريخ الهندى : الأناشيد التى تكمل الـ « فيداس Vedas » (*) · لقد كتبها أناس معروفون بأنهم هندو آريين ، لهم صـــلة قرابة بالايرانيين ـ وكانت لغتهم « السنسكريتية المقدسة » تنتمى الى فصيلة اللغات الهندو أوربية ، وهكذا كانت لها صلة قرابة بكافة اللغات الرئيسية فى أوربا · والمعتقد أن هؤلاء الناس انتقلوا الى الهند من الشمال الغربى فى وقت ربما كان حوالى سنة ٢٠٠٠ ق·م ، ويعتقد بأنهم كانوا طوال القامة وبشرتهم شقراء ، فلما انتشروا فى الهند اختلطوا بالشعب الدرافيدى فى المنطقة ، وهو يتميز بقصر القامة وسواد البشرة ·

(*) مفردها : فيدا Veda ومعناها : الكتاب الهندى المقدس (المترجم)

وأقدم ثقافة نعرفها من الكتب الهندية المقدسة (فيداس) هى فترة عاش فيها الناس فى صفاء وبهجة بعيدا عن ارهاق الحياة الذى سيطر على الهندوسية بعد ذلك بفترة قصيرة ٠ ومع ذلك نجد ، حتى فى هذا التاريخ القديم ، صفات معينة كان لابد من أن تبقى ثابتة ٠ لقد اهتم هؤلاء الهنود اهتماما بالغا بديانتهم حتى أن أقدم كتاب من الكتب المقدسة الهندية (فيداس) يتساءل هل كان هناك وجود عند بدء الخليقة أم لم يكن هناك وجود (١) ٠

وقد بدأت تظهر خواص عديدة بتطور الهندوسية ٠ ولعل أهم مبدأ من مبادئها الأساسية جميعها هو التجسيد reincarnation ٠ لقد كان الاعتقاد السائد فى الهند بوجه عام «ولا يزال» هو أن الحياة التى يحياها الانسان الآن هى حياة واحدة فى سلسلة ضخمة من الحيوات التى تمتد جذورها الى ماض سحيق ٠ لعل المرء كان سابقا ، ويمكن أن يصبح مرة أخرى فى المستقبل ، مجسدا كحيوان أو حتى كاله ، أو على الأقل ككائن يشبه الها ٠

ولما كان المرء يمكن اعادة ولادته فى صور وأماكن مختلفة ، فلابد أن يكون هناك سبب لهذه الاختلافات٠ ان السبب موجود،ويقول الهندوس فى انصاف بالغ وفى منطق ان هذا السبب هو المجموع الكلى لأعمال الانســـــان فى وجوده الســـــابق ٠ ولما كانت الكلمة السنسكريتية لـ « عمـــــل » هى كارما Karma لذا عرفت هذه النظرية بـ «نظرية الكارما doctrine of Karma»،ووجود لكائن سواء كان حيوانا أو ملاكا أو انسانا ، وسواء كان من سلالة راقية أو وضيعة ، يتوقف على مجمــــوع ماله من « كارما » ، ميزان حساب أعماله الخيرة والشريرة التى أداها فى وجوده السابق ٠

وفنون الخلاص التى يمكن أن توجد فى الهندوســـية كثيرة ؛

---

(١) اليوت Eliot : « الهندوسية والبوذية » ١/٦٤ ٠

ولكن الهدف ، على الأقل بالنسبة لأكثر الناس ادراكا ، واحد ٠ وقد نظن أنه قد يكون في أن يتسبب الانسان في أن يولد شخصا من سلالة راقية أو كاله ٠ ولكن الأمر ليس كذلك ٠ وهو يطلق عليه عدة أسماء ـ فيطلق عليه البوذيون كلمة « نيرفانا nirvana » ويمكن تفسيرها بمختلف المعاني ، ولكن الهدف بصورة خاصة هو الحالة « التي لا يعاد فيها ولادة المرء بالمرة » ٠

لماذا ؟ لأنه : حتى أحسن حياة تتميز بقدر كبير من المعاناة ، وفضلا عن ذلك ، فان هذه الدورة التي لا تنتهي من اعادة الولادة rebirth تجعل المرء في حالة تغيير مستمر ولا تقدم شيئا لاشباع التماس الخلود الذي هو ، بالنسبة للهنود على الأقل ، أمر حتمي ٠ هل هذا تخلص من زوال الولادة من جديد ؟ لم يكن في العادة مفهوما على هذا الوضع ٠ ويفسر أحيانا على أنه اندماج مع الروح السامية للكون وكحالة ابتهاج بالغ لا يتبدل ٠ ومع ذلك ، ففي أية حالة يجب أن تكون مختلفة اختلافا كبيرا عن أي شيء نعرف أنه زوال فعلي لكل مانحن عليه الآن ، حتى لو أمكن أن يقال : اننا نستأنف وضعا آخر ٠

كيف يمكن أن يكون للهنود رغبة في هذا ؟ قد يبدو في الاعتبار الأول أنه غير مفهوم ويبعث على التشاؤم بل انه مرض وسقم ٠ لماذا لا يرغب الناس في العيش بعد ذلك ؟ ومع ذلك فيجب أن نتذكر أن مايؤمن الهنود بأنه البديل ـ هو تعاقب لا نهائي لاعادة الولادة والحياة والوفاة ٠ لقد تناول أحد الفلاسفة الهنود وجهة النظر المتفائلة نسبيا ، التي تنادي بأن الجميع ، حمقى وحكماء على حد سواء ، قد يجدون الراحة بعد الطواف خلال ثمانية ملايين وأربعمائة ألف ميلاد (٢) ٠ وهذا الرأي غريب بعض الغرابة : كم

---

(٢) البوت : «الهندوسية والبوذية» ١/٢٥ .

منا على استعداد لأن يحيا ثانية سنوات مؤلمة من التقويم مررنا بها في عهد المراهقة فى هذه الحياة الوحيدة ؟ فاذا ضاعفت ذلك الى مالا نهاية لسهل عليك أن تفهم وجهة النظر الهندية ٠

ومعظم التفكير الهندى ، ان لم يكن كله ، يؤكد أن الحقيقة الوحيدة الحقة هى الكائن الأسمى supreme being ، الذى تندمج فيه الروح الفردية فعلا اذا استطاعت فقط أن تدرك تلك الحقيقة ، ويتبع هذا أن العالم كما نعرفه هو مجرد وهم ٠ وسواء كان هناك اتفاق على هذا الرأى أو لم يكن هناك اتفاق ، فان الهندوسية بوجه عام تميل بشدة الى اعتبار أن الحياة فى هذا العالم بلا أهمية ، وأنها كما ذكر أحد العلماء « ظل مسرحية بدون حبكة ما » (٣) ٠

وكوسيلة للخلاص كانت التضحية والطقوس الدينية لها أهمية منذ زمن الفيداس ٠ والتقشف ascenticism وقتل النفس self-mortification ورد ذكرهما أيضا فى تلك الأناشيد الأولى وقد استمرت أهميتهما منذ ذلك التاريخ ٠ وليس هذا مجرد موضوع توبة من خطايا الماضى ؛ اذ أن التقشف يعتبر ذا قيمة ايجابية فى حد ذاته ٠ والمعتقد أن المتقشف يكتسب قوة بتقشفه ، ويروى أن آلهة معينة قد خلقت العالم عن طريق التقشف ٠ وأسمى طريق للخلاص ، مع ذلك ، هو طريق المعرفة ٠ ولكن هذه المعرفة ليست النوع الذى يدرس فى معظم الجامعات ، ولكنها معرفة أسمى الأشياء ٠ وهذا لا يتحقق عن طريق الدراسة فحسب ، بل يتحقق أيضا وبصورة خاصة عن طريق التأمل meditation : اذ أنه من المفروض أنك عن طريق التأمل تدرك أنك ـ حتى أنت ـ متحد مع الحقيقة السامية للكون ٠ هذا هو الرأى المعبر عنه بالعبارة المشهورة

---

(٣) اليوت : « الهندوسية والبوذية » : ١/٩٩ ٠

التى وردت فى أحد اليوبانيشادات Upanishads (*) : « ذلك أنت « That art Thou

ومن الصعب جدا وصف الهندوسية لأن التنـــوع واحتمال الخلافات يعد من بين خصائصها الرئيسية ٠ واذا كان هذا الوصف اليسير لقلة من صفاتها قد جعلها تبدو اما غير معقولة أو ساذجة ، فان الخطأ يكمن فى الوصف ٠ فالميتافيزيقيات الهندية معقدة أشد تعقيد حتى أنها تصيب المرء بالدوار ٠ ويبدو أنها قد اكتشفت كل وضع ممكن ، من مذهب وحدة الوجود Pantheism الى المذهب الالحادى التام complete atheism والمذهب المادى materialism :٠. والهندى من دعاة المذهب اللاأدرى agnosticism لا يرضى فقط بأن يؤكد بأنه ليست عندنا معلومات ثابتة ٠ لقد رفض واحد منهم أن يقول رداً على سؤال هل الأفعال الخيرة والشريرة لهما نتائجهما ، اما أنهما لهما نتائجهما ، أو أنهما ليس لهما نتائجهما ، بأن كليهما لهما وليس لهما نتائج ، أو ليس لهما ولهما نتائج(٤) ٠

ولابد لفهم ظهور البوذية أن نعـرف الهندوسية التى كانت متقدمة عليها ٠ والمتفق عليه بوجه عام هو أن الفرد المعروف باسم « البوذا the Buddha » كان رجلا عاش بالفعل ، على الرغم من الاختلاف الكبير فى وجهات النظر بين العلماء عن بعض الحقائق حول حياته ٠ على أن كتب تقاليد البوذية فى الجنوب تؤرخ ولادته فى سنة ٦٢٣ ق٠م ولكن يبدو أن معظم العلماء مجمعون على أنه عاش من حوالى سنة ٥٦٠ الى ٤٨٠ ق٠م ، فاذا كان هذا القول صحيحا فقد كان معاصرا لكنفوشيوس ، وان كان أكبر منه سنا بقليل ، ولكن لا يحتمل فى غالبية الأحوال أن يكون أحد الرجلين قد سمع بالآخر ٠ ويختلف العلماء حتى فيما يتصل بأسس تعاليمه ٠ وكل

(*) واحد من المؤلفات الفلسفية السنسكريتية العديدة (المترجم)

(٤) اليوت : «الهندوسية والبوذية» ١/ ٩٨ ٠

مانستطيع أن نفعله هو أن نشق طريقنا بعناية وسط تلك الاجزاء من التعاليم التقليدية التى يبدو أن غالبيتهم قد تقبلوها على أنها صحيحة • وبالنسبة لغرضنا الراهن ، فان مايهمنا هو طبيعة التعاليم التقليدية ذاتها •

وكان اسم أسرة بوذا ، الذى كان غالبـــا ما ينـادى به هو « جوتاما Gautama » • وقد كان بوذا ابنا لحاكم ولاية صغيرة فى شمال الهند ، تزوج وأنجب طفلا ، لكنه عندما بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، طبقا لمـا روته الروايات ، ترك حياته العادية وغادر داره ليحيا حياة دينية • ولم يكن هذا الأمر بالأمر النشاذ فى الهند فى ذلك الوقت ؛ فقد أضحى كثير من أفراد أسرات راقية متدينين هائمين على وجوههم • لقد درس على معلمين اثنين متواليين ، ومارس التأمل والتقشف ولكنه لم يقنع بأن أسلوب أى منهما يؤدى الى الخلاص بكل تأكيد • وهام على وجهه ينشد الطريق الصحيح ؛ وصام حتى أوشك على الموت • ولكن بلا نتيجـــة • وأخيرا بينما كان يجلس تحت الشجرة المشهورة « بشجرة المعرفة » جال خاطره بمختلف مراحل التأمل ، وكان فى استطاعته فى النهـــاية أن يقول ان « الولادة الثانية قد انتهى أمرها ••• لم يعد لى عمل فى هذا العالم » • لقد صار « البوذا » أى « الرجل المستنير » • كان واضحا أنه دخل الراحة الأبدية nirvana حتى فى هذه الحياة ، ولكنه لن يولد ثانية فى أية صورة •

لقد يئس فى بادىء الأمـر من امكان تبليغ الآخرين بالحقيقة التى اكتشفها • وأخيرا صار مؤمنا ، مع ذلك ، بأن من واجبه أن يحاول أن ينير طريق الآخرين ، وقد فعل •

وكان مذهبه ، كما توضحه مختلف المخطوطات ، قائما على قانون السببية law of causation والوجود شر يعمل على الخلاص منه •

ماهو سبب الوجود ؟ الرغبة ، التعلق بالحياة والأمور الحسية ، فاذا ما انعدمت هذه الرغبة وبطل التعلق بالحياة فسيتحرر المرء من دورة الوجود • ولنهاية حيـــاة المرء عليه أن يمارس العزوبة celibacy ويقوم بالأعمال الخيرة وبالتأمل ، وعند الوفاة (ان لم يكن قبلها) سيدخل المرء في الراحة الأبدية • ان من بدءوا بمثل هذه الحياة وصاروا أعضـــاء في التنظيم الكهنوتي كانوا نساكا ؛ وقد سمح « جوتاما » فيما بعد للنساء بأن يصبحن راهبات ، برغم أنه فعل هذا مع تردد كـــبير • ولم يكن العلمانيون أعضـــــاء في التنظيم الـكهنوتي ، ولـكنهم اكتسبوا الموهبة عن طريق تأييـد النســاك والراهبات ، وعلى العلمانيين أن يتبعوا قانونا أخلاقيا أكثر بساطة، عليهم ألا يأخذوا بمباهج الحياة أو يشربوا المســكرات أو يسرقوا أو يزنوا • وفي الوقت الذي يأمـل فيـــه العلـــماني في الراحة الأبدية ، من حقه أيضــــا أن يهـــدف الى الميلاد الثـاني في جنة مؤقتة •

ولا يظن أن البوذية ، قد ظلت طويلا ، ان لم يكن الى الأبد بدون تلك الزخارف من الأســـاطير التي ينـدر أن تفتقـدها أية ديانة • وكان بوذا من باكورة عهده ، وربما منذ البداية ، يعتبر كائنا معجـزا ، ورغم ذلك فلو أن المرء رضي بالتســليم أساســا بالتجسيد ثانية ، فقد كانت البوذية الأولى مذهبا بسيطا ومنطقيا نسبيا • هـــذا اللون من البوذية غالبا ما يطلق عليه (لأسباب سنذكرها قريبـــا) « بوذية هينايانا Hinayana Buddhism » وهناك سبب ما للاعتقاد بأن هذا اللون من البوذية كان أول لون عرف في الصين •

ولا نعرف كيف ومتى وصلت البوذية الصين لأول مرة ، ونحن نعلم أن البيان المقبول تقليديا عن هذه الحادثة غير صحيح • وكثيرا مايبدو أن هناك تشـــابها بين الفكر الطاوي لكل من « لاوتزو »

و « تشوانج تزو » والآراء التى وجدت فى بعض المؤلفات الهندية . ويمكن سرد فقرات من المؤلفات البوذية توضح تشابها كبيرا بينها . ومن الممكن تماما أن تكون الآراء الهندية قد دخلت الصين منذ فترة متقدمة جدا حتى أمكنها أن تؤثر على هذه المؤلفات الطاوية ، ولكن بالنسبة للبرهان التفصيلى على هذا الدافع يجب أن ننتظر التحريات المقبلة ؛ ومع ذلك فلدينا دليل على أن البوذية كانت معروفة فى الصين حوالى بداية العصر المسيحى .

وهناك مؤلف هام جدا عنوانه « موو تزو Mou Tzü » وقد سمى الكتاب باسم مؤلفه الذى يحتمل أن يكون قد ألفه حوالى سنة ٢٠٠ ب.م (*) وكان مووتزو عالما صينيا ألم بالدراسات الكنفوشيوسية الماما ممتازا ، كما درس الطاوية ، وأخيرا صار بوذيا . ولكن مووتزو نفسه يخبرنا بأن البوذية لم يكن لها تقديرها الطيب فى الصين فى عصره عند الرجال المجربين والعلماء فى البلاط . وقد أحس مووتزو بأنه هو نفسه ينظر اليه على أنه ضال دينيا ، ولهذا السبب ألف كتابه ، فى صورة حوار ليشرح ويدافع عن البوذية .

وأخذ يعدد الاعتراضات الصينية السائدة لها : أنه مذهب همجى ، والتجسيد ثانية أمر محال . ويتطلب حب الأبناء أن يترك المرء جسده سليما وأن يكون له ذرية . ولكن النساك البوذيين يحلقون رءوسهم ، والمفروض أنهم يكونون عزابا على الأقل (ويقرر

(*) كتب بول بليو Paul Pelliot مقدمة لهذا الكتاب وترجمت تحت عنوان « مووتزى أو الشكوك القائمة » فى تونج باو ، العدد ١٩ (ليدن ١٩٢٠) ص ص ٢٥٥ – ٤٣٣ ، وهناك بعض الخلاف فى الرأى بالنسبة لتاريخ هذا الكتاب (انظر اليوت : الهندوسية والبوذية ، ص ص ٢٥٨ – ٢٦٦ ، ٤٢٩ – ٣٣) وعلى الرغم من ان بليو يصرح باحتمال تزوير الكتاب – فهو يعتقد انه من المحتمل ان يكون عملا حقيقيا من الاعمال التى ألفت فى نهاية القرن الثانى ب . م .

مووتزو أنهم جميعهم لم يكونوا في الحقيقة كذلك)واذا كان بوذا حقيقة أعظم معلم فلماذا لم يحذ حذوه الحكماء : « ياو » و « شون » و « كنفوشيوس » ؟ ويرد مووتزو على هذه الاعتراضات وعلى كثير غيرها بمهارة فائقة مظهرا نفسه متضلعا في الاقتباس من الدراسات الكنفوشيوسية القديمة لتحقيق هدفه • وهو يصر على أنه لم يتخل عن كنفوشيوس بأن أصبح بوذيا ، فالدراسات الكنفوشيوسية القديمة تعادل الأزهار ولكن البوذية هى الفاكهة •

على أن الشيء البالغ الأهمية هو استمرار « مووتزو » في الاقتباس من « لاو تزو » فى تأييده للبوذية • وبالنسبة « للراحة الأبدية » البوذية ، يستخدم عبارة « وو واى Wu Wei » التى سبق أن لاحظنا أنها تعبير طاوى يعنى «اللاعمل nonaction » ويستخدم العبارات الطاوية الأخرى ، أيضا ، فى عرضه للبوذية • وفى الحقيقة يبدو أن مووتزو يعتبر البوذية وحدها على أنها صورة أقدم وأوسع مجالا للمذهب الطاوى •

وكانت الطاوية والبوذية متحدتين فى الغالب فى أذهان الصينيين • وتستخدم كثير من العبارات الطاوية فى ترجمة المؤلفات البوذية ، وقد درس الكثيرون من الصينيين الطاوية والبوذية معا ، وغالبا ما كان البوذيون متسامحين تمام التسامح مع الطاوية بل وتتضمن معابدهم الآلهة الطاوية أحيانا •

والطاوية ، التى كانت فى آخر عهد « تشو » و « هان » قد أدمجت قدرا كبيرا من أعمال السحر الصينية والديانةالشعبية، حذتحذو البوذية فى اقامة المعابد واعداد النساك والراهبات والكتب المقدسة ، وكانت آراؤها فى كثير من الوجوه مشابهة للآراء البوذية الى حد يبعث على الدهشة • ومع ذلك لم يكن الطاويون متساهلين مع البوذية قدر ما كان البوذيون متساهلين مع الطاويين ، ولعل اقتباسهم الوفير من البوذية قد جعلهم يشعرون بالذنب • وقد قال

الطاويون ان « لاوتزو » قد توجه الى الهند وعلم البوذا ، ولذا لم تكن البوذية شـــيئا أكثر من فرع من الطاوية . وكان البوذيون والطاويون غالبا فى تنافس على النفوذ فى البلاط الصينى ، وغالبا ما كان الطاويون مثيرى الحركات من جانب الحكومة لصد البوذية فى الصين .

لقد رأينا أن البوذية الأولى كان يطلق عليها أحيانا « بوذية هينايانا » وقد أطلق عليهـــا هــذا الاسم مؤيدو نوع من البوذية تطورت فيما بعد وأطلقوا عليها اسم « ماهايانا Mahayana » ويعنى « العربة الضخمة » وأطلقوا على الصورة الأقدم ، من قبيل حمايتها اسم هينايانا Hinayana أى « العربة الصغرى » وذلك للتمييز بينهما . ومن المحتمل أن يكون ظهور الماهايانا فى الهند قرب بداية العصر المسيحى . وأهم خلاف هو المكانة التى تقدمها « للبوذيساتفا boddhisattva » ومعناها الحرفى « من هو على علم » ، والبوذيساتفا كائن أصـــبح أهـــلا لأن يدخـل « الراحة الأبدية nirvana » ويصبح بوذا ، ولـــكنه يرفض بمحض ارادته هذا الامتياز فى المكانة ليظل بين كائنات الكون التى لا تزال غير مستنيرة ويعمل من أجل العمل على خلاصها . انه شخص بطولى ، مبجل بل ومعبود من أجل احتماله الشقاء وكده ورحمته للغير . ويعتبر بوذيو الماهايانا أن الكفاح من أجل بلوغ الشخص « الراحة الأبدية » ، وهو من خصائص الهينايانا ، اجراء أنانى .

وفى الجملة كانت بوذية الماهايانا تتمشى مع الأذواق الشعبية، متطورة الى أسمى درجة تلك المبـــادىء الخرافية والأســطورية التى لم تكن واضحة فى أوائل عهد البوذية . ونجد أيضا فى الماهايانا قدرا كبيرا من التأمل الميتافيزيقى الذى يتناول نوعا من الموضوعات التى رفض بوذا أن يناقشها لأنها ، كما قال ، لا طائل تحتها . والمسألة المحيرة التى هى مثار خلاف بين كلا المبدأين يناقشها صراحة

كتاب من أشهر كتب الماهايانا المقدسة ، فيقتبس عن بوذا نفسه أنه قال بأنه علم فقط فى بادىء الأمر مبدأ الهينايانا لأن الناس لم يكونوا على استعداد بعد لتقبل الحقيقة السامية فى الماهايانا(٥)٠

ويبدو أن أول الكتب البوذية المقدسة التى ترجمت الى الصينية كان كتاب الهينايانا ، وان كانت بعض مواد الماهايانا قد سبق أن ترجمت فى وقت مبكر فى القرن الثالث الميلادى ٠ وكانت معظم الترجمات بعد القرن الخامس عن الماهايانا ٠

وبرغم أن البوذية كانت معروفة فى الصين مع بداية العصر المسيحى ، وربما قبل ذلك التاريخ ، فانه يبدو أنها كانت ذات تأثير بسيط على الدوائر العلمية الصينية لعدة قرون ٠ ويبدو أنه نادرا ما ورد ذكرها فى الأدب الصينى حتى القرن الثالث ٠ ومع ذلك فقد انتشرت بين الجماهير ٠ لقد كان هناك مجال خصب بصورة خاصة للدعاية للمذهب الجديد يقوم به أناس من الشمال والغرب غزوا الصين واستولوا على ولاية حكموها كغزاة ٠ وصار بعض حكامها بوذيين ورعين ٠ ويقال انه فى سنة ٣٨١ صار تسعة أعشار الناس فى شمال غرب الصين بوذيين(٦) ٠ وقد صار الناسك الهندى المشهور «كوماراجيفا Kumarajiva » موظفا حكوميا فى هسيان Hsian بعد سنة ٤٠٠ بوقت قصير ، ونظم مكتبا كان موظفوه بالمئات من النساك ، وقد قاموا بترجمة أربعة وتسعين كتابا بوذيا مقدسا تحت اشرافه ٠ وحوالى نفس هذا الوقت تحول امبراطور صينى ، كان يحد ملكه جنوب الصين ، الى البوذية ٠

---

(٥) سوثيل Soothill : « الاستمتاع بالقانون العجيب » ص ص ٨٥ — ٩٤ ٠

(٦) اليوت : « الهندوسية والبوذية » ج ٣ ص ٢٥٠ ٠

وبعد ذلك بقرن من الزمان بدأ الامبراطور « وو » (الذى حكم من ٥٠٢ الى ٥٤٩) وأسس أسرة ليـــانج Liang ، بدأ حكمه كنفوشيوسيا ، ولكنه بعد سنوات قليلة تحول الى البوذية • وقد حاضر علانية عن الكتابات البوذية المقدســة ، وجمع أول قوانين بوذية صينية ، وكتب عن البوذية ، ولجأ ثلاث مرات الى دير ، كما أنه أصدر أيضا قرارات تحرم التضحية بالحيوانات لأنه عمل مناف للمذهب البوذى الذى ينادى بعدم الاضرار بشىء • وهناك عدد من الأباطرة والامبراطورات فى التاريخ الصينى المتأخر ممن تحولوا الى البوذية •

وتزايدت المعابد كما زاد عدد النساك بسرعة ، ووقف المؤمنون مساحات شاسعة من الأراضى على المعابد • وقد أدى هذا الاحجام من جانب أعداد كبيرة من الموظفين عن الانتاج واعفاء مساحات كبيرة من الأراضى من قوائم الضرائب ، الى اســـتياء خطير فى الدوائر الرسمية • وفى سنة ٨٤٥ أصدر امبراطور مخلص للطاوية ، قرارا بهدم أكثر من ٤٠٫٠٠٠ معبد بوذى وبتحويل ٢٦٠٫٠٠٠ ناسك وراهبة الى علمانيين ، وعتق رقبة ١٥٠٫٠٠٠ من عبيد المعابد ، ومصادرة مساحات أراضى شاســعة كانت ملكا للمعابد • وربما كانت هذه الأرقام مبالغا فيها ولكنها تؤكد أن البوذية الصينية قد حققت من الأعمال القدر الكبير ، ولكن لا هذه المحاولات ولا المحاولات التى كانت تتم بين الفينة والفينة لردعها قد أفلحت فى القضاء عليها •

ولم يكن الفقراء والأباطرة هم وحدهم الذين صاروا بوذيين، اذ أن الحركة عندما اكتسبت قوة خلال الألف سنة الأولى من العصر المسيحى ، اتجهت أحسن العقول أكثر وأكثر الى البوذية • وفى القرن الحادى عشر أسف المصلح الســـياسى المشهور « وانج آن ـ شيه Wang An-Shih » (الذى وضع شـــاهد قبره فى المقبرة

الكنفوشيوسية بجوار منشيوس بعد وفاته) لحقيقة أن العلماء قد تحولوا الى البوذية والطاوية فى آرائهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد ألف ابنه هو نفسه كتبا عن كل من الطاوية والبوذية (٧) · وفى القرن الثانى عشر أكد « تشوهسى Chu Hsi » ، الذى كان يعتبر المصـــدر الأصلى للكنفوشيوســية التقليدية الحديثة ، أن الرجال المتعلمين قد وجدوا أنفسهم مضطرين الى التحول الى الطاوية والبوذية فيما يتصل بالمفاهيم الدينية والأخلاقية (٨) ·

ولعل أهم دلالة تلفت الأنظار الى تأثير البوذية هو حقيقة أنه بينما كان قلة من العلماء الكنفوشيوسيين قد استمروا يستعيذون منها على أنها خرافة أجنبية ، فقد كانت المعابد الكنفوشيوسية من القرن الثامن الى السادس عشر ، تحوى صورا لكنفوشيوس وتلاميذه ولآخرين ممن لهم قدرهم ، فى ترتيب شـــبيه أكبر الشبه بالصور الموجودة فى المعبد البوذى · ويعلق « جونك · شريوك John K. Shryock » على هذا التشابه بأنه « من الصعب اعتباره محض صدفة » (٩) ·

وكان هذا النجاح السريع البعيد المدى للبوذية نجاحا يبعث على الدهشة · وهناك أمور عديدة فى البوذية يمكن أن يتوقع الانسان أن تكون غير مقبولة بين الصينيين · لقد كانت كذلك ، بل ان كتاب العالم البوذى « مووتزو » يخبرنا بذلك ، ولكن كانت هناك أمور ذات جاذبية قوية ، وبعضها واضح تمام الوضوح ·

ولم تكن مجرد صدفة أن كانت فترة النمو الضـــخم للبوذية الصينية فترة كان فيها العالم الصينى شديد الاضطراب · لقد رأينا

---

(٧) ويليامسون Williamson : « وانج آن شـــيه » ج ٢ ، ص ٥٦ ، ٢٥١ ، ٣٦٣ – ٦٤ ·

(٨) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٠١ ·

(٩) شريوك : « أصل وتطور نظام الدولة الدينى عند كنفوشيوس » ص ١٣٩

أنه فى السنوات الأخيرة من عهد أسرة هان ، فى القرن الثانى الميلادى، كان كل شيء هادئا ، وكان المثقفون قد لجئوا الى نوع من العدمية nihilism أو الى التصوف الطاوى • أما عامة الشـــعب ، الذين كانوا وسطا بين ظلم الموظفين وظلم ملاك الاراضى الشاسعة ، بين شقى الرحى ، فقد زاد تدهورهم فى طبقات البروليتاريا التى لا تملك عقارا ، ان لم يكونوا فى طبقات العبيد •

هذه الجماهير البائسة جميعها اكتسحتها حركة طاوية بشرت بمقدم عهد من الرخاء والمساواة • لقد انتظمت فى جماعات بسيطة تتناول وجبات مشتركة ، وتقدم اعترافا علنيا عن خطاياها ، وكانت على استعداد للعمل العسكرى • وفى سنة ١٨٤ هب ذوو « العمامات الصفراء Yellow Turbans» كما يطلقون عليهم، للحرب وأفلحوا فى السيطرة على جانب كبير من الصين • وفى سنة واحدة يقال بأن نصف مليون شخص قتل • وقد أخمدت الثورة ولكنها دفعت بالبلاد الى حرب أهلية دامت لجيل من الزمن ، وحولت الصين ، كما ذكر أحد العلماء «من امبراطورية قوية الى مقبرة شاسعة الأطراف» (١٠) وكانت الصين مقسمة الى ثلاث ولايات ، وبعد ذلك بقرن من الزمان بدأت الغزوات الهمجية • وما بين سنتى ٢٢٠ و ٥٨٩ الميلادية كانت هناك فقط فترة قصيرة مداها أربع وعشرون ســنة اتحدت فيهــا الصين ، وقسمت فى بعض الأحيان الى عدد من الولايات وكانت كلها تعادى بعضها بعضا •

وليس عجيبا أن يلجأ كثيرون فى مثل هذا العالم الى البوذية• ويخبرنا « مووتزو » المؤلف الصينى البوذى الذى سبق أن عرفناه، أنه فى آخر عهد أسرة هان ، بعد ثورة العمامات الصفراء ، استطاع أفراد كثيرون من الهروب الى جنوب غرب الصين التى كانت هادئة

---

(١٠) بالاز : « المحنة الاجتماعية والفلسفية فى نهاية أسرة هان » ص ٩١

نسبيا ، وهناك انغمس كثيرون فى الطاوية · وكان « مووتزو » واحـــدا من هؤلاء اللاجئين ، ويقول صراحة انه تحول الى البوذية هربا من شرور هذا العالم ·

ولابد أن الدير البوذى كان يبدو كملجأ مقدس فى مثل تلك الازمنة · ولم يكن المرء هناك فى حاجة الى أن تقلقه مشاكل العالم التى ليس لها حل ولكن عليه فقط أن يقرأ الكتب المقدسة ويؤدى الطقوس الدينية ويتأمل · ولم يكن على المرء أن يقوم بأى عمل نظرا لأن العلمانيين سيقدمون له المساعدة ، فاذا كان المرء مؤمنا مخلصا، كان واثقا من راحة البال وقد يتمنى المرء أن يظل ديره جزيرة سلام حتى لو كانت الحروب مندلعة حوله ·

قلة فقط يمكن أن يصبحوا نساكا أو راهبات ، ولكن كل فرد يمكن أن يكون علمانيا بوذيا ، وكان هذا أمرا جديدا الى حد كبير · وللوصول الى مزيد من الاقتناع بالكنفوشيوسية ، كان المرء فى حاجة الى أن يكون قادرا على القراءة قراءة جيدة · وفى الطاوية كان الهدف هو أن تصبح أزليا ولكن قلة فقط من الأرواح النادرة يمكن أن تبلغ هذا الهدف · ومع ذلك ، ففى البوذية وبخاصة فى مظاهر الماهايانا ، كان فى استطاعة كل فرد على الاطـلاق أن يفوز بدرجة مرضية جدا من الخلاص ، وكان على المرء أن ينتظره ، بطبيعة الحال ، حتى بعد الوفاة ، ولكن الفكر الصينى التقليدى كاد أن يلتزم الصمت بالنسبة للحياة بعد الموت · وقد أعطت البوذية أملا على الأقل ، وفى أوقات كان يعيش فيهـا النـاس فى جحيم على الأرض كانوا قادرين على أن يؤملوا فى الجنة بعـد الموت · وعلى أية حال ، لقد كان شيئا يمكن ان يأمل أذل الأفراد أن يفوز به لنفسه ·

لقد كان البوذيســاتفا الأقوياء على اســتعداد ، بل كانوا تواقين ، للعمل على تحقيقه · وكان واحد منهم ، فى صورة أحد الذكور فى الصين ، قد نقل الى الصين فى صورة أنثى ، ســـماه

لويس هودوس Lewis Hodous «أشهر آلهة فى الصين» ، ويتحدث عن هذا البوذيساتفا (كوان ين Kuan Yin التى كانت عادة يطـلق عليها لقب « الهة الرحمة ») بأن صورتها توجـــد فى كل منزل تقريبا ، ومعابدها لها مكان فى كل جزء من الصين » (١١) (وأنا اعترف بأن بعض الصور الصغيرة لهذه الالهة قد صورت تصويرا أنيقا على الخشب والعاج أو الخزف الصينى ، وكانت جميلة جدا وجذابة حتى كادت أن تحولنى الى البوذية)

ثم هناك الأميتابها Amitabha، وهو أحد البوذيين العديدين ، الذى كان بالغ الشفقة حتى رفض أن يصبح بوذا الا بناء على شرط أن يقسم ذخيرته الضخمة من المواهب العديدة بين الآخرين ، كما يشاء ٠ ولهذا السبب فان أولئك الذين يعيشون عيشة صالحة أو يفكرون تفكيرا على الوجه الأكمل فى « الأميتابها » أو حتى (بناء على أكثر التفسيرات تفاؤلا) يبتهلون باسمه ، سيحملون بعد الموت الى جنته التى تسمى « أرض النعيم الخالص » (١٢) ٠

وليست هذه هى « الراحة الأبدية » بطبيعة الحال ، بل مجرد رحلة تجاهها ٠ ومع ذلك فقد كانت الفترات الزمنية فى البوذية طويلة جدا بصورة لا يمكن تصورها حتى أن معظم الناس لا يحفلون بهذا الأمر ٠ وهناك شخصية طريفة أخرى هو البوذا المنتظر ، الذى تمثله الصورة وهو يحمل حقيبة تحوى سعادة مقبلة للجميع ٠ وهو يضحك لأنه يعلم ، بغض النظر عما تكون عليه الأمور من ســـوء الآن ، كم سيكون كل شىء عجيبا فى المستقبل المبارك ٠

والبوذية فى الصين لم تقدم خلاصا للصالحين والمؤمنين فحسب

---

(١١) هودوس : « البوذية والبوذيون فى الصين » صص ٢٩ — ٣١ ٠

(١٢) المرجع السابق : ص ٥٢ ، اليوت : «الهندوسية والبوذية» ج ٢ صص ٢٨ — ٣١ ٠

بل صورت أيضا فى عبارات واضحة العذاب الذى ينتظر الأشرار فى نيران البوذية المتأججة ، ولكنها تعرض هنا طريقا للخلاص : فهذه الكروب ليست دائمة بل هى مجرد سلسلة من التطهير purgatory ، وعن طريق سلسلة محكمة من الطقوس الدينية يمكن مساعدة أولئك الذين يحبهم المرء ليجتازوها بسرعة . وكانت الطقوس الدينية بالنسبة للموتى لها أهميتها فى الصين منذ القدم . وقد أفلحت البوذية فى أنها اتخذت لنفسها مكانة كبيرة فى أداء هذا العمل العتيق .

ولم تؤثر البوذية على عقول وقلوب الناس فحسب بل أثرت على أعينهم أيضا . لقد كانت الباجودا(*) والمعابد الشاهقة فى تناسقها البديع تؤثر حتى على الكافر . وربما ظننا أن « المعبودات » صور ضخمة مصممة فقط للاحتيال على السذج ، ولكن مؤرخى الفنون يخبروننا بأن أحسن نحت صينى بوذى كان لايزيد كثيرا عن هذا . ويكتب ج . لوروى ديفيدسون J. Le Roy Davidson أنه «فى الصين فى القرن الخامس فقط امتزج التحفظ التقليدى بالحماسة الدينية لينتج توازنا كاملا بين التصوير البشرى والمثالية البوذية التى تنقل بأدنى تشتيت للفكر وأقصى قوة : الروح العامة لأعمق مفاهيم التعليم ... والايقونات فى صورة آدمية كما ينبغى أن تكون عليه لكى تدركها الجماهير . وهى تجرد من صفات الانسانية فى اتزان متكرر حتى أنها تحمل المتعبد فيما وراءها الى التجريدات التى تمثلها » (١٣) .

(*) الـ pagodas هى المعابد الهندية او الصينية التى تتألف عادة من عدة طوابق مبنية على هيئة ابراج مخروطية الشكل (المترجم) .

(١٣) اقتبست بتصريح من ديفيدسن من مخطوط له ، لم ينشر بعد ، عنوانه : «الحكمة فى استخدام زهرة اللوتس فى الفن الصينى» ص ٢٣ .

والصينيون متسامحون ، فهم لا يرون خطأ فى الاشتراك فى الطقوس الدينية فى معبد بوذى أو طاوى أو كنفوشيوسى فى نفس اليوم . والبوذيون متسامحون أيضا . ولقــد عرفنـــا موقفهم من الطاوية . لقد قالوا ان أى «بوذيساتفا» تجسيد لكنفوشيوس . ويقرر لويس هودوس أنه جاء وقت شـــيد فيــه « معبــد بوذى لكنفوشيوس » فى شانتونج Shantung (١٤) ، كما كان الاله الصينى « السماء » يبجل فى طقوس بوذية معينة (١٥) . ولم تكن فضيلة احترام الوالدين معدومة تماما فى البوذية الهندية (١٦) ، ولكنهــا كانت تتخذ فى الصين توكيدا خاصا لتمشــيها مع عادات البلاد . وقد بنيت المعابد البوذية لتتمشى مع النظام الصينى للأفكار السحرية ، الذى يتضمن الخمس قوى وما الى ذلك ، المعروف باسم « فنج شوى Fêng Shui » .

وقد يكون من الخطأ الجســيم أن نفترض أن كافة البوذيين الصينيين كانوا جمهرة جهلة يستهويها الحديث عن السحر والخرافات الساذجة . لقد أتيحت لى فرصة التعرف تعرفا وثيقا على عالم صينى كان بوذيا ورعا ، وهو شخص بالغ الذكاء ، ولم يكن بحال مجردا من روح الفكاهة ، ولم يتحدث قط عن ديانته ، ولكنها كانت تضفى عليه صفاء ورقة كان لهما تأثيرهما بقدر ما كان لهما تواضعهما .

والقانون الأخلاقى للبوذية قانون ، مع استثناء طفيف ، قد يفوز بتأييد الأشخاص الأخلاقيين فى كل مكان . والفلسفة الأخلاقية

---

(١٤) هودوس : « البوذية والبوذيون فى الصين » ص ١٨ .

(١٥) رايشيليت Reichelt : «الحقيقة والتقليد فى البوذية الصينية» ص ٢٣٨ .

(١٦) اليوت : « الهندوسية والبوذية » ج ١ ص ص ٢١٦ — ٢١٧ ، ص ٢٥١ .

البوذية كانت لها أهميتها ، كوعودها العلمانية ، فى كسب ود الصينيين ٠

وحتى بين مختلف الطوائف المسيحية ، هناك عدد كبير من الفوانين التى تتمشى مع تنوع السجايا ، وهذا الأمر يكاد يكون أكثر صدقا فى البوذية ٠ وقد كان هناك تفكير مضن فى البوذية الهندية جاء به الى الصين ناسك مشهور فى القرن السابع ، بلغ مستوى رفيعا نادرا فى التأمل الميتافيزيقى ٠ وكما يشرح كلارنس هـ ٠ هاملتون Clarence H. Hamilton كان هذا التفكير ينادى بأن «الكون مجرد صورة عقلية فحسب » ويحاول « البرهنة على أن العالم الذى يبدو خارجيا وماديا ، ليس الا عالما اختلقه وعينا الشخصى ، والغرض هو أن نحرر أنفسنا من خشيته ومن التعلق به » (١٧) والطريقة العملية لذلك ، أو على الأقل جانب منها ، هى التفكير ٠

ويبدو أن مثل هذه الميتافيزيقيات البارعة قد لقيت فقط اعجابا محدودا فى الصين ٠ وهناك نمط آخر من التفكير ، أعطى الاهتمام الأول للتأمل ، وكان لهذا التفكير تأثير أكثر شمولا لا على البوذية فحسب بل أيضا على كافة التفكير الصينى ٠ واسمه مشتق من كلمة سنسكريتية معناها « التأمل » ترجم الى الصينية ثم الى اليابانية ، وفى الغرب يكاد يعرف دوليا بالاسم اليابانى وهو « بوذية زين Zen Buddhism » ٠

وحتى اذا بدأنا فى شرح بوذية الزينية شرحا صحيحا فسيتطلب هذا الأمر كتابا كاملا كما يتطلب مزيدا من الحكمة يفوق قدرة المؤلف ٠ وتاريخ الزينية في الصين مثار خلاف ، ولا داعي لأن نحفل به ٠ ويلاحظ أن جانبا من خلفيته يبدو أنه يكمن فى تعاليم كتعالىم ذلك الناسك الصينى الذى ذاع صيته حوالى سنة ٤٠٠

---

(١٧) هاملتون : « هسيوان تشوانج وفلسفة وى شيه » ص‌ص ٢٩٢ و ٣٠٧

وأعلن أن عالم بوذا لم يكن ضربا « من أرض طاهرة » نائية بل هو العالم الذى حولنا ،و أن كل الكائنات الحساسة لها طبيعة بوذا ، وأن الجميع حتى خصوم البوذية ، يمكن أن يبلغوا مرتبة البوذية عن طريق الاستنارة المفاجئة ، لو أنهم استطاعوا فقط ادراك هذه الحقيقة .

ولما تطورت الزينية كان المعتقد أن التهذيب يمكن بلوغه عن طريق ممارسة التأمل الذى تعلموه عن الهند ، مثل ، على سبيل المثال، التأمل فى حائط أبيض . وقد قامت مدرسة لها تأثيرها بتعليم أنه ليست هناك من ضرورة لأسلوب فنى خاص ، وأن الأمر يحتاج فقط الى أن يعمل المرء باستقامة وفهم ، ولو سأل تلميذ أستاذا من أساتذة الزينية عن معنى الثالوث البوذى ، فلربما قيل له « الذرة والحنطة والفول » أو ربما ضربه على أذنه . لقد كان من المتوقع أن يفكر فى الأمور من تلقاء نفسه . كان هناك ميل الى استبعاد الأشياء الخارجية حتى الكتب المقدسة . وقد اشترك نساك الزينية فى الأعمال اليدوية فى الدير . ويكتب هوشيه : « كانت الأديرة الزينية أعظم مراكز للتفكير الفلسفى والمناقشات الفلسفية طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . ولم تكد الزينية تحل عمليا محل كافة الطوائف الأخرى حتى أخذت المعابد الزينية فى استئناف الطقوس والعبادات القديمة التى كان من المعتقد أن تقوم بأدائها ، نظرا لأنها أيدت نظمها علانية . »(١٨)

وكان تحطيم الصور والتماثيل الدينية Iconoclasm قد تمادى أمره ، ويقال بأن ناسكا دخل معبدا وبصق على صورة بوذا ، ولما أنبوه قال : « أرجو أن ترونى مكانا لأبصق فيه لا وجود لبوذا فيه » وقد قام آخر فى ليلة قارسة البرد بشق صورة خشبية

(١٨) هوشيه : « تطور البوذية الزينية فى الصين » صص ٤٩٦ — ٥٠٠ .

للبوذا ليتخذ منها خشبا يذكى به لهب النار ؛ وفيما يلى بعض الأقوال اللاذعة لناسك مشهور فى القرن التاسع قام هوشيه بترجمتها :

« لا ينشد الحكيم البوذا • والبوذا قاتل خطير ضلل عددا كبيرا جدا من الناس حتى ترددوا فى هاوية الشيطان مرتكب الفحشاء » « لقد ادعى الوغد العجوز المتوحش (بوذا) أنه قد شهد دمار ثلاثة عوالم • أين هو الآن ؟ ألم يمت أيضا بعد الثمانين من عمره ؟ هل كان يختلف عنكم فى أية صورة ؟ » « أيها الرجال الحكماء ، وحلوا وثاق أجسادكم وعقولكم ! تخلوا عن كل شىء وحرروا أنفسكم من كافة القيود • »

« مكانى هنا ، وليس هناك من حقيقة واحدة أمامكم تستطيعون أن تدركوها • أنا نفسى لا أعرف من هو « زين » • لست معلما ولا أعرف شيئا بالمرة • لست الا شحاذا هرما استجدى طعامى وكسائى وأحرك أمعائى يوميا • هل هناك شىء آخر أستطيع أن أؤديه ؟ ولكن اسمحوا لى أن أقول لكم لا عليكم من شىء تؤدونه ، انطلقوا وخذوا قسطكم من الراحة مبكرا • » (١٩)

ويذكر كارل ل• رايشيلت Karl L. Reichelt أن زعماء أشهر مدرسة زينية فى الصين قد ظلوا متمسكين على الدوام بأن الانسان فى حد ذاته عنده الطاقات المطلوبة لبلوغ التقديس ، ويمكنه هو نفسه أن يخلق سعادته الشخصية ويتغلب على مصاعبه ، اذا كانت

---

(١٩) هوشيه : « تطور البوذية الزينية فى الصين » ص ٥٠٢ •

له النظرة الصحيحة للخلق الصادق لطبيعته البشرية ٠ » (٢٠)

وواضح تمام الوضوح أن كل هذا مماثل بصورة ملحوظة للفلسفة الطاوية الأولى ، كما نجـدها مثلا فى كتابى : « لاو تزو » و « تشوانج تزو » ٠ ولربما نجد تشابها أكبر عجبا بالفلسفة الطاوية التى نجدها فى أواخر عهد أسرة هان ٠ وهناك اتفاق بوجه عام على أن هناك على الأقل درجة ما من التأثير الطاوى واضحة فى الزينية ، وان كان هناك ادعاء بأن الزينية ليست فى الحقيقة بوذية على الاطلاق بل هى ثورة مضادة ٠ فهل نستطيع القول ، اذن ، بأن الرد الصينى على تحدى البوذية قـد جاء من داخل نطاق هذه المدرسة البوذية ذاتها القوية التأثير ؟ قد يكون فى هذا جانب من الصدق ، ولكن هناك حقيقة أخرى هى أن الزينية عندما تخلت عن زخارف الماهايانا ظهر بوضوح أن الكثير مما تبقى منهـا شـبيه بالبوذية الهندية الأولى ٠ وفى الحقيقة ، من المحتمل أن كانت تعاليم « جوتاما » الأصلية ، الذى قال بأن من واجب كل فرد أن يبحث عن « راحته الأبدية » لنفسه ، متشابهة تشابها غير عادى مع الزينية ٠

لقد رأينا أنه فى أواخر عهد أسرة هان صارت الكنفوشيوسية وقد طعمت تماما بالميتافيزيقيات الطاوية ، وأنها اهتمت اهتماما بالغا بالتقاليد والطقوس الدينية ولم تكن قد فقدت تماما دورها التاريخى بوصفها مدافعة عن العامة ٠ ولكنها حققت هـذا الأمر بصورة قاصرة تماما حتى أن الجماهير المظلومة فضلت أن تتجه ، فى طلبها للراحة ، الى ذلك اللون من المبدأ الطاوى الذى كان ينادى به ذوو العمامات الصفراء الذين وعدوا بعهد من السلام والسعادة لا مثيل له ٠ فلما تبين أن هذا الحلم السماوى على الأرض كان

---

(٢٠) رايشيلت : « الحقيقة والتقاليد فى البوذية الصينية » ص ٣٠٨ .

وهما ، اذا بغالبية الصينيين خلال القرون المضطربة التى أعقبت ذلك ترضى ، بالوعد البوذى الذى يعد بالسعادة بعد الموت ، اذ أن هذا ، على الأقل لا يمكن التدليل على بطلانه • ولقد كانت البوذية من القرن الثالث حتى القرن السادس الميلادى القوة الثقافية ذات السيادة فى الصين ، ثم أعقبتها الطاوية : شبيهتها الصينية • والملاحظ أنه حتى أولئك العلماء الذين استمروا فى دراسة الكنفوشيوسية القديمة قد اصطبغوا بالطاوية والبوذية صبغة عميقة •

ومع ذلك فقد استمرت بعض الدراسات القديمة • وعندما اتحدت الصين ثانية فى عهد أسرة تانج Tang (٦١٨ ـ ٩٠٦) طرأ على البيروقراطية الرسمية اصلاح فى جانب كبير منها عن طريق عقد اختبارات مسابقة قائمة أساسا على الدراسات الكنفوشيوسية القديمة • وفى هذه الفترة ، بينما كانت البوذية قد بلغت ذروتها فى التأثير والتفضيل الرسميين ، بدأت الكنفوشيوسية فى النهوض ثانية بصورة ملحوظة ، فى التأثير الثقافى ، مما أدى الى اطفاء جذوة المبدأ المستورد تماما •

وعن طريق العملية التعويضية التى غالبا ما تمارس ، كان نفس نجاح البوذية قد أدى بها الى أن صارت مختلطة بالعيوب السياسية والاقتصادية • فالنساك ذوو النفوذ والذين كانوا لهم حظوة فى البلاط وكانوا يديرون ممتلكات شاسعة ، صاروا يجدون أحيانا أنه لا ضرورة للتمسك بالقانون الأخلاقى للنظام الدينى• وقد أساءت هذه الأمور بطبيعة الحال الى سمعة البوذية • وفى نفس الوقت لم يعد الكنفوشيوسيون ، وكادوا يكونون مجردين من الهيبة والنفوذ ، ينعمون بالرضا الذى كان يتميز به أسلافهم فى عهد أسرة هان • لقد اكتسبت الكنفوشيوسية تدريجيا ، موقفا جديدا ،

موقف مذهب أولئك الذين ينشــدون الاصلاح ، لا فى الفلســفة فحسب بل أيضا فى مجال الشئون العملية .

وعلى الرغم من نجاح البوذية الضخم فى الصين ، فقد يبدو أنه كان هناك شعور بأنها كانت دائما شيئا غريبا نوعا ما على الذهن الصينى ، الذى كان عمليا بطبيعته ، ومتشككا نوعا ما ، ودنيويا بدرجة عالية . لقد رأينا أنه فى الزينية : حتى البوذية الصينية قد تخلت عن الكثير من زخارف الماهايانا وصارت أكثر شبها بالطاوية الأولى . وعلى الرغم من ذلك فقد كان على الشخص الذى يكرس نفسه تماما للزينية أن يصبح ناسكا ، على الرغم من أنه كان من الصعب عليه قليلا أن يعرف لماذا كان عليه أن يكون كذلك ، بناء على مقدماته الفلسفية .

ونجد فى عهود أسرة « تانج » عالما كنفوشيوسيا مشــهورا يؤكد أنه عن طريق أساليب مثل التأمل يمكن للمرء أن يصل الى الاستنارة ولا يصبح بوذيا فحسب بل حكيما . ومع ذلك فان المرء فى قيامه بهذا العمل لا يعتزل ، بل يستمر مشاركا تمام المشاركة ، للأسرة والحكومة والأنشطة العادية للشخص المهذب . ونجد هنا أن الزينية تصل الى ما يمكن أن يبدو لمعظم العقول الصينية أنه نهايتها المنطقية ، ولن يؤدى هذا الى بلوغ « الراحة الأبدية » ، ولكن الى خاصية أساســية فى « الراحة الأبدية » وهى التحرر من الميــلاد الثانى ، ولم يؤمن الفكر الصينى التقليدى قط بالميلاد الثانى فى أية صورة .

ولو أن جوتاما ، البوذا ، عبر الجبال مرة وبشر كنفوشيوس بمبدئه ، لكان من المحتمل أن يرد عليه كنفوشيوس بشىء على الوجه التالى : « ان ما تقوله طريف ، وقد يكون حقيقة ، ولكن مبدأك فى التجسيد الثانى قد يتطلب قدرا كبيرا من الأدلة التى لا أعتقد أنك

تستطيع أن تقدمها • ان جانبا من أخلاقياتك يستحق الاعجاب ولكن اذا نظرنا اليها فى مجموعها وجدنا أن برنامجك لا يقدم الا القليل أو لا يقدم شيئا لعلاج المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التى تحير الناس ، بل على العكس من ذلك من المحتمل أن تجعلهم أسوأ حالا • »

وبالنسبة للصينيين فى عصر كنفوشيوس ، لعل هذا الجدل كان يحمل اقناعا ، ومع ذلك ففى عهد أسرة تانج ، صار الصينيون معتادين ، بوجه عام ، على تعقيدات النظريات الكونية ــ البوذية منها والطاوية ؛ حتى أن أية فلسفة بسيطة وواقعية كانت تبدو لهم أنها تفتقد شيئا • ولا يمكن لأحد أن يتوقع منهم أن يتخلوا عن مثل هذه المبادىء الا عن طريق هجوم جرىء فى مواجهتهم على النظام الميتافيزيقى بأسره • وقد حل الوقت ، كما سنرى ، عندما قام قلة من الكنفوشيوسيين بمثل هذا الهجوم ، ولكن لم يكن الوقت ملائما بعد •

وخلال عهد أسرة سونج Sung التى حكمت من سنة ٩٦٠ الى سنة ١٢٧٩ ظهر ما كان معروفا عنها بصورة عامة « بالكنفوشيوسية الحديثة » • وترجع بدايتها بوضوح تام الى أسرة تانج • ولقد كانت الكنفوشيوسية الحديثة تنشد ايضاحا بأن الكنفوشيوسية يمكن أن تقدم أى شىء مرغوب فيه يمكن أن تقدمه البوذية ، وتقدم أكثر منه • وقد أخذت على عاتقها أولا ، وبصورة خاصة ، أن تكون ندا للبوذية فى نظرية الخلق العالمى cosmology ؛ وثانيا ، أن تفسر العالم والأخلاقيات الكنفوشيوسية تفسيرا ميتافيزيقيا ، وأخيرا ، بينما تؤدى هذه الأمور ، عليها أن تبرر النشاط الاجتماعى والسياسى وتثبت حق الناس فى أن يجدوا السعادة فى المتطلبات العادية للحياة الطبيعية •

وليس من السهل استنتاج نظرية الخلق العالمى والميتافيزيقيات

من عبارات كنفوشيوس فى « المقتطفات الأدبية » بل لقد قال قلة من الكنفوشيوسيين المحدثين ، كبعض من كانوا يمارسون الزينية ضمن البوذية ، ان تأثير الكتب المقدسة لم يكن له أهمية كبيرة ٠ ومع ذلك ، فقد وجد ، على وجه العموم ، أنه من الممكن قراءة كل شيء ضرورى فى كلمات كنفوشيوس عن طريق التفسير الدقيق ٠

لقد لاحظنا فى تناولنا لفلسفة متشيوس أن بعض آرائه الخاصة تختلف بدرجة كبيرة عن موقف كنفوشيوس الواقعى وتتضمن عنصرا يكاد يكون صوفيا يتجه نحو التفكير الطاوى ٠ لقد كان الكنفوشيوسيون المحدثون يلجئون بصورة خاصة الى منشيوس والى مؤلفاته التى توضح تأثير تفكيره ٠ وكان هذا الاتجاه موجودا بالفعل فى عهد أسرة تانج ، وأدى فى عهد أسرة سونج الى ظهور ما أطلق عليها « الكتب الأربعة » على أنها الكتب المقدسة الخاصة بالكنفوشيوسية الحديثة ٠ وقد اشتملت هذه الكتب على « المقتطفات الأدبية » و كتاب « منشيوس » و « العلم الكبير » و « مذهب الاعتدال » ٠ وكان للكتابين الأولين وجود سابق فقط كفصلين فى كتب الدراسات القديمة المعنون « تسجيلات عن الطقوس الدينية » ، ولا نعرف تماما متى كتبا ، ولكن كان هناك رأى معقول وهو أن أجزاء من كل منهما ، على الأقل ، قد أوحت بها آراء منشيوس ٠ وتماما كما ادعى بوذيو الزينية أن مذهبهم كان تعليما باطنيا للبوذا ، لا يتعلمه عامة الشعب ، فكذلك تمسك بعض الكنفوشيوسيين المحدثين بأن « مذهب الاعتدال » تضمن التعاليم الباطنية لكنفوشيوس ٠

ولما كان الكنفوشيوسيون المحدثون مضطرين الى عرض نظرية للخلق العالمى يمكن أن تنافس نظرية البوذيين ، لذا قد اضطلعوا جملة ببعض آراء منافسيهم ، وهكذا نجدهم يرددون الرأى البوذى القائل بأن الكون يدمر على الدوام ويعاد خلقه ٠ ويفسر هذا فى

كلمات صينية ، مع ذلك ، كأداء لعملية الـ«ين» والـ «يانج» والقوى الخمس وعلم الاحصاء الغامض والرسوم البيانية التى هى أساس « كتاب التغيرات » .

لقد رأينا أن هذا الدليل للكشف عن الطالع ، المخالف فى فحواه بوجه عام لتفكير كنفوشيوس وللكنفوشيوسية الأولى ، من المحتمل أن تكون قد استصوبته فى بادىء الأمر ثم توسعت فيه دوائر قد اصطبغت بصبغة شديدة من الفكر الطاوى ، ولكن اذا كان الكنفوشيوسيون قد تسرب اليهم نوع من التأمل الميتافيزيقى المعقد ، فقد شغل كثيرون وكثيرون من الكنفوشيوسيين بكتاب التغيرات . وفى عهد أسرة هان كان هناك اعتقاد بأن كنفوشيوس قد كتب ملاحقه . وان عملا مثل هذا ، أجازته التقاليد الى جانب بركات كنفوشيوس نفسه ، يعد بطبيعة الحال هبة للكنفوشيوسية الحديثة واعتبره كثيرون منهم انجيلا حقيقيا .

وقد قامت الطاوية المتأخرة ، وخاصة بعد تأثرها بالبوذية ، بتطوير نظرية دقيقة للخلق العالمى قائمة على « كتاب التغيرات » ، وليس هناك من شك فى أن هذا قد أثر على أولئك الكنفوشيوسيين المحدثين الذين طوروا نظرية للخلق العالمى مشابهة تمام الشبه قائمة على نفس الكتاب . وفى الحقيقة لقد أوضح «فونج يو ــ لان Fung Yu-lan » أن نفس «الرسم البيانى للنهاية السامية» الذى قبله على أنه التفسير الأساسى لنظرية الخلق العالمى ، كافة الكنفوشيوسيين المحدثين فى عهد أسرة سونج (على الرغم من أنهم قد يختلفون حول معناه) يكاد يكون مشابها لرسم بيانى نشر فى مؤلف طاوى فى تاريخ متقدم (٢١) . وقد قامت مدرسة من مدارس الكنفوشيوسية الحديثة باتهام خصمها الرئيسى بالاستيحاء من

---

(٢١) فونج يو ــ لان : «تشونج كوتشيه هسيه شيه» ص ص ٨٢٠ ــ ٢٢

الطاوية ، فردت المدرسة المنافسة بأن مذهب متهمتها يحمل شبها أكبر للبوذية الزينية منه للكنفوشيوسية ، وكانت كلتا المدرستين فى الحقيقة متأثرتين بكل من الطاوية والبوذية ٠

وكانت هناك تنوعات كثيرة للكنفوشيوسية الحديثة فى عهد أسرة سونج ، ولكن كانت السيادة لمدرستين اثنتين ٠ وكان زعيم احدى هاتين المدرستين ، وأشهر الكنفوشيوسيين المحدثين قاطبة واكثر الفلاسفة الصينيين تفردا بالأهمية خلال الألف سنة الأخيرة ، هو تشوهسى Chu Hsi » الذى عاش من ١١٣٠ الى ١٢٠٠ الميلادية ٠

وقد ولد تشوهسى من أسرة اشتغلت بالأدب ، ولما كان صبيا كان طالبا جادا ؛ ولما كان لا يزال شابا درس الطاوية والبوذية ؛ وكان هناك ادعاء ، برغم أنه مشكوك فيه ، بأنه كان ناسكا بوذيا يوما ما ٠ وعلى أية حال فقد صار مبكرا كنفوشيوسيا متشددا٠ ولقد تقلد مناصب رسمية كانت ذات أهمية بالغة ، وقد اهتم فى هذه المناصب ، بصورة خاصة ، بتدعيم التعليم فى الكليات ، وكان له طلاب عديدون ، وتكشف أحاديثه المسجلة معهم عن ذكاء بالغ ، ومهارة وشخصية جذابة ٠ لقد كتب مؤلفات غزيرة ٠ وقد ووفق رسميا على تعليقاته على عدد من أكثر الدراسات القديمة أهمية ، تتضمن تفسيرات تعتبر صالحة للأخذ بها فى الاختبارات الحكومية من سنة ١٣١٣ حتى ألغيت الامتحانات فى سنة ١٩٠٥ ٠

وقد جمع تشوهسى الآراء التى طورها عدد من السلف فى الحركة الكنفوشيوسية الحديثة ، وربطها بنبوغه الشخصى ووضع نظاما فلسفيا دقيقا ٠ ومن المحتمل أن يكون أهم مفهوم له هو مفهوم لـ « مبدأ li » ؛ وعلى الرغم من أن المعنى الصينى الحديث لكلمة ال « لى » هو « شريعة » ، فانه يبدو أن كلمة ال « لى » التى تعنى « المبدأ » قد اقتبست من « كتاب التغيرات » ٠

وقد أكد تشوهسى أن كل الأشياء الكائنة مركبة من المبـدأ بالاضـــافة الى « تشى Ch'i ». وعبـارة ال « تشى » لا يمكن فى الحقيقـة ترجمتها ولكنها شيء يشـبه نظريتنا عن « الجوهر الفرد substance » وهكذا فان الورقة والزهرة مختلفتان لأن «جوهرهما الفرد »، يتحـكم فيه « لى » « مبـادىء مختلفة » • وكل الأشياء (حتى الطوب) تتألف من ال « تشى » وال « لى » اللتين يعطيانها صورتها ، على الرغم من أنها من ناحية ال « لى » هى الأسبق ، نظرا لأنها وجدت قبل وجود أى شيء من الأشياء • والروابط ، منـذ الرابطة القائمة بين الأب وابنه ، لها ال « لى » الخاصة بها أيضا •

والمبـادىء أو ال « لى » كما يقول تشوهسى « لا مولد لها ولا تفنى » • وهى لا تتغير أبدا فى أية صورة ، وكلها فى الحقيقة جزء من ال «لى» الكبرى و «النهاية السامية Supreme Ultimate » التى يساويها تشوهسى أحيانا بال «طاو» • وكان مفهوم تشوهسى عن ال « لى » أنها تكون نوعا من عالم قائم بذاته .أى «نقى ، خاو ، شاسع ، بلا صورة •• عاجز عن أن يخلق أى شيء » (٢٢) • وكان التفكير الغربى غالبا ما كان مفهومه عن المادة أنها ساكنة ، ولكن تشوهسى كان يعتقد أن ال « تشى » (التى تساوى تقريبا فكرتنا عن المادة) وحدها مسئولة عن اخراج الأشياء الموجودة وعن التغير• وكان فى هذا متأثرا بلا شك بالنظرية الهندية التى تقول بأن كل ما هو دائم لا يتغير فهو خير فى أحسن مفهوم •

وطبيعة الانسان ، فى نظر تشوهسى ، هى مبدؤه ، الذى هو جزء من « النهاية السامية » وهكذا فان مبدأ كل الناس متشابه ، ولكن لسوء الحظ ليس جوهرهم متشابها، فاذا ماكان جوهر انسان ما غير نقى ، كان المرء غير نقى وأحمق ، كما لو كانت لؤلؤة (مبـدأ

---

(٢٢) تشوهسي : « تشوتزو يولى » ١/٣ أ

المرء) راقدة مخبأة فى ماء موحل (مادته غير نقية) • ان من واجب المرء أن يتخلص من عائق هذا الجوهر القائم ويسترد طبيعته الأصلية التى تظهر فيها (كما قال منشيوس) الفضـائل الأربع الأساسية لحب الخـير والاسـتقامة وال « لى » الذى يعنى الأدب أو الفضـل والحـكمة • وقال تشـوهسى عن ما يعتم اللؤلؤة التى هى طبيعـة الانسان : « لو كان فى استطاعة المرء أن يدرك أن رغبته البشرية اذن هى التى تعتم طبيعته الحقيقية ، لكان قد بلغ الاستنارة » (٢٣) • وهذا مشـابه ، فى بعض المظاهر ، بصورة واضحة ، لآراء كل من جوتاما والبوذية الزينية •

وسيلاحظ القارىء أيضا التشابه بين مفهوم تشوهسى لل «لى» أو « المبـدأ principle » ومذهب « الأفكار ideas » أو « الأشكال forms » فى محاورات أفلاطون • ويلاحظ فى بعض النقاط أن التشابه واضح ، كما فى فيدو Phaedo ، حيث جاء ذكر سقراط وهو يقول ان العقل يدرك أحسن ما يدرك الصدق المطلق « عنـدما يتخلص من الجسد ، وعليه أن يقلل من اهتمـامه به ما أمـكنه ، عند ما لا يكون عنده احساس بدنى أو رغبة بدنية ، بل يطمح الى وجود حقيقى • » (٢٤)

وهناك فقرة مشـهورة فى « التعاليم العظيمة » التى كانت تعد على جانب من الأهمية منذ عهد قديم يرجع الى عهد أسرة يونج ، وقد استمرت مع تفسيرها تفسيرا مختلفا ، ذات أهمية فى الفلسفة الكنفوشيوسية الحديثة حتى وقتنا هذا • وهذه الفقرة تقول :

« ان أولئك الذين رغبـوا من قديم فى أن يمثلوا الفضيلة

---

(٢٣) تشوهسى : «تشوتزو يولى» : ١٢/٨ ا •
(٢٤) أفلاطون : « فيدو » ٦٥ •

الممتازة للعالم بأسره ، رتبوا أمورهم الشخصية أولا على أكمل وجه. ورغبة منهم فى ترتيب أمورهم الشخصية على أكمل وجه ، نظموا أسرهم أولا ، ورغبة منهم فى تنظيم أسرهم ، هذبوا خصالهم أولا ، وأصفوا قلوبهم أولا ، ورغبة منهم فى صفاء قلوبهم ، جعلوا أولا أفكارهم مخلصة ، ورغبة منهم فى جعل أفكارهم مخلصة ، وسعوا أولا مداركهم الى أقصى حد . ويكمن هذا التوسع الى أقصى حد فى المدارك فى تقصى الأمور » (٢٥) .

وعلق تشوهسى أهمية كبيرة على « تقصى الأمور » لبلوغ الادراك الأخلاقى الصحيح ، فقد كتب يقول : « اذا ما أعمل الانسان فكره فى هذا العمل لمدة طويلة ، فسيبزغ يوم يتضح فيه فجأة كل شىء ... وسيستنير الذهن وستستنير عملياته استنارة تامة . » (٢٦) والتشابه بين هذا القول وبين الزينية تشابه واضح بطبيعة الحال .

وفى المجال السياسى ، هناك ، كما قال تشوهسى ، ال « لى » أو المبدأ الذى يشكل المثل الأعلى للسلوك السياسى . هـذا هو « الطاو » ، « الطريق » . واذا ما اتبعت الحكومة القائمة هذا المثل الأعلى للحكومة ، فهذا أمر طيب ، واذا ما تخلت عنه فهو أمر سىء . ولكن برغم أن هذا ال « طاو » لم يســنه أشخاص ، ورغم خلوده وبقائه ، فقد أعلن تشوهسى أنه لم يكن مصرحا بالعمل به فى العالم للألف وخمسمائة سنة الأخيرة ، وهـذا يعنى منـذ حـوالى زمن كنفوشيوس . ان الحاكم يجب أن يوسع مداركه عن طريق تقصى الأمور حتى يصبح حكيما . وقد ذكر تشوهسى أنه قد انتقل الينا

---

(٢٥) ليجى : «التعاليم العظيمة» ص ص ٣٥٧ ـ ٥٨ .

(٢٦) تشوهسى : «سوشوتشى تشوانا هسيه» ٥ أ .

عن طريق الملوك الحكماء من قديم الزمان : مذهب غامض يشرح ما ينبغى أن يكون عليه الحاكم السديد ، بيد أن الكثيرين من الحكام المحدثين قد صاروا جميعهم وقد قيدتهم الرغبة البشرية(٢٧)

ويبدو أن الكثير من هذه الفلسفة مختلف اختلافا تاما عن الفكر الصينى القديم حتى أنه قد يكون من السهل أن نخلص الى أن الكنفوشيوسيين المحدثين قد تحولوا فى كل شىء الى البوذية فيما عدا الاسم • ومع ذلك فهل تحولوا ؟ أين التجسيد الثانى ؟ أين السموات البوذية والجحيم البوذى ؟ أين الاعتقاد بأن هذه الحياة هى حدث غير هام نسبيا ، ان لم تكن فى الحقيقة وهما ؟ ليس لشىء من هذه الأمور الأساسية جدا بالنسبة للبوذية ، مكان فى الكنفوشيوسية الحديثة ، وليس أسلوبها بالمتقشف المتشائم بل هو معتدل متفائل • وهى لا تبشر بالهروب من الحياة وعمل الدنيا بل تجد مشاركة جريئة فيها •

وعلى غير شاكلة الطاويين ، لا ينشد الكنفوشيوسيون المحدثون الخلود أو الخوف من الموت • والموت فى نظرهم حدث طبيعى ، وعندما يحل فى نهاية حياة طويلة حافلة ، يدرك المرء أن الوقت قد حل ليستريح ؛ ولا هم على شاكلة البوذيين يعتقدون أن الحياة فى هذا العالم شر ، وكانوا يؤمنون ككنفوشيوس نفسه بأن حياة كافة الناس يجب أن تكون سعيدة •

وكان أكبر منافس ل «تشوهسى» ، وزعيم المدرسة الرئيسية الأخرى للكنفوشيوسيين المحدثين فى عهد أسرة سونج ، رجلا يصغره ببضع سنوات ، لقد أعطى تشوهسى صورة منظمة لذلك التيار

---

(٢٧) فونج يو ـ لان : «الشونج كولشى هسيه شيه» ص‌ص ٩٢٠ ـ ٢٣ ، ترجمة ديرك بود Derk Bodde فى كتاب نونج يولان : « فلسفة تشو هسى » ص‌ص ٤١ ـ ٥٠ •

للفكر الكنفوشيوسى الحديث الذى اهتم بتقصى العالم المرئى؛ فى حين كان «لوهسيانج ـ شان Lu Hsiang-shan » (١١٣٩ ـ ٩٣) زعيم وجهة النظر التى اهتمت اهتماما رئيسيا بالتأمل والتبصر • وعلى الرغم من أن هذا الاهتمام يشابه اهتمام البوذية الزينية ، فقد كان له بالفعل تاريخ طويل فى الكنفوشيوسية •

وكان كنفوشيوس ، بما له من خاصية الاتزان ، قد حذر من زيادة الاهتمام سواء بالدراسة أو التفكير • لقد قال : « الدراسة بدون تفكير مضيعة للوقت ، ولكن تفكيرا بدون دراسة : شيء خطير • » (٢٨) وقد قرر أنه جرب التأمل كوسيلة للوصول الى الحقيقة ، ولكنه وجده أمرا لا طائل تحته • وبدلا من ذلك امتدح التقصى الواسع المدى والخبرة الواسعة المشفوعة باختبار وترتيب منطقى للحقائق التى تنجم عن الخبرة • (٢٩)

ولم يهتم منشيوس بالدراسة والخبرة الا اهتماما بسيطا • ولقد ذكر بصراحة أن المرء خير بطبيعته الذاتية وأنه لو أراد امرؤ أن يكون فاضلا فكل ما يحتاج اليه فحسب هو أن يهذب من طبيعته الأصلية • وقال منشيوس حتى عن معرفة الصواب والخطأ : « انه أمر فطرى » (٣٠)• وفى كتاب منشيوس نقرأ : « كل الأشياء كاملة داخل نفسى » « وعن طريق التفكير الواقى لذهن المرء ، قد يدرك المرء طبيعته ، ومن يفهم طبيعته يفهم السماء » (*) •

---

(٢٨) المقتطفات الأدبية : ٢/١٥ •

(٢٩) المرجع السابق : ١٥/٣٠ ، ٧/٢٧ وبالنسبة لترجمة الفقرتين الأخيرتين ارجع الى كريل : « كنفوشيوس : الرجل والأسطورة » ص ١٣٥ ، اسطر ٢٧ ـ ٣٢ ، ص ١٣٥ آخر سطر حتى ص ١٣٦ سطر ٣ ، وانظر أيضا ص ٣١١ سطر ٢٤ •

(٣٠) منشيوس : ٢/١/٦ •

(*) منشيوس : ٧ (١) ٤/١ ، ٧ ٧ (١) ١/١ • وكما سبق ايضاحه من

وواضح أن مثل هذه الآراء قد تكون بالغة الفائدة لأى فرد يرغب فى أن يقيم ، على أساس كنفوشيوسى محافظ ، نظاما من التفكير يماثل نظام البوذية الزينية • وفى وقت مبكر يرجع الى عهد أسرة تانج كان من المؤكد أن التقليد الكنفوشيوسى الخالص قد انتهى بانتهاء منشيوس (٣١) • وقد استثنى هذا بطبيعة الحال هسين تزو ، الذى كان خلال عهد أسرة هان يلقى تبجيلا رفيعا فى الدوائر الكنفوشيوسية أكثر من منشيوس نفسه • وكان الاهتمام بالتأمل قد نادى به كنفوشيوسى فى عهد أسرة تانج يدعى « لى آو Li Ao » ، وقد اقتبس من « كتاب التغيرات » ليبرهن على أن المرء يجب أن يبلغ الاستنارة عن طريق عملية التأمل الصامت التى لا يفكر فيها المرء • (٣٢) وكان جانب من فلسفته قائما على آراء منشيوس ، وكان يشبه بوذية الزينية شبها واضحا •

أما « لوهسيانج ـ شان » الذى سار قدما بهذا التيار الفكرى، فقد ولد فى سنة ١١٣٩ أى بعد مولد تشوهسى بتسع سنوات • وفى سن الرابعة والثلاثين نجح فى أرقى اختبار عقدته الدولة وحصل على درجة علمية غالبا ما تترجم على أنها « درجة الدكتوراه » • وقد أمضى حياته الرسمية فى الأكاديمية الامبراطورية ، وبعد ذلك فى وظائف حكومية صغيرة • ولما كان قاضيا كان شديد الأمانة كما كان بالغ التأثير حتى أنه زكى للترقية ولكنه رفضها • وكان اهتمامه البالغ فى التدريس • ولما لم يكن يشغل وظيفة فقد كان يحاضر فى

= قبل ، فاننى اشك فيما اذا كان الجزء الاول من الكتاب السابع يمثل حقيقة فكر منشيوس ولكن على اية حال لقد اتفق بوجه عام على انه يمثله ، والاقتبس على انه مرجع أصلى •

(٣١) هان يو Han Yü : « تشو وين كونج تشسياو هان تشانج ـ لى هسين شنج تشى » ج ٢ /٣ ب •

(٣٢) فونج يو ـ لان : « تشونج كوتشى هسيه شيه » صص ٨٠٩ ـ ١٠

مسقط رأسه حيث شيدت له قاعة محاضرات ، وكان يفد طلاب من أماكن نائية ليستمعوا اليه • ويقال بأن تشوهسى نفسه قد اعترف بأن معظم علماء شرقى الصين كانوا تلاميذا لـ « لو » • هذا ، وقد التقى الفيلسوفان المشهوران وتراسلا فى محاولة لحل الخلافات فى وجهات نظرهما ولكن كان عليهما فى النهاية أن يتفقا على ألا يتفقا • وقد عانى « لو » من مرض انتابه ، وفى ٣ يناير سنة ١١٩٣ قال لأسرته : « اننى أموت » ، ولما كانوا فى حيرة قال لهم أن يتذكروا ، على أية حال ، أن الموت « هو الحدث الطبيعى الوحيد » ثم توفى بعد ذلك بأسبوع (٣٣) •

ولعل أهم خلاف أساسى بين « تشوهسى » و « لو » هو فى الميتافيزيقيات • فلقد كان تشوهسى يؤمن بأن كافة الأشياء مؤلفة من الـ « لى » « المبدأ » والـ « تشى » التى هى فى قليل أو كثير مشـــابهة لنظريتنا عن « الجوهر الفرد substance » فى حين كان « لو » يؤمن بأن كل شىء فى الوجود ليس شيئا سوى ال «لى»، ومن ثم كان « لو » واحديا monist ولكن لا شك أن تفكيرا واحديا مثل هذا يبدو أكثر شبها بالتفكير الصينى القديم من تفكير تشوهسى الذى كان ثنائيا dualist ومع ذلك فان النمط الفريد من الواحدية monism الذى علمه « لو » مشابه الى حد بعيد لبعض تيارات الفكر الهندى وبوذية الزينية ، وقد هاجمه تلامذة تشوهسى على هذا الأساس •

وقد ذكر تشوهسى أننـا يجب أن ننشـد العلم عن طريق « تقصى الأشياء » لا عن مجرد معرفة ما لها من ال « لى » أو « المبدأ » • وهدفنا الأخير هو فهم ال « لى » ولكن لكى نفهم هذا التجريد وجب علينا أن نفحص مظاهرها الثابتة • ومع ذلك فلقد

---

(٣٣) هوانج سيو ــ تشى «لوهسيانج شان» ص ص ١٢ ــ ١٦ •

قال « لو » انه ما دامت الأشياء كثيرة العـدد الى حد كبير حتى انه يصعب علينا استقصاء أمرها جميعها ، فان ما ينبغى أن نقوم به هو بالأحرى التحرى عن مبادئها وهذا أمر سهل نسـبيا ما دامت المبادىء فى الحقيقة واحدة • وعقل المرء مبدأ مع المبدأ العظيم • وقد قال فى الحقيقة ان « الـكون هو عقلى ، وعقلى هو الـكون » (٣٤) • وهكذا ، فكما قال منشيوس « كل الأشـــياء كاملة فى داخلى » فان المرء الذى يفهم عقله بحق سيفهم كل شىء •

وكانت نظرية العقل the doctrine of the mind نقطة هامة من نقط الخلاف بين « لو » وتشوهسى • لقد قيل ان طبيعة الانسان هى ال « لى » (« المبدأ ») ولكن عقله مؤلف من ارتباط ال « لى » (« المبدأ ») وال « تشى » (« الجوهر ») وكان يؤمن بأن هذا الأمر يجب أن يكون كذلك لأن العقل فعال ومن خصائصه : المشاعر والعواطف ولكن ال « لى » صافية ، بلا وعى ولا تتغير على الدوام • ومع ذلك فقـد كان « لو » على شاكلة منشـيوس ، أكثر اهتماما بالأخلاقيات منه بالميتافيزيقيات ، ويقول ان الطبيعة والعقل والمشاعر كلها نفس الشىء تشاهد من جوانب مختلفة • وهكذا كان يؤمن ، على شاكله منشـيوس ، بأن عملية التهـذيب الأخلاقى تتكون من البحث عن « عقل المرء المفقود » أعنى طبيعة الانسان الحقة ، وهى ما كانت فى الأصل خيرة •

و « لو » يشبه منشيوس أيضا فى نظرية الشر • فلقد فسر تشوهسى الشر على أنه ينجم من خلافات الناس حول ال « تشى » أى جوهرهم (وفى هذا تشابه أيضا لاحدى محاورات منشيوس) ؛

---

(٣٤) هوانج سيو ـ تشى : « لو هسيانج ـ شان » ص ٣٦ ، لوهسيانج شان : « هسيانج ـ شان هسين شنج تشوان تشى » ٣٦/٥ ب •

ولكن « لو » قال بأن طبيعة الناس الخيرة أصلا قد ضللتها أمور خارجية حتى أن عقولنا قد دنستها الشهوة .

وقد دافع « لو » عن أساليب عملية لاستعادة «العقل المفقود» ، وقال : « بالنسبة للانسان ليس هناك من شيء سابق لمعرفته لنفسه » (٣٥) . وعلى المرء أيضا أن يكون شخصيته المستقلة ويصبح سيد نفسه ويجب أن يجسد ما تعلمه في السلوك الأخلاقي العملي . وللوصول الى المعرفة ، أوصى « لو » بممارسة « الجلسة الهادئة » والتأمل ، وهذا أقرب شبها بأسلوب بوذية الزينية . وقال أيضا ان الفرد اذا ما مارس كل هذه الفنون في جد واجتهاد ، فقد يؤدى الى الادراك المفاجيء بأن عقل الانسان واحد مع الأشياء في مجموعها . هذا مشابه الى حد بعيد لعبارة واحد من اليوبانيشاد : « ذلك أنت » . وتكاد تكون مشابهة نوعا ما لمبدأ الاستنارة الفجائية عند بوذية الزينية ، ويقول « لو » : « لو أن فردا سبر غور نفسه وقام باستقصائها وشحذها وهذبها ، فسيأتي يوم يكتسب فيه الاستنارة الذاتية » (٣٦) .

ويبدو أن « لو » قد تأثر أيضا ببوذية الزينية في اهماله النسبي لتأثير المخطوطات المكتوبة وفي حقيقة أنه هو نفسه ألف كتبا قليلة نسبيا ، وكان هذا عائقا في طريق تعاليمه ، بعد وفاته، اذا ما قورنت بتعاليم تشوهسى الذى كان مؤلفا غزير الانتاج ، ولقد مرت الكنفوشيوسية الحديثة في عهد أسرة سونج بوجه عام ، بالمعارك السياسية ، بل ان تشوهسى قد تعرض فترة قصيرة لفضيحة سياسية قرب أخريات حياته . ولكن في سنة ١٣١٣

---

(٣٥) هوانج سيو ـ تشى : « لو هسيانج ـ شان » ص ٦٠ ؛ هسيانج شان : « هسيانج ـ شان هسين شنج تشوان تشى » ٣٥/٣ ب .

(٣٦) المرجع السابق : ص ٧٢ .

لقيت تعليقاته على عدد من كتب الدراسات القديمة تأييدا رسميا لتكون أساسا للاختبارات الحكومية وحافظت على هذا التأييد منـذ ذلك الوقت فصاعدا ٠

هذه الرعاية الرسمية قد أمدت فلسفة تشوهسى بفائدة عظيمة من نوع واحد ، ولكن ربما كان لديها فى نفس الوقت ، الاستعداد لتصد عنها أنشط العقول وأكثرها استقلالا ٠ وعلى أية حال فلقد عمل «وانج يانج ـ منج Wang Yang-ming » ، وكان أشهر فيلسوف فى عهـد أسرة منج ، فى معظم الاعتبارات ، على استمرار فلسفة « لوهسيانج ـ شان » وتطويرها أكثر من تطوير فلسفة تشوهسى ٠ لقد دافع عن « لو » فيما اتهم فيه بأنه كان بوذيا زينيا ، وامتدح فلسفته فى مقدمة كتبها لطبعة تحوى مجموعة كتابات « لو » (٣٧) ٠

ولقد ولد وانج يانج ـ منج فى سنة ١٤٧٢ ، وكان سليل سلسلة من العلماء والموظفين المرموقين ٠ وعلى الرغم من أنه حصل على المرتبة الثانية فى الاختبار فى سن الحادية والعشرين عمره ، فقد فشل مرات فى الحصول على أرقى درجة علمية ولم يحقق الحصول عليها الا عندما بلغ الثامنة والعشرين ٠ وقد درس فى هذه الفترة الفنون العسكرية فى فترة كانت فيها الأعداء تعتدى على حـدود الامبراطورية ٠ ويبدو أنه قد درس كلا من الطاوية والبوذية ، ولكنه فى النهاية صار كنفوشيوسيا وفياً ٠ ولقد تقلد مناصب حكومية مختلفة ، وفضلا عن هذا فقد كان يدرس لتلاميـذه ٠ وفى سن الخامسـة والثلاثين كانت عنده الشـجاعة ليعارض خصـيان القصر الأقوياء الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور فى عهد أسرة منج ٠ وقد عوقب بأن جلد وأسندت اليه وظيفة صغيرة فى برارى جنوب غربى الصين ٠

---

(٣٧) وانج يانج ـ منج : «وانج وين ـ تشنج كونج ـ تشيان ـ شو» ٧/ ٢٨ ب ـ ٣٠ ب ٠

ولم يكن غريبا جدا أن يجرب « وانج » الاستنارة فى هـذا المنفى الموحش . وفى وقت متأخر أحاط علم تلاميذه بتقدمه الفكرى فى هذه الكلمات :

« يقول كل فرد ان المرء فى تقصيه للأمور عليه أن يستخدم منهج تشـوهسى ، ولكن كيف يمكن أن يتم هذا بالفعل ؟ لقـد حاولت أن أفعل هـذا . فى بادىء الأمر ناقشت الأمر مع صديقى تشن Ch'ien ، فقلت متسائلا : لو أن شخصا أخذ يتقصى كل شىء فى العالم ليصبح حكيما أو شخصا جديرا بالتقدير ، فكيف يمكن لأى فرد أن يتحكم الآن فى مثل هذه القوة العظيمة ؟

« وأشرت الى خيزران أمام الصوان وطلبت منه أن يبحثه . فأخذ تشن يتحرى أصل الخيزران نهارا وليلا فى مثابرة . ولمدة ثلاثة أيام أجهد ذهنه حتى أرهق نشاطه العقلى وصار مريضا . وقد قلت فى بادىء الأمر ان هذا مرده الى أن قوته كانت قاصرة ، فقمت بالعمل بنفسى ، وأخذت فى تحرى أمر الخيزران مبكرا وفى وقت متأخر ، ولكن مع ذلك لم يكن فى استطاعتى أن أتعرف أصله . وبعد سبعة أيام صرت مريضا أنا الآخر لأننى أجهدت ذهنى ؛ ولذا تنهدنا معا وقلنا : ان السبب فى أننا لا يمكن أن نكون حكيمين أو شخصـين جديرين بالتقدير هو أننـا نفتقر الى القوة الكبيرة التى يتطلبها تحرى الأشياء .

« ومع ذلك فقد أدركت بعد ذلك ، عندما كنت أعيش وسط قبائل همجية لمدة ثلاث سنوات أنه لا يمكن وجود انسان يستطيع أن يتحرى كل شىء فى العالم . ان عمل « تقصى الأشياء » يجب أن

يكون مقصورا على تحرى جسم المرء نفسه وعقله فحسب » (٣٨) .

وتصف ترجمة حياة « وانج » الاستنارة التى خبرها بينما كان « يعيش وسط القبائل الهمجية » فيما يلى :

« مرض كل أتباعه · قام وانج يانج ـ منج بتقطيع الخشب وجلب المــاء وكان يطهو لهم الثريد ··· وكان يتعجب أى منهج يستطيع المرء أن يسير عليه ، اذا وجد نفسه على هذه الصورة منفيا تواجهه صعاب · وفجأة فى منتصف الليل أدرك معنى عبارة « تقصى الأشياء حتى يمكن كمعرفة أن تمتد الى أقصى مداها » · وكان الالهام كما لو كان أحد الناس يتحدث اليه ؛ وبدون أن يعرف ماهو فاعله، صاح وقفز من فراشه · ذعر كل أتباعــــه (ولكن وانج قال) ، « والآن ولأول مرة أفهم تعاليم الحكيم · ان طبيعتى فى حــد ذاتهــا فيها الكفاية · لقد كان من الخطأ البحث عن المبادىء « لى » فى الأمور والأشياء » · وفكر فى كلمات الكتب الخمسة القديمة لاختبار وجهة النظر هذه ، فوجد أنها متفقة معها تمام الاتفاق (٣٩) ·

وكان وانج هنا فى الواقع ، يردد مبدأ « لوهسيانج ـ شان » وهو أن المرء يجب ألا يدرس الأشياء بل مبدأهــا فحسب ، الــذى يتضمنه عقل الانسان تضمينا كاملا ·

---

(٣٨) وانج يانج ـ منج : «وانج وين ـ تشنج كونج ـ تشــيان شــو» ٣/ ٥٠ ب ـ ٥١ أ ، هنكه Henke : « فلســــفة وانج يانج ـ منج » ص ص ١٧٧ ـ ٧٨ ·

(٣٩) وانج يانج ـ منج : «وانج وين ـ تشنج كونج ـ تشــيان شــو» ٣٢/ ١٤ أ ، هنكه : « فلسـفة وانج يانج ـ منج » ص ١٣ ·

وبعد حوالى أربع سنوات استرد وانج مكانته الرسمية وبدأ ينهض بنفوذه نهوضا راسخا . وكانت بعض مناصبه مناصب عسكرية ، وكان أحد انجازاته اخماده ثورة تمرد . وفى سن الخمسين عين رئيسا لهيئة الحرب ، وكرم بأن منح أحد ألقاب الشرف الرفيعة ، وبعد ذلك صار واليا على جنوب الصين . وطوال هذا الوقت كان تلاميذه عديدون وقام بقدر كبير من التدريس . ولما توفى وانج فى سنة ١٥٢٩ فى سن السابعة والخمسين ، وجه الكثير من النقد لفلسفته على أنها فلسفة مضللة وكان نتيجة ذلك أن حرم الامبراطور انتشارها ، وبعد ذلك بخمسة وخمسين سنة ، وضع شاهده ، برغم ذلك ، فى مقبرة كنفوشيوس .

ويبدو أن فلسفة وانج توضح اختلافا أساسيا بسيطا عن فلسفات أسلافه فى نفس تيار الكنفوشيوسية الحديثة ، ولكن عقله القوى ، وشخصيته الجذابة وقلمه السيال قد فعل الكثير لتنظيمها والدعاية لها . ولعل أهم مبدأ مميز له (وكان قد اقترحه على الأقل « لوهسيانج ـ شان » قبل ذلك) هو عدم انفصال المعرفة عن التجربة . فلقد قال :

« لا يمكن لأحد على علم ، حقيقة ، أن يخفق فى وضعه موضع التجربة . واذا كانت لديك معرفة ومع ذلك لا تعمل بها فهذا معناه فى الحقيقة أنك لا تعرف . لقد علم الحكماء الناس كلا من المعرفة ، والعمل ، تماما لأنهم أرادوا لهم أن يرجعوا الى طبيعتهم الحقيقية ، ولم يقولوا أنه يكفى مجرد التفكير . ويوضح كتاب « التعاليم العظيمة » العلاقة الحقة بين المعرفة والعمل عندما يقول : « كما فى حالة حب الجمال» و «كما فى حالة كراهية الرائحة الكريهة.»(٤٠)

(٤٠) ليجى : « التعاليم العظيمة » ص ٣٦٦ .

واذا كان النظر الى الجمال مسألة معرفة ، فان حب الجميل عمل ، ففى اللحظة التى يرى فيها المرء الجمال يحبه على الفور ؛ والمرء لا يراه أولا ثم يشكل قرارا حاسما لحبه • وبنفس الطريقة شم رائحة كريهة له علاقة بالمعرفة وكراهيتها عمل ؛ ومع ذلك فحالما يشم المرء رائحة كريهة يكرهها فورا ••• والمرء الذى يتوقف أنفه عن الشم قد يرى شيئا كريه الرائحة دون أن يكرهه ، ولكن فى هذه الحالة لا يعرف أنه شىء كريه الرائحة • ولا يمكن أن يقال أن شخصا ما يفهم احترام الوالدين والاحترام الأخوى فهما صحيحا ما لم يكن هو نفسه يمارسهما فعلا • ومجرد القدرة على الكلام عن هاتين الفضيلتين لا يعنى أنه يفهمهما (٤١) •

وتأثير بوذية الزينية على فرغ وانج فى الكنفوشيوسية الحديثة واضح جدا ، كماكانت متسامحة مع كل من البوذية والطاوية • وعلى الرغم من ذلك فقد أفردت لهما مكانة دون الكنفوشيوسية ، وأعلنت أنه ، بدلا من أن يحاول البوذيون حل مشاكل العالم ، كان كل ما فعلوه هم أنهم هربوا منها • وقد تمادى العلماء الصينيون الآخرون فى نقدهم • وكان الوقت مهيأ لثورة عارمة بين أعظم مفكرى الصين لا فى وجه البوذية والطاوية فحسب بل أيضا فى وجه الكنفوشيوسية الحديثة ذاتها •

---

(٤١) وانج يانج ـ منج : «وانج وين ـ تشنج كونج ـ تشيان شو» ١/٥ ب ـ ٦ ب ، هنكه : « فلسفة وانج يانج ـ منج » ص ص ٥٣ ـ ٥٤ •

الفصل الحادى عشر

مناهضة الكنفوشيوسية الحديثة

لا زالت للبوذية حتى اليوم أهميتها فى الصين خاصة بين عامة الشعب ، وهى كقوة ثقافية قد لعبت دورا حتى فى العلاقة بالثورة التى أطاحت بأسرة مانتشو Manchu • وبرغم هذه الحقائق ، فمما لاشك فيه ، بحق، هو أن البوذية فى القرون الحديثة قد مارست نفوذا أقل مما مارسته من قبل فى الدوائر الثقافية •

وقد ظهرت فى أثناء القرون الأربعة الأخيرة قوتان جديدتان لتلعبا دورين رئيسيين فى تطور الفكر الصينى ، وكانت احداهما : الثورة على الكنفوشيوسية الحديثة ، وأما الأخرى فهى تأثير الغرب . وكانت الأخيرة فى بادىء الأمر قليلة الأهمية ولكن ازدادت أهميتها الآن حتى كان هناك من يتوقعون ، فى المستقبل ، أن تحل الآراء الغربية ، بصورة تكاد تكون كاملة ، محل الفكر الصينى التقليدى• ومع ذلك ، فلقد كانت الثورة على الكنفوشيوسية الحديثة حركة فى اتجاه مختلف تمام الاختلاف • لقد كانت ، الى حد كبير ، حركة مناهضة لتأثير البوذية ، كانت ترمى الى مقاومة تأثيرها بالرجوع الى ما كان يعتقد أنها التعاليم الحقيقية لكل من كنفوشيوس ومنشيوس •

لقد رأينا أنه كانت هناك محاولة فى عهد أسرة هان ، وبخاصة فى عهد الامبراطور « وو » لجعل الكنفوشيوسية تنحرف انحرافا شديدا عن طبيعة أصلها ، باعتبارها قوة للاصلاح السياسى والاجتماعى لتجعلها خادمة لاستبداد الحاكم • وبالرغم من أن هذه المحاولة لم تكن قط ناجحة نجاحا تاما ، نقد استمرت فى غالبية الأزمنة فيما بعد • ولقد أقيمت قرابين لكنفوشيوس بناء على مرسوم امبراطورى فى سنة ٥٩ الميلادية • ومن الطريف حقا ، أن تنافست الأسر المغولية والأسر المانتشوية بوجه خاص فى تقديم القرابين المنمقة يتملقن بها الحكيم الصينى • وقد كان هؤلاء الغزاة يأملون بهذه الطريقة أن يكسبوا الى جانبهم من بين شعوبهم المغلوبة على أمرها : العلماء على الأقل •

ومع ذلك فقد استمرت الروح الديموقراطية التى لا يمكن استئصالها فى الكنفوشيوسية الأولى ، فى الظهور ، كما لو كانت شبحا لا يمكن الخلاص منه، أزعج الأباطرة الذين كانوا يرعون هذا المبدأ • ولقد سببت الكثير من المشاكل حتى أن الامبراطور الثانى فى عهد أسرة مانتشو وجد أن من الضرورى أن يكون هيئة من المحررين لاعداد طبعة منقحة لثلاثة كتب من كتب الدراسات الكنفوشيوسية القديمة • وهذه الطبعة التى صدرت تحت رعاية الامبراطور هاجمت فقرات ، على أنها مزورة : فقرأت أكدت أن الحاكم الطاغى لا يستحق أن يطالب الشعب بالولاء له (١) •

وقد انتقد أفراد من العلماء ذوى الروح المستقلة ، من وقت لآخر ، النظام الذى كان يتبع فى اختبار طلاب الوظائف على أساس المامهم « بالدراسات الكنفوشيوسية » المعتمدة رسميا وكانوا يرقون وفقا لدرجة اجاباتهم المتمشية مع الفلسفة التى أقرتها الدولة •

---

(١) انظر كريل : « كنفوشيوس : الرجل والاسطورة » ص ٢٥٠ .

وكان طبيعيا أن يزداد هذا اللون من النقد فى الفترات التى تجد فيها الأعداد الضخمة من العلماء نفسها على طرفى نقيض مع الحكومة • ولقد صارت مثل هذه الحالة شديدة خلال الجزء الأخير من عهد منج Ming • وقد سبق أن لاحظنا أنه فى هذه الفترة قاسى « وانجيانج – منج » على أيدى أحد الخصيان الأقوياء الذين كانوا يسيطرون على البلاط الفاسد • لقد أتاح الضعف والتفكك فى عهد حكام منج ، المجال لغزو مانتشوس Manchus للبلاد وتأسيس أسرة جديدة فى سنة ١٦٤٤ •

لقد لاقت أسرة مانتشوس صعوبة كبيرة فى تأمين امتلاكهم للصين ، ولكنهم حققوا هذا الأمر بأساليب مختلفة • وبطريق الاجراءات العسكرية والشرطة أخمدوا أية محاولات للتمرد • وبطريق الرقابة الدقيقة الشاملة على الكتب استطاعوا ببعض النجاح أن يحطموا كل أدب اعتقدوا أنه خطر أو غير مرغوب فيه• (٢) وعن طريق مناصرة الكنفوشيوسية المحافظة ، وبتقديم الاعانات لطلاب العلم وبكونهم أصبحوا (كما قال أحد الناس) « أكثر صينية من الصينيين » حاولوا أن يكسبوا ود العلماء الذين كانوا أظهر وأقوى فريق فى الشعب • بيد أن هذه المحاولة فشلت فى حالة بعض علماء كانوا على جانب كبير من الذكاء والاستقلال • وبعد أن أمسك آل مانتشوس بزمام الأمور فى البلاد هرب بعض العلماء الى الجبال ، وقد رفضوا فى آخر حياتهم أن يتقلدوا مناصب تحت امرة الغزاة •

وهكذا نجد أنه فى أواخر عهد أسرة منج وأوائل عهد أسرة تشنج Ch'ing (أعنى ، أسرة مانتشو) وقفت أعداد كبيرة من العلماء تعارض الحكومة معارضة صريحة فى قليل أو كثير ، كما

---

(٢) انظر جودريتش Goodrich : «البحث الادبى لتشن – لونج»

وقف كثير منهم أيضا مناهضين الظلم الواقع على الشعب ، وفقـد بعضهم حياتهم فى سبيل ذلك ، فى أحسن تقليد كنفوشيوسى . ولقد كان طبيعيا أن تحرك بعضهم ليعارضوا جماعة الكنفوشيوسية المحافظة التى كانت تؤيدها الحكومة ، أعنى الكنفوشيوسية الحديثة . ولقد لاحظ « هوشيه » أن « الكنفوشيوسية الحديثة ، التى تطورت فى امبراطورية متحدة محكومة حكما مطلقا ، كفلسفة سياسية : قد فشلت فى التمسك بالروح الديمقراطية الكنفوشيوسية القديمة، ومالت الى تقوية نفوذ الحكم الاستبدادى .»(٣) وفى عهد أسرة المغول المكروهة اعتبرت فى المقام الأول تعليقات تشوهسى عن كثير من كتب الدراسـات القديمة الأساس الرسـمى للنجاح فى الاختبارات الحكومية .

ومن المحتمل أن عامل التأثير الغربى ، وكان فى ذلك الوقت فى بدايته ، قد كان له أثره فى مناهضة الكنفوشيوسية الحديثة فى أسلوب غريب جدا : اذ قبل سنة ١٦٠٠ بقليل أفلحت قلة من جمعيات الجيزويت التبشيرية فى دخول الصين . ولقـد استطاع جانب منهم ، عن طريق علمهم ، أن يشـغلوا مناصب ذات أهمية كبيرة فى الحكومة الصينية . وكان أول اهتمام لهم هو تحـويل الصينيين الى الديانة المسيحية ، ولتحقيق هذا الغرض ، الى جانب أنهم كانوا رجالا أذكياء ميالين لحب الاسـتطلاع ،درسوا الأدب الصينى والفلسفة الصينية دراسة بالغة الدقة . ونتيجة لهـذا ، صار بعضهم متأثرا بصورة غير عادية بفلسـفة كنفوشيوس التى أعلنوا أنها شبيهة تمام الشبه للتعاليم المسيحية ، وأكدوا فى نفس الوقت أن ميتافيزيقيات الكنفوشيوسية الحديثة لم تستمد بالمرة من كنفوشيوس بل من البوذية .

---

(٣) هوشيه : « الكنفوشيوسية » ص ٢٠٠ .

والمعروف أن هؤلاء العلمـــاء الجيزويت كانوا على الأقل على اتصال مباشر ببعض العلماء الصينيين الذين كانوا يعـــارضون الكنفوشيوسية الحديثة • وكان تتابع الأحداث بحيث يثبت أنه من المحتمل أن تكون الحركة الفلســفية الصينية قد تأثرت ، الى حدما ، بهذا النقد من جانب هؤلاء المراقبين الأجانب • ويبدو أيضا أن الفلاسفة الصينيين قد عرفوا من الجيزويت المناهج العلمية فى ميادين مثل علم اللغات ، التى كانت تلعب دورا له بعض الأهمية فى حركتهم •

ومع ذلك فيجب ألا نبالغ فى مدى تأثير الأوربيين على أسلوب تطور الفلسفة الصينية ، اذ أن هناك مسألة يندر ادراكها : ذلك أن معرفة الفكر الصينى والنظم الصينية التى بعث بها الجيزويت الى أوربا فى خطاباتهم قد أثرت أيضا فى الأوربيين أمثال ليبنتز Leibniz وفولتير Voltaire وكويســـناى Quesnay وأوليفرجولد سميث Oliver Goldsmith وكثيرين غيرهم • ويجب ألا نبالغ فى دور الفكر الصينى فى تطور مثل هـــذه الآراء التى تنادى بالمساواة ، كما اتخذت صورة ثابتـــة فى الثورة الفرنسية ، ولكن مما لاشك فيه أنها لعبت بالفعل دورا ، حتى لو كان هذا الدور مثل دور الوسيط الكيمائى (٤) •

وكانت مدرسة المفكرين الثوريين التى ظهرت فى بداية عهد أسرة تشنج ، تعرف ، لأسباب سنذكرها فيما بعد ، باسم مدرسة تعاليم هان • وكان أقدم ممثل لها ، وغالبا ما كان يعتبر مؤسسها، هو « كو ين ـ وو Ku Yen-Wu » «*» • لقـــد ولد فى سنة ١٦١٣

---

(٤) انظر كريل : « كنفوشيوس : الرجل والأسطورة » ص ص ٢٥٤ ـــ ٧٨

(*) وكان معروفا أيضا بما عنده من الـ hao ، بوجه عام ، على انه كو تنج ـ لن Ku T'ing-lin

فى أسرة أخرجت علماء كثيرين وموظفين فى عهد أسرة منج. وعندما كان صبيا كان عنيدا وكانت له نزعة استقلالية ، ولكنه كان طالبا مجدا ، وبالتدريج حقق شهرته كعالم . وكان أكثر نقدا من غالبية العلماء فى عصره ، وقرأ الكثير حتى فى مثل تلك المجالات غير الأكاديمية (فى الصين) مثل الاقتصاد والاستراتيجية العسكرية .

ولقد ثبتت فائدة الموضوع الأخير عندما ساعد بنفسه فى الدفاع عن المدينة التى ولد فيها ضد أسرة مانتشوس الغازية ، ولكنها استولت عليها فى غيابه . ولم ترض أمه فى الرضاعة ، التى كان يدين لها بالولاء والاخلاص ، بالعيش فى ظل حكم مانتشوس فجوعت نفسها حتى ماتت ، وقد أعربت عن أملها فى ألا يتقلد ابنها منصبا أبدا فى ظل حكم مانتشوس . لقد أخذ يناهضهم ، ولكن لما رسخت أقدامهم رسوخا قويا ، اذا به يجوب البلاد يعمل فى مختلف المشروعات التى برهنت على أنه هو نفسه كانت له مواهب زعيم صناعة . ومع ذلك لم يكن العمل هو شغله الشاغل فى حقيقة الأمر ، فلقد قيل انه كان يدبر المال على أمل تمويل ثورة مناهضة لأسرة مانتشوس . وقد سجن لفترة قصيرة ، ولكن طلبت اليه أسرة مانتشوس فيما بعد أن يتقلد منصبا ، فرد قائلا : « اذا صممتم فاننى سأنتحر . » وفى سنة ١٦٧٩ استقر به المقام فى مدينة صغيرة حيث أخذ يدرس بها ويدرس حتى وفاته فى سنة ١٦٨٢ .

وكان «كو» ، كعالم ، كثير القراءة ، يجمع المعلومات ويفحصها خلال رحلاته الطويلة ، كما قرأ قراءات واسعة فى كافة ألوان الكتب . وكان هذا الأمر استدراكا له أهميته فى ميدان المعرفة الكلاسيكية المحدودة فى زمانه . ولعل أعظم مشاركة قام بها «كو» هى فى دراسة علم الصوتيات phonetics ، التى استمر فيها الى جانب توسعه فى العمل الذى قام به أسلافه فأشاع استخدام

علم الصوتيات كوسيلة للبحث فى فقه اللغة philology ، وللبحث التاريخى • ولقد كان الى جانب ذلك جغرافيا مؤرخا، له قدره ، وكان مؤلفا ودارسا للمخطوطات القديمة على الصخر والبرونز •

وهو كفيلسوف هاجم فى عنف الكنفوشيوسية الحديثة التى نادى بها « لوهسيانج شان » و « ووانج يانج ـ منج » لأنه رآها تدين بوضوح لبوذية الزينية • ولقد لاحظ أن معظم معاصريه ، وقد أكبوا على الدراسات الكنفوشيوسية الحديثة ، لم يقوموا باجراء فعال ضد الأشرار الذين أفسدوا حكومة منج وظلموا الشعب ، بل كانوا عاجزين أيضا عن مقاومة غزو مانتشو ، بل وأسوأ من هذا : فى رأيه أن كثيرا منهم سارعوا بتقديم ولائهم وخدماتهم للحكم الأجنبى • ولقد كتب فى هذا :

« وا أسفاه كان يتحدث علماء القرن الماضى وغيرهم باستمرار عن « العقل » و « الطبيعة البشرية » ولكنهم كانوا فى حيرة شديدة من أنهم لم يتمكنوا من شرحها • وكان يندر أن يتحدث كنفوشيوس عن « القدر » أو « حب الخير » ولم يسمعه قط تلميذه « تزو ـ كونج Tzü-Kung » يتحدث عن « الطبيعة البشرية » أو « طريق السماء»••(٥) وعلماء اليوم مختلفون فى هذا• هم•• يتجادلون فى النهاية حول « العقل » و « الطبيعة البشرية » ولكنهم يتجاهلون منهج كنفوشيوس فى « دراسة الكثير وتذكره » سعيا وراء « مبدأ واحد يربطها » (٦) • وفى تناسيهم أن البلاد بأسرها يعمها الكرب والفقر ، لم يذكروا شيئا عن ذلك بل أمضوا وقتهم كله فى

(٥) المقتطفات الادبية : ١/٩ ، ١٢/٥ •
(٦) المرجع السابق : ١٥/٢/٣ •

الاسهاب فى معانى « السامى lofty » و الـــدقيق minute» و « الهام essential » و « المطرد uniform ».

ولابد اذن أن تكون مبادئهم أسمى من مبادىء كنفوشيوس وكان أتباعهم موضع تقدير يفوق تقديرهم ل « تزو ـ كونج » .. وفيما يتصل بهذا الأمر فلا أظن أننى على علم به .

وكتاب « منشيوس » كله يناقش باســتمرار « العقل » و « الطبيعة البشرية » ولكن الأسئلة التى وجهها .. (تلاميذه) والردود التى رد بها منشيوس ، تتناول بوجه عام المشاكل العملية عن كيف يسوس المرء نفسه . وهكذا يندر أن تحدث كنفوشيوس عن «الطبيعة البشرية » و « القدر » أو « السماء » ولكن العــلماء المحدثين يناقشونها باستمرار . وقد ناقش كنفوشيوس ومنشيوس باستمرار المسائل العملية للسلوك ولكن العلماء المحدثين نادرا ما يذكرونها ...

وفى رأيى المتواضع أن « طريق » الحكيم هو أن يكون (كنص كلمات كنفوشيوس) متضلعا تضلعا كبيرا فى العلم » « وأن يكون على علم بالسلوك الشخصى للفرد ليكون عنده احساس بالالتزام الأخلاقى.»(٧) و «التعليم» يتناول كل شىء من سلوك الفرد الشخصى الى شئون الدولة . و «الاحساس بالالتزام الأخلاقى» يطبق على كل علاقة ـ علاقة الابن والتابع والأخ والصديق ـ بأية مشــكلة من مشاكل التعامل الاجتماعى . والاحساس بالالتزام الأخلاقى أمــر بالغ الأهمية ، ويجب على المرء (كما قال كنفوشيوس) ألا يحس بخجل من « ارتداء الملابس الممزقة وأكل طعام الفقراء » (٨) ولكن

---

(٧) « المقتطفات الادبية » : ١٥/٢/٣ .

(٨) المرجع السابق : ٤/٩ .

يجب على المرء أن يحس احساسا عميقا بالخجل لو أنه لم يفعل شيئا لتخفيف وطأة الفقر على عامة الشعب (٩) ٠

وقد وجه « كو ين ـ وو » لومه الى فلسفة « لوهسيانج ـ شان » و « وانج يانج ـ منج » لرضا الكثيرين من معاصريه وخضوعهم للسلطة الملكية ٠ بيد أن واحدا منهم (وكان كو ين ـ وو معجبا به برغم حقيقة أنه كان معروفا عنه أنه أحد اتباع « وانج يانج ـ منج») تجرأ وعبر بآراء أكثر تحررا حتى لقب بعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان ، بأنه ثورى قديم ٠

وكان هذا العالم هو « هوانج تسونج ـ هسى Huang Tsung-hsi » (١٦١٠ ـ ٩٥) ، وكان ابنا لموظف من موظفى أسرة منج ، تجرأ وتحدى جماعة الخصيان الفاسدة التى تسلطت على البلاط ، ولهذا السبب نفذ حكم الاعدام فى أبيه عندما كان هو (ابنه) في السادسة عشرة من عمره ٠ وبعد ذلك بسنتين توجه «هوانج تسونج ـ هسى» الى العاصمة وانتقم بنفسه لاغتيال أبيه(١٠) وقد أسهمت هذه الخبرات القديمة بلا شك فى الحط من قدر النظام الملكى الذى كان قائما فى زمانه ٠ وبرغم ذلك ، فبعد أن غزا « مانتشوس » الصين قاد جيوشا وتقلد منصبا خلال المحاولات اليائسة لانقاذ أسرةمنج ٠ وما أن تأسست أسرة مانتشو حتى لجأ

---

(٩) كو ين ـ وو : « تنج ـ لن هسين شنج الاول شو هوى تشى ، وين تشى » ٣/١ أ ـ ٢ ب وقد ترجمت هذه الفقرة بصورة مختلفة نوعا ما عن الترجمة التى قدمتها فى الكتاب الذى أصدره Freeman وعنوانه : « نقد أسرة تشنج لفلسفة سونج السياسية » ص ص ٨٩ ـ ٩٠ ٠

(١٠) هوميل Hummel : « مشاهير الصينيين فى عهد أسرة تشنج » ص ص ٣٥١ ـ ٥٫٢ ، تشيانج واى تشياو : «تشن سان باى نين تشونج كوتشيه هسيه شيه » ص ٢٣.

الى حياة الدراسة والكتابة والتعليم وقاوم كافة المحاولات لتقليده منصبا ٠

وقد تضمن كتاب ألفه « هوانج » فى سنة ١٦٦٢ ، مقالا بعنوان « عن الملكية » ذكر فيه أن الحكام كانوا قديما أناسا غير عاديين ، مستعدين لأن يتخلوا عن رفاهيتهم ويعملوا من أجل مصلحة الشعب ، مثل هؤلاء الحكام كانوا الحكماء فى العصور القديمة ، ولكن الحكام الذين جاءوا بعد ذلك لم يكونوا على نهجهم ، وقد وصفهم « هوانج » فيما يلى :

« لقد اعتبروا أنفسهم موزعين لخيرات العالم وشروره ٠ لقد اعتبروا أن هذا اجراء سليم جدا ويجب أن يحتفظوا لأنفسهم بكل الخيرات بينما يحيلون كافة الشرور على الآخرين ، وحرموا رعاياهم أن يتصرفوا فى أنانية ولكنهم كانوا يطلقون على أنانية الحاكم العظيمة « الصالح العام » ٠ ولقد شعروا فى بادىء الأمر ببعض الخزى من هذا ولكنهم اعتادوا على ذلك تماما بمضى الزمن ٠

«وكانوا يتطلعون الى العالم على أنه ضيعتهم الخاصة الشاسعة يورثونها لأبنائهم ولأحفادهم ليتمتعوا بها الى الأبد ٠٠ وقديما كان ينظر الى الناس على أنهم مضيفون وعلى أن الحاكم مجرد ضيف ، فكان الحاكم يقضى حياته كلها فى العمل من أجل رفاهية الشعب ، ولكن اليوم يعتبر الحاكم هو المضيف بينما الشعب ضيوف على ضعيته ، ولهذا فليس هناك من رقعة واحدة يمكن أن يتمتع فيها الناس بسلام ، ومرد هذا كله الى الحاكم ٠

« وقبل أن يفوز شخص طموح بالعرش ، يكون قد تسبب فى قتل عدد كبير من أفراد الشعب وتقطيع أوصال أسر ، كل هذا من أجل توسيع رقعة ممتلكاته ٠ وفيما يتصل بهذا الأمر فانه لايحس

بأية شفقة ، ويقول : «انني أؤسس ميراثا لورثتي » وبعد أن يفوز بالعرش يسحق عظام نفس أولئك الافراد بالعمل ، ويمزق شمل الأسر ، لكي يشبع بالملذات الداعرة ، وهو يعتبر هذا أمرا سليما تماما ، ويقول : « هذا ما استفيده من ممتلكاتي » ٠

« ولاشك ، بعد ذلك ، أن أكبر نقمة للامبراطورية هو حاكمها! فلو لم يكن هنـــاك حاكم لاستطاع الناس ، اذن ، أن يعملوا وفقا لمصلحتهم الشخصية ٠ كيف يعقل أن قيام ملكية كان يهدف الى فرض ظروف مثل تلك الظروف السائدة اليوم ؟

« وقديما كان الناس يحبون حاكمهم ويعـاونونه ، وكانوا يعدونه أبا لهم ويعتبرونه ممثل السماء ٠ وكان فى الحقيقة كذلك٠ ولكن اليوم يكره الناس حاكمهم ويمقتونه ، ويتطلعون اليه كما لو كان عدوا يسلبهم وهم يدعونه « مجرد شـخص » دون أن يكون له وجه حق فى ولائهم ، وهو فى الحقيقة كذلك » (١١) ٠

وفى تجـــديد الاهتـمام بالمـــاضى الذى كان من خصائص هذه الفترة ، وجه اهتمام خاص الى كنفوشيوس الذى كان يوصف بأنه كان مصلحا عمليا أكثر من كونه شخصـــا مكتفيا بأن يهتم بالكلمات والأفكار فحسب ٠ لقد كتب أحد علماء العصر يقول : « لقد قال كنفوشيوس : يريد النبيل أن يبطىء فى الحديث ولكنه يسرع فى الفعل ٠ انه جم النشاط فى العمل ولكنه حريص فى حديثه » و « النبيل يعمل أولا ويتحدث عما يعمل بعد ذلك » و

---

(١١) هوانج تسونج ـ هسى : «منج اى تاى فانج لو» (اعداد سوبو باى ياو) ١ ب ـ ٢ ب ٠

« النبيل يخجل من أن يدع كلماته تسبق أفعاله » (١٢) ٠

وقــد جعــل « ين يوان Yen Yüan » (*) (١٦٣٥ ــ ١٧٠٤) الممارسة العملية أساس الفلسفة ٠ ولما كان صبيا كان عليه أن يعمل فى الحقول وبعد ذلك كان يعول نفسه بممارسة الطب والتدريس فى مدارس القرى ٠ ولما كان صغير السن جدا كان طالبا متحمسا من طلاب الطاوية ، وبعد ذلك انغمس انغماسا شديدا فى الكنفوشيوسية الحديثة ومارس التأمل الذى جعله سبيلا للاستنارة٠ وفى كهولته بلغ سوء ظنه بهذه الآراء أقصاه وصــار يؤمن بأن الكنفوشيوسية الحديثة قد تأثرت تأثرا عميقا بالبوذية والطاوية ٠

وانتقد « ين يوان » مبدأ تشوهسى الذى كان ينادى بأن كل الأشياء مكونة من مظهرين : ال « لى » أو المبدأ (والذى كان كاملا دائما) وال « تشى » أو المادة (التى قد تكون بعيدة كل البعد عن الكمال) ٠ وقد قال « ين » ان طبيعة الانســان واحدة ولا يمكن تقسيمها الى اثنين : كالعين التى لا يمكن فصلها الى مظهر فعــاله يرى فقط الظواهر السليمة ، ومظهر يرى الظواهر غير الصحيحة ، وكتب :

« يعد تجــويف العين وحدقتها وعدستها مادتها الطبيعية ٠ والابصار الذى يكمن فيها والذى يمكن أن يرى الأشياء هو طبيعــة العين ٠ هل يقولون ان مبدأ هذا الابصار هو ألا ترى شيئا فيما عدا

---

(١٢) هذه المقتبسات من المقتطفات الادبية ٤/٢٤ ، ١/١٤ ، ٢/١٣ ؛ ١٤/٢٩ التى جمعها لوشيه ــ أى (١٦١١ ــ ٧٢) وقد اقتبسها تشيانج واى ــ تشايو فى كتابه «تشن سان باى نين تشونج كوتشى هسيه شيه» ١٢ ٠

(*) وهو معروف أيضا بما عنده من ال hao باســم « ين هسى ــ تشاى Yen Hsi-Chai » ٠

الظواهر السليمة بينما التجويف وحدقة العين ترى الظواهر غير السليمة ؟ أقول ان كلا من مبدأ الرؤيا فى العين وأجزائها الطبيعية رسمتها السماء ٠

« وليست هناك أية أهمية لمحاولة التمييز بين ما هى الطبيعة التى فرضتها السماء وماهى الطبيعة الفيزيائية ٠ ان على المرء أن يقول فقط ان السماء قد وهبت الانسان طبيعة العين ، التى هى الابصار ٠ وما دامت قادرة على أن تبصر ، اذن فطبيعة العين خيرة ٠٠٠ ولكن سواء كان ابصارها حادا أو كليلا ، وسواء كانت ترى على بعد أو لا ترى الا لمسافة قصيرة ، فهذا يتوقف على قوة بصرها أو ضعفها ٠

« ومع ذلك فلا يمكن أن يقال عن هذا أنه شر ، فاذا كانت العين حادة الابصار وترى الأشياء من بعيد فهذا خير بكل تأكيد ، ولكن اذا كانت كليلة الابصار ولا تبصر الا لمسافة قصيرة ، فهـذا لا يزال خيرا برغم أنه ليس أحسن ما فى الأمر ٠ كيف يمكن أن يقال عنه أنه شر ؟ اذا كانت هناك ظواهر غير صحيحة تغرى العين وتحجب ابصارها فثم منـاظر شريرة ، وهنـا لأول مرة يمكن أن تستخدم كلمة « شر » ولكن هل هذا الاغراء خطأ فى طبيعة العين ؟ هل هو خطأ فى جوهرها الطبيعى ؟ لو قلنا انه خطأ فى جوهرهـا الطبيعى فعلينا اذن أن نقول ان طبيعة العين يمكن أن تكون على أكمل وجه فقط لو أن العين نفسها لم يكن لها وجود ! » (١٣) ٠

ولم يكن يملك «ين يوان» شيئا سوى السخرية من المكبين على المطالعة وكان يصف العلماء بأنهم « كانوا يجلسون جلسه توقير

---

(١٣) ين لى تسونج شو : «تسـسون هسـنج» ١/١ ٠ لقد ترجم جزء من هذه الفقرة بصورة مختلفة نوعا ما فى الكتاب الذى أصـدره فريمان وعنـوانه : « نقد أسرة تشنج لفلسفة سونج السياسية » ص ص ١٠٧ – ٨ ٠

في دراستهم ، وكل واحد منهم ضعيف واهن ، يسخر منهم الجنود والفلاحون ـ فهل يليق هذا السلوك بالرجال ؟ (١٤) » لقد أعلن أن قراءة الكتب لا طائل من ورائها ما لم يمارس الانسان ما يتعلمه منها • لقد تساءل هل يستطيع المرء أن يتعلم كيفية العزف على آلة موسيقية عن طريق قراءة كتب لا حصر لها عنها فحسب دون أن يضع يديه على الآلة فعلا ؟ وبنفس الطريقة فان على المرء أن يمارس ما يتعلمه من الدراسات القديمة اذا كانت دراسته تعني شيئا (١٥) •

وقد كتب « ين » : « كان الحكام الحكماء القدامى مثل أمير تشو وكنفوشيوس يقولون بضرورة العمل • وهم جميعا مارسوا عمليا محاولة توجيه الناس الى الطريق القويم في الدنيا •• ولم ترث أسرتا هان وتانج سوى عشر أو خمس هذه الروح النشيطة • ولكن أسرتي تشن Chin (٢٦٥ ـ ٤١٩ الميلادية) وسونج Sung (٩٦٠ ـ ١٢٧٩) أقرتا دون تفكير نظرية « انفراغ the void » البوذية ، ونظرية لاوتزو في « اللاعمل nonaction » ، كما أقرتا أيضا الاجراء الذي اتخذه تشاو وتشنج وتشو (هسي) وشاو (وكلهم كنفوشيوسيون محدثون في عهد أسرة سونج) الذين كانوا يجلسون يتأملون ولا يعملون شيئا سوى الحديث من أفواههم والكتابة بأقلامهم • وباختصار ، لم يعمل أحد من هؤلاء ، فضمرت ملكات الناس وافتقد طريق الحكماء • » (١٦)

وكانت نصيحة « ين » هي مباشرة العمل لعلاج علل العالم •

---

(١٤) ين لي تسونج شو : « تسون هسيه » ٣/٢ أ .

(١٥) المرجع السابق : ٣/٦ ب ـ ١٧ .

(١٦) ين لي تسونج شو : «ين هسي ـ تشاي هسين شنج ين هسنج لو» ٢/٨ ب .

ولقد ذكر أن العلماء الكنفوشيوسيين في عصره يجب أن يعملوا في احدى المهن العملية مثـــل الزراعة أو الطب او الكهانة ، وفي نفس الوقت يتابعون دراستهم (١٧) ، وقال مؤكدا ان « كل عمل العالم الذى ينتظر أداؤه هو من واجبنا نحن الكنفوشيوسيين فاذا لم نبذل ثمن الجهد فمن سيتولى ذلك ؟ فمثلا تطلع الى صنع سيدنا ! » (١٨)

ولقد كان الكنفوشيوسيون بوجه عام يزدرون الجيش منذ أمد طويل ، ولكن « ين يوان » كان يعتبره « أنبل فئة من الناس في العالم » • لقد أكد أن كنفوشيوس سبق أن مارس استخدام الأسلحة مع تلاميذه وأن الشباب في الزمن الماضى قد تعلموا العمل الشريف لحمل السلاح لحماية الوطن (١٩)

وكان « ين » صريحا في تشهيره بالتفاوت بين الغنى والفقر وبالتركيز على تمليك الأراضى لقلة من الأفراد • فلقد كتب : « ان كل الأراضى في العالم يجب أن يتمتع بها الناس كافة في أرجاء العـــالم بصفة عامة ، ولو تمشينا مع رغبات الغنى لأعطيت ملكية عشرة آلاف شخص الى شـــخص واحد لتخفيف جشعه الذى لا يقنع • » وكان العلاج الذى يراه « ين » هو العودة الى نظام « الحقل الجيد well field » الذى سبق أن لاحظنا أنه نادى به منشيوس • ولو طبق هذا النظام عمليا لأدى ذلك الى اعادة توزيع الأرض • (٢٠)

وعلى أساس آرائه الخاصة بتملك الأرض ربما كان هناك

---

(١٧) ين لى تسونج شو : «ين هسى تشاى هسين شنج ين هسنج لو» : ٢/٢٧ ب •

(١٨) ين لى تسونج شو : « تسون هسيه » ٢/١٣ أ •

(١٩) المرجع السابق ، ين لى تسونج شو ، ين هسى ـ تشاى هسين شنج ين هسنج لو ٢/٢٢ ب •

(٢٠) ين لى تسونج شو : «السون ـ تشيه» ١ ـ ٤ •

مجال للقول بأن « ين يوان » كان أول رائد للشيوعية الصينية ، بيد أنه كان يدافع أيضا دفاعا حماسيا عن نظام الاقطاع كما كان قائما في الصين القديمة ، وأعلن أنه قد تنجم مشاكل لا تنتهى من جراء تركه ، وحث بشدة على احيائه • (٢١) ويعتقد الشيوعيون الصينيون ، كما هو معروف جيدا ، أن « الفترة الاقطاعية » فى الصين قد انتقلت الى القرن الذى نعيش فيه ، ويتطلعون الى الاقطاع على أنه عدوهم الرئيسى •

والمعتقد بوجه عام أن تفكير « ين يوان » قد أثر فى « تاى تشــــن Tai Chên » (١٧٢٤ – ٧٧) (*) الذى كان أعظم فيلسوف فى عهد أسرة تشنج • ولقد بدأ تاى حياته فقيراً معدما حتى أنه لم يكن فى استطاعته أن يدرس الا عن طريق استعارة الكتب من جيرانه الذين كانوا أيسر منه حالا •

ويمكن الحكم على ذكائه من حادثة حدثت ، كما تروى ، عندما كان فى العاشرة من عمره • فلقد كان معلمه يشرح كتابا من كتب الدراسات القديمة وهو كتاب « التعاليم العظيمة » عندما سأله تلميذه الصغير فجأة : « كيف لنا أن نعرف أن هذا الكتــاب يحوى كلمات كنفوشيوس التى كان قد سجلها تلميذه «تسنج تزو Tsêng Tzü » ؟ وكيف لنا أن نعرف أنه يضم أفكار تسنج تزو كما أوردها تلاميذه ؟ » فأجابه المعلم : « هذا هو ما يقوله تشو هسى • »

ولما سأل الصبى الصغير : «وفى أى عهد عاش تشو هسى ؟» فكان الجواب : «فى عهد أسرة سونج » فاستمر فى ســؤاله : « ومتى كان يعيش كنفوشيوس وتسنج تزو ؟ » فكان الجواب :

---

(٢١) ين لى تسونج شو : «تسون – تشيه» : ١ أ ، ٧ ب – ٩ ب .

(*) يعرف أيضـــا بما عنده من الـ hao ، باسم «تاى تونج يوان Tai Tung-yüan»

« فى عهد أسرة تشو » فسأل : « وكم سنة تفصل بين أسرة تشو وأسرة سونج ؟ » فكان الجواب : « حوالى ألفى سنة » فخلص الفتى الى أن قال : « فى هذه الحال كيف عرف تشو هسى ؟ » ولم يكن فى استطاعة المعلم أن يجيب ، وكان كل ما فعله هو أن هز رأسه وقال : « ليس هذا بالطفل العادى . » (٢٢)

ومما كان له صادق الدلالة على اهتمامات « تاى تشن » المستقبلة ، أن كتابه الأول ، الذى استكمله عندما كان فى العشرين من عمره ، كان عن الرياضيات ، وكان الثانى تعليقا على القسم التكنولوجى لكتاب من كتب الدراسات القديمة . وقبل نهاية حياته كان قد كتب أو حرر حوالى خمسين كتاباً .

وكان عمله الرسمى باهرا برغم أنه فشل بصورة متكررة فى الاختبار لنيل أسمى الدرجات العلمية . لقد صار واحدا من محررى مكتبة المخطوطات الامبراطورية الضخمة وكانت المخطوطات وقتذاك قد جمعت . وقد كتب الامبراطور «تشن لونج Ch'ien Lung» قصيدة ونشرها امتدح فيها احدى منجزاته العلمية . وفى سن الواحدة والخمسين فشل تاى فى أرقى الاختبارات للمرة السادسة تقريبا ، فاذا بنفس الامبراطور ، يصدر مرسوما خاصا ، يمنحه فيه الدرجة التى فشل فى الفوز بها . وتوفى بعد ذلك بسنتين .

وقد يبدو عجيبا أن رجلا يكرمه امبراطور من أباطرة أسرة مانتشو بصورة خاصة ، يقوم بمهاجمة نفس الأسس الفلسفية لأسرة مانتشو ، ولكن مما كان له دلالته ، أن تاى لم ينجح قط فى الاختبار الذى كان قائما على نفس الأسس الكنفوشيوسية الحديثة التى لم يكن راضيا عنها .

---

(٢٢) توان — يو — تساى : «تاى تونج — يوان هسين شنج نين بو» ١ ب — ٢ أ وترجمت غالبية هذه الفقرة فى الكتاب الذى أصدره فريمان بعنوان : « فلسفة تاى تونج — يوان » ص ص ٥٥ — ٥٦ .

لقد ورث « تاى » تفكير أسلافه من بين مفكرى أسرة تشنج ولكنه طور آراءهم تطويرا كاملا بأسلوب بزهم جميعا • ولقد دحض مذهب الثنائية الذى نادى به تشوهسى دحضا تاما ، كما فعل ين يوان ، بل وذهب الى أبعد مما ذهب اليه، فلم يكن من رأيه أن الـ (لى) « مبدأ الأشياء » ، تهبه السماء • لقد قال أن كل الأشياء مؤلفة من الـ (تشى) ، « الجوهر » • وهذا لا يعنى أنها ليست لها الـ (لى) « المبادىء » بل لها ، ولكن هذه فحسب هى الطريقة التى ترتب فيها جوهرها وتنظمه ، لا كأجزاء من روح كونية cosmic spirit • (٢٣) وليس هناك جسد وروح • « ولما كان للانسان جسد حى فهو لذلك له عقل » (٢٤) •

وبالرغم من أنه كان يطلق على « تاى » أحيانا أنه مادى ، الا أنه لم يحتقر مايعرف بوجه عام بالقيم « الروحية » • لقد كان يؤمن (كما كان يفعل منشيوس) بأن الفضائل تنبع من الميول الغريزية عند كل فرد • وقال « كل الكائنات الحية تعرف جيدا كيف تتعلق بحياتها وتخشى الموت • ولهذا السبب فهى تتحرك تجاه كل ما فيه فائدة وتتحاشى ما هو ضار • وبرغم أن هناك اختلافا فى الذكاء فهم سواسية فى تعلقهم بالحياة وخوفهم من الموت • والاختلاف بين الانسان والحيوان لا وجود له هنا » •

ولا يمكن للانسان أن يقول ان الحيوانات ليست لها فضائل فى صورتها البدائية كما هى الحال بالنسبة للانسان ، ولكن الاختلاف هو فى أن الانسان قد يتوسع فى فضائله الى أقصى حد ويطور معرفته حتى تصل الى مايشبه معرفة الآلهة •

ولقد قال منشيوس : « لو أن المرء رأى طفلا على

---

(٢٣) تاى تشن : «منج تزو تزو آى سو تشنج» ١/١ •

(٢٤) تاى تشن : «يوان شان» ٢ •

وشك السقوط فى بئر ، لأحس على الفور بالفزع والشفقة » (٢٥). ومادام الأمر كذلك ، فواضح أن ماندعوه شفقة وحبا للخير ليسا من الأمور الخارجية الآتية من خارج العقل والقلب ولكنهما جزءان من نفس جوهر القلب ذاته . ومادام كل فرد متعلقـــا بحياته ويخشى على نفسه من الموت ، فهو من أجل ذلك يروعه ويحرك فى نفسه الشفقة الخطر الذى يتعرض له الطفل .

فاذا كان الانسان غير حريص على حياته ولا يخشى على نفسه من الموت ، فكيف يمكن أن يثير هذا المشهد جزعه وشفقته ؟ ونفس الشىء صحيح بالنسبة لتلك الفضائل مثـــل الاحساس بالخزى والذلة ومعرفة الخـير والشر ، ولو أمكن التخلص من الرغبة فى الطعـام والشراب ، والاشـباع الجنسى حتى لا يكون المرء متأثرا بدوافع خارجية ويبقى فى حالة من الطمأنينة الكاملة ، فكيف يمكن أن يكون هناك وجود لشعور الخزى والذلة ومعرفة الخـير والشر ؟

ولقد أصر « تاى » على أن نفس هذا الوضع صحيح بالنسـبة لكافة الفضائل الأخرى ، فهى لا تعتمد على التخلص من الرغبـــات الطبيعية للانسان ودوافعه ، بل على العكس من ذلك ، اذا فهمت فهماً صحيحا ووجهت توجيهـــا سليما لكانت هذه الرغبات والدوافع هى نفس الأســـــاس الذى تنبثق منه الفضـــيلة . ويقـول ان الحكماء القدامى لم يقترفوا خطأ بافتراض أن أساس الفضيلة يجب أن ينشد « خارج الرغبات الطبيعية وأجساد الناس وعقولهم» (٢٦).

---

(٢٥) هنا يقتبس تاى تشن من « منشيوس » ٢ (١) ٦/٣ .

(٢٦) تاى تشن : «منج تزو تزو آى سو تشنج» ٢/٧ب — ١١ أ . وقد ترجمت هذه الفقرة بصورة مختلفة تماما فى الكتاب الذى أصدره فريمان وعنوانه: « فلسفة تاى تونج يوان » ص ص ٥٩ — ٦٠ .

ولو فكرنا فى أن هذا هو ما كتبه عالم صينى فى زمن الثورة الأمريكية ، لوجدنا أنه مماثل بصورة عجيبة للنظرية الغربية فى علم النفس ؛ ففى افتراضاتها الأساسية من المحتمل أنها لم تكن متخلفة أكثر من قرن من الزمان عن أجرأ تقدم فى النظريات السيكولوجية فى أوربا (٢٧) . ومما له دلالته أن « تاى تشن » كان شديد الاهتمام بعلوم مثل الرياضيات والفلك . وككل عالم صينى غيره فى عصره ، كان متأثرا بجانب من العلوم الغربية ، ومع ذلك يبدو أنه ليس هناك دليل على أنه كان متأثرا بالنظرية السيكولوجية الغربية .

والغريب هو فى حقيقة أن الكثير من سيكولوجيته كانت تتضح فى فقرات (مثل تلك التى ورد ذكرها آنفا) فى تعليقه على كتاب « منشيوس » . وكان يبذل جانبا كبيرا من الجهد للوصول الى التعاليم الصحيحة لكل من كنفوشيوس ومنشيوس، وكان يؤمن كغيره من العلماء المتقدمين فى عصره ، بأنها متمشية مع النظرية العلمية التى كانت تتطور سريعا . ومما لاشك فيه أنهم كانوا يبالغون فى هذا الأمر ؛ ولكن ليس هناك شك أيضا فى أن فلسفة كنفوشيوس ومنشيوس كانتا أكثر تمشيا مع العلم الحديث عن الكنفوشيوسية الحديثة التى تطورت تحت تأثير الفكر الهندى .

ووجهة نظر « تاى » فى كثير من الوجوه هى وجهة نظر العالم . وكما أوضح هوشيه : لقد كان مبرزا فى الرياضيات والفلك وكان متأثرا تأثرا عميقا بحقيقة أن الأجرام السماوية تتبع طرقا منتظمة يمكن حسابها ورسمها عن طريق البحث (٢٨) . ولقد

---

(٢٧) دائرة معارف العلوم الاجتماعية ، المجلد ١٢ صص ٥٨٨ ــ ٨٩ .

(٢٨) هوشيه : «تاى تونج ــ بوان تى تشى هسيه» ص ٣٥ .

آمن ، بنفس الطريقة ، بأن المرء يجب أن يعرف العالم عن طريق الدراسة والفحص والتحليل ٠

لقد لعبت هذه النظرية التجريبية فى جـــوهرها (وكان يشاركه فيها بعض علماء عصره) دورا يسيرا فى الفكر الصينى لآلاف السنين ٠ لقد أكد كنفيوشيوس أهمية الدور الذى تلعبـــه الخبرة والمشاهدة كوسيلة يمكن أن يصل بها الفرد الى معرفة الحق والخير ٠ ولكن منشيوس ، على الرغم من توكيده لأهمية الفرد ، قد تحدث ، لفترة من الزمن ، كما لو كانت المعرفة فطرية ٠ وقد مجد منشيوس أيضا سلطة الحكماء ٠ ولما تطورت الكنفوشيوسية أخذ يقل شيئا فشيئا امكان اسهام الفرد فى الاضافة الى ماكان معروفا ، بأية طريقة أساسية ٠ وقد يعلق على الدراسات القديمة ، ولكن عليه ألا يخالفها ٠

ولقد أدخل على الكنفوشيوسية الحديثة معيار جديد للسلطة الثابتة ــ الـ (لى) الكونية أو « المبدأ » ٠ وهـــذا الـ (لى) كان يعد حقيقة مطلقة « وبدون مولد أو فناء » يبقى دائما وبلا تغيير الى الأبد ٠ ولما أقام الكنفوشيوسيون افتراض أن فلسفتهم تتمشى مع الـ (لى) الكونية ، اذن فقد كان واضحا أنه من الحماقة التفكير فى مخالفتها ٠ وجـادل الامبراطور وجميع من يتولون المناصب الرفيعة فى أن رغباتهم وقراراتهـم كانت تساندهـــا الـ (لى) ، المبدأ الـكونى للحق ، ولا استئناف بعدها ٠

ولقد قام « تاى تشن » بهـــجوم عنيف على المفهوم بأكمله فكتب يقول :

« لا ترد هذه الكلمة « لى » غالبا فى ستة كتب من كتب الدراسات القديمة التى تتناول كلمات كنفوشيوس ومنشيوس ،

ولا فى مختلف التسجيلات والكتابات المجموعة ، ومع ذلك نجد اليوم أن أشد الناس حماقة وعنفا ، اذا ما أصدروا قرارا أو عنفوا شخصا ما صار موضوعا لغضبهم ، فانهم لا تعوزهم الوسيلة لان يبرروا موقفهم بأن ينطقوا بعبارة « لى » ·

والسبب فى هذا هو أنه منذ عهد أسرة سونج ظهرت عادة اعتبار الـ « لى » كما لو كانت موضوعا حقيقيا بعثت به السماء وصار ماثلا فى عقلهم · والنتيجة هى أن أولئك الذين كانوا قادرين على أن يفعلوا هذا يعتبرون أن مجرد آرائهم هى الـ « لى » · وتبعا لذلك ، فان أولئك الذين أوتوا قوة ويملكون مزايا النفوذ والمكانة والألسنة الطلقة ، يجدون أن الـ « لى » الى جانبهم فى حين أن الضعفاء والجبناء العاجزين عن الجدال ، تهزمهم نفس الـ « لى » · وا أسفاه ! ··· (٢٩)

وباسم الـ « لى » يأمر السامى الحقير ، ويستخدم المسن والأريستوقراطى نفس الشعار فى اصدار الأوامر الى من هم أصغر سنا أو عامة الشعب · وحتى ولو كانوا على خطأ فهم يصرون على أنهم على صواب · ولكن لو أن الحقير أو الصغير أو أحد الرعاع ، حاول أن يعترض ويزعم أن الـ « لى » فى جانبه ، وان كان على صواب ، لحكم عليه بأنه متمرد ·

وعندما يدين القانون انسانا ، فلايزال هناك من يشعرون بالعطف عليه ، ولكن اذا ماكانت ادانته بالـ « لى » (المبدأ الكونى للعدالة المجردة ذاتها) فمن سيشعر بأى عطف عليه ؟ ··· هل ورد فى الكتب الستة القديمة أو فى كتب كنفوشيوس أو

---

(٢٩) تاى تشن : « منج تزو تزو آى سو تشنج » ١/٤ وقد ترجمت بصورة مختلفة نوعا ما فى الكتاب الذى أصدره فريمان وعنوانه : « فلسفة تاى تونج – يوان » ص ٦٤ »

منشيوس : ذكر بان ال «لى» هى ذلك الشيء الخارجى القائم بذاته مستقلا عن مشاعر الناس ورغباتهم وصمم تصميما قويا لكبح جماحهم ؟ (٣٠) ٠

وعلى شاكلة منشيوس والأطباء النفسيين المحدثين ، كان « تاى تشن » يؤمن بأن رغبات الناس يجب ألا تكبت بل يجب أن تحول الى اتجاه اجتماعى ٠ وكتب يقول :

« يحاول النبيل الكنفوشيوسى فقط أن يجعل الرغبات البشرية متمشية مع الطريق القويم ٠ انه لا جدوى من محاولة التحكم فى نهر بسد طريقه فحسب ، فلو أنك اعترضت طريقه فى الشرق فسينساب من الغرب أو ، أسوأ من ذلك ، قد ينصدع خزانك ويسبب فيضانا لا يمكن التحكم فيه ، وبالمثل ، لو أن فردا حاول أن يتحكم فى نفسه أو يحكم غيره فقط عن طريق كبت الرغبات البشرية ، فقد ينجح فى تهدئتهم مؤقتا ، ولكن لا محالة فى النهاية فى أن الرغبات تتغلب على كافة المحاولات التى ترمى الى كبتها ٠ ليس هذا هو ما يفعله النبيل الكنفوشيوسى ٠ وبدلا من ذلك يركز اهتمامه على الطريق القويم ويكتفى بالسعى فى منع الناس من أن يفعلوا تلك الأشياء التى لا تتمشى ورغبته » (٣١) ٠

ومن رأى « تاى تشن » كما كان من رأى كنفوشيوس ومنشيوس ، أن « الطريق » هو طريق التعاون البشرى من أجل

---

(٣٠) تاى تشن : «منج تزو تزو آى سو تشنج» ١/١٢ وقد ترجمت بصورة مختلفة نوعا ما فى الكتاب الذى أصدره فريمان وعنوانه : « فلسفة تاى تونج ـ يوان» ص ص ٦٣ ـ ٦٤ ٠

(٣١) تاى تشن : «يوان شان» ٢٠ ـ ٢١ وقد ترجمت فى الكتاب الذى أصدره فريمان وعنوانه : «فلسفة تاى تونج ـ يوان» ص ٦٢ ٠

الخير للجميع • وقد قال تاى : « الشخص الخير يرغب فى أن يحيا حياته الخاصة كاملة ، يساعد الأشخاص الآخرين على أن يحيوا حياتهم كاملة » (٣٢) • وقبل أن يباشر الفرد أى اجراء خاص بفرد آخر يجب أن يسأل نفسه فى هدوء : « هل كنت على استعداد لأن أفعل هذا الأمر لنفسى ؟ » وقبل أن يكلف المرء شخصا آخر بأداء عمل يجب أن يسائل نفسه فى هدوء : « ألا أستطيع أنا أن أنجزه ؟ » (٣٣) •

واذا ماطبقت نفس هذه الروح على الحكومة فسيؤدى ذلك بلا شك الى استحالة الحكم الاستبدادى • وقد كتب تاى : « وا أسفاه ! ان أناسى اليوم لا يفكرون • لقد كان طريق الحكماء هو أن يمكنوا كل فرد فى العالم من أن يعبر عن مشاعره ويحقق رغباته • وكنتيجة لذلك كان العالم يحكم حكما سليما » ولكنه أعرب عن أسفه لأن الكنفوشيوسيين المتأخرين قد اتخذوا من فلسفتهم معوقا لاعاقة الروح البشرية وتحطيمها (٣٤) •

ولقد قام تشن بخدمة الامبراطور « تشن لونج » وكان موضع محبته بصورة واضحة وكان هذا الامبراطور بالغ الشدة فى كبت أية ميول تجاه التمرد ، وقد حكم على كثير من الكتب بالاتلاف على هذا الأساس • ويعجب المرء هل قرأ قط أية مقالة من مقالات تاى تشن التى كانت تهاجم الأسس الفلسفية للحكم الاستبدادى •

واذا كان قد قرأها فمن المحتمل أنها لم تزعجه ، وكان هناك سبب بسيط لهذا الازعاج • ومع ذلك ، فانه مهما يكن من أمر

---

(٣٢) تاى تشن : «منج تزو تزو آى سو تشنج» ١/١٠ •

(٣٣) المرجع السابق ١/١ ب – ٢ أ •

(٣٤) تاى تشن : « تاى تونج – يوان تشى » ٩/١٢ ب •

العلماء المستقلين الشـــواذ ، فقد استمرت الجمهرة الكبرى من المثقفين فى تفكر الأفكار المحافظة التى قد تمكنهم من النجاح فى الاختبار الذى لم ينجح تاى تشن قط فى اجتيازه • وعندما صارت مشاكل العالم بالغة الصعوبة ، تحـــول غالبيتهم الى تجريدات الكنفوشيوسية الحديثة ناشدين « مواساة الفلسفة » •

ومن المتناقضات أن النزعة النقدية المتطرفة لعلماء أسرة تشنج كان لها أثرها فى تحويل كثير من أذكى العقول من التفكير فى المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصـــادية الى النقد فى أضيق حدوده •

ومنذ بداية الأسرة كانت هناك حركة قوية نامية موجهة الى الدراسة النقدية للتعليقات الأولى والنصوص القديمة التى قد تعد أساسا لمصدر أقدم ومن ثم أكثر فاعلية من مؤلفات الكنفوشيوسيين المحدثين • وكما سبق أن رأينا : أسهم « كو ين ـ وو » اسهاما كبيرا فى دراسة الصوتيات • وبناء على الأسس التى وضعها عالم متأخر من علماء أسرة منج ، فقد نجح « كو » فى تسجيل النطق القديم الذى ظل مجهولا لمدة طويلة لعدد كبير من الحروف • لقد كان هذا وحده احدى الوسائل التى استخدمها علماء تشنج فى نشاطهم الذى لا يدانيه نشاط فى نقد الأدب القديم ، وفى التشهير بالتزييف ، وفى حل المشكلات القديمة ، بل كانوا فى بعض الحالات يعيدون كتابة النصوص التى كانت مفقودة لمدة طويلة •

وكانت أقـــدم تعليقـــات على الدراسات القـــديمة : تلك التعليقـــات التى ظهرت فى عهـــد أسرة « هان » وكان من المعقول أنه مادام معلقو أسرة هان قد عاشوا فترة أقرب الى الأزمنة التى كتبت فيها كتب الدراسات القديمة ، فمن المؤكد أنهم يفهمونها خيرا من غيرهم • وهكذا فقد اعتبرت التعليقات التى ظهرت فى عهـــد أسرة هان أكثر التعليقات استحقاقا للاعتماد عليها ، ولهذا

السبب فان هذه الطائفة من علماء أسرة تشنج تعرف باسم « مدرسة علماء أسرة هان » •

وكان رجال هذه المدرسة يسخرون من التنميق الأدبي ومن التأمل الميتافيزيقي • لقد اهتموا بالبحث الاستقرائي inductive research • ولم يكن نقد النصوص أمرا جديدا في الصين ، ولكن علماء أسرة تشنج بلغوا به مرحلة جديدة من الامتياز • لقد كتب تشارلزس • جاردنر Charles S. Gardner أن الصينيين ليسوا متخلفين بالمرة عن العلماء الغربيين في مجال تحقيق نقد النصوص أو النقد التمهيدي ، ذلك النظام الذي يهتم بالتوثيق والتثبت وبمعنى النصوص لا بقيمتها التاريخية والانتفاع بها • » (٣٥)

وقد استخدم علماء أسرة تشنج : فقه اللغة ونقد النص و (بدرجة أقل) النقد التاريخي والتضمين وساروا بأبحاثهم قدما الى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك الى تحقيق التاريخ والدراسات القديمة • وكان رجال مدرسة علماء هان قد اهتموا أول ما اهتموا ، برغم ذلك ، باستخدام هذه الأساليب المختلفة في اضعاف الثقة بكتابات الكنفوشيوسيين المحدثين والأسس التي قامت عليها دراساتهم وتحقيق الأعمال التي ترجع الى تاريخ أسرة هان التي كانت تعد أكثرها صحة •

ولقد ورث « تاى تشن » فنون هذه المدرسة واستخدمها في اضافة أعمال هامة الى أدب النقد ، ولكن من رأيه أن هذا لا يكفي • وكما سبق أن أوضح « فانج تشاو ـ ينج Fang Chao-ying ، كان تاى تشن يعتقد « أن هذه الدراسات لم تكن أهدافا في حد ذاتها بل يجب أن تستخدم في تطوير فلسفة جديدة ، يجب أن يكون هدفها اصلاح المجتمع • وفي رأيه أن الاستخدام الأسمى

---

(٣٥) جاردنر : «علم تدوين التاريخ التقليدى الصينى» ص ١٨ •

للدراسات القديمة هو فى الحق الذى تنقله ، ولاضهار هذه الحقائق كان على استعداد لأن يتجاوز تعاليم مدرسة «علماء هان » كما تجاوز أسلافه تعاليم مدرسة « علماء سونج » (٣٦) ٠

وكان تاى تشن فى هذا الأمر يكاد يكون فريدا ٠ ولم تكن آراؤه مفهومة تماما حتى فى عصره ، ولم تعرف أهميته فى تاريخ الفكر الصينى الا حديثـــا فحسب ٠ وقد استسلم معظم رجال « مدرسة علماء هان » لاغراء الدراسة حتى أن اســهامهم ، رغم عظمته ، كان اسهام أولئك المتخصصين الذين يعرفون « أكثر وأكثر عن الأقل فالأقل ٠ »

(٣٦) فانج تشاو ــ ينج فى كتاب هومبل Hummel : : « مشاهير الصينيين فى عهد اسرة تشنج» ص ٦٩٨ ٠

الفصل الثانى عشر

تأثير الغرب

فى المائة سنة التى انقضت بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين تغيرت الصين تغيرا أكثر عمقا مما كانت عليه فى الألفى سنة الماضية • ولقد أثر التحول بدرجات متفاوتة فى النظم السياسية وتكوين المجتمع والحياة الاقتصادية • وكان لابد من تغير نمط التفكير الصينى فى نفس الوقت •

ولقد كانت هذه التغيرات والأسباب المسببة لها كثيرة جدا ومعقدة حتى أنه قد يكون من المســـتحيل على أى فرد أن يحللها كاملا ؛ ومع ذلك فهناك حقيقة أســاسية كانت تفوق ماعداها فى أهميتها ، تعطينا الى حد بعيد مفتاحا للموقف بأسره :

اذ كان الصينيون يعتبرون أنفسهم منذ أمد طويل أكثر الناس ثقافة وأكثرهم أهمية وأنهم فى الحقيقة وحدهم القوم الذين لهـم أهمية على وجه الأرض • وكانوا يعتقدون أن كافة الشعوب الأخرى « همج » ويجب عليها أن تعترف اعترافا صادقا بسيادة الامبراطور الصينى • وكان اتصالهم بالعالم الخارجى اتصالا بسيطا فيما عدا البلدان المجاورة التى كانت تعترف ، بمحض اختيارها ، بسموها الثقــافى ، ولهذا السبب اعتقدوا أن بقية العالم يقدرهم تقديرهم

لأنفسهم ، فلما أرسلت الامبراطورية البريطانية سفراء للتفاوض مع البـــلاط الصيني ، اعتقد معظم الصينيين أنهم قد وفدوا لدفع جزية وليقدموا فروض الطاعة والولاء للامبراطور الصيني • وفجأة تبدل كل هذا وتصدعت أركانه وانهارت صروحه •

وبدأت أمم الغرب الزاحفة ، التى تنشـد التجارة والنفوذ ، تدق أبواب الصين في وقت مبكر ، في القرن السادس عشر ، ولكن كان مآلها الصد ، حتى هزمت الصين فى حربها ضد بريطانيا في سنة ١٨٤٢ ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا صار واضحا غاية الوضوح أن الصين لا يمكن أن تفوز في صراع القوى مع الدول الغربيـــة واضطرت الى أن تتراجع خطوة فخطوة •

وكانت خدماتهـــا الجمركية ومكتب بريدها مزودة ، الى حد كبير ، برجال غربيين ، كما كان يديرها غربيون • وقد اضطرت الصين الى أن تسمح لسفن الدول الغربية بأن تبحر ، فى حرية ، فى مياهها بل وتدمر بعض استحكاماتها الساحلية • ولقد رابطت فرق عسكرية تابعة للشعوب الغربية في عدد من المواقع في الصين على أساس أنها قواعد دائمة ، كما رخصت للدول الغربية بالاضطلاع بأجزاء من الأصقاع فى مختلف أرجاء البلاد • وقد أعلنت بعض الدول ، فى مناطق كاملة فى الصين ، أنها « مناطق نفوذ spheres of interest » لها • ولقد كان التنافس وحده بين الدول الغربية هو الذى حال بينها وبين ضـــم بعض هذه الاصـــقاع بوصـــفها مستعمرات ؛ ولقد تنبىء بصراحة بأن الصين قد « تقسم كما تقسم الشمامة • »

وكان هذا الفقدان للسلطة أمرا سيئا بما فيه الكفاية ولكن فقدان هيبة الصـــين ربما أقلق تفـــكير الصينيين أكثر • وكان الصينيون دائما يعتبرون ثقافتهم أســـمى ثقافة • وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر أقرهم كثير من الأوربيين على هذا ولكن

منذ أن بدا ضعفها واضحا ، صـــار معظم الغربيين يتطلعون الى الصـــين على أنها شعب متأخر بل وشعب بدائى • ولوكان فى استطاعة الصـــينيين أن يهزموا الأجانب ويطردوهم لـــكان فى استطاعتهم أن يتخلصوا من سخريتهم بهم على أنهم مجرد « جهل همجى » ولكن عندما أجبروا على قبول ما أملاه الأشـــخاص الذين كانوا يزدرون كل شىء يعتبرونه مقدسا ، كان لا بد من أن يفعلوا شيئا •

ماذا يمكن عمله ؟ لقد استنزفت هذه المشـــكلة معظم نشاط تفكير الصينيين خلال القرن المـــاضى • وليس عجيبا أن يســـهموا اسهاما بسيطا نسبيا فيما هو جديد فى مجال النظرية الفلسفية الأساسية : فالرجل الذى يحترق منزله لا يجلس وســـط لهب النيران ويؤلف رسالة فى المنطق •

وقد حاول الصينيون أن يقـــابلوا تحدى الغرب بأســـاليب ثلاثة : فقد أصر البعض على أن الأنماط التقليدية الصينية للحياة والفكر أسمى من كل ماسواها وأن الصينيين قد وجدوا أنفسهم فى مشكلة لا لأنهم كانوا محافظين تماما بل لأنهم لم يحافظوا على المثل العليا التقليدية ، اذ لو أنهم حافظوا عليها لكانت الصين بالغة القوة ولتخلصت من مشاكلها • واتبع البعض طريقا أكثر اعتدالا ؛ فبينما كانوا يؤمنون بأن الثقافة الصينية تعد أهم أساس لتطوير الصين ، كانوا يودون تعديلها كى تتمشى مع ظروف العالم الحديث وأن يأخذوا بتلك الفنون الغربية التى ظهرت فائدتها • ومجموعة ثالثة أصرت على أن النمط التقليدى الكامل فى الصـــين للتنظيم السياسى والاجتماعى والاقتصادى لا يتمشى مع عالم اليوم وأن كل أسلوب الحياة والفكر يجب أن يتبدل •

وكان معظم المحافظين من الأشخاص الذين درجوا على الأسلوب

الكلاسيكى فى العهد القديم ولا يعلمون عن العـــالم الخارجى الا القليل ، ولكن معظم من درجوا على معرفة الغرب معرفة جيدة ومرت بهم فترة اعجاب بثقافة الغرب ، ما لبث أن زال وهمهم وساء ظنهم. ومن الأمثلة الطريفة لذلك « ين فو Yen Fu » (١٨٥٤ – ١٩٢١)، فبعد أن درس فى جامعة أدنبرة صـــار رائدا فى ترجمة المؤلفات الفلسفية الغربية الى الصينية : فلقد ترجم كتابا لكل من ت.هـ. هكسلى T.H. Huxley وجون سيتوارت ميل John Stuart Mill وهربرت سبنسر Herbert Spencer وآدم سميث Adam Smith وغيرهم من الذين لعبوا دورا هاما فى ادخال الفـــكر الغـــربى الى الصين ، ومع ذلك فبعد الحرب العالمية الأولى بدأ يفكر ، برغـــم هذا ، أن الصين أحسن منوالا . وكتب يقول :

« لقد فسدت الثقافة الغربية تماما بعد هذه الحرب الأوربية .. قبل ذلك عندما كنت أسمع أن علماء مدرستنا القديمة يقولون أنه سيأتى يوم يمارس فيه كل البشر تعـــاليم كنفوشيوس كنت أظن أن حديثهم هراء ولكننى أجد الآن بعضا من ألمع الرجال فى أوربا وأمريكا يبدو أنهم يقتربون شيئا فشيئا من هذا الرأى .. ويبدو لى أنه فى خلال ثلاثة قرون من التقدم حقق رجال الغـــرب أربعة مبادىء : أن يـــكونوا أنانيين وأن يقتلوا غيرهم وأن يـــكون نصيبهم من الاستقامة قليل وأن يشعروا بالقليل من الخزى . كم هى مختلفة متباينة عن مبادىء كنفوشيوس ومنشيوس كالفرق بين السمـــاء والأرض ، وهى مرســـــومة ليفيد منها كل فرد فى كل مكان (١) .

لقد كانت المبادىء الكنفوشيوسية بلا شك ردا نبيلا على اطلاق

---

(١) هسيه هنج رقم ١٨ (شنغهاى ١٩٢٣) وين يوان ، صص ٦ – ٧ .

النار ولكنها ليست لها فاعليتها • لقد كان مفهوما على نطاق واسع أنه على الرغم من أن كثيرين من الصينيين قد يكرهون الغربيين ومؤلفاتهم ، فلقد كان عليهم أن يتعلموا بعض الفنون الغربية اذا كان عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم • وكان استخدام الأسلحةالنارية مثــلا واضــحا على أن الصينيين قد صنعت لهم بعض الارساليات الجيزويتية مدفعا فى القرن السابع عشر ، كما عرف الصينيون فى وقت مبكر مزايا الرياضيات والعلوم الطبيعية الغربية •

وكان من المعتقد لفترة خــلال القرن التاســع عشر أن قوة الغربيين تعتمد على أسرار ضئيلة من السهل اكتشــافها : مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية والعلوم العسكرية والبحرية واستخدام الآلات • وكان من المسلم به أنه لو استطاع الصينيون أن يضيفوا الى ثقافتهم الرفيعة تمكنهم من هذه الفنون ، لكان فى استطاعتهم أن يظهروا تفوقهم بسرعة • ولقد ترجمت المؤلفات العلمية الغربيــة كما توجه قليل من الصينيين الىالخارج للدراسة ، وبذلت محاولات لتطوير الجيش والأسطول على النسق الغربى وأنشىء القليــل من دور صناعة السفن والترسانات والمصانع ، ومع ذلك كانت النتيجة خيبة رجاء •

وأدرك الصينيون الحكماء ، خاصة ممن سافروا الى الغرب ، أن الأمر ليس بسيطا ،فقد قالوا ان السر الحقيقى فى قوة الــدول الغربية يكمن أكثر ما يكمن فى التضامن بين حكوماتها وشعبها • وقد اعتقد البعض أن هذا كان قائما على أساس من التعليم العــام والعدالة السياسية والتوزيع المتكافىء للسلع الاقتصــادية والنظم الاجتماعية المســتنيرة • وكان هناك حث متزايد على أنه اذا كان للصـــين أن تثبتأمام الغرب فعليها أن تعدل نظمهــا السياسية والاجتماعية والاقتصادية •

ولاشك أن هذا كان حقيقة ، ومهما يــكن اعجاب الانســان

بأساليب الحياة والتفكير التقليديين فى الصـين فانها لم تـكن موضوعة بحيث تستطيع أن تقاوم ضغط الغرب العدوانى ، فقد كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالبناء التقليدى للمجتمع الصينى الذى كان فى قمته الامبراطور وقاعدته الجمهرة الضخمة من عامة الشعب ومعظمهم فلاحون • وبين القمة والقاعدة كان العلماء الموظفون وكانوا يعملون كوسطاء ، مراعين أن كلا من الامبراطور والنـاس يؤدون واجباتهم كما يقره العرف ، بحكم تضلعهم فى الكتب القديمة وبما درسوه فى الفضائل الكنفوشيوسية •

وكان أشد ولاء الفرد وقفـا على أسرته ، التى كانت تؤدى أعمالا كثيرة تقوم بأدائها الحكومة فى الغرب • وقـد تكون الهيئات الأخرى ، مثل القرية أو ربما النقابة لها أهميتها عنده • ولـكن الدولة كانت بعيدة بعدا شاسعا عن الصينى العادى • وفى الأزمنة العادية لم تتدخل الدولة فى حياة الناس ولكنها كانت تعمل عملا هو أقرب الى الحكم بين المجموعات التى قد يدب بينها صراع • لقد كان نفوذ العرف قويا فوق كل فرد : من الامبراطـور الى من هو دونه ، ولكن الصين كانت فى كثير من المظاهر دولة من دول عدم التدخل أو « دعه يعمل laissez-faire » •

كان هذا بناء ولكنه لا يكاد يكون تنظيما • والتنظيم الجدير بأن يطلق عليه هذا الاسم يجب أن يكون شديد الترابط ومع ذلك مرن قادر على أن يعمل فى أسلوب منظم تحت ظروف مختلفة ، ولم تكن للامبراطورية الصينية (فى القرن التاسع عشر والقـرن العشرين على أية حال) هذه الخصائص ، فقد كان الامبراطور من الوجهة النظرية الحاكم المطلق فى حين أن رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى اسـتطاعته أن يطالب بدرجة من الطاعة لأوامره قـد يحسده عليها أحيانا امبراطور الصين • وكبار رجال الدولة والقادة يندر أن يتـحدوا الامبراطور ولـكنهم غالبا ما يفشلون فى تنفيذ

تعليماته ويفسرون ذلك بأنهم عاجزون عن أن يفعلوا ذلك لأسباب غالبا ما تكون واهية • وقد تقع عليهم عقوبات لو كانت تنقصهم المكانة المرموقة ، ولكن فى مثل تلك الحالة كانوا فى العادة يطيعون أوامره •

فى أية منظمة لا يتوقف النفوذ أولا على الفرد بل على المنصب الذى يشغله • وفى الجيش المنظم أنفـــار الجيش يطيعون أوامـــر الجاويش كما يحترم العميد المشير • وفى المصنع يحترم العـــامل الملاحظ كما يحترم نائب الرئيس رئيسه • ومع ذلك ، ففى الصين يتوقف الكثير على الفرد وعلى صداقاته وعلاقات أسرته وهيبته • وأى موظف فى الحكومة أو فى أية شركة من الشركات لا يمكن أن يطرد حتى ولو كان غير كفء ، مادامت علاقاته طيبة بدرجة كافية•

وكان نمط العلاقات الانسانية أكثر تعقيدا عما هو عليه الحال فى الغرب : فنحن نهدف الى تجريد الناس من صفاتهم الانسانية ونجعلهم تروسا فى الآلات ونحركهم كما لو كانوا قطعا على رقعة الشطرنج ، فاذا ما أدوا أعمالهم بما يرضى رؤساءهم فهذا حســن وطيب والا كان التخلص منهم• وفى الصين يحسب حساب السلسلة الكاملة للعلاقات ، بما فى ذلك الحقوق والامتيازات المتعارف عليها ، فاذا ما تعارض قانون البلاد وعادات طائفة من الطوائف فقد تحكم المحاكم أحيانا لمصلحة الطائفة • وحتى أسعار السلع تتم المساومة عليها فى كل مناسبة بين المشترى والبائع ، حتى أن الشخص ذا الشخصية الجذابة وذا الموهبة فى المساومة قد يشـــترى أرخص بكثير من منافسه الذى هو دونه موهبة •

وهذا المجتمع أكثر « انســـانية » من المجتمع الغربى وأقل كفـاءة منه بكثير • وعندما حاربت الجيوش الغربية المنظمة أحسن تنظيم ضد الجيوش الصينية التى كان فيها الضـــباط ينفذون

بمظهر الكنفوشيوسيين الأتقياء • وعندما احتل اليابانيون الجانب الأكبر من الصين مابين سنتى ١٩٣١ و ١٩٤٥ حاولوا احياء مذهب كنفوشيوس ليجعلوا نظام حكمهم أكثر استساغة عند الصينيين • وقد يصعب على أية فلسفة أن تسمو فوق مثل هذه النكبات •

وتستمر الكنفوشيوسية فى تأثيرها تأثيرا عميقا فى كل صينى، سواء أرادها أم لم يردها ، اذ أنها عامل أساسى فى الثقافة التى جعلته بالصورة التى هو عليها • ولكن مما لا شك فيه حقيقة ، كما سبق أن كتب « تشان وينج ـ تست Chan Wing-tset » هو أن المفكرين الصينيين بوجه عام » يجمعون على أن الفلسفة الغربية هى فلسفة الغد ، على النقيض من الكنفوشيوسية التى يعتبرها غالبيتهم فلسفة الماضى » (٦)

ومن سنة ١٩١٧ فصاعدا تأثر المثقفون الصينيون تأثرا عميقا بحركة تعرف باسمين هما : « التيار الجديد New Tide » و « النهضة الصينية Chinese Renaissance » ومن بين من نادوا بها : عالم يعرفه الغرب حق المعرفة وهو « هوشيه » وهو أحد طلبة جون ديوى John Dewey ، وأحد أنصار الفلسفة البراجماتية ، وقد بدأت هذه الحركة باقتراح جرىء هو وجوب كتابة الكتب الصينية والمقالات بلغة التخاطب :

اذ أنه منذ زمن بالغ فى القدم تكاد تكون كل الكتابات الهامة فى الصين مكتوبة بأسلوب أدبى يختلف عن أسلوب التخاطب الى حد ما سواء فيما يتصل بقواعد اللغة أو بالمفردات • ولقد كان المتبع أيضا أن يكتب الأدب الصينى بأسلوب فخم ويشير اشارات غامضة الى الأدب الكلاسيكى حتى كان العلماء وحدهم هم الذين يستطيعون قراءته بل وكانوا يواجهون صعوبات أحيانا • وكانت النتيجة هى أن

---

(٦) تشان وينج تست : « اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة » فى : ماك نير Mac Nair ، الصين ، ص ٣٢٠ •

الكتاب كانوا يهتمون اهتماما أكبر بالكتابة بأسلوب متكلف عن أن يعبروا عن آرائهم بطريقة فعالة • وضد كل هذا قام « هوشيه » وكثير ممن انضموا اليه بشن حرب : لقد أرادوا أن تكتب الصينية كما يتحدث بها وأن تكون واضحة ومؤثرة بقدر ما يستطاع • ولقد حمى وطيس المعركة لفترة ، ولكن الثوار حققوا الجانب الأكبر من هدفهم • واليوم نجد أنه حتى أولئك الذين استمروا فى الكتابة بالأسلوب الأدبى يكتبون بوجه عام بأسلوب بسيط يتميز بالوضوح •

ولم تكن هذه الحركة حركة أدبية فحسب ، بل صارت مركزا التف حوله كثير ممن كانوا يحاربون من أجل الآراء الجديدة ، واصطفوا فى صف قتال • ولم تكن فى الحقيقة « حركة احياء » بمعنى أن أنصارها يستمدون وحيهم الأساسى من اعادة تفسير تراث الصين الثقافى الخاص بها • وبرغم ذلك فقد كانت مثل هذه الاعادة لتفسير التراث تمثل جانبا هاما فى الحركة •

لقد كانت فى بادىء الأمر حركة هدامة الى حد كبير بل لقد بلغ الأمر بأحد الزعماء من حملة لوائها أن بدل اسمه الى ماترجمته بالصينية « السيد المتشكك فى كل ما هو قديم » • وقد انتقلت بسرعة الى ناحية البناء واستخدمت كلا من نتائج النقد للعلماء الصينيين القدامى ومناهج العلم الحديث فى تقييم أدب الماضى والكشوف التى تقدمها حفائر الآثار ، وكنتيجة لذلك عرف العلماء الصينيون خلال القرن العشرين عن الطبيعة الحقة لتاريخهم وتقاليدهم أكثر مما كانوا يعلمونه فى أية حقبة سابقة •

وقد ظل الصينيون يدرسون الدراسات القديمة لألفى سنة ، وخلال الجانب الأكبر من هذه المدة كانت معرفة الدراسات القديمة تعد من أكثر الأساليب توكيدا للتقدم السياسى والمكانة الاجتماعية بل وللرخاء المالى • ولما ألغيت الاختبارات الرسمية للتوظف فى

سنة ١٩٠٥ زال ذلك الحافز العظيم لدراسة الكتب القديمة ٠ وبعد سنة ١٩٢٠ ، عندما طالبت حركة « التيار الجديد » بأن تكتب الكتب الدراسية المقررة فى المدارس الابتدائية والثانوية باللغة الدارجة بدلا من اللغة الأدبية ، لم يكن هذا ليعنى فحسب أن كثيرا من الصينين المثقفين سيلاقون صعوبة كبيرة من الآن فصاعدا فى قراءة الكتب القديمة بل يعنى أيضا أن كثيرا منهم قد يكتشفون أن نسبة كبيرة من كل تراث الصين الأدبى من الصعب فهمه بدرجة تدفعهم الى ألا يتعبوا أنفسهم بقراءته ٠ ولم يكن فى هذا نبذ هين للماضى ٠ لقد كان الهدف هو خلق فراغ ايديولوجى ٠

وبرغم أن المصلحين بوجه عام قد صمموا على المحافظة على القديم ، الا أنهم لم يرغبوا جميعهم ، على الاطلاق ، فى أن يحطموا تراث الصين الثقافى ، فمثلا « صن يات ـ سن » الذى فعل أكثر من غيره للقضاء على الامبراطورية قد أبقى بصورة واضحة على الملامح الصينية فى الدستور الذى اقترحه للجمهورية ، ولقد أكد أن « ما نريده من أوربا هو العلم لا الفلسفة السياسية ، وأما بالنسبة للمبادىء الحقيقية للفلسفة السياسية فالأوربيون فى حاجة الى تعلمها من الصين ٠ » (٧)

وفى ظل ظروف أكثر تشجيعا ، فانه من المحتمل بوجه عام أن تتطور الصين تدريجيا الى شعب له كثير من خصائص الديموقراطية الغربية ومع ذلك يلتزم بالكثير من روح تراثه الثقافى٠ فالديموقراطية نظام من نظم تسوية المنازعات ، و « الطريق الوسط » لتسوية المنازعات قديم العهد فى الصين ٠ والديموقراطية تقدر الحرية وتقدر الفرد وتنكر أية سلطة غير محدودة للدولة وكذا الحال بالنسبة للكنفوشيوسية ٠ والخلفية الانسانية والليبرالية

---

(٧) صن يات ـ سن : «سان من تشو آى ، مبادىء الشعب الثلاثة» ص ٩٨ ٠

الكاملة التى نبعت منها الديموقراطية الغربية تشارك ، بوجه عام ، فى الكثير من خير تقاليد الفكر الصينى ٠

ومع ذلك فالديموقراطية تقدم ، ولا يمــــكن أن تتحقق فى ليلة ٠ ولكى تتطور الصين الى دولة ديموقراطية كاملة فهى فى حاجة الى وقت ، وهو مالم يتحه لهـــا التاريخ ٠ وفى السنوات المحصورة بين ثورة سنة ١٩١٢ ونجـــاح الحزب الوطنى فى سنة ١٩٢٧ ، كانت الحرب الأهلية وتمزق وحدة البلاد دائمين فى قليل أو كثير ٠ وحتى بعــد ذلك ، كان هناك قتال مع الشيوعيين وغــيرهم ، وقد سببت « حادثة منشــوريا » التى حدثت فى سنة ١٩٣١ ، متاعب جديدة ٠ وبعد سنة ١٩٣٧ اشتبكت الصين بصفة مستمرة فى حرب مع اليابان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ٠ وازاء مثل هذه الظروف، قد يكون من الصعب على الديموقراطية الكاملة أن تتطور فى أى بلــد ٠

وتراث الصين الثقافى الذى يتضــــمن على الأقل ثلاثة آلاف سنة من التطور التدريجى هو واحد من أقدم تراث فى العــالم ٠ ويبدو أن ذلك التراث ، ان لم يكن قد انتهى ، فهو على الأقل قد بلغ نقطة التحول الفورى ، مع نفوذ الشيوعيين الصينيين فى سنة ١٩٤٩ ٠ ونظرا لأن الحزب الشــيوعى الصينى لم ينظم الا فى سنة ١٩٢١ فقط ، فلقد كان نجاحه السريع أمرا ملحوظا ٠

وكثيرا ما عزى هذا النجاح قبل كل شىء للانتفاضة الثورية التى قامت بها جماهير الصـــين ردا على الفاقة وعلى الاســـتغلال الاقتصادى ٠ وهذا يتفق مع المذهب الماركسى القـــائل بأن أسباب التغير الاجتماعى والسياسى توجد فقط فى الظروف الاقتصادية ، وهــذا التغير على شاكلة معظم النظرية الماركسية يبالغ فى تبسيط الأمر ، ويهمل جانبا هاما من الحقائق ٠

والطبقة العاملة الصغيرة فى المدينة التى كان عليهــا ، بناء

على المذهب الشـــيوعى ، أن تقود الثورة (٨) ، قـــد خيبت أمل الشيوعيين الصينيين بأن أظهرت ، على وجه العموم ، ميلا ضئيلا جدا تجاه الشيوعية (٩) ، ومع ذلك فقد قام كثير من الفـــلاحين بمساندة الشيوعيين بحماسة ومونوا نسبة كبيرة من رجال الجيوش الصينية الشيوعية • وفى رأيهم أن الدوافع الاقتصادية كانت ذات أهمية كبيرة ، وقد كان طبيعيا أن تلقى برامج تخفيض الايجارات ومصادرة الأراضى الزراعية واعادة توزيعها ــ تأييدا كبيرا •

ومع ذلك لم تكن القيادة والمبادرة فى الثورة الشيوعية الصينية نابعة أصلا من الفلاحين بل من المثقفين (١٠) ، ولم يصـــبح كل المثقفين شيوعيين على الاطلاق • وعلى الرغم من ذلك فقد كان واضحا أن نسبة كبيرة من الطلاب والأساتذة وغيرهم من المثقفين يفضلون الشيوعيين حتى قبل أن يحكموا البلاد •

ولقد كتب روبرت س • نورث Robert C. North سنة ١٩٥١ ، « برغم أن الشيوعيين الصينيين يدعون بأن حزبهم حارس للبروليتاريا ، فلا يعرف عن أى عضو من أعضاء المكتب السياسى أنه قد ظهر من أسرة تنتمى الى الطبقة العاملة ، بل كان على العكس من ذلك يتألف من : أربعة معروف عنهم أنهم حفدة مـلاك أراضى أثرياء ، وعضو سليل أسرة صغار الملاك الرسميين ، وأربعة آباؤهم من ذوى الأملاك الميسورين واثنين نشآ فى أسرتين من أسر الفلاحين البسطاء ، ولا يعرف الأصل الاجتماعى لعضوين • والمستوى التعليمى

(٨) ماوتسي ــ تونج : «لوث جين من تشو تشوان لشنج» ص ١٧ •

(٩) فان در شبرنكل Van der Sprenkel : « الصين الحديثة : ثلاث وجهات نظر» صص ١٠٢ ــ ٢١٠ ، شفارتز Schwartz : « الشـــيوعية الصينية وظهور ماو » صص ٤٨ و ٧٥ و ١٢٩ و ١٩٩ ، القنصلية الأمريكيـة العامة ، هونج كونج «مطبعة مصلحة المساحة بالصين» العدد ٤٤ (٩ يناير سنة ١٩٥١) ص ص ١١ ــ ١٢ •

(١٠) شفارتز : «الشيوعية الصينية وظهور ماو» صص ١٩٨ ــ ٩٩ •

لهؤلاء الأشخاص مستوى راق بوجه عام اذ تخرج تسعة منهم من معاهد عليا » (١١) ويشك فى أن مثل هؤلاء الرجال قد صاروا شيوعيين وحدهم على أمل الكسب الاقتصادى الشخصى · ومع وجود الدافع الاقتصادى فانه من الصعب أن يكون له الدور الكامل·

ولما كان المثقفون قد لعبوا هذا الدور الحيوى فى نجاح الشيوعية فى الصين فان من المهم أن نسأل عن السبب فى أن كثيرا منهم قد أصبحوا أعضاء فى القضية الشيوعية ، وجانب من السبب : اقتصادى بلا شك ؛ وكانت حالة الطبقة المثقفة ميئوس منها ، ولكن هناك جانبا آخر يعد من الأسباب المهمة ، وهو يكمن فى السخط على الديموقراطية الغربية التى كانت قائمة فعلا ، وكان من السهل تضخيم هذا السخط بفضل الدعاية الشيوعية ·

وقد شهر الكنفوشيوسيون من قديم الزمان من عهد كنفوشيوس ومنشيوس ، واستمروا عبر القرون ، بالاستغلال الاقتصادى للجماهير (١٢) · وكان كل من الشعب الصينى وحكومته يتطلعان ، من قديم الزمان ، بارتياب الى تركيز الثروة والسلطة الاقتصادية فى القطاع الخاص · وفى القرن العشرين كان زعماء الصين السياسيون ـ حتى أولئك الذين كانوا أكثر تطلعا الى الغرب ـ يعتبرون بوجه عام أن الملكية الخاصة لمشروعات ضخمة عمل شر وصمموا على أن التحكم فيها يجب أن يظل فى أيدى الحكومة · وبالنسبة لهذه النقطة يلاحظ أن ما ينادى به صن يات ـ سن تشيانج كاى ـ شك **Chiang Kai-shek** وماو تسى ـ تونج **Mao Tsê-tung**، يوضح تشابها يبعث على التعجب (١٣) ·

(١١) نورث : «صفوة الشيوعيين الصينيين» ص ٦٧ .

(١٢) انظر مثلا ، هوان كوان Huan Kuan : « مقالات عن المسلح والحديد » ص ص ٥٦ و ٨٨ .

(١٣) صن يات ــ سن : « سان من تشو اى ، مبادىء الشعب الثلاثة» ص ص ١٥٢ و ١٦٥ و ٢٢٨ ــ ٢٢٩ وماوتسى ـ تونج :«ديموقراطية الصين الحديثة» =

لقد أتيحت لمعظم الصينيين فرصة بسيطة ليشهدوا مزايا المشروعات الخاصة والمنافسة الاقتصادية • ويلاحظ أنه فى مثل هذه المصانع الموجودة فى الصين ، غالبا ماكانت ظروف العمل بالغة السوء • وكان رجال الأعمال الغربيون ، الذين يعملون فى الصين فى ظل امتيازات لا تخضع لظروف البلاد ، كانوا متغطرسين باستمرار وساخرين ، يعيشون على السلب والنهب • وقد سهلت هذه الأمور على الشيوعيين أن يظهروا أن الرأسمالية كما تمارسها الديموقراطيات الغربية ليست شيئا سوى نظام من نظم الاستغلال الاقتصادى الجائر •

وفضلا عن هذا ، فقد ترك قرن شهد غزو الأراضى الصينية والاستقلال : جراحا لا يمكن أن تلتئم بسرعة حتى بعد أن استردت البلاد التزاماتها وألغت الامتيازات الخاصة التى منحتها للأجانب فى الصين • وقد تساءل كثير من الصينيين كيف تستطيع شعوب كانت متهمة باقتراف مثل هذا الظلم ومارست أعمالا وحشية فى حربين عالميتين ، ان تكون لها ثقافة تقدم النمط الكامل للبشرية ؟

لقد أخذ الشيوعيون على أنفسهم وعدا بأن ينتقموا لأخطاء الصين بحرب عالمية تشن نيابة عن الأشخاص المظلومين فى كل مكان ، وهذه الحرب يجب أن تمحو الحكومات « الرأسمالية » من على ظهر الأرض •

وعلى الرغم من ذلك فربما كانت الصين قادرة على أن تغفر للشعوب الغربية أذاها ، ولكنها لا يمكن أن تغفر لها احسانها : اذ أن المتكبر قد يحتمل الاساءة بسهولة بالغة الحدود أكثر من احتمال الاحسان • والصينيون شعب من أشد الشعوب كبرياء • وقد بعثت شعوب الغرب ، وبخاصة الولايات المتحدة ، لعدة

= صص ٣٨٦ – ٣٨٧ ، ٤٣٧ – ٤٤٤ ، ٤٧٨ ، تشانج كاى شك : « مصير الصين» ص ص ٢٩ – ٣٠ •

سنوات ، الى الصين بمبشرين وأطباء ومعلمين وأموال لانشاء مدارس ومستشفيات ، ومعونات لاغاثة المجاعات ومعونات عامة للحكومة والشعب • لقد أقدمت على كل هذه الأمور بروح من الغيرية (*) الخالصة مصحوبة بتوكيد رقيق بسيادتها الذاتية التى يمكن فقط أن تستفز أى كائن حى عادى من الطرف الذى يتلقاها •

وكان يمكن احتمال كل هذا لو كان هناك تقدير كاف لحقيقة أن الصين لها ، في ثقافتها ، شيء يمكن أن يتعلم منه الغرب ، ويمكن أن يفيد منه كتعويض له quid pro quo ؛ ولكن لم يكن لها من هذا الأمر الا القليل • وحتى بعض من هم من أكثر الغربيين « مشايعة للصين » كانوا يقولون للصينيين باستمرار ، كما يقول البالغون للأطفال ، انهم يجب أن « يتمدينوا » أعنى أنهم يجب أن يتخلوا عن أساليبهم التقليدية فى الحكومة وفى القانون وفى الديانة ، وفى ممارساتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وأن ينهجوا نهج الغرب ، وقد قيل لهم بأنهم اذا فعلوا ذلك ولاشيء غيره ، يمكن أن يتلقاهم الغربيون كشركاء فى أسرة الشعوب •

وحقيقة أن كثيرا من الصينيين كانوا هم أنفسهم ناقدين لأساليب الصين ، لم يجعل الصينيين أكثر استساغة وتقبلا لهذا النقد من الأجانب • وقلة منا قد يتقبل من الأجانب نفس النقد لبلادنا الذى سبق أن انتقدناه نحن أنفسنا • ولايتوقع من أناس يحترمون أنفسهم أن يتقبلوا ، شاكرين ، مثل هذا المزج بين الاحسان والتحضر •

(*) الغيرية او محبة الغير altruism تعبير فلسفى ادخله الفيلسوف الفرنسى اوجست كومت Auguste Compte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) ، ومضمون معنى الغيرية : استعدادالناس لخدمة بعضهم بعضا بلا اثرة واستعدادهم للتضحية من اجل الغير ، والغيرية عكسها : الانانية أو الاثرة أو حب الذات (المترجم) •

ولقد كانت النتيجة المنطقية هى قيام الصينيين الشيوعيين بحملة شـــعارها « اكرهوا أمريـــكا hate America » • ويفسر الشيوعيون كل هدية وكل اجراء كريم فيه مســـاعدة موجهة الى الصينيين على أنه جزء من مؤامرة رأســـمالية ضخمة • والمدارس والمستشفيات التى يمولها الغرب تفسر على أنها قرون اســتشعار للأخطبوط الضخم « الرأسمالية الثقافية Cultural Imperialism» المخططة لايقاع الصينيين بين فكى الاستغلال الرأسمالى والامبريالى • وهكذا صار الصينيون ، بضربة بارعة ، فى حل من أى دين بتقدير الجميل ، واستردوا احترامهم الذاتى ، وصاروا فى حالة طيبة • ولم يكن بغريب أن يتقبل كثير من المثقفين هذا التفسير بحماسة •

وفى السعى وراء ضم الصين الى الفلك السوفيتى ، يبدو أن الروس قد اهتموا اهتـــماما بالغا بألا يسيئوا الى الصينيين باتخاذ أسلوب التعالى • وهم فى الحقيقة قد أدانوا بشدة أنماط الصـــين التقليدية فى التنظيم السياسى والاقتصادى • ولكنهم عزوها جميعها الى ما أسموها «الطبقة الاقطاعية الحاكمة» فى الصين التى أكدوا أنها استخدمتها لظلم الناس •

ولم يطلب الروس من الصينيين أن يتخلوا عن ثقافتهم الخاصة ويستبدلوا بها ثقافة روسيا ، بل انهم بدلا من ذلك دعوا الصينيين ليشتركوا مع الروس والشعوب الأخرى فى استخدام ما ادعوا أنه أسلوب جديد للعدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قائم على افتراض المساواة التامة بين كافة الشعوب والأجناس • ومثل هذه الملاحظة ، التى لا تتمشى مع نضال الصين الحديث فحسب بل أيضا مع المبادىء الانسانية والعالمية القديمة التى نادت بها الكنفوشيوسية، لا يمكن أن تفشل فى أن تجد لها صدى فى قلوب الصينيين •

ولقد تأثر صن يات ــ سن ، قرب نهاية مجرى حياته ، تأثرا عميقا بحقيقة أنه اكتشف أن روسيا السوفيتية وحـــدها ، من بين

الدول الغربية ، قد عرضت نفسها لتكون على استعداد للتعـــاون مع الصين على أساس المساواة التامة • ولقد ذكر صن فى كتابه الذائع الشهرة بين الشعب وهو كتاب « مبادىء الشعب الثلاثة » أن روسيا « تهدف الى ردع القوى وتأييد الضعيف وتشجع على قيام العدالة •• انها تهـدف الى تحطيم الامبريالية والرأسمالية السائدة فى العـــالم » وقد وعد بأن يأخذ الصينيون مكانهم بجانب الاتحاد السوفيتى لنستخدم « قوة شعبنا البالغ عدده أربعمـــائة مليون نسمة لمناهضة الجور اللاحق بكافة البشر ؛ هذا هو عملنـــا الذى رسمته لنا السماء » (١٤) •

ولم تعتمد روسيا السوفيتية فى كسب الصين الى جانبها على الدعاية وحدها بل ان أعدادا وفيرة من الروس درسوا باللغة الصينية علوم التاريخ والثقافة وكانوا على استعداد لأن يعملوا فى الصين فى كفاءة مدربة ؛ وقد دعى كثير من الصينيين الى روسيا ودرسوا المبدأ والتكنيك الشيوعى على نفقة الحكومة السوفيتية • والمعتقد أن هناك على الأقل ثمانية من الثلاثة عشر عضوا الذين كانوا يشكلون المكتب السياسى الصينى فى سنة ١٩٥١ قد درسوا فى روسيا (١٥) • وتحت قيادة مثل هؤلاء الأشخاص انتظم الشيوعيون الصينيون فى شبكة ذات خلايا محكمة التنظيم ، هدفهم هو خلق صين شيوعية تكرس نفسها للاطاحة بأى شكل آخر للحكومة • وازاء مثل تلك العمليات المخططة تخطيطا دقيقا ، فان ما تقدمه حكومة الولايات المتحدة من هبة بالملايين من الدولارات ، بأسلوب يكاد يكون منطويا على قلة اكتراث ، لا يمكن أن يحقق الا القليل •

وبالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بأن روسيا السوفيتية واحدة

---

(١٤) صن — يات — سن : «سان من تشو آى ، مبادىء الشعب الثلاثة» ص ص ١٧ ، ٨٧ — ٨٨ •

(١٥) نورث : « صفوة الشيوعيين الصينيين » ص ٦٨ •

من أعظم القوى الامبريالية المعروفة فى العالم وأن رجال الكرملين يميلون الى استعباد الجنس البشرى ، فقد يبــدو أن أولئك المثقفين الصينيين الذين شهدوا فى الشــيوعية أملهم الوحيد فى الاستقلال القومى والحرية الشخصية ، كانوا بالغى السذاجة • ومع ذلك ، يجب أن نذكر أنهم قطعوا شوطا بسيطا فى الوصول الى أى تقدير منصف للمذهب الشيوعى وممارسته • وكان الحزب القــومى والشيوعيون الصينيون أعداء ألداء ، وكان كل منهما يمتدح نفسه ويذم الآخر •

وهناك ظرف آخر ساعد الشيوعيين ، وهو بالأحرى زوال الأمل الكاذب فى الصين ، فى « الديموقراطية » • ولقد توقع كثير من الصينيين ، بعد قيام الجمهورية الصينية ، أن مجرد نظام للأشكال الديموقراطية قد يؤدى الى تغيير عجيب • لقد فشلوا تماما فى ادراك أن اجراءاً واحداً من الاجراءات التربوية الدقيقة يمكن أن يكون فيه الأمل ليؤدى الى ممارسة الصين للديموقراطية • وبعد بضع عشرات من السنين من الديموقراطية « لاسمية » أعلن صن يات ــ سن « أبو جمهورية الصين » أعلن أنه ضاق ذرعا بالحكومة النيابية وأكد أن الأمر لا يمكن أن يؤدى الا الى الفساد(١٦)

وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية واجهت حكومة تشــانج كاى ــ شك القومية مشاكل لم يكن فى استطاعة أية حكومة أن تحلها بنجاح كامل • ولم يعارض أكثر المدافعين عنها حماسة فى أنها كانت دائما تقوم بأحكم اختيار • أما ألد نقادها ــ ويدخــل ضمنهم كثير من المثقفين ــ فكانوا يحكمون عليها على أنها عاجزة وفاسدة ولارجاء فيها • وعندما اتخذ القوميون اجراءات الشرطة التى رؤى أنهــا ضرورية لمنازلة الشيوعية ، شهر النقــاد بالحكم القومى على أنه

(١٦) صن ــ يات ــ سن : «سان من تشو آى ، مبادىء الشعب الثلاثة» ص ٢٧٧ •

حكومة شرطة تقمع بلا هوادة • ولما كان القـوميون يدينون بالكثير من سلطانهم الى تأييد الديموقراطيات الغربية وخاصـــة الولايات المتحدة ، فان هذا الوضع أمكن أن يستغله الشيوعيون فى الدعاية الأكثر فعالية ضد الغرب •

وبعد الحرب العالمية الثانية عكف عدد ضـــخم من الطلاب والمثقفين على البحث عن وسيلة لانقاذ الصين من وضعها الميئوس منه • لقد كانوا على استعداد لأن يزجوا بأنفسهم ، بدافع من حبهم المثالى الى أية حركة يبدو أنها تعد بأن تعيد للوطن كرامته الذاتية واكتفاءه الاقتصادى والكرامة الفردية •

وكان كثير منهم يقدرون فضل الديموقراطية الغربية ، ولكن امكان تطبيقها فى الصين بسرعة كافية لحل المشاكل التى لا تحتمل التأجيل كان بعيدا عن الوضوح • كيف يمكن للمرء أن يعمل على تطبيقها ؟ لقـــد كان من الصعب الوصول الى تعريف للديموقراطية يمكن أن يتفق عليه الغربيون • وليس للديموقراطية برنامج يصلح لدولة مثـل الصين • وفى الحقيقة لم تفكر الديموقراطيات الغربية تفكيرا حقيقيا بالمرة فى مشاكل الصين •

ولكن روسيا السوفيتية كانت تفكر فى هذا الأمر • لقد كانت فى الحزب الشيوعى فرقة من الصينيين صقلهم الزمن وشدت من عزمهم المعركة ، وقفوا على استعداد لا لاقتراح برنامج فحسب بل ليأخذوا على عاتقهم تنفيذه • كانوا بعيـــدين عن التشكك ، لهم تعريفات محكمة وتعاليم دينية ومخططات للعمل • وهم لم يكونوا على علم بما يفعلونه هم أنفسهم فحسب ، بل كانوا أيضـــا على استعداد لأن يسندوا الى كل شخص آخر دوره فى العمل المشترك • وكان الدور الذى اقترحته الشـيوعية على المثقفين دورا هاما ، وكما كتب بنيامين شفارتز Benjamin Schwartz : « كان الدور الذى أسند الى الطبقة المثقفة دور القيادة العلمانية فى جو زاد عبـؤه

من أعظم القوى الامبريالية المعروفة فى العالم وأن رجال الكرملين يميلون الى استعباد الجنس البشرى ، فقد يبـــدو أن أولئك المثقفين الصينيين الذين شهدوا فى الشـــيوعية أملهم الوحيد فى الاستقلال القومى والحرية الشخصية ، كانوا بالغى السذاجة • ومع ذلك ، يجب أن نذكر أنهم قطعوا شوطا بسيطا فى الوصول الى أى تقدير منصف للمذهب الشيوعى وممارسته • وكان الحزب القـــومى والشيوعيون الصينيون أعداء ألداء ، وكان كل منهما يمتدح نفسه ويذم الآخر •

وهناك ظرف آخر ساعد الشيوعيين ، وهو بالأحرى زوال الأمل الكاذب فى الصين ، فى « الديموقراطية » • ولقد توقع كثير من الصينيين ، بعد قيام الجمهورية الصينية ، أن مجرد نظام للأشـكال الديموقراطية قد يؤدى الى تغيير عجيب • لقد فشلوا تماما فى ادراك أن اجراءاً واحداً من الاجراءات التربوية الدقيقة يمكن أن يكون فيه الأمل ليؤدى الى ممارسة الصين للديموقراطية • وبعد بضع عشرات من السنين من الديموقراطية « لاسمية » أعلن صن يات ــ ســن « أبو جمهورية الصين » أعلن أنه ضاق ذرعا بالحكومة النيابية وأكد أن الأمر لا يمكن أن يؤدى الا الى الفساد(١٦)

وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية واجهت حكومة تشـــانج كاى ــ شك القومية مشاكل لم يكن فى استطاعة أية حكومة أن تحلها بنجاح كامل • ولم يعارض أكثر المدافعين عنها حماسة فى أنها كانت دائما تقوم بأحكم اختيار • أما ألد نقادها ــ ويدخـــل ضمنهم كثير من المثقفين ــ فكانوا يحكمون عليها على أنها عاجزة وفاسدة ولارجاء فيها • وعندما اتخذ القوميون اجراءات الشرطة التى رؤى أنهـــا ضرورية لمنازلة الشيوعية ، شهر النقـــاد بالحكم القومى على أنه

(١٦) صن ــ يات ــ سن : «سان من تشو آى ، مبادىء الشعب الثلاثة» ص ٢٧٧ •

حكومة شرطة تقمع بلا هوادة . ولما كان القـوميون يدينون بالكثير من سلطانهم الى تأييد الديموقراطيات الغربية وخاصـــة الولايات المتحدة ، فان هذا الوضع أمكن أن يستغله الشيوعيون فى الدعاية الأكثر فعالية ضد الغرب .

وبعد الحرب العالمية الثانية عكف عدد ضـــخم من الطلاب والمثقفين على البحث عن وسيلة لانقاذ الصين من وضعها الميئوس منه . لقد كانوا على استعداد لأن يزجوا بأنفسهم ، بدافع من حبهم المثالى الى أية حركة يبدو أنها تعد بأن تعيد للوطن كرامته الذاتية واكتفاءه الاقتصادى والكرامة الفردية .

وكان كثير منهم يقدرون فضل الديموقراطية الغربية ، ولكن امكان تطبيقها فى الصين بسرعة كافية لحل المشاكل التى لا تحتمل التأجيل كان بعيدا عن الوضوح . كيف يمكن للمرء أن يعمل على تطبيقها ؟ لقـــد كان من الصعب الوصول الى تعريف للديموقراطية يمكن أن يتفق عليه الغربيون . وليس للديموقراطية برنامج يصلح لدولة مثــل الصين . وفى الحقيقة لم تفكر الديموقراطيات الغربية تفكيرا حقيقيا بالمرة فى مشاكل الصين .

ولكن روسيا السوفيتية كانت تفكر فى هذا الأمر . لقد كانت فى الحزب الشيوعى فرقة من الصينيين صقلهم الزمن وشدت من عزمهم المعركة ، وقفوا على استعداد لا لاقتراح برنامج فحسب بل ليأخذوا على عاتقهم تنفيذه . كانوا بعيـــــدين عن التشكك ، لهم تعريفات محكمة وتعاليم دينية ومخططات للعمل . وهم لم يكونوا على علم بما يفعلونه هم أنفسهم فحسب ، بل كانوا أيضـــا على استعداد لأن يسندوا الى كل شخص آخر دوره فى العمل المشترك . وكان الدور الذى اقترحته الشـــيوعية على المثقفين دورا هاما ، وكما كتب بنيامين شفارتز Benjamin Schwartz : « كان الدور الذى أسند الى الطبقة المثقفة دور القيادة العلمانية فى جو زاد عبـــؤه

بالوعد بخلاص قريب • لقــد طلبت من المثقفين أن يتحركوا وأن ينظموا أنفســـهم ثم يقودوا المنظمـــات التى تكونت على هذه الصورة • » (١٧)

ومن المؤكد أن الشيوعية تطالب الفرد بأن يدمج عزيمته فى عزيمة الحزب ، ولكنه قد يشــارك ، بهذا الاجراء الذى يكاد يكون تكريسا دينيا، فيما يطلق عليه أشجع مجتمع عرفه العالم • وسيكون عليه أن يستسلم لنظام فولاذى وأن يعمل بدون توقف ، وقد يفقد حياته ـ ولكن بطريقة مجيدة ! هذه الدعوة كانت أكثر من أن تكون قريبة من عظات كنفوشيوس لتلاميذه ، تحثهم على أن يتخلوا عن كل شىء ليناهضوا ظلم الشعب وأن يعملوا ، واذا لزم الأمر يموتوا ، من أجل السبيل القويم ، كانت دعوة أكثر من أن تكون شبيهة بأية عظة من العظات الرزينة للديموقراطية الغربية • وليس عجيبا تماما أنها تغلبت على عدد كاف من المثقفين لتلقى بزمام قيادة الصـــين فى أيدى الشيوعيين •

ولمدة قرن من الزمان أحس المفكرون الصينيون أن بلادهم قد أصابها أذى ، وكان بعضهم على استعداد لأن يقــرروا أن ثقافتها دون ثقافة الغرب • وبظهور الشيوعية الصينية تغير هذا الأمر ، لأن كثيرين منهم يؤمنون بأن الحزب الشيوعى « يمثل الجانب الأكثر ذكاء وتقدما فى المجتمع الانسانى المعاصر » وأن « الحزب الشيوعى الصينى من أحسن الأحزاب الشيوعية فى العالم • » (١٨)

لقد بعث الغرب بمبشرين الى الصينيين لتحويلهم الى المسيحية، وبمعلمين لتعليمهم ، وبأموال لتخفيف كروبهم ، ولكن الصـــينيين الشيوعيين اقترحوا الآن أن يقابلوا المعاملة بالمثل • يقول ماوتسى ـ تونج ان العالم الرأسمالى الرجعى ، هو قبل كل شىء ، الذى يشكل

(١٧) شفارتز : « الشيوعية الصينية وظهور ماو » ، ص ٢٢ .

(١٨) ليوشاو ـ تشى : «كيف تصبح شيوعيا صالحا» ، ص ص ٨٢ ـ ٨٣

« عالم الظلمة » ، ويقـــول ان الشيوعيين سيقلبونه ويحولونه الى « عالم من نور لم يكن له وجود من قبل . » (١٩) ولتحقيق هذا ، يستلزم الأمر مزيدا من الصبر . وعلى الرغم من ذلك فقد أعلن أحد ضباط ماو ، أنه حتى أقل فرد موفق من أفراد الجنس البشرى « يمكن على طول النضال الطويل .. أن يتحول الى شيوعى ذى ثقافة عالية . » (٢٠)

وفى الماضى استخدمت الشعوب القوة بصورة متكررة ضـــد الصين . وتحت تهديد المدافع اضطرت الصين الى توقيع اتفاقيات ، واباحة التجارة ، والسماح للأجانب الذين لا ترغب فيهم بأن يعبروا حدودها . ونجد هنا مرة أخرى أن هناك وعدا بأن الأوضاع ستتبدل ، فسيقوم الشيوعيون الصينيون ، فى المستقبل ، كجزء من الحملة الشيوعية العالمية ، باستخدام القوة ضد كل من يعارضون ، فى مختلف أرجاء العالم ، فى « اعادة صياغتهم » الى شيوعيين . ويقول ماوتسى ـ تونج انه « سيتحتم عليهم أن يمروا بمرحلة الجبر قبل أن يدخلوا مرحلة اعادة صياغتهم بمحض ارادتهم . » (٢١)

وأخيرا ، لقد ظلت شعوب الغرب تنظر الى الصين نظرة احتقار مقنع : اذ أنها (أى الصين) لما كانت عاجزة هى نفسها عن أن تحافظ على بيتها منظما ، لذا فقد كان ينظر اليها على أنها كم مهمل فى الشئون الدولية . ولما كان الغربيون يجهلون تاريخ الصين، لذا فقد أبعدوها بدعـــوى أن « الصينيين لا يستطيعون القتال » . لقد نسفت تلك الأسطورة فى ميادين القتال فى كوريا ، وصار التفكير فيما سيقدم عليه الشيوعيون الصينيون بعد ذلك ، يؤرق كل عاصمة كبرى فى العالم ؛ اذ لم تعد الصين كما مهملا .

---

(١٩) ماوتسى ــ تونج : « عن التجربة » ، ص ٢٢ .
(٢٠) ليوشاو ــ تشي : «كيف تصبح شيوعيا صالحا» ، ص ١٠١ .
(٢١) ماوتسى ــ تونج : « عن التجربة » ، ص ٢٣ .

وحتى الصينيون الذين كانوا شديدى المناهضة للشيوعية لم يستطيعوا اخفاء رضاهم عن أن بلدهم يحسن لأول مرة استخدام نفـوذه فى الشئون العالمية الذى لم يتمتع به فى سنوات عديدة • وقد يفضل كثير من الصينيين لو لم يكن اتمام هذا الأمر تحت رعاية الشيوعية ، ولكن مهما كانت الرعاية فهم يجدون أن من الخطـــأ ألا يمتدحوا النتيجة • وهذا الأمر لا يمكن التغاضى عنه لو أننـــا أدركنا السبب فى أن الشيوعيين الصينيين قد كسبوا قدرا كبيرا من الرضا فى مثل هذا الوقت القصير •

ماذا كان تأثير نصر الشيوعيين الصينيين على تفكير الشعب الصينى ؟ قـد نكون شديدى التبكير فى اجابتنا عن هـذا السؤال بدون دقة ، ولكن هناك بعض الحقائق الهـــامة الواضـــحة تمام الوضوح •

فلو أن المرء يمحص مثل هذه التصريحات الرسمية لماوتسى ـ تونج فى « الديموقراطية الحديثة » و « الديكتاتورية الديموقراطية للشعب » فانه يجد أن هناك دليلا بسيطا على أن كاتبها صينى ، اذ أن اطار التفـكير ماركسى ، ويبدو أن نفس الصور النادرة التى لها صلة بالثقافة الصينية قد أضيفت فى حياء لتبعد الكتابات عن أن تكون « أجنبية » تماما • وتقرأ أجزاء مهمة من هذه الأعمـــال كشروح بالصينية للمقالات ذات المستوى الشيوعى •

وكان طبيعيا ألا يتـــأثر الشعب الصينى بوجه عام بسرعة فائقة فى انغماسه فى المذهب الشيوعى كما حدث لماوتسى ، ومع ذلك فقد تأثر الشعب بسرعة قد تكون أبعث على الدهشة فى نظر أى فرد لا يعلم ما كان يجرى فى الصين خلال السنوات الاخيرة • وكان هناك شعار فى جميع أرجاء الصين الشيوعية هو « الثـــورة الثقافية re-education » ، ويقضى أفراد كثيرون ساعات كل يوم ، كما يقضى عدة ملايين بعض الوقت يوميا فى دراسة أعمال ماركس

وماوتسى-تونج Mao Tsê-tung Stalin وستالين Lenin ولينين Engles وانجلز Marx تنظم المصارف والمصانع واتحادات العمل والقرى حلقات دراسية • وتقوم مدارس خاصة باعطاء دروس فى المبادىء ، وتتفاوت مدد الدراسة فيها • ويخضع الأفراد الذين لا يمكن الاعتماد عليهم من الناحية السياسية : لبرنامج تدريس عنيف للمبادىء • ولعله لم يحدث من قبل أن اتخذت أية محاولات قط ، على نطاق واسع ، لتغيير النمط الكامل لتفكير شعب بأكمله بمثل هذه السرعة •

ومن المستحيل أن نعرف الى أى مدى قد تغير نمط تفكيرهم فعلا ، ومع ذلك فهناك دليل على أنه فى مختلف الأساليب النوعية لا يمكن استبعاد التغيرات الناجمة على أنها سطحية • ويتضح هذا المثل الصارخ فيما يتصل بموقف الأبناء ازاء آبائهم :

لقد رأينا أن أهمية الأسرة فى الصين ترجع الى زمن يسبق بدء معرفتنا بالتاريخ الصينى • فمنذ ثلاثة آلاف سنة مضت كان المبدأ القائم فعلا هو أن أول ولاء للطفل موجه الى أبويه ، وهذا المبدأ لازال قائما حتى وقتنا الراهن • وفى الصين التقليدية لا يعقل أن يشهد ولد ضد أبيه أو أمه ، ولو فعل ذلك لكان فى هذا ، فى الحقيقة ، جنحة قانونية •

وهناك تكنيك هام فى الدعاية الشيوعية الصينية وهو « المحاكمة الجماهيرية mass trial » وهو مشهد عام يوجه فيه الاتهام الى فرد أو أفراد على أنهم « أعداء للشعب » يفضح أمرهم من يتعاقب عليهم من المدعين • وفى بعض هذه المحاكمات ، تبلغ المأساة ذروتها ، كما يروى ، عندما يقوم ابن الشخص المتهم بالتشهير بأبيه أو بأمه اعرابا منه عن ولائه للشيوعية • ومما لا شك فيه أن هناك صينيين كثيرين مازالوا يستهجنون مثل هذا السلوك ، ومع ذلك فقد نكون متأكدين من أن قادة الحزب الذين يقومون بترتيب هذه المحاكمات لا يؤمنون بوجه عام بالسلبية التامة لرد الفعل ، على هذا

اللون من التشهير . وليس هناك من شيء يمكن أن يحسن تصوير النجاح الذى أحرزه الشيوعيون أفضل من نجاحهم فى تغيير بعض الأوضاع الأساسية عند الشعب الصينى . وما زالت هناك تأثيرات أكبر من ذلك من المؤكد أنها ستنجم عن التعديل الجذرى لبناء الأسرة والمجتمع الذى سيقوم به نظام « الكميونات communes » .

ومن المؤكد أنه كانت هناك أوضاع تقليدية فى صالح الشيوعيين : فلقد نجح « جورج أ. تيلور George E. Taylor » فى القول بأن الشيوعيين الصينيين « أصلهم من طبقة البيروقراطية الصينية التقليدية الحاكمة » وأن الحزب الشيوعى الصينى يمثل « البيروقراطية بكل تقاليدها من الاحتكار السياسى والاجتماعى والاقتصادى . » (٢٢) ولعله كتب هذا ليضع القضية فى صورة بالغة الأهمية . ولكن لا شك فى أن العرف الضارب فى القدم والذى كان يضع زمام الحكم فى أيدى صفوة الكنفوشيوسيين يجعل الأمر أسهل فى نظر الشعب الصينى لأن يتقبل استمرار سيادة صفوة الشيوعيين ، كاجراء معقول .

ولقد كان كنفوشيوس نفسه واحدا من أشد خصوم العقائديين على ظهر الأرض . ومن ثم فقد كان من التناقض الشديد أن يقدم « مبدأ » ال « لى » الثابت « للكنفوشيوسية المحافظة ، كسابقة تسهل على الصينيين أن يرضوا بما يسميه الشيوعيون : « الحقيقة الدولية للماركسية اللينينية » .

وبرغم كل هذا ، فلقد كان الأشخاص الذين لعبوا أكبر دور فى اقامة الحزب الشيوعى الصينى ، بصراحة ، أعداء للتقاليد الصينية (٢٣) . وتستمر مثل هذه العداوة لتميز موقف كثير من الشيوعيين الصينيين . ويذكر « روبرت باين Robert Payne »

---

(٢٢) تيلور : «نفوذ الشيوعيين الصينيين : من ١٩٤٥ ــ ٥٠» ، ص ١٣

(٢٣) شفارتز : « الشيوعية الصينية وظهور ماو » ، ص ١٢ .

أن تفكير مارتسى ـ تونج كان متأثرا تأثرا شديدا بالكنفوشيوسية ولكنه يقتبس أيضا من كلمات ماو ما يلى : « كنت أكره كنفوشيوس منذ سن الثامنة • » (٢٤) ولقد كتب ماوتسى ـ تونج فى كتابه « الديموقراطية الحديثة » أن « الاهتمام باكبار شأن كنفوشيوس وقراءة الكتب القديمة والدفاع عن نظم اللياقة القديمة لد « لى » والتعليم والفلسفة « جزء من ثقافة الصين شبه الاقطاعية » يجب القضاء عليها • وكتب « ان الصراع بين الثقافتين القديمة والحديثة صراع حتى الموت • » (٢٥)

ومع ذلك فلا يعنى هذا أن ماو والشيوعيين يحاولون أن يفرضوا على الصين نمطا ثقافيا ماركسيا خالصا أو روسيا برمته ؛ اذ أن ماو استبعد هذا الأمر بصورة قاطعة اذ يقول : « فى الماضى قاست الصين كثيرا من جراء تقبلها للآراء الأجنبية لمجرد أنها كانت أجنبية • والشيوعيون الصينيون يجب أن يتذكروا هذا الأمر فى تطبيق الماركسية فى الصين • اننا يجب أن نكون سببا فى اقامة ترابط حقيقى بين الحقيقة العالمية للماركسية والتجربة العملية الخاصة بالثورة الصينية ، وبعد أن نكون قد كشفنا الشكل الماركسى القومى الخاص بنا ، بعد ذلك فقط سيبرهن هذا الشكل على فائدته • » (٢٦)

ولقد قال ماو ان الصين الشيوعية فى تطويرها لثقافتها الجديدة ستتقبل بعض المواد حتى من الثقافة القائمة فى البلاد الرأسمالية خلال فترة الاستنارة • ولكن سيخضع كل شىء لعملية دقيقة من ادراك الفوارق • ويقترح ماو تطبيق نفس الدقة فى الفحص على الثقافة التقليدية للصين ذاتها •

(٢٤) باين : « ماوتسى ـ تونج » ، ص‌ص ٣٠ ـ ٣١ ، ٦٢ •
(٢٥) ماوتسى ـ تونج : « الديموقراطية الحديثة فى الصين » ، ص ٤٨
(٢٦) المرجع السابق : ص ٦١ •

وثقافة الصين يجب أن يكون لها الشكل الخاص بها ، الشكل القومى .. وقد خلقت فترة الاقطـــــاع الطويلة (*) فى تاريخ الصين : الثقافة الباهرة للعصور السالفة . وايضاح الاسلوب الذى تطورت به هذه الثقافة التقليدية وتخليصها من البقية الباقية لها من الاقطاع واستيعاب جوهرها الديموقراطى ، تعتبر خطـــوات ضرورية لتطوير ثقافتنا القومية الحديثة ، وللسمو بثقتنا القومية بأنفسنا . ومع ذلك ، فانه يجب أن يكون هذا التحول انتقاديا . يجب أن نميز بدقة بين تلك المظـــاهر الفاسدة تمـــاما من مظاهر الثقافة القديمة التى كانت مرتبطة بالطبقة الاقطـــاعية الحاكمة ، والثقافة الشعبية الممتازة والتى كانت ديموقراطية وثورية فى قليل أو كثير فى سمتها . (٢٧)

ويرتبط التقليد الثقافى الكامل للصين ارتبـــاطا وثيقـــا بما يطلق عليه الشيوعيون « الطبقة الاقطاعية الحاكمة » . ولو كان على الصينيين أن يطبقوا هذا المعيار فى الاختيار حرفيا ، لكان عليهم أن يتخلوا عن تراثهم الفلسفى بأكمله .

والشيوعيون الصينيون ، أكثر ذكاء ، فهم يحاولون أن يتخلوا عن تراث الصين الثقافى ، وهم فى الحقيقة يستخدمون القدر الكبير منه . ولما كان الصينيون يحبون المسرح ، فقد وجد الشيوعيون فيه وسيلة أكثر فعالية لدعايتهم ؛ وهم لم يكتبوا مسرحيات جديدة

(*) يعتقد الشيوعيون الصينيون أن الصين كانت اقطاعية « أو « شـــبه اقطاعية » خلال المائة سنة الاخيرة) حتى أخذوا هم زمام الحكم . ويعتقد معظم المؤرخين أن الاقطاعية فى الصين قد انتهت قبل بداية العصر المسيحى ، على الرغم من وجود بعض جوانب من تجدد النشاط فى بعض المظاهر الاقطاعية فى بعض فترات لاحقة . وواضـــح ان هـــذا الاختـــلاف نابع من ناحيـــة من اختلاف التعاريف « للاقطاع » .

(٢٧) ماوتسى — تونج : « الديموقراطية الحديثة فى الصين » ، ص ص ٦١ — ٦٢ .

وحسب بل راجعوا و « نقحوا » بعض المسرحيات القـديمة المفضلة لتخدم هذا الغرض (٢٨) • ويقال ان بعض الآداب القديمة قد أعيد تحريرها ، وحتى نتائج الكشوف الأثرية أعيد تفسيرها فى عبارات على ضوء ما يعتقد أنها ترجع الى الصراع الطبقى فى الألف الثانية قبل الميلاد •

وزاد التفكير فى مسألة هل يســـتطيع الماركسيون تحويل الصينيين الى شيوعيين أو يصبغ الصينيون الشيوعيـــة بالصبغة الصينية • وهناك دلالات كثيرة على أنه لو ظلت الصين شـــيوعية فستتم كلتا العمليتين •

ويعتبر « ليو شاو ــ تشى Liu Shao-ch'i » نائب رئيس حكومة بكين : أهم شخصية تهتم بالأمور النظرية بعد ماوتسى ـ تونج فى الحزب الشيوعى الصينى ؛ وهو فى رسالته الطويلة الهـامة عن « كيف تصبح شيوعيا صالحا » يقتبس باستمرار من ماركس ولينين وستالين وغيرهم من الشخصيات الشيوعية المسئولة • وهو يتمشى بأمانة مع الفلسفة الأساسية للشيوعية التى تتصـــارع فى بعض النقاط صراعا حادا مع الأوضاع التقليدية للصين •

وعلى الرغم من ذلك فليس هذا مجرد عمل شيوعى بل عمل شيوعى صينى • ويقـول « ليو » ان الحزب الشيوعى الصينى « من أحسن الأحزاب الشيوعية فى العالم » اذ أنه « مسلح تسليحا قويا بالنظرية الماركسية اللينينية وهو وارث كافة التقاليد الجليلة لكثير من ذوى الفكر والعمل التقدمى الذين أضاءوا صفحات التـــاريخ الصينى • » (٢٩)

---

(٢٨) القنصلية الامريكية العامة فى هونج كونج « مطبعة مصلحة المساحة فى الصين » العدد ١٨ (٢٨ نوفمبر ١٩٥٠) ، ص ١٠ ، العدد ٣٩ (٩ ديسمبر ١٩٥٠) ؛ ص ٣٤ •

(٢٩) ليوشاو ــ تشي : « كيف تصبح شيوعيا صالحا » ، ص ٨٣ •

ويقتبس « ليو » من كنفوشيوس ومنشيوس وغيرهم من فلاسفة الصين القدامى · وهو لا يشهر بهم ، ولكنه بدلا من ذلك ، يستغل مكانتهم فى تأييد حجج الشيوعية · ويتضح بصورة خاصة فى العبارة التالية كيف صيغ المذهب الشيوعى فى قالب قديم ذى طابع صينى : « هناك أولئك الذين يقولون انه لا يمكن ، عن طريق الدراسة والتثقيف الذاتى ، الوصول الى صفات أولئك العباقرة الثوريين أمثال : ماركس وانجلز ولينين وستالين ·· فهم يعتقدون أن ماركس وانجلز ولينين وستالين كائنات بشرية عجيبة الشأن منذ ولادتها ، فهل هذا صحيح ؟ أظن لا · » (٣٠) وهذا يشبه تمام الشبه الجدل فى أيام منشيوس ، حول مشكلة هل الامبراطوران الحكيمان « ياو » و « شون » كائنين روحانيين لهما خصائص قد لا يبلغها أشخاص عاديون (٣١) · ويوضح ليوشاو ــ تشى أنه يعى هذه المناقشة تماما لأنه يكتب تأييدا لوجهة نظره : « يقول منشيوس ان أى شخص ممكن أن يصبح « ياو » أو « شون » ! » (٣٢)

ولم يتخل ليو فى هذا المؤلف عن فلسفة الصين التقليدية ، بل على العكس يشهر بأولئك الذين فشلوا فى احيائها · وينتقد أولئك الذين تظاهروا بتكريم تعاليم كنفوشيوس ، ولكنهم سعوا فى الحقيقة ليستخدموها فقط فى الضغط على الناس وفى تأييد خطة أعمالهم الخاصة · ويكتب : « لا شك أننا نحن أعضاء الحزب الشيوعى لا يمكن أن نأخذ بمثل وجهة النظر هذه فى دراسة مبادىء ماركس ولينين والتعاليم الممتازة والمفيدة التى خلفها لنا حكماء وطننا القدامى · وكما نتكلم ، علينا أن نفعل كذلك ، نحن أمناء وأطهار ؛

---

(٣٠) المرجع السابق : ص ١٥ ·

(٣١) «منشيوس» : ٦ (٢) ٢ ·

(٣٢) ليوشاو ــ تشى : « كيف تصبح شيوعيا صالحا » ، ص ١٦ ·

اننا لا يمكن أن نخدع أنفسنا والشعب أو الرجال القدامى » (٣٣)

ويبدو أن هناك شكا قليلا فى أنه ، بمضى الزمن ، سيعود قدر كبير من العناصر العديدة للتراث الصينى التى كان يطلق عليها أسماء : « الاقطاع » و « الرجعية » ، تدريجيا ، وتحتل مركزا ثابتا. ماذا سيحل بكنفوشيوس ؟ ما زال هذا الأمر غامضا : اذ أن كثيرا من صينيى هذا القرن وكثيرا من الشيوعيين قد أدانوه على أنه العدو الرئيسى للتقدم • ومع ذلك فقد أحس غيرهم احساسا مختلفا • وهناك كتاب طريف فى هذا الخصوص كتبه فى سنة ١٩٤٥ « كو مو ــ جو Kuo Mo-jo » نائب رئيس وزراء سابق فى حكومة بكين • وقد صور « كو » فى هذا المؤلف كنفوشيوس لا على أنه بطل من أبطال حقوق عامة الشعب فحسب بل أيضا حافزا على الثورة المسلحة(٣٤) • ومن ثم فليس من المستحيل على الاطلاق أن ينادى بمعبود الصين القديمة رائدا ، فى التراث الثورى لماركس ولينين وستالين وماوتسى ــ تونج ، وبطلا للصين الحديثة •

---

(٣٣) ليوشاو ــ تشى : « كيف تصبح شيوعيا صالحا » ، ص ص ٢٦ ــ ٢٧ •

(٣٤) كومو ــ جو : « شيه بى بان شو » ، ص ص ٦٣ ــ ٩٢ •

الفصل الثالث عشر

نظرة إلى الماضى

لن يفكر أحد مرة أخرى تفكيرا مطابقا كل المطابقة لتفكير « كنفوشيوس » أو « تشوانج تزو » أو « تشوهسى » ولا لما كان يفعله صينيو سنة ١٩٠٠ (*) ولذلك فلا يمكن أن يتفق أى فرد يعيش فى الوقت الراهن مع كافة آراء أفلاطون ؛ ومع ذلك فمحاورات أفلاطون مازالت لها أهميتها ، ويقال عنها الكثير فى أنها مساعدة ومفيدة فى عصرنا الحديث ، وكذا الحال الى حد كبير فيما يتصل بالفلسفة الصينية .

وعندما قام الصينيون المناهضون للمسيحية بتوجيه اتهام الى المبشرين بأنهم فقئوا أعين الأطفال الصينيين ، كان كل مانستطيع أن نفعله هو أن نبتسم ونهز أكتافنا ، ولكن عندما يكتب « ين فو Yen Fu » أن التقدم الغربى قد بلغ قمته فى

(*) كتب هـ . آرثر شستاينر H. Arthur Steiner فى سنة ١٩٥٠ : « ان سنتين من العلاج بالصدمة الذى قام به « الشيوعيون الصينيون » للنظم التقليدية للمجتمع الصينى ، قد جعل من المستحيل اعادة بناء صور الحياة الصينية التى كانت قائمة قبل سنة ١٩٤٩ » (التقويم التاريخى للاكاديمية الامريكية للعلوم السياسية والاجتماعية ، ٢٢٧/٧) .

تحقيق أربعة أمور : « الأنانية ، وقتل الغير ، وفقدان الاستقامة » وقلة الاحساس بالخجل » ففى كلماته لذع معين ، لا لأننا نوافق على أنه صواب • فليست المبادىء المسيحية وحدها ، بل أيضا قدر كبير من أعمال التضحية الذاتية ، تقرر أنه مخطىء • ومع ذلك ، فعندما ننظر حوالينا لا نستطيع أن نهـــرب من الشعور بالقلق لأن مبادئنا لا تجد تحقيقا كاملا فى حياتنا • وربما يكمن جانب من الصعوبة فى فلسفتنا •

والصينيون الذين يحكمون على ثقافة الغرب حكم الشخص الخارجى الذى ينظر اليهـا بعين المشرح ، يجدهـــا تتميز بصـــورة خاصة بروح العداء والتنافس • ومما لاشك فيه أن هاتين الصفتين يجب أن تتضمنا ، باعتدال ، فى تكوين كل وطن وكل فرد • ولـكنهما عندما يتجاوزان الحد يؤديان الى الشـــجار بين الأفــراد والى التطاحن بين الشعوب •

والميل الى العدوان والتنافس يتضح فى احدى الفضـــائل التى نفخر بها أعظم فخر ، وهى روحنـــــا التوسعية • فالأفراد والاعمال يجب أن يحققوا مزيدا من المال فى هذه السنة عما حققوه فى العام الماضى • والشعوب يجب أن « تصدر أو تموت » وتبحث عن أسواق جديدة وتعمل على توسيع رقعتهـــا باستمرار أو على الأقل مدى نفوذها • ويجب على الامبراطوريات التوسعية (سواء الشخصية أو القومية) أن تلتقى ان عاجلا أوَ آجلا ، ولابد من منح شيء • والنتيجة صراع ، غالبا مانأسف له أكثر من أن نحلل سببه •

« والقناعة » كلمة لا تســمع غالبـــا فى الغرب الحديث ، وتدرج ، من الناحية الفنية ، ضمن الفضائل ، ولكن يبدو أننا فى الحقيقة نعتبرها اثما قاتمـــا جدا حتى أننا نأبى أن ننطق باسمها الآثم • وهناك أساس لهذا ، فالتمادى فيها يصبح كسلا

وبعدا عن المسئولية • ومع ذلك فان غالبية الأطباء النفسيين ، ومهمتهم اصلاح مافسد فى الحياة الحديثة بما فيها من سباق ، من المحتمل أن يتفقوا على الجرعة المناسبة من القناعة التى تكون عقارا ممتازا لغالبيتنا •

لقد ألقى معظم الفلاسفة الصينيين عظات عن فضيلة القناعة وقد مارسها غالبية الصينيين بدرجة عجيبة • وعلى شاكلة الكائنات البشرية الأخرى كانوا أحيانا آثمين نتيجة طمع وشهوة وطموح وصلف ، ولــكن أظهر غالبيتهم قدرة على السعادة غير عادية حتى وسط الفقر والشقاء • لقد كانوا قادرين على أن يجدوا متعة فى أمور يغفلها كثير منا فى الأمور الطريفة المضحكة التى تحدث للناس المحيطين بالمرء أو فى كشف درامى لحيــاة فرد من أفراد أسرة شخص ما ، أو فى طائر أو زهرة أو حتى فى صرير الصرصور ، ولما كانوا يعتقدون أن الغد البعيد لن يأتى ، لذا كانوا يتمتعون بالحياة اليوم • لقد انغمسوا فى تنافس بعضهم مع بعض ولكن بصورة أقل كثيرا من انغماسنا فى تنافس بعضنا مع بعض ، ولكن هذا لا يعنى أنهم قد عاشوا فى حالة ركود ؛ فهناك دائما هدف التفوق على ما أنجزه المرء من قبل ، والعنــاية بتحسين النوع أكثر من العناية بزيادة الكم •

وسيكون من المحتمل أن يقال : ان هذا ما يصــور الحيــاة الصينية التقليدية فى صورة كمالية ، ربما كان الأمر كذلك • لقد وجه الذم الى القناعة بوصفها رذيلة ابتلى بها الشعب الصينى، وجعلت من المستحيل على الصينيين أن يتقدموا وأن يتنافسوا فى العالم الحديث ؛ ربما كان الأمر كذلك • ولكن لو كان الأمر كذلك فليس مرد هذا الى أن القناعة سيئة فى حد ذاتها ، بل لأنهم قد تمادوا فيها ولم يتحكم فيها ذلك الاحساس بالاعتدال والتوازن الذى يكمن فى نفس قلب فلسفة الصين التقليدية •

والتوازن والتعادل هما سمة الصينى الذى نشأ فى تراث ثقافة قومية • وهذا يصدق على الصينى سواء كان عالما درس الكتب القديمة على الطريقة التقليدية أو كان فلاحا أو حمالا شب وبلغ مرحلة الرجولة في جزء من الصين لم تعصف به عواصف « التأثر بالغــرب » وهو يكشف عن نفسه فى توكيد هادىء ليس به شىء من التأكيد يتمشى مع مانسميه « الكبرياء » وفى بشاشة هادئة لا يكدر صفوها شىء • انها صفة يحسدون عليها •

من أين جاءت ؟ ليست من مجرد المبادىء الأخلاقية ، فهى ليست مجرد طريقة تفكير بل طريقة حياة ؛ وهذا الأسلوب فى الحيــاة يرجــع جانب منه الى ممــارسة ال « لى » التى قال بها كنفوشيوس منذ ألفين وخمسمائة سنة واستمر الصينيون فى التثقيف بها فى زمننا هذا •

والـ « لى » (من ناحية) هو اتبــاع نظم مرعية والعمل بقــواعد خاصة فى السلوك • وأكثرنا فى الغرب الحــديث قليلو العناية بمراعاة قواعد خاصة فى السلوك بل نحسب ذلك ضربا من الحماقة (*) • ومما لاشك فيه أنه يمكن التطرف فى ذلك ، كما اعترف كنفوشيوس نفسه ، واتباع قواعد فى السلوك متنوعة ومعقولة تضفى على الحياة اتزانا • فنحن عندما نلعب « التنس » أو « الجولف » ندرك أن الاتزان أمر ضرورى ولكننا نعيش معظم حياتنا سائرين بخطى متعثرة • والنتيجة هى أننا نضر بهضمنا ، وبأجهزتنا العصبية وحتى بانتاجنا • والعادة الصينية التقليدية هى أن تعيش وفق الطريقة الأكثر تنظيما •

وبطبيعة الحال ، يتضمن أخذنا أنفسنا بنظام معين : متاعب ومضايقات أحيانا • لقد ظللت أتعجب لماذا كانت المحاكم تعقد

(*) هذا هو رأى المؤلف ، ونحن نخالفه فيه • (المترجم)

جلساتها دائما فى الصين الامبراطورية عند الفجر ــ فى تلك الساعة الرهيبة التى يستيقظ فيها الناس من فراشهم • وكنت أظن أنه مازال هنـــــاك ماهو أعجب وهو أنه ، حتى فى عهـــد كنفوشيوس عندما كانت تناقش المسائل البالغة الأهمية ، كان من المفروض على من سيشتركون فى المؤتمر ، أن يسهروا الليلة السابقة لعقد المؤتمر بطولها ؛ ويبدو أن هذا لا يعدو الا أن يكون تقليدا دينيا بدائيا • وقد حدث أن أتيحت لى فرصة حضور تقديم قربان فى معبد كنفوشيوس فى بكين •

لقد أقيم الحفل عند الفجر ، وكان على أن أستيقظ من فراشى فى الساعة الثانية صباحا ــ ولكم أن تتصوروا كيف استيقظت فى مثل هذه الساعة • لقد أحسست طوال معظم المسافة الطويلة الى المعبد بالرثاء لنفسى • ومع ذلك فقد انتزعنى التأثر بالموقف وعظمة ما يحيط بى ، انتزعنى تدريجيـــا من نفسى • وكانت السماء شديدة الزرقة ومنيرة بصورة لا يمكن تصديقها • وفى الحقيقة لقد سبق أن مرت المعابد وأشجار الصنوبر أمام عينى فى مناسبات أخرى ولكن الفجر أثار حواسى الى حد أننى اعتقدت حينذاك أننى لم أرها على حقيقتها من قبل ولم أوفها قدرها من التقدير • ورغم أنه قد مضت سنوات عديدة فاننى لا أزال أستطيع رؤية تفاصيل تلك الحفلة بصـــورة أكثر وضـــوحا مما أرى عليه الغرفة التى تحتوينى • اننى أعرف الآن السبب الذى من أجله يعقد الصينيون المحاكم وقت الفجر • ولو كانت مهمتى أن أتمعن فى أمور الدولة لقمت بعمل أحسن بكثير فى ذلك الصباح مما كان فى استطاعتى أن أقوم به على مائدة الغداء ، أو حيثما أكون قد أخذتنى سنة من النوم بعد الظهر •

ومع ذلك فانه ليس من الضرورى أن تستيقظ فى منتصف الليـــــل لكى تنعم بالفـكرة الصينية ، وهى أنه على المرء أن يقترب

من كل عمل فى اطار ذهنى ملائم له • لقد تعلمت ذلك خلال الحرب العالمية الثانية عندما كنت أعمل فى مكتب حكومى فى واشنطون بحى كولومبيا ، فلقد كان يعمل فى مكتب آخر فى نفس المبنى عالم صينى شاب تعلم بالطريقة الكلاسيكية التقليدية ، وكان على معرفة جيدة بالتصوير الصينى • ولكى أخفف من عناء عملى كنت أقوم ببعض الدراسات فى المساء وواجهتنى مشاكل لها صلة بالفن الصينى كانت فوق طاقتى ، ولذا سألت صديقى الصينى هل فى استطاعته أن يأتى الى شقتى ذات مساء ليقدم لى بعض العون ، فوافق مشكورا • ولما كنا نعمل فى نفس المبنى ، فقد اقترحت عليه أن نلتقى عندما ننتهى من عملنا وأن نذهب الى المطعم لتناول العشاء ثم نتوجه الى شقتى •

فقال : « كلا ، أشكرك ، ولكننى أعتقد أن هذه ليست الطريقة المثلى • اننـــا سنناقش فى الفن ، فلنتوجه الى وجهتنا متفرقين ونتناول عشاءنا فى هدوء ، فاذا ما أتيت الى منزلك تستطيع أن تقدم لى فنجانا من الشاى ونستطيع أن نبدأ مناقشتنا بأذهان مهيأة لذلك تمام التهيؤ » •

وكان على صواب تماما •

والفلســفة الصينية لا تقدم الجواب لكل مشـــكلة تواجه الانسان الحديث ولا تستطيع ذلك أية فلسفة لم تبتكر بعد • ولكن الصينيين قد رأوا بعض أمور ــ وهى أمور أغفلناها ــ بوضوح تام ، وما قالوه عن هذه الامور فى الغالب نافع • واذا كانت هذه المقدمة الموجزة قد دفعت بالقارىء الى الرغبة فى دراسة المزيد عن الفكر الصينى فستكون قد حققت الغرض منها • ولقد أضفت قائمة بمؤلفات اقترحتها لمن يريد الاستزادة •

كتب مقترحة لمن يريد الاستزادة

المؤلفات الوارد ذكرها فيما يلي مصنفة طبقا للموضوعات التي تتمشى ، على وجه التقريب ، مع فصول هذا الكتاب . وقد ذكرت المراجع الرئيسية أولا ، ثم اتبعتها بالمؤلفات الثانوية .

مؤلفات عامة

FUNG YU-LAN, A History of Chinese Philosophy. Translated by DERK BODDE. Two Volumes. Princeton, 1952 and 1953.

E.R. HUGHES, Chinese Philosophy in Classical Times, London and New York, 1942.

FUNG YU-LAN, The Spirit of Chinese Philosophy. Translated by E.R. HUGHES, London, 1947.

FUNG YU-LAN, A Short History of Chinese Philosophy. Edited by DERK BODDE. New York, 1948.

Studies in Chinese Thought. Edited by ARTHUR F. WRIGHT. Chicago, 1953.

Chinese Thought and Institutions. Edited by JOHN K. FAIRBANK. Chicago, 1957.

عن كنفوشيوس

The Confucian Analects. Translated by JAMES LEGGE, in «The Chinese Classics», I (2d ed.; Oxford, 1893), 137-354.

The Analects of Confucius. Translated by ARTHUR WALEY. London, 1938.

H.G. CREEL, Confucius, the Man and the Myth. New York, 1949; London, 1951.

عن موتزو

The Ethical and Political Works of Motse. Translated by Y.P. MEI. London, 1929.

Y.P. MEI, Motse, the Neglected Rival of Confucius. London, 1934.

عن منشيوس

The Works of Mencius. Translated by JAMES LEGGE, in «The Chinese Classics», Vol. II (2d ed.; Oxford, 1895).

ARTHUR WALEY, Three Ways of Thought in Ancient China, pp. 115-95. London, 1939.

I.A. RICHARDS, Mencius on the Mind. London, 1932.

عن الطاوية

ARTHUR WALEY, The Way and Its Power. London, 1934. This volume includes both a study of Taoism and, on pp. 141-243, a translation of the Tao Tê Ching.

The Tâo Teh King. (Tao Tê Ching). Translated by JAMES LEGGE, in «Sacred Books of the East», XXXIX (London, 1891), 47-124.

The Writings of Kwang-zze (Chuang Tzu). Translated by JAMES LEGGE, in «Sacred Books of the East», XXXIX (London, 1891), 164-392, and XL (London, 1891), 1-232.

ARTHUR WALEY, Three Ways of Thought in Ancient China, pp. 17-112. London, 1939.

عن هسين تزو

The Works of Hsüntze. Translated by HOMER H. DUBS. London, 1928. «Hsün-tzü on the Rectification of Names», translated by J.J.L. DUYVENDAK, in T'oung Pao, XXIII (Leiden, 1924) 221-54.

HOMER H. DUBS, Hsüntze, the Moulder of Ancient Confucianism. London, 1927.

عن فلسفة المشرعين

The Book of Lord Shang. Translated by J.J.L. DUYVENDAK. LONDON, 1928.

The Complete Works of Han Fei Tzu, Vol. I. Translated by W.K. LIAO. London, 1939.

ARTHUR WALEY, Three Ways of Thought in Ancient China, pp. 199-255. London, 1939.

DERK BODDE, China's First Unifier; a Study of the Ch'in Dynasty as Seen in the Life of Li Ssû. Leiden, 1938.

عن الفكر فى عهد أسرة هان

HU SHIH, «The Establishment of Confucianism as a State Religion during the Han Dynasty», Journal of the North China Branch of the Royal Asiatic Society, LX (Shanghai, 1929), 20-41.

عن البوذية

CLARENCE H. HAMILTON, Buddhism, a Religion of Infinite Compassion : Selections from Buddhist Literature. New York, 1952.

CHARLES ELIOT, Hinduism and Buddhism, an Historical Sketch. London, 1921.

HU SHIH, «Development of Zen Buddhism in China», Chinese Social and Political Science Review, XV (Peiping, 1932), 475-505.

عن الكنفوشيوسية الحديثة

The Philosophy of Human Nature by Chu Hsi. Translated by J. PERCY BRUCE. London, 1922.

The Philosophy of Wang Yang-ming. Translated by FREDERICK GOODRICH HENKE. London and Chicago, 1916.

J. PERCY BRUCE, Chu Hsi and His Masters, an introduction to Chu Hsi and the Sung School of Chinese Philosophy. London, 1923.

SIU-CHI HUANG, Lu Hsiang-Shan, a Twelfth Century Chinese Idealist Philosopher. New Haven, 1944.

عن مناهضة الكنفوشيوسية الحديثة

MANSFIELD FREEMAN, «The Ch'ing Dynasty Criticism of Sung Politico-Philosophy», Journal of the North China Branch of the Royal Asiatic Society, LIX (Shanghai, 1928) 78-110.

MANSFIELD FREEMAN, «The Philosophy of Tai Tung-yüan», Journal of the North China Branch of the Royal Asiatic Society, LXIV (Shanghai, 1933), 50-71.

CHAN WING-TSIT, «Neo-Confucianism», In H.F. MAC NAIR (ed.), China, pp. 254-65. Berkeley and Los Angeles, 1946.

عن تأثير الغرب

CHAN WING-TSIT, «Trends in Contemporary Philosophy.» In H.F. MAC NAIR (ed.), China, pp. 312-30. Berkeley and Los Angeles, 1946.

HU SHIH, The Chinese Renaissance. Chicago, 1934.

عن صن يات ـ سن

SUN YAT-SEN, San Min Chu I, The Three Principles of the People. Translated by FRANK W. PRICE, Shanghai, 1927.

PAUL M.A. LINEBARGER, The Political Doctrines of Sun Yat-sen, Baltimore, 1937.

عن الشيوعية الصينية

MAO TSE-TUNG, On People's Democratic Dictatorship. Translated in OTTO VAN DER SPRENKEL (ed.), New China: Three Views, pp. 180-97. London, 1950.

MAO TSE-TUNG, China's New Democracy. Translator unnamed. New York, 1945.

LIU SHAO-CHI, How To Be a Good Communist. Translator unnamed. Peking, 1951.

Documentary History of Chinese Communism. Edited by CONRAD BRANDT and OTHERS. Cambridge, Mass., 1952.

Annals of the American Academy of Political and Social Science, Vol. 277 (Philadelphia, 1951), Report on China, edited by H. ARTHUR STEINER.

New China : Three Views. Edited by OTTO B. VAN DER SPRENKEL. London, 1950.

BENJAMIN I. SCHWARTZ, Chinese Communism and the Rise of Mao. Cambridge, Mass., 1951.

***

رقم الايداع بدار الكتب ٢٨٣٠/ ١٩٧١



الثمن ٦٠ قرشا

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر